

سندباد مصری

إهداء 2005

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود
القاهرة

حسين فوزي

سندباد مصري

جولات في رحاب التاريخ

« من أرادها بسوء قصمه الله »

كعب الأخبار



دارالمغارف بمطز

١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ه شارع ماسيرو - القاهرة ج.ع.م.

إلى صديقي
الفنان والكاتب الكبير
توفيق الحكيم

فهرست

صفحة

٩

مقدمة

I

الظلام

١٧

الجمعة الحزينة .

٣٠

ينزل الستار .

٤٥

نكتة الفرنسية

٥٧

الباشا والمصرية

٧١

زبانية عتاة .

٩٣

ولدى .

٩٩

مصر والحضارة الغربية

II

الخيط الأبيض والخيط الأسود

١١٣

ألف عام .

١٣٩

صراع القومية المصرية

١٦٥

ثلاث ملكات .

١٦٥

— أم خليل.

١٧٣

— بنت الزمار

١٩١

— الصعيدية

٢٠١

القبط الخامس والعشرون

مقدمة

لا فضل لى فى هذا الكتاب إلا أن رسمت خطته ، ونظمت فصوله تبعاً لانفعالاتى الشخصية بتاريخى بلادى ، وتركيز فكرى فترات طويلة فى أحقاب هذا التاريخ الذى عشت فى طفولتى نهاية حقبة منه . فقد ولدت ومصر إيالة عثمانية ، أو ما كان يعرف فى الدجل السياسى باسم السيادة الاسمية لتركيا على مصر ، وسمعت وأنا حدث خطباء مساجد القاهرة يدعون لسلطان محمد رشاد ، ولعبت الجُمباز فى المدرسة الابتدائية على نداءات لغة لا أعرفها ، قيل إنها التركية ، ثم شهدت تغير الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة الواحدة ، إلى ذات الأهلة الثلاثة بنجومها ، فالعلم الأخضر المثلث النجوم فى هلال واحد ، فراية الجمهورية العربية المتحدة ذات الألوان الثلاثة والنجمين الأخضرين . . كما شاهدت جنود الاحتلال يبدلون أرديتهم الحمراء الفاقعة ، باللباس الكاكى . وكانت أنى تتبين رائحة الجندى البريطانى على بعد خطوات ، ويقول أهلى بأننى فى طفولتى كنت أفزع لمراى أولئك الحمر وجوهاً ولباساً .

أدركت من شئون بلادى ، وبعض أمور العالم ، ما يدركه غلام ، عند إعلان الحرب العالمية الأولى . وعشت فى خضم ثورة ١٩١٩ طالباً ، وراقبت أعقابها بعقل شباب المدارس العليا ، حتى غادرت البلاد عام ١٩٢٥ لأتابع تعليمى ، وغبت عنها خمس سنوات ، عشت أثناءها مع أهل الغرب بعقلية أوربية وقلب مصرى . وعودتنى حياقى العلمية فى مصر والخارج أن لا أصدر حكماً قبل أن أتبين الأمور بكل ملابساتها . وعرفت أن الحقيقة فى مسائل الراى بعيدة المنال ، على العكس من بعض المسائل العلمية التى تقوم على قوانين الطبيعة ، كالبديهيّات الرياضية ، أو المؤسسة على الفحص المباشر وتسجيل الملاحظات . أقول بعض المسائل العلمية ، لأنه حتى العلم لا يقف عند حدود الوصف التشريحي ، والتسجيل الموضوعى ، وإنما يتقدم بخطوات يعمل الاستقراء فيها عملاً كبيراً ، فتجرى على العلم أحكام سرمدية ، لأن العقل يخطئ كما يصيب .

واجتزت الحرب العالمية الثانية في وعى كامل لأهدافها القريبة والبعيدة ، على الرغم من أكاذيب المتحارين ، وصراع المذاهب السياسية التي عرفتها فيما بين الحريين . فقد درجت أيام التحصيل بأوروبا على أن أطلع في صحف المساء رأياً ينقض ما طالعت في صحف الصباح ، فلا أميل يمينة أو يسرة . ودربت نفسي على فهم موضوعي لا بأس به لأهل اليمين وأهل اليسار ، بفضل تلك المتابعة اليومية لصراع الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا . وقد أعدني ذلك ، بعد عودتي إلى بلادي ، للحياة فوق المعترك السياسي ، لا في غماره ، لا سيما أن دوري في الكفاح كان ميدانه العلم وتطبيقاته .

أومن بوطني ، وشعب بلادي ، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة ، ومن التعليم ، ومن الرفاهية الجثمانية والعقلية . لذلك كانت من أسعد اللحظات التاريخية التي عرفتها في حياتي ، لحظة أبلغت تليفونيا من القاهرة ، وأنا في الإسكندرية ، خبر قيام الضباط الأحرار بثورة ٢٣ يولييه ١٩٥٢ ، وأحسست فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً ، صحيحاً لا كاذباً ، قد طلع في أفق التاريخ المصري . وربما كان ذلك الفجر هو الذي أنار لي طريقاً إلى تأليف هذا الكتاب الذي لم يكن في الإمكان كتابته قبل قيام هذه الثورة .

والحق أنني منذ زمان طويل أطمع في وضع كتاب على هامش التاريخ ، أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها ، صورة صادقة لما اختلجت به نفسي منذ تيقظ في الشعور والإدراك ، سواء أمام النيل ، وفوق واديه الحصيب ، أو في عرض البحر مقبلاً من البحر الأحمر ، بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندي ، عابراً قناة السويس إلى بحرنا الأبيض ، أو جوّاباً على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ، أو متنقلاً بين بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو مخترقاً الصحراء إلى الواحات النائية ، أو مختلياً بآثار أجدادي في المتاحف هنا ، وفي الخارج ، أو مرتاداً أطلال بلادي القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ، وآثار العهد القبطي ، والعصور الإسلامية .

أحسست في هذه التجارب بالوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة ، في السراء والبأساء ، الوحدة القوية المتماسكة التي جعلتني أشعر بأنني

ابن أعرق الشعوب طرّاً . تلمست تلك الوحدة فعرفتها في حقيقتها الإنسانية ،
عرفتها في المصري فرداً وشعباً ، مهما تعدد حكماءه ، وتداولته الإحن والأرزاء .

كتابي صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بأننى واحد من آحاده .
لست مؤرخاً ، لا بالفكر ولا بالمهنة ، وإن كنت غير مجرد تماماً من
الإحساس بالتاريخ . اعتمدت فى كتابته على الخلجات الروحية التى أشرت
إليها ، وعلى ما طالعت من كتب الأولين والآخرين فى تاريخ بلادى ، وعلى
القليل الذى عشته من ذلك التاريخ بلحمى ودمى وتفكيرى .

كتبته فى مجبوحة الأدب والفن : حرية فى الفكر ، وتحري فى الأسلوب ،
وتصرف فى نقل النصوص المصرية القديمة التى التزم العلماء فى ترجمتها التزامات
لم أر أن أقيد نفسى بها ، بعد أن لمست المفارقات فى ترجمة النص الواحد ،
ما دمت محتفظاً بالروح والمعنى اللذين تبيينتهما خلال اختلاف المترجمين .

وفى صفحات غير قليلة ، استعرت نصوص المؤرخين المصريين فى القرون
الوسطى ، وفى القرنين الماضيين ، وبخاصة نصوص ابن إياس فيما يتصل بالغزو
العثمانى ، ونصوص الجبرتى فيما يتعلق بالمماليك ، والفرنسيين ، ومحمد على ، منذ
أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر . ولم تخرج بعض الفصول
الأولى من الكتاب عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً درامياً ، مع إحداث تعديلات
طفيفة جداً فى نصوص تلك الحوليات العظيمة .

ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول فى أول مقدمتى بأن لا فضل لى
فى وضع هذا الكتاب ، ولتزعج فى شىء من السخرية بأنفسنا أن دورنا فيه كان
أشبه بدور المخرج السينمائى الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ،
ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يبنيه ، ولا يعمل على أجهزة الإضاءة ،
ولا يمثل ولا يصور . إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن
رجالها ونسائها بين يديه من إمكانات ، ليجمع ذلك فى صورة تتجلى فى ذهنه أولاً .
وقد ينجح فى تنفيذ الصورة الذهنية ، وقد يخيب .

وهذا هو حظى نفسه فى كتابى : أن أكون وفقت ، أو أكون قد أخفقت
فى إخراج الصور الذهنية الوجدانية التى طبعها فى نفسى تاريخ مصر كله ،

كوحدة متكاملة ، أو كما قلت في ثنايا الكتاب ، كرواية كبيرة ذات فصول بطلها الشعب المصرى ، لا كمجموعة قصص منفصلة لكاتب واحد ، أو لكتاب عديدين .

كتابى أدب محض ، أحاسب عليه في حدود الأدب والفن . إلا أن واجبى نحو حقائق التاريخ اقتضانى أن أذيله بمجمل لتاريخ مصر ، أرجو أن يلقى عليه القارئ نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب ، على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع . كما أن واجبى نحو الأمانة فى النقل ، وإرجاع الفضل لذويه — مع تجنب الهوامش — فرض على أن أضع ثبثاً بالكتب التى طالعته إعداداً للكتاب .

ولقد قدرت أن حرية التأليف الأدبى لا تلزمنى بمطالعة « كل » ما كتب فى تاريخ مصر ، ولو كنت مؤرخاً لكان من أوليات واجبى أن أدرسها عن بكرة أبيها ؛ ولعل القارئ غير المختص لا يتصور ما وراء هذه الدراسة من جهد قد يستنفد العمر كله . فالبليوغرافيا الكاملة لتاريخ مصر وحضاراتها ، فى اللغات الحية والميتة ، قد يضيق بها مجلد فى حجم هذا الكتاب . والمؤرخ يعرف حدوده ، فهو ممنوع بحكم الدقة العلمية من أن يحاول مثل هذه المحاولة .

أما الأديب — وقد يقتنع القارئ بحجته أو لا يقتنع ، مادمت أتحمّل وحدى وزر عملى — فقد انتفع انتفاعاً كاملاً بحرية الفن والأدب . وكل ما أرجوه أن لا أكون أسأت كثيراً إلى الحرية التى يمنحها الفكر المطلق .

الإسكندرية من ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ إلى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥
القاهرة من ٨ يناير ١٩٥٩ إلى ١٠ يولية ١٩٥٩
الإسكندرية من ١١ يولية ١٩٥٩ إلى ١١ سبتمبر ١٩٥٩
القاهرة من ١٢ سبتمبر ١٩٥٩ إلى ٤ أكتوبر ١٩٥٩

ملحوظة : خالفت بعض ما انتهى إليه العرف من تسمية آلهة المصريين حور ، أو حوريس ، وأوزير ، وتحت ، وحاتحور ؛ ومن تسمية أسرة اللاجيديين — وصحتها اللاجوسيين ، أبناء لاجوس — البطالمة ، وفضلت العودة إلى الأسماء الأكثر ذيوياً ، مثل : هوروس ، وأوزيريس ، وتوت ، وهاتور ، لأننى إذا قلت أوزير تحم أن أقول « إيز » . كما أنى لا أستطيع أن أقول حور ، وبعض بلادنا ما تزال

تحمل اسم الإله الصقر : سنهور ، سندنهور ، دمنهور ؛ ولا أقول تحوت وحاتور ، وأشهرنا القبطية تحتوي على اسميهما في شهرى « توت » و « هاتور » .

وجمع بطليموس على بطالمة ، صحيح لغة ، ولكن مؤرخى مصر ، وعلى رأسهم شيخهم العظيم تقي الدين المقرئى ، درجوا على صيغة الجمع « بطالسة » ، فأخذت بهذا الجمع حفاظاً على القديم .

وفى استعارق أسلوبى ابن إياس والشيخ عبد الرحمن الجبرقى لم أحاول تصحيحاً لغوياً ، كان أقول « تفرج بالأهرام » بدل « تفرج على الأهرام » ، لا لمجرد المحافظة على أسلوب ذاهب : بل لأن تطور اللغة يلزمتنا هنا بتغيير حرف الجر . فكلمة تفرج ، من فرج وفرج ، تعنى كشف الهم ، وتنصرف إلى الترويح عن النفس . ولكنها تحولت فى الاستعمال إلى معنى « الفرجة » - الكلمة العامية ، لأن الكلمة العربية معناها : كل منفرج بين شيئين ! - وبذلك أضاف استعمالها فى هذا المعنى شيئاً جديداً ، غير كشف الغمة ، وهو : الرؤية والمشاهدة . وهنا فضطر إلى القول « تفرج على » ، لأن تفرج ب تنصرف إلى شيء آخر ، كأن تنفرج بسيجارة ، وتنفرج بلحن موسيقى ، وتنفرج بعشرة طاولة .

وأما تحول إلى العامية فى بعض الألفاظ ، وبعض التراكيب ، فهو مذهب لى قديم ، وضعته موضع الامتحان فى أول كتاب لى ، نشرته سنة ١٩٣٧ ، وهو « سندباد عصرى » وزادتنى الأيام تمسكاً به ، فهو لا يبدو اليوم ناشراً كما كان يبدو منذ نصف وعشرين عاماً ، لأن الجيل الحى من كتاب اليوم أخذ به ، وأبدع فيه .

I

الظلام

الجمعة الحزينة

يتزل الستار

نكتة الفرنساوية

الباشا والمصرية

زبانية عتاة

ولدى

مصر والحضارة الغربية

الجمعة الحزينة

كانت نهاية عام ٩٢٢ من الهجرة يوم جمعة ، وختم أئمة المساجد بمصر والقاهرة خطبهم بهذا الدعاء : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البحرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين . »

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٩٢٣ [١٥١٧ م] ، جلس كاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، في وطاقه بالروضة تجاه المقياس ، يقضى الأسابيع الأخيرة من إقامته بالديار المصرية في لعب الشطرنج مع أبطال اللعبة ، من أمثال النصر محمد بن الوردى ، والشهابى أحمد الإسكندراني .

كانت أيام هناء ورفاهية ، فقد استطاع ابن بايزيد في نصف عام أن يضيف إلى ملك آل عثمان إمبراطورية بالتمام والكمال ، هي تلك الدولة الكبرى التي أقامها المماليك في مصر منذ ثلاثة قرون ، والتي امتدت من اليمن جنوباً ، حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً ، وعلى شاطئ بحر الروم من خليج الإسكندرونة حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أعالي النوبة .

تفرج سليم على الأهرام وتعجب من بنائها ، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية ، وما أظنه غنى بالمسلة ، أو بقصة استراحة يوسف النجار ومريم العذراء وطفلها في ظلال الحميزة الألفية . وسافر إلى الإسكندرية ليأمر بحبس ألفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات وكبار المباشرين والتجار إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين ، حبسهم في أبراج الإسكندرية وخاناتها ، انتظاراً لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية . وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المزينة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة ، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر .

هذه هي الحرب المجزية ، وذلكم كان الغزو الأكبر : أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية ، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة ، حتى ليصبح أقل عسكريه أغنى من أى أمير من أمراء المماليك ، أولئك المتغترسين المنفوخين . إنه ليذكر رسالته إلى كبيرهم السلطان طومان باى : « أما بعد ، فإن الله أوحى إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذو القرنين ، وإنك لملكك تباع وتشترى ، ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ابن ملك إلى عشرين جدياً » .

جلس الخنكار سليم شاه فى وطاقه ، يحيط به رهط من المرد ، مع بعض أمرائه الإنكشارية والإصباحية يتسامرون ويتحارفون ، وقد مدت بين أيديهم الأسمطة يتخاطفونها كالذئاب ، وافتضت برسمهم الدنان ، ثم نصبت لهم شاشة بيضاء فى صدر الإيوان ، وقف خلفها واحد من المخايلين ، بعد أن أطفأ الأنوار ، إلا مصباحاً كبيراً خلف الشاشة ، تلعب عليها ظلال تصاوير من الورق ، ترسم رجة باب زويلة ، تحيط بها أجناد غرباء . ويخرج من البوابة رجل يركب أكديشاً ، وربما جملاً ، ويترجل مرفوع الرأس ، طويل اللحية ، يتسلمه المشاعلية ليضعوا الحبل فى عنقه ، ويشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فينقطع الحبل بالمشنوق ، ويعود المشاعلية إلى وضع الحية مرة أخرى حول عنق الرجل ، وينقطع الحبل مرة ثانية ، وفى الثالثة يتدلى الرجل وتستدير لحيته إلى أعلى ، وتلعب سيقانه فى الهواء هنيهة ، ثم يسكن حراكه . والمحبط يصطحب مخايلته بأزجال وفكاهات يضحك الصبيان المرد من فحشها وسلطانها ، ويضحك العثمانيون دون أن يفهموا حرفاً ، والسلطان منشرح الصدر لهذه المخيلة . فإذا مثل المحبط بين أيديه ، أنعم عليه بثمانين ديناراً ، وبقفطان من الخمل المذهب ، وهو يقول له : « تعال معنا إلى إسطنبول حتى يتفرج ابنى على ذلك . »

بماذا انشرح صدر الخنكار سليم شاه ؟ وعلام الخلعة والدنانير للمخايل السفية الفاحش ؟ وفيما يطلب إليه السفر إلى إسطنبول حتى « يتفرج ابنه على ذلك » ؟ يتفرج على عملية شتى ، والشتى أهون ما تعرفه العثمانية من ضروب الإعدام ؟ علام يتفرج ابن سليم ، وقد جاء قومه إلى مصر بضروب من القصاص والتعذيب فاقت ما جرت به عادة المماليك ، مع ما كان عليه هؤلاء من القسوة والوحشية ،

فأضيف الخازوق بالطريقة الرأسية ، وعلى طريقة شك الباذنجان ، إلى التكليل والتوسيط وتهشيم الرأس بالطبر ، وقطع الرؤوس ونشرها على الحبال ، ورشقها في المدارى والرماح ، أو فوق الأسوار .

طاب سعد السفاح العثماني بمنظر انتصاره على عدوه طومان باي آخر سلاطين المماليك . وكان الأشرف طومان باي عدواً عنيداً ، وصنو مقاومة لا تعرف في الحرب هودة . تركه السلطان قانصوه الغوري نائباً للغيبة ، عندما ذهب إلى شمالي حلب ليلاقى ابن عثمان على مرج دابق ، ويموت هناك بخلط فالج ، وسط عسكره المدحور .

وكان طومان باي في أربعيناته راغباً عن سلطنة مصر ، قبلها بإلحاح العارف بالله الشيخ أبي السعود ، وقد اقتاده إليه ، بتل الجراح عند مصر العتيقة ، مقدمو الألو ، وأمراء الطبليخانات والعشراوات . فأحضر لهم الشيخ المصري مصحفاً يحلفون عليه يمين الإخلاص للدودار طومان باي إذا سلطنوه ، و « ألا يخونوه ولا يغدروه ، وألا يخامروا عليه » . ثم حلفهم ألا يعودوا إلى ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعي ، وأن يبطلوا ما أحدث الغوري من المظالم ، وأن يجرؤا الأمور على ما كانت عليه في أيام الأشرف قايتباي ، « فإن الله تعالى ما كسرهم وأذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، إلا بدعاء الخلق عليكم في البر والبحر » . فقال أمراء الجراكسة : « تبنا إلى الله تعالى عن الظلم من اليوم . »

ويظهر أنهم فسروا توبتهم عن الظلم بأن يتوبوا أيضاً عن الحرب — صنعهم وحرقتهم — حتى لو كان دفاعاً عن رزقهم وإقطاعاتهم ! فهذا الأمير طقطباي حاجب الحجاب يقول ، إذ يأمره الأشرف طومان باي بالسفر لقتال ابن عثمان : « أنا عزمتم على السفر إلى البحيرة ، وقد جعلتني متحدثاً في كشوفيتها » ويرد عليه السلطان : « الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج إلى البحيرة » .

وعندما يطلب السلطان إلى الآخرين الخروج لملاقاة ابن عثمان ، وينفق عليهم — لكل مملوك — ثلاثين ديناراً ، وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً ، يرمون بتلك النفقة في وجهه ويقولون : « لا نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك ! » . ويصيح السلطان حانقاً : « هذا ابن أستاذكم سيدي محمد ابن السلطان الغوري ، أسأله

هل ترك أبوه شيئاً من المال ؟ ولقد أخذتم من الأشرف قانصوه الغورى ثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً ، وكسرتم السلطان وختمتموه حتى قتل . اسمعوا ! إني نازل عن السلطنة ، ومتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد ، فولوا من تختارونه . »
ويرد المماليك الذين ربوا على الحرب ، والذين يطالبهم السلطان بالقتال دفاعاً عن بلادهم ورزقهم وإقطاعهم : « إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وإن رحت فلعنة الله عليك ، وغيرك يجيء ويعمل سلطاناً . »

أولئك هم المماليك الذين حلفوا بين يدي العارف بالله أبي السعود الجارحي يمين الولاء والإخلاص لسلطانهم ، والذين تابوا إلى الله تعالى !
وتقوم ضجة كبيرة في الرميّة ، فيشاع أن عسكر ابن عثمان وصلوا إلى قرب المطرية ، فيصرخ السلطان : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ، وأنتم لا ترضون أن تسافروا ! . »

ثم تكذب الإشاعة ، إنما الصحيح أن ابن عثمان زاحف على مصر ، وأنه بلغ قطيا ، ودخل الشرقية ، واقترب من بركة الحاج ومعسكر الريدانية . فيرضى الأمراء بتفرقة خمسة وعشرين ديناراً للمملوك ، وثمن الأضحية على العادة ، فنحن في شهر ذي الحجة . . .

* * *

ماذا تنتظر من هؤلاء الأجناد المرتزقة ، لا يعرفون حرمة لمصر ، ولا لأى بلد آخر ، ولا قرابة تجمعهم أكثر من أن يكونوا قرانصة ، أو من جلبان أستاذهم السلطان ، جمعهم الياسرجى الذى باعهم في « دكة المماليك » بالقرب من باب زويلة ؟
ما أشبههم بالمغاربة الذين استدعاهم السلطان إلى القلعة ، وطالبهم أن يجندوا من بينهم ألف إنسان يخرجون في التجريدة لملاقاة ابن عثمان ، وإذا بهم يرفضون بحجة أنهم لا يقاتلون إلا الإفرنج ، وأنهم لا يقاتلون مسلمين ، ويضيفون « ونحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر . »

هذه عدة مصر لملاقاة السلطان العثماني ، وعساكره كالجراد المنتشر ، ومدفعيته تعتمد على أحدث ما كان يصنع منها في ذلك الزمان . أى أمل في فوز الأجناد

الجراكسة ، وهذا روحهم ؟ وكيف تدفع مصر عداتها ، وأبنائها لا يعرفون من أمر الحراقة شيئاً ؟ نسوا بمضى الزمن صنعة الجندية ، منذ غزاهم الفرس ، بل قبل ذلك في أواخر عهد الأسرات !

غزاتهم لا يريدون منهم إلا أن يظلوا البقرة الحلوب . فهذا الإمبراطور الروماني طباريوس يكتب لعامله : « أرسلتك لتجز صوف الغنم ، لا لتسلخ جلده » . وهذا الخليفة الراشد يفرح بزيادة الخراج على يد الوالى الذى أرسله ، بعد إقالة عمرو بن العاص ، وينادى على فاتح مصر ليقول له : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » ، فيجيبه القائد الكبير القلب : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ! » .

نحن الفرس ، نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب ، المغاربة ، الكرد ، أبناء فرغانة وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب والضرب ، ونتولى عنكم أيها المصريون صناعة الحرب . لأن صناعتكم يا أهل مصر هي إحياء موات الأرض ، وصناعتنا القتل والنهب والسلب ، والكرّ والفرّ والدفاع والغزو . تحرثون وتبذرون وتحصدون ، ونخرب وندمر ونسطو . حرفتكم بناء القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والترب ، ونسج الحرير والكتان ، والتكفيت والتذهيب والنقش ، وحرفتنا الحكم ، والظلم والاستيلاء ؛ صناعتكم — يا أولاد مصر — هي الحضارة والتعمير ، بس !

ولم يتجهز ابن عثمان لغزو مصر بأسلحة القتال العلنى وحدها ، بل ضم إليه فى السر جماعة من المماليك الخونة تأمروا على السلطان الغورى من أمثال خاير بك الجركسى ، وجان بردى الغزالى ، ويونس العادلى ، والسمرقندى ، وقد كوفئ خاير بك — أو خاين بك على لسان المصريين — بالولاية على مصر ، بعد استتباب الأمر لأولاد عثمان ، كما تولى جان بردى أمر بلاد الشام . ويعيش خاير بك سوط عذاب على المصريين حتى وفاته : يشقى ، ويوسط ، ويخوزق ، ويكلّس ، ويقطع الأيدي ، ويمجدع الأنوف بجريرة وبغير جريرة ! أما جان بردى الرجل القلق الطموح ، فلم تبلغه خيائته إلى أرفع مما بلغه أيام أستاذه وسلطاناه ، فراح يستقل بالشام ، وحاربه ابن عثمان وهزمه . وانتهى الغزالى برأسه مرشوقاً بطرف رمح . وتسعى العدالة حثيثاً إلى يونس العادلى والسمرقندى ، فيحمل رأسهما فى

علبة إلى القاهرة قبل أن تطأ الإنكشارية والإصباحية أرضها الطاهرة .
هؤلاء الخونة وأمثالهم رسموا الطريق لابن عثمان ، وكشفوا له عن أسرار العساكر
المصرية ، ومهدوا للغزو منذ خرج الخنكار سليم لمواجهة الأشرف قانصوه الغورى
فى مرج دابق .

كان ذلك يوم أحد ، فى الخامس والعشرين من شهر رجب ، حين ركب
السلطان الغورى ، الذى أوفى على السبعين ، بتخليفة صغيرة وملوطة ، وعلى كتفه
طبر ، وحوله أربعون مصحفاً فى أكياس حرير أصفر يحملها جماعة من الأشراف
على رؤوسهم ، ومن بينهم مصحف بخط سيدنا عثمان بن عفان ، وجماعة من
أرباب الطرق الصوفية . وكان الصنجق السلطانى خلفه بنحو عشرين ذراعاً .
وبرز أول من برز إلى القتال سودون العجمى أتابك العسكر ، ومعه ملك الأمراء
سيباى نائب الشام ، ثم المماليك القرانصة دون الجلبان . فهزموا عسكر ابن عثمان
هزيمة هائلة ، وأخذوا منهم سبعة سناجق ، وغنموا المكاحل التى كانت على العجل ،
وأسروا رماة البندق . وفى رواية قائد عثمانى فى جيش سليم أن هجوم المماليك الأول
كان هجوماً ساحقاً ، « وكانوا يهجمون بأفراسهم ، ويصيبون ، ثم يستديرون فى
خفة ، فلا يلحق بهم لاحق . ومع أن جنودنا الإصباحية لم يكونوا أقل شجاعة
منهم ، فإن كرمهم لم يكن فى سرعة أولئك ، ولا فى حسن دربتهم : أما الإنكشارية
رماة البندق فقد أضاعوا على المماليك تفوقهم ، وذلك بأن ركزوا طلقاتهم على
جباه الخيل ، فما إن يسقط المملوك عن فرسه حتى يفقد قوته ، ويتكعبل فى رمحه
الطويل الثقيل . »

ويقول ابن إياس بأن ابن عثمان هم بالهرب أو طلب الأمان ، ولكن الخونة
سعوا بالفتنة بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان ، وأفهموا أولئك بأن الأشرف
قانصوه الغورى ضنين بمماليكه الجلبان ، فما عثم القرانصة أن انحلت عزائمهم
عن القتال ، وسقط الأتابكى سودون العجمى صريعاً ، يتبعه ملك الأمراء سيباى
نائب الشام . وتنهزم الميمنة وتتقهقر الميسرة بقيادة خاير بك نائب حلب المتآمر
على السلطان .

أما الضابط العثماني فيقول فى مذكراته : « ويهرب خاير بك وغزالي بك ،

من قواد السلطان قانصوه لينحازوا ورجاهم إلينا . وغيرت هذه الخيانة شكل الموقعة ، وكانت أساس انتصارنا . »

وفي رواية ابن إياس أن السلطان الغوري صار واقفاً تحت الصنجق في نفر قليل وهو ينادى : « يا أغوات هذا وقت النجدة » ، فلم يسمع له أحد قولاً ، وصاروا ينسحبون من حوله ، وهو يقول لأرباب الطرق : « ادعوا الله بالنصر ، فهذا يومكم » ؛ وصار لا يجد له معيماً ولا ناصرأ ، وانطلقت في قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وجاءه الأمير تمر الزردكاش يقول — وقد أنزل الصنجق السلطاني وطواه وأخفاه : « يا مولانا السلطان ، عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك » . فلم يجب السلطان ، وقد أصابه خلط فالج أبطل شقه وأرخى فيه ، فأشار يطلب ماء شرب منه قليلاً ، ولوى عنان فرسه ومشى به خطوتين ، ثم انقلب عنه إلى الأرض ، وفقت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ، وأقام نحو درجة ثم طلعت روحه من شدة القهر ، ولم يعلم له خبر بعد الموقعة ، ولا وقف له على أثر ، فكأن الأرض ابتلعت في الحال ، كما ضاع معه مصحف سيدنا عثمان ، وديست أعلام أرباب الطرق ، وصنائج الأمراء .

أما الرواية العثمانية فتقول : « وأطبق السلطان محققاً غاضباً ، والسيوف بيده ، يضرب الإصباحية يميناً وشمالاً ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً ، وينادى على السلطان سليم ، ويزعق طالباً إليه أن يتقدم ، وسليم مشغول بقيادة إنكشاريته في مكان آخر . ويفقد كبير المماليك [أى السلطان] اتزانه ، وتخور قواه ، كما يسقط فرسه تحته إعياء ، ومثخناً بالجراح . ويموت كبير المماليك لغياً وحنقاً ، وسط المعركة . وتختتم المدفعية العثمانية أمر المعركة ، وقد أسفرت عن أحد عشر ألف مملوك تغطي أجسادهم الأرض ؛ ولم تكلفنا الموقعة أكثر من ألفي قتيل » (٩)

* * *

لم يكتف سليم شاه بكثرة أجناده ، وقوة مكاحيله ، وفرسانه الذين يحملون رماحاً بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض ، ولم يرض بعيونه وجواسيسه من خونة المماليك ، بل يحاول قتل الأشرف طومان باى سلطان مصر ، بعد الغوري ، وهو في وطاقه بالريدانية يتأهب للملاقاة ابن عثمان . فقد ضببط

بالوطاق امرأة فدائية تلبس زنبلاً أحمر ، وعلى وجهها لثام ، وتحت ثيابها زردية ، وهي متحملة بخنجر كبير من تحت ثيابها .

تلك هي المصائب ترى على الديار المصرية منذ خرج السلطان الغورى إلى أقاصى مملكته ليوقف زحف ابن عثمان شمالى حلب ، حتى وطئت جنود سليم شاه أرض مصر .

لم يعرف اليأس سبيلا إلى قلب الرجل الكبير طومان باى . أقام التحصينات من الجبل الأحمر حتى غيط المطرية : خندقاً ومكاحل عليها تساتير ، وأكواماً من القش أقام فوقها الصناجق . بل قد أراد أن يخرج لملاقاة ابن عثمان وجنوده عند أطراف الصحراء الشرقية ، من ناحية الأرض المنزرعة ، قبل أن يستريح السلطان العثماني وجنوده . عقب اختراقهم تلك الصحراء ، ولكن أمراءه ومماليكه — أصحاب النفقة والحامكية — كانوا مهدودى الحيل ، فاقدى العزيمة ، فآثروا الانتظار خلف تحصيناتهم حتى كبس عليهم سليم ، وزعق النفير فى الوطاق ، ودقت الكوسات والطبول حربيّاً ، وركب العسكر قاطبة ، وأقبلت أجناد ابن عثمان كالجراد المنتشر . فكانت بين الفريقين واقعة أشد من واقعة مرج دابق . وقتل من العثمانيين ما لا يحصى عدده ، ومن بينهم سنان باشا أكبر وزراء ابن عثمان ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار . وتدب الروح من جديد فى العثمانية ، ويحيئون من كل ناحية أفواجا كأنهم قطع الغمام ، وينقسمون فرقتين : فرقة تجىء من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة تهجم على وطاق الريدانية ، وطرشوا الأجناد المصرية بالبندق والرصاص ، وكبسوا عليهم ، فلم تلك إلا ساعة يسيرة حتى تمت الكسرة على عسكر المماليك . وثبت الأشرف طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه مع نفر قليل من العبيد والرماة والمماليك السلحدارية ، فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية طوى الصنjq السلطانى وولى واختفى .

* * *

دخل العثمانيون القاهرة ، وطومان باى لا يريد أن يعترف بالهزيمة ، فإن النفس التى لا تعرف الذل قل أن تطأطئ رأسها لواقع الهوان .

هرب الأشرف طومان باى وجمع قلوب أمرائه ، بعد أن نزل سليم بوطاقه عند بر بولاق ، وبعد أن تردد اسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة آخر أيام سنة ٩٢٢ هجرية ؛ وإذا بآخر سلاطين مصر يكبس بليل على ابن عثمان فى وطاقه ، بعد أن أطلق على الوطاق جمالا محملة بالدريس المشتعل . فاضطربت أحوال العثمانية ، وانضم العياق والزعر والحرافيش ببولاق إلى طومان باى يمدون له يد المساعدة . . . بالمقاليع والحجارة ! واستمر القتال ليلة الخميس وليلة الجمعة حتى يوم السبت الثامن من المحرم . وامتدت الموقعة على طول خط إلى الشرق من الخليج الناصرى ، من الناصرية حتى قناطر السباع ، إلى الصليبية ، فسجد ابن طولون حتى الرملة . واتخذ طومان باى جامع شيخون العمرى بالصليبية مركزاً لقيادة هذه الحرب الرهيبة .

ولو قد انتقلت شرارة واحدة من النار التى تضطرم فى قلب طومان باى إلى كل مماليكه لأزاحوا العثمانية عن القاهرة ، وثأروا ليومهم العصيب فى الريدانية . ولكن الجند العثماني يكسب اليوم ، ويختفى طومان باى . وسنسمع به مرة ثالثة فى البهنسا ، وستجرى بينه وبين سليم مفاوضات ، يرفض فيها طومان باى أن يعترف لسليم بالزعامة ، ويعود الأشرف طومان باى إلى الشمال ، ويتحدى ابن عثمان أن يخرج إليه فى بر البحيزة عند منوات . ولكن طومان باى ينهزم مرة أخرى ، ويهرب إلى الدلتا ، حيث ينزل ضيفاً على شيخ العرب حسن بن مرعى . وكان ابن مرعى هذا من أعز أصحاب السلطان ، ولطومان باى عليه غاية الفضل والمساعدة ، من أيام السلطان الغورى .

ويحضر شيخ العرب مصحفاً شريفاً يحلف عليه ، هو وشكر ابن أخيه ، أن لا يخنونا السلطان ، ولا يغدرا به ، ولا يدلّسا عليه بشيء من الأشياء . ما أسرع ما تخرج المصاحف فى تلك الأزمنة الغادرة ! وما أكثر ما يلتقى عليها من أيمان ! وقد استراح أخيراً مصحف سيدنا عثمان فى مرج دابق ، بعد أن تلقى ما تلقى من أيمان الممالك للسلطان القائم ، وبعد أن حنثوا ما حنثوا بأيمانهم !

فليغفر المصحف الشريف لأولاد مرعى ، ولغير أولاد مرعى ، فى هذه المرة — ولن تكون الأخيرة فى تاريخ مصر ! — فما إن ارتفع صياح الديكة فى نجع

شيخ العرب حتى كان أولاد مرعى قد أرسلوا يخبرون ابن عثمان بأن آخر سلاطين مصر وقع بين أيديهم ، ويحتاط الأعراب بضعفهم الكريم حتى يصل عسكر سليم شاه ويضعوه في الحديد ، ويتوجهوا به إلى ابن عثمان في وطاقه ببر إنابة .

دخل الأسير لابساً ملابس العرب الهوارة ، على رأسه زنط وشاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكام طوال ، فقام له ابن عثمان ، لا احتراماً ، بل خفة ورهجاً ، وجعل يلتقى على مسمعه كلاماً كله غل وقسوة .

وفي رواية : تقدم طومان باى نحو السلطان ، وحياه باحترام ، فرد عليه وأمر له بالجلوس . ونخم السكوت على المجلس فترة ، قطعها السلطان سليم بأن أخذ في لوم طومان باى على قتل رسل الصلح الذين أنفذهم إليه في البهنسا . فأجاب طومان باى بأن البيكوات المماليك فعلوا ذلك وهم في حالة هياج . فسأله سليم عن رفضه الاعتراف بسلطنته ، هو ، سليم ، ابن الملوك إلى عشرين جدياً . فأجاب طومان باى بأنه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها ، ويجب عليه حمايتها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ثم أضاف : أما أنت ، فلا أدري كيف تبرئ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا . فاندفع السلطان سليم يبرر مسلكه بأنه لم يباشر هذه الحرب إلا بعد فتاوى العلماء ، وبعد مداخلات السلطان الغورى للاتفاق مع شاه العجم .

[وحقيقة هذه الفتاوى ذكرها فون هامر في تاريخه الكبير للدولة العثمانية . أرسل السلطان سليم يستفتى على جمالى أفندى في ثلاث مسائل :

الأولى : إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة المارقين (أى العجم) ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التي يبذلها لهم سلطان آخر من سلاطين المسلمين ، فهل تبيح الشريعة الغراء لأولهما أن يقتل الثانى ويستولى على مملكته ؟

أجاب جمالى أفندى : من نصر كافراً فهو كافر .

الثانية : إذا كانت أمة من الأمم التي تدين بالإسلام (يقصد المصريين) تؤثر تزويج بناتها من الكفار (يعنى المماليك الجراكسة) ، بدلا من تزويجهم بالمسلمين ، فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟

أجاب جمالى أفندى : بلا مبالاة ولا مقاضاة .

الثالثة : إذا كانت أمة تنافق في احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة ، فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الحلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغي معاملة هذه الأمة ؟

أجاب المفتى العثماني : إن هذه الأمة ، إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار ، جاز إبادةها .

واصل سليم حديثه : وعدا هذا فإن الملك لا يليق بممالك بيعوا واشتروا .
أجاب طومان باي : لست بملوم ، يا سلطان الروم ، فالذنب كل الذنب على الخونة . وأشار إلى خاير بك وجان بردى الغزالي ، وكانا بالمجلس .
فقال سليم للجميع : ليس من العدل قتل رجل شهم صادق كهذا الرجل .
وأمر أن يقيم في وطاقه مكروماً ، حتى يستتب الأمر في البلاد .

والقصة على هذا الوجه لا تستقيم لمن يعرف سليم بن بايزيد ، ورهجه وشراسته . وتزعم القصة أن خاير بك وجان بردى خشيا عاقبة خيانتهم إذا بقى طومان باي على قيد الحياة . فأوعزا إلى بعض أشياعهم أن ينادوا بأعلى أصواتهم ، عند مرور السلطان سليم في طريق ذهابه وإيابه ، قائلين : « الله ينصر السلطان طومان باي » . وكان هذا النذير كافياً لتغيير رأى السلطان العثماني ، وإيغار صدره على طومان باي ، وصدور أمره بشنقه .

وصار أهل مصر والقاهرة بين مصدق ومكذب لخبر القبض على سلطانهم ، حتى رأوه بعيونهم يوم الاثنين الواحد والعشرين من ربيع الأول وكان من أيام الحماسين . شاهدوه يركب أكديشا ، وكانوا يحيونه على جانبي الطريق من بر إنابة حتى بولاق . ثم شق موكب السلطان الأسير من المقس وباب البحر حتى بلغ سوق مرجوش ، وشق القاهرة حتى باب زويلة . وهناك ألقى نظرة على رحبة الباب ، ورفع بصره إلى قواعد الأبراج فعرف ما يراد به : رأى الإنكشارية والإصباحية ورماة النفط تحيط بالميدان . وعرف المشاعلية يرخون الحبال من قواعد البرج الغربي تحت مأذنة جامع السلطان المؤيد شيخ . فترجل عن الأكديش ،

وشمل الناس بنظره وقال : « اقرءوا لى الفاتحة ثلاث مرات » ، وبسط الناس أيديهم يرددون الفاتحة بصوت عال . ثم استدار السلطان الشهيد إلى رئيس المشاعلية وقال له : « اعمل شغلك » . فلما وضعوا الحية فى عنقه ورفعوا الحبل انقطع به ، وسقط الأشرف طومان باى على عتبة باب زويلة . وانصرم الحبل مرة ثانية ، وجاءت « الثالثة ثابتة » ، وارتفع آخر سلاطين المماليك معلقاً برقبته ، مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه من جوخ أحمر ، فوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجله لباس من جوخ أزرق ، وخف أحمر . فلما قضى صرخ الناس عليه صرخة عظيمة . فقد كان طومان باى حسن الشكل ، كريم الخلق ، بطلا تصدى لقتال سلم بن بايزيد فى أسوأ الظروف ، وخزينة مصر خاوية ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفلك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العاترة .

هذه نهاية سلطنة المماليك ، كل المماليك ، صالحة بحرية ، وجركسية برجية ، خاتمة السلطنة الكبرى التى أقامها بيبرس البندقدارى بسيفه وطبره على أجساد الصليبيين والتتار ، ودعمها الناصر محمد بن قلاوون بالعقل والسياسة .

عز لمولانا السلطان ، ثم شفق لمولانا السلطان !

هؤلاء الأجناد المغامرون ، بيعوا فى أسواق النخاسة صبياناً بدنائير معدودة ، واستطاعوا أن ينشئوا إمبراطورية مصرية تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة ، وأن يتمموا عمل صلاح الدين يوسف الأيوبي فيجهزوا على الصليبيين ، وأن يردوا جحافل التتار عن الشام ومصر . هؤلاء المماليك الغادرون السفاحون الطامحون ، الذين لا يؤمنون إلا بالسيف والنشاب والطبر والخيل ، أولئك المنافقون — ينخشون الله فى العلن ، ويعصون أحكامه فيما بينهم — هؤلاء الزناة اللواط المارقون ، كانوا مع ذلك حماة الحرمين وأصحاب كسوة الكعبة والمقام الشريف ، يوجهون الحمل المصرى والحمل الشامى فى كل عام إلى الأرض المقدسة . كانوا الأمرين بكتابة المصاحف والختم بماء الذهب والزعفران ، بناء المدارس والمساجد والخوانق وأضرحة الأولياء تقوم اليوم شاهداً على أن جذوة الفن ، ونخوة العمارة ، لم تنطفىء فى

نفوس منشئ الأهرام والمصاطب والمعابد والمقابر والكنائس والأديرة على مدى آلاف السنين .

جاءت نهايتهم شبيهة ببدايتهم عندما انهالت قباقيب مطلقة عز الدين إيبك التركمانى على رأس ضرثها شجرة الدر ، أول سلاطين المماليك ؛ وألقيت رمة « الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل » ، ألقيت جثة شجرة الدر من فوق القلعة إلى خندقها تلغ فيها الكلاب ، ويتزل الحرافيش إليها يسرقون تكة لباسها من الحرير الغالى وفى عقدتها نوافج المسك وخالص الدر .

دولة المماليك التى زينت أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها برعوس القتلى وأجساد المكليين ، وتركت أشلاء الموسطين فى مفارق الطرق ؛ الدولة التى كانت تخلع السلطان وترسله إلى سجن الدهيشة ، أو إلى قلعة الإسكندرية ثم ترسل خلفه من يخنقه فى الترسيم ، الدولة التى ندر أن يموت سلطان من سلاطينها فى فراشه موتاً طبيعياً ، يبدو أن التاريخ حتم أن تنتهى هذه النهاية الدرامية ، فيموت سلطان مصر معلقاً بباب زويلة ، كأنه شيخ منسر ، أو واحد من أهل الزغل فى المعاملة ! ويحىء أحد « المحبطين » أو « المغزلكين » أو « المخايلين » فيرسم بأوراقه صوراً لطومان باى ، وللمشاعلية ، ولباب زويلة ، وللأجناد العثمانية ، وللحبال المعلقة بالبرج الغربى ، ويخايل بظلالها على شاشة بيضاء ، فى وطاق الحنكار سليم شاه بالروضة ، يحف به الصبيان المرد وأمرأء الإنكشارية والإصباحية وهو لا يكاد يعى فى سكره . هل كانت حميا العقار أم نشوة الظفر هى التى أطاحت بآخر مشاعر الرجولة والكرم فى نفسه ؟ فلم يحس هذا السفاح العثمانى بدناءة المخايل وتعريضه ، ولم يأمر بالمحبط أن يخوزق جزاء له على « خيال ظله » العاهر ، بل ينشرح صدره ، ويأمر له بثمانين ديناراً ذهباً ، وفراجة من الخمل المذهب ، ويربت على كتفه قائلاً : « يجب أن تأتى معنا إلى إسطنبول ليرى ولدى ذلك » .

عار على مولانا السلطان ابن السلطان ، إلى عشرين ملكاً ، كما يقول سيد البرين وخاقان البحرين ، ملك العراقيين وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه !

ينزل الستار

عندما يتحدث ابن إياس عن عام ٩٢٣ هـ [١٥١٧ م] يقول في بساطة :
« انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ٩٢٣ ، وقد خرجت هذه السنة على خير » ،
ولا نحسبه هنا إلا متيمناً ، يحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه . لأن حقيقة
تلك السنة أقرب إلى ما جاء في تنمة تعليقه حين يقول إنها كانت « سنة صعبة
شديدة على الناس » . وحتى في هذا كان العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس
الحنفي المصري ، مقتصدًا في التعبير ، فهو نفسه القائل تعليقاً على غزو العثمانيين
لمصر ، وعودة سليم بن عثمان إلى إسطنبول : « ومن العجائب أن مصر صارت
نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه
خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون اللعين حيث
قال " أليس لي ملك مصر " ، وقد تباهى ملك مصر على سائر ممالك الدنيا .
ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وغنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ولا حول ولا قوة ..
ومن عهد عمرو بن العاص فاتح مصر سنة ٢٢ من الهجرة عنوة بقائم سيفه ،
لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة ، سوى سليم شاه ، ولم يقع مثل ذلك
إلا لبختنصر في قديم الزمان . . . ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط ،
إلا ما كان في زمن بختنصر البابلي لما أتى من بابل ، وزحف على البلاد بعسكره ،
وأخربها ، وهدم بيت المقدس ، ثم دخل مصر وأخربها عن آخرها ، وقتل من
أهلها مائة ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهي خراب ليس
بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الأراضي ،
ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفي سنة ، وهي قبل ظهور عيسى بن مريم
عليه السلام . ثم وقع مثل ذلك لبغداد في فتنة هولاكو . »

أصدر ابن عثمان في أواخر شهر ربيع الثاني من تلك السنة أمره لأمير المؤمنين

العباسي : « اعمل برقك حتى تسافر إلى إسطنبول » . وخرج أمير المؤمنين « المتوكل على الله » يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى قاصداً السفر إلى إسطنبول ، ومعه أولاد عمه وصهره وآخرون من الأعيان . فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف ، وقالوا : انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت بإسطنبول ، وهذه من الحوادث المهولة .

وخرج جماعة من المباشرين ، وبعض نصارى من كتاب الخزينة ، ومن جماعة البزددارية والرسل ، وأرباب الصنائع من كل فن ، وشيخ سوق الغزل ، والزردكاشية والسيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين ، وتجار الباسطية وتجار سوق مرجوش ، ومقدمى السقائين والنجارين والمرخين والمبلطين والحراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء ، وجماعة من اليهود السامرية وطائفة النصارى ، حوالى ١٨٠٠ نفس .

وحملت مراكب سليم بن عثمان حتى الشبايك الحديد ، والطيقان والأبواب والسقوف .

وحمل سليم معه ، بطريق البر ، على ألف جمل - كما أشيع - أحمالا من الذهب والفضة والتحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت ، ثم أخذ الخيول والبغال والجمال والرخام الفاخر ، ومن كل شيء أحسنه . وكذلك غنم وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فإنهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وصار أقل فرد منهم أعظم من أمير مائة ، مقدم ألف . وبطلت من القاهرة نحو خمسين صنعة .

ومسك رجال الدرك الناس على أبواب القاهرة من رئيس ووضيع ووضعهم في الحبال ، حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وطلعوا بهم إلى القلعة ، وهناك ربطوهم ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار ، وينزلوا بها إلى شاطئ النيل ، ويضعوها في المراكب . وكان الرجال يربطون بالحبال في رقابهم ، ثم يسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس .

وكانوا قد نزلوا قبل ذلك بالعامودين السماقي اللذين قلعوهما من إيوان القلعة ، وارتجت لهما الصليبة ، وقاسى الناس في سحبهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة

من الضرب والصلك وخطف العمائم .

ومن حوادث السنة أنهم أخرجوا من الخليفة العباسي نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان ذلك بين الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم ، وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، ومن الصندوق الذي تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور .

وقطع سدّ الخليج وجرى الماء في الخليج الحاكى والناصرى ، بحضور يونس باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة .

ونصب العثمانية خيمة في وسط الرميّة ، وجعلوا فيها دنان بوزة ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة ثالثة فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعادتهم في بلادهم .

وفي يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد . وأشيع بأن ابن عثمان باع خيمة المولد للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها وباعوها للناس ستائر وسفر . وهذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، قيل إن تكاليفها على السلطان الأشرف قايتباى كانت ثلاثين ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك . وكانت كهيئة قاعة ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمریات ، والكل من قماش . وكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان ، حتى ينصبوها في الخوش السلطانى .

ونزل رخام القلعة ووضع في صناديق وحمل إلى المراكب ، وهو الرخام الذى أمر ابن عثمان بفكه من قاعة البيسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت في الإيوان الكبير .

وصار يحيى بن بكار يركب ومعه جماعة من المرخين ، فيهمجون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش التى على بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات

المباشرين والتجار وأولاد الناس ، والمدارس التي فيها الكتب النفيسة ، فلم يعرفوا الحلال من الحرام .

وهي السنة التي شق فيها طومان باي آخر سلاطين مصر على باب زويلة ، وأقام وهو معلق حتى فاحت رائحته . وفي اليوم الثالث أحضروا له تابوتاً ، ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغوري عمه ، فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ، ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة .

ومضت دولة السلاطين كأنها لم تكن .

وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة المختفين في الترب ، ومساقى الموتى ، وغيطان المطرية ، وتضرب أعناقهم .

وقبض مشايخ العربان على الأتابكي سودون الدوادر ، وأحضروه بين يدي سليم الذي وبّخه بالكلام . وكان جريحاً مكسور الفخذ في حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقة ، بل أركبه على حمار ، وألبسه عمامة زرقاء ، وجرسه في وطاقه ، وقصد أن يشهره في القاهرة ، ولكنه مات وهو على ظهر الحمار ، فحز رأسه وعلقوها في الوطاق .

وضرب العثمانية في يوم واحد ٣٣٠ رأساً ، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ويقبضون على المماليك الجراكسة من إسطنبولهم ، ويتوجهون إلى الوطاق بالريدانية ، ويضربون أعناقهم . ونصبوا صواري وعليها حبال علقوا عليها رؤوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم ، حتى قيل قتل في الريدانية فوق ٤٠٠ إنسان ما بين جراكسة وعربان من الشرقية والغربية ، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباي ، فجافت منهم الأرض ، وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة الصعلوك ، وهم أبدان بلا رؤوس .

هذه بعض حوادث سنة ٩٢٣ هجرية التي يقول عنها ابن إياس إنها : « خرجت على خير » ، ولا ندري بعد ذلك ماذا تكون السنة التي تخرج على شر ؛ ثم يزيد قليلاً فيقول إنها : « كانت صعبة شديدة على الناس » . ولإننا لنعذر لابن إياس هذه السذاجة في الأسلوب ، وبحسبنا أنه عرف ووزن ثقل الرزء القوي الفادح الذي نزل بمصر . ثم أخذت مذكراته ، فيما تبقى للرجل من عمر ، تصور الآثار المباشرة

للغزو العثماني في أوائله ، وقد عرفنا نحن أواخره !

نزل الستار على تاريخ مصر ، وأرخت الظلام سدوله على القاعة بعد خروج الممثلين والنظارة ، وهم أولئك العلماء والفنانون والتجار وأهل الحرف والصنائع والمباشرين والكتّاب ، الذين أخرجوا في ركاب سليم العثماني . وإذا كانت مصر لم تخل تماماً من أهلها — كما حدث لها بعد غزوة بختنصر في الألف الثانية قبل ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ! — فإن التاريخ المصري سوف يصاب بظلام تاريخي يشبه ما أصابه بعد غزو الهكسوس ، ولو أننا في العهد الحديث لا نجهل تماماً ما حدث بعد آخر صفحة من صفحات ابن إياس ، وابن زنبيل الرمال ، حتى أول صفحة من مذكرات الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . فعندنا بعض ما كتبه المؤرخون العثمانيون ، وما جاء في مذكرات رجالهم ، وعندنا أقوال الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر فيما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي ، وأحقهم بالذكر كتاب قولنيه ورسائل ساقاري في خواتيم القرن الثامن عشر .

والظلام الذي نتحدث عنه ليس ظلاماً تاريخياً تاماً ، بل كان ديجوراً روحياً . ولا أحسب مصر في تاريخها الطويل عرفت عهداً أظلم من تلك القرون الثلاثة بل الأربعة التي مرت على مصر بعد موقعة مرج دابق بالشام ، وموقعة سبيل علاّن بمشارف القاهرة .

وقبل أن نتابع ابن إياس في يومياته عقب الغزو العثماني يجدر بنا أن نعرف الصورة العامة التي تبدو لنا نتيجة لهذا الاحتلال . وأول ما يجبهنا هو سرعة عودة المماليك إلى التحكم في أقدار البلاد ، لا كسلطين يحكمون إمبراطورية مستقلة ، ولكن كفلول عصابة اجتمعت على نهب مصر ، والضحك على ذقن الباشا العثماني الذي يحكم مصر بالنيابة عن الباب العالي . وسيصل المماليك إلى غرضهم عندما ترضى إسطنبول أن يعترف الباشا لواحد منهم بالزعامة على المصريين باسم « شيخ البلد » ، ولوكيل له باسم « أمير الحج » .

وسيبلغ واحد من مشايخ البلد مرتبة الحاكم المستقل فعلا عن الأستانة في القرن الثامن عشر ، ذلك هو علي بيك الكبير ، البروفة الأول لمحمد علي باشا ، حتى يقضى عليه مملوكه وخذنه وصهره محمد بيك أبو الذهب ، وتعود الأستانة إلى

إيفاد باشواتها للصمصام ؛ ولكن الزعامة الفعلية في البلاد ستظل في أيدي المماليك ، حتى يجيء صاري عسكر بونابارته ليكسر شوكتهم بعض الوقت ، ويتولى محمد علي بعده مهمة القضاء الأخير عليهم في مذبحة القلعة .

ومن السهل فهم سيطرة المماليك هذه إذا عرفنا حقيقتين : أولاها أن الذي تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثماني ، بعد سفر سليم ، كان أميراً من أمراء المماليك المصرية ، الذين خامروا على السلطان الغوري ، وكانوا سبباً في خراب الديار المصرية والديار الشامية ، لأنهم حسنوا لسليم بن عثمان عبارة أخذ مصر ، وضمنوا له أخذها من غير مانع ، وعرفوه كيف يصنع حتى يملكها . فيجري ما جرى من هزيمة جيوش السلطان قانصوه الغوري في مرج دابق إلى الشمال من حلب ، وموت السلطان واختفاء جثمانه في المعركة ؛ ثم ما حدث بعد ذلك من هزيمة السلطان طومان باي ، وشنقه على باب زويلة ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة . وكان كل ذلك « بترتيب ودوليت » الأمير المملوكي خاير بيك — أو خاين بيك كما لقبه المصريون — والأمير المملوكي جان بردى الغزالي .

كوفي الحائنان أحدهما بولاية الشام ، والثاني بولاية مصر ، أي بجوهرتي الإمبراطورية المملوكية . ولن يهمننا أمر الحائنان جان بردى الغزالي ، والرجل لم يتمتع طويلاً بأجر خيانتته ، فقد استقل بالشام عام ٩٢٧ هـ ، وأرسل السلطان سليمان القانوني تجريدة لإخضاعه .

وزل لسان مملوك من ممالك يشبك الدوادار المصري إذ قال في مجلس له : « إن خاير بيك يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام » ، فأمر خاير بيك بتوسيطه ، وحاول الأمير قايتباي الدوادار أن يرقع له خلاله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به . ووسط المملوك بسوق الخيل ، واستمر مرمياً في الرميعة ، والكلاب تنهش جثته في الليل ، ورسم ملك الأمراء أن لا أحد يدفنه . . . وكان هذا المملوك شيخاً مسنناً له أولاد وعيال .

وانتهى أمر جان بردى الغزالي عاجلاً بعد أن انكسر في أكثر من موقعة أمام عسكر السلطان سليمان القانوني ، وكانت كسرته الأخيرة مهولة ، وقبض عليه وحز رأسه وأرسل إلى إسطنبول .

أما خاير بيك — المدعو ملك الأمراء وكان جركسي الأصل ، ومن ممالك الأشرف قايتباي — فقد مات في فراشه ، بعد أن حكم مصر خمسة أعوام ؛ مات غير مأسوف عليه من أحد ، ويقول ابن زنبيل الرمال إن أمراء المماليك لم يكونوا يقرعون الفاتحة عليه وهم يمرون بتربته تحت القلعة ، لا هم ولا الباشوات ولا الأغوات ولا السناجق ؛ ويدعى عوام مصر أنه كانت تخرج من قبره أصوات أنين في الليالي الحالكة .

ويبدو أن يونس باشا كبير وزراء سليم بن عثمان كان طامعاً في تولي نيابة السلطنة بمصر . وقد تولاهما فعلاً أثناء إقامة سليم بالديار المصرية ، فلما سافر مع ابن عثمان ، وقد ولي على مصر واحداً من المماليك المصرية ، زل لسان يونس باشا ، ونعى على السلطان أن أعاد مصر إلى ملاكها القدامى ، وكان جزاؤه أن أطاح سليم برأسه .

ويظهر أن سليم كان قد وعد خونة المماليك بإعادة رزقهم وإقطاعاتهم كما وعد خاير بيك وجان بردى الغزالي بولاية مصر والشام مدى الحياة .

وما إن يسافر سليم حتى يأمر خاير بيك بأن « يظهر الجراكسة وعليهم الأمان » ، فظهر منهم الجرم الكبير وهم في أسوأ حال ، عليهم زنوط قرع ، وبرد سود ، وقمصان بأكماس كبار ، فإذا رأهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وطلع الأمير قايتباي الدوادار إلى القلعة لصرف جوامك المماليك ، واجتمع بملك الأمراء خاير بيك وأقام بالقلعة إلى قريب الظهر والجراكسة في انتظاره على باب بيته ، فلما نزل إليهم قال : « يا أغوات ، شاورت ملك الأمراء في أمركم فقال : أنظرونا حتى يجتمع المال ، وننفق عليهم الجوامك ، ولم يواعدني على يوم معين . »

فرجعوا بغير طائل ، وقد صارت وجوههم في غاية الذل من الفقر والعري ، ومنهم من سأل الناس في رغيث يقات به ، ومنهم من يطوف في الأسواق يسأل التجار والسوقة في درهم يشتري به كبشة فول يأكلها . ويضيف ابن إياس — وهو من أهلهم وعترتهم — « وكان هذا جزاء بما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعزه وسلطانه . »

ولم تلبث المراسيم أن حضرت من عند الخنكار سليم شاه ، وكان مضمونها أن يصرف خاير بيك لأولاد الناس [أى أبناء المماليك وأحفادهم] ، وللمماليك الجراكسة ، جوامكهم ، وأن يجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير .
وكما لم يشعر الناس بأفراح قطع الخليج ولا بالمولد النبوى عام الغزو ، فإن أحداً منهم لم يشعر بالمولد النبوى فى حكم خاير بيك ؛ وقيل بأن ملك الأمراء أحضر عنده للمولد عشر جوخ للمقرئين ، فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى المولد النبوى الذى كان يعملها السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين .
ثم مد سماً بعد العصر تخاطفته العثمانية فى ملح البصر ، وبات غالب الفقهاء بلا عشاء .

وحدث أن شخصاً من العوام دخل بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفة ، فقبض عليه الخولى ، وكان ملك الأمراء خرج على بيع خيار شنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . فرسم الولى بشنقه ، وأشهر بالقاهرة وعلقت القفة فى رقبته ، وشتى على القنطرة التى بزقاق الكحل ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن . . .

هذا وملك الأمراء خاير بيك يبيت يسكر طول الليل ويصبح فى خيال السكر يحكم بين الناس بما يقوله له عقله المتأرجح .

وكأنه لم يكفه ما حمل الخنكار سليم من خيرات مصر ، فما كان أسرع إلى إهداء السلطان العثمانى الحديد سليمان بن سليم تقديمة عظيمة : تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماشاً فارسكورياً ، وغير ذلك من شاشات ومقاطع خمسينى ، وخام رفيع ، وأحمال شقادات ضمنها مرطبانات أشربة مربى .

وسافر إلى الشرقية جان بيك دوادار الأمير قايتباى الدوادار الكبير ومعه شاد الشون والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين ، لمسحوا جهاتها ، ويميزوا الشراقى من الرى ، ويمسحوا الأقاطيع والرزق إلخ . وصاروا ينزلون إلى البلاد ويقررون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ،

ورحل عنها الفلاحون ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد في حق الناس .
وفي رمضان تشحطت الأسعار في سائر البضائع ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضاً ، وجلس ملك الأمراء في المقعد بالقلعة ، فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة ، فحنق منهم وقال للإنكشارية : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فضربوهم بالعصى على وجوههم ضرباً فاحشاً ، وحصل للمماليك في ذلك اليوم كسر خاطر .

ولكنهم عاودوا الطلوع إلى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وفرق الأطلاق فأعطى جماعة منهم فدان طين ونصفاً ، والبعض فداناً ، والبعض نصف فدان . فتضرر المماليك وقالوا : إيش يكفيننا النصف فدان ! فسبهم القاضي سباً قبيحاً وقال لهم : « يا كلاب يا زرايين ! أنتم بقي لكم باب ولا راس حتى تتكلموا . بيضتم وجوهكم في إيش حتى تستحقوا أطلاقاً » ، وبهدلهم غاية البهذلة .

وفي آخر رمضان أرسل ملك الأمراء أمير علم إلى بيت الأمير قايتباي الدوادار — وكان بين الاثنين حظ نفس — وقال له : قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك في هذه الليلة طبلخانات وكؤوسات . فأرسل الأمير الدوادار يسأل : أدق في هذه الليلة فقط ، أو أدق الطبلخانات على بابي دائماً ؟ فلما بلغه أن القصد الليلة فقط ، لم يوافق وقال : « أدق الطبلخانات على بابي ليلة واحدة حتى تضحك الناس على ؟ » وامتنع .

وكان هذا آخر ما سمع عن التقليد القديم من تقاليد المماليك ، وهو دق الطبل على أبواب الأمراء منذ ترقيتهم إلى أمراء أربعين — أي أمراء طبلخانات — حتى بلوغهم أعلى المراتب . ويقول في ذلك ابن إياس : « وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء حين دخل ابن عثمان إلى مصر ، وبطل ما كان يعمل فيها في يوم العيد من المواكب الجلييلة ، والخلع المتحركات ، والتشاريف السنية ، وبطلت الطرز اليلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . . . ونودي في القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل ، ولا مغاني عرب ولا غير ذلك » . وفي هذا ندرك خشية ملك الأمراء من الروح

المصري الساخر ، القادر على أن يدخل في مغانيه وقصصه وتشخيصه كل ما يفرج به كربته ، ويتندر به من شئون الحكم .

وتزايد الضرر من عساكر الإصباحية في حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم جامع المؤيد ، تحت دكان الذى يبيع الكعك ، والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ، فلم يجسر أحد أن يخلصها منهم .

واستمر النيل في التوقف عن الزيادة ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيشة والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ، وقبض الوالى على امرأة يقال لها أنس ، كانت ساكنة في الأzbekية ، تجمع عندها بنات الخطا اللاتي يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده للوالى كل شهر ، ضريبة عن صناعتها ؛ وكان أمرها مشهوراً ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه .

فلما زاد النيل رجع كل شىء إلى حاله ، وسبب ذلك أن العثمانية تعصبوا في إعادة ذلك ، لأن أكثرهم كان يبيع البوزة في الدكاكين ؛ ورسم ملك الأمراء بأن لا يعارض أولاد أنس فيما يفعلون من جمع بنات الخطا كما كانت تفعل أمهم أنس .

وأمر ملك الأمراء مرة بقتل ثمانية أنفس في يوم جمعه ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، ويسمون ذلك طريقة شك الباذنجان .

* * *

ثم حدث التغير الذى أشرنا إليه من قبل في معاملة الأمراء الجراكسة ، فقد قال لهم أمير الأمراء يوماً : « والله لولا أنا ما خلى الخنكار سليم منكم مملوكاً يلوح على وجه الأرض ، فإني شفعت فيكم من القتل » ؛ فقال له الأمير قايتباى الدوادار : « الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك . »

وآية ذلك أن السلطان سليمان بن سليم كان حريصاً على أولئك الأجناد

الممتازين ، وأحسن ملك الأمراء بذلك فغدير سياسته نحو المماليك ؛ وأقام هؤلاء صدورهم بعد موت سليم ، وصار ملك الأمراء يترضى خواطرهم ، وأخذ القاضي شرف الدين الصغير - وهو الذى كان قد دعاهم بالكلاب والزرايين - يخاطبهم بقوله : يا أغاوات يا أمراء !

ورسم السلطان سليمان القانونى بعودة بقية الأسرى المصريين فى إسطنبول ، فيما عدا أولاد السلاطين ، وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيغان ، لحاجة السلطان إلى مراجعة حساب الديار المصرية ؛ وفيما عدا الأمراء الجراكسة والمماليك ، فإن السلطان لم يأمرهم بالعودة ، ولم يقبل منهم شفاعاة ، واستمروا فى بلاد الروم ؛ ذلك أن سليمان كان قد اعتزم الانتفاع بهم فى حروبه ، وطلب فعلا إلى خاير بيك أن يرسل إليه فرقة منهم لتساعده فى فتح جزيرة رودس .

ولقد وصل الأمير قايتباى بالتجريدة المصرية لملاقاة السلطان بجزيرة تجاه رودس أقاموا بها ثلاثة أيام ؛ وفى اليوم الثالث أوكب السلطان وجلس للعسكر جلوساً عاماً ، فلما نظر قايتباى الدوادار ، عظمه وأكرمه ، هو والأمراء صحبته ، ووقف المماليك الجراكسة قدامه ، فشكرهم وأثنى عليهم ، وقيل إن السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك وقال : أمثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ! وقيل بأنه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الأعظم .

ونعرف بعد ذلك أن وجاقاً سابغاً - أى فرقة - ألف من المماليك الجراكسة وضم إلى الوجاقات العثمانية ، أى إلى جيش الاحتلال العثمانى ، وفى القرون التالية يندس أجناد المماليك بين الوجاقات العثمانية ذاتها .

ولبس المماليك الجراكسة ملابس على هيئة العثمانية ، واختلطوا بهم حتى صاروا لا يعرف هذا من ذاك إلا بشيء واحد ، هو أن المماليك تعرف بذقونهم ، والعثمانية بغير ذقون .

وحتى هذه اللحى لم يقدر لها أن تبقى ، إذ يبدو أن « القانون » العثمانى كان ينص على حلق لحى الجند ، فاستعرض خاير بيك المماليك الجراكسة ، وصار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها بعضها ويضعها له فى يده ويقول له : « امش على القانون العثمانى فى قص اللحى وتضييق الأكمام ، وفى

كل ما تفعله العثمانية « ؛ فنزل المماليك من القلعة وهم في غاية النكد .

فلم يكن المماليك — في العهد الأول للاحتلال — يحضرون حفل استقبال رسول السلطان العثماني ومطالعة مراسيمه . وكان الناس يؤمرون بإقامة الزينات والاحتفالات لاستقبال من كان يدعى القاصد ؛ وجاء قاصد ابن عثمان يحمل خلعة على ملك الأمراء ، وأقامت الناس الزينة نحو عشرة أيام ، وتكلفوا بسبب ذلك كلفة عظيمة من وقيد وقناديل ومشترى زيت ؛ وحصل في هذه الزينة من العثمانية غاية الفساد ، من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصي ليلاً ونهاراً ، حتى خرجوا بذلك عن الحد ، لا سيما ما كان يفعل في خان الخليلي من الفسق .

ولا يعنينا أمر أولئك الجراكسة الذين لم يحسنوا الدفاع عن ملكهم وإمبراطوريتهم بقدر ما يعنينا ما أصاب أهل البلاد الأصلي من رزايا وعن . فقد أشيع أولاً — ثم ثبتت الإشاعة بعد قليل — أنه حاضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاضي قضاة ابن عثمان ، وعلى يديه مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر في وظيفة يقال لها القسم ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثاً على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية [أى المماليك الجراكسة والأتراك] ولا يعارض أحد من الناس في ذلك ، وأن يأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال ، ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من الجراكسة ، وأولاد الترك قاطبة ، وأرباب الدولة ، ولا الإصباحية والإنكشارية [وبقية الوجاقات] يعقد عقداً إلا عند القسم ، الذى يأخذ على عقد البنت ستين نصفاً [الأشرفي يساوى ٥٠ نصفاً] والثيب ثلاثين نصفاً . فأخذ بذلك قسائم على قضاة القضاة ، واضطربت أحوال الناس ولم يتعصب أحد من القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الإسلام في أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم ، وقد ترادفت في تلك الأيام الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشرعية .

وفي أواخر الشهر نفسه حضر « أولاق » من إسطنبول في البحر المالح إلى الإسكندرية ، وطلع إلى ملك الأمراء بمصر ، وعلى يده مرسوم من عند سليمان

ابن عثمان ، ومضمونه أن الواصل إلى الديار المصرية ، الذى يسمى سيد چلبى هو أعظم قضاة السلطان وأكبرهم ، وأن سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم يتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة .

ولهذا معنى خطير جداً ، فإن قضاة المذاهب الأربعة - وجلهم من المصريين الأصالي - كانوا قوة الشريعة فى الدولة المصرية ، تنفذ كلمتهم على سلاطين الممالك . وقد أراد السلطان برقوق يوماً أن يستولى على الأوقاف ، فعقد مجلساً بالقصر الكبير مع الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى والأمراء ، وتكلم السلطان فى أمر محاربة تيمورلنك ، وفى أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ؛ فلم يوافق الشيخ البلقينى على ذلك ، ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية ، والعدو زاحف على البلاد ، وإن لم يخرج العسكر بسرعة ، وصل العدو إلى حلب والشام ، والعسكر لا تسافر بلا نفقة . فوقع فى المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان ، وأغلظوا عليه فى القول ؛ فلما طال الأمر وقع الاتفاق بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضى سنة كاملة ، وتبقى الأوقاف على حالها ، وانفض المجلس على ذلك .

وتكرر ذلك فى سلطنة الأشرف أبى النصر سيف الدين قايتباى الحمودى الظاهرى ، عندما حاول فى تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف ، مبيناً أن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصده الإبقاء منها على ما يقوم بالشعائر فقط ، ويدخل الفائض إلى الذخيرة . فقال الخليفة وقضاة الجاه إلى شىء من معنى الإجابة إلى ذلك ؛ وبينما هم على هذا إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائى الحنفى ، وكان قد تأخر عن الحضور . . . ولما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار ، وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى ، وإذا نفذ جميع ما فى بيت المال ، ينظر إلى ما فى أيدي الأمراء والجند وعلى النساء من حلى ، فيأخذ ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بالحاجة ، فعند ذلك ينظر فى المهم ، فإن كان ضرورياً فى الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة . وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك

على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإننا نخشى الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ، ويقول لنا لماذا لم تنهوا السلطان عن ذلك ، وتوضحوا له الحق . وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . . . ثم قام ، فانجبه منه السلطان وانفض المجلس على غير طائل ، وكثر القيل والقال ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين الدين الأقصري ، وعد هذا المجلس من النوادر .

كان هذا هو سلطان القضاة الأربعة على سلطنة المماليك ، وإذا بذلك السيد جلبي قاضي ابن عثمان وقد حضر وبهدل القضاة المصريين ، ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد فتك بهم في تلك الأيام فتكاً ذريعاً ، وجمع بين قبح الشكل والعقل ، فإنه كان أعور بفرد عين ، بلحية بيضاء ، وقد طعن في السن ، وكان قليل الرسمال في العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئاً في الأحكام الشرعية ، وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء .

ووقعت من ملك الأمراء حادثة مهولة ، وهي أنه أمر بضرب المباشرين ، وأولهم الشهابي أحمد بن الجيعان ، فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضرباً مبرحاً ، حتى يقال تبدل عليه خمس وعشرون نوبة يضربونه بالعصى ، وكذلك القاضي شرف الدين كاتب المماليك ، وقد ضرب مثل سابقه وحمل مريضاً ، وكذلك القاضي شرف الدين عوض ، فحجي الدين بن أبي إصبع ، ثم رسم بسجن الجميع في العرقانة .

ويقول ابن إياس إن أولاد الجيعان خدموا سبعة عشر سلطاناً ، وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزائن في أوائل دولة الأشرف برسباي . وكان أول اشتهارهم وظهورهم في دولة السلطان المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أمينوا قط ، ولا صودروا ، ولا جرى عليهم تشويش ، وهم في كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابي أحمد .

وفي تجريدة المماليك لمعونة سليمان القانوني في غزو رودس ، رسم ملك الأمراء للوالى أن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل أن يجدفوا في المراكب التي تحمل العساكر المسافرة ، فتزل الوالى وأطلق في الناس النار ، وشرع

يقبض على كل من رآه في الرميطة ، وفي الطريق ، وكل من قبض عليه وضعه في الحديد وأرسله إلى السجن حتى خروج العسكر ، وتعدى الأمر من القبض على جماعة من السوقه والعبيد السود ، إلى القبض على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم بمبلغ له صورة ، ثم صار الوالى يركب ويكبس على سواحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتيه والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل . ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقلوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يخفون في المطامير ، وكادت مصر أن تخرب ؛ وقيل مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى إنسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ومات في سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبضوا عليهم ، ماتوا من الجوع وشدة الحر والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك .

* * *

سيستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون التالية بل ويسوء : باشا يجيء وباشا يذهب ؛ لا تتعدى إقامة الباشا منهم العام أو العامين ، ولا يسلم أمره لمن يليه إلا بعد أن يقدم حساباً عن إدارته ؛ فكل باشا يعرف مقدماً أنه مضطر في النهاية إلى دفع ما سيقدر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط .

ومعنى ذلك أن ينهب كل ما يستطيع نهبه ، استعداداً للطارئ المحتوم . وقد نهبوا كلهم ، وسلبوا وقتلوا وعذبوا ، ومن حولهم شيخ البلد وأمير الحج وبقية أمراء الجراكسة ومماليكهم : كلهم يسرقون وينهبون ويعذبون ويقتلون .

هذه صورة مصغرة تصور حال مصر في الثلاثمائة سنة التي انقضت على الغزو العثماني ، وهي الثلاثة القرون التي تسلمنا إلى يوميات الجبرتي ، إلا إذا توقفتنا عند مذكرات قولنيه وغيره من الرحالة الأجانب ، لنعرف ما آل إليه حال مصر .

نكتة الفرنساوية

يسهل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الجزء الثالث من مذكراته استهلالاً بليغاً ، وكان قد انتهى بمجلده الثاني عند سنتي ١٢١١ و ١٢١٢ هجرية ، جامعاً لهما في باب واحد ، معلقاً عليهما بقوله : « لم يحدث فيهما سوى ما تقدمت الإشارة إليه من أسباب نزول النوازل ، وموجبات ترادف البلاء المتراسل ، ووقوع الإنذارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية » وكان يمكنه أن يضيف إلى هذا التعليق ما قاله عن سنة ١٢٠٩ ، وهو عندي أقوى ما جاء في كل تاريخ الجبرتي من تصوير : « سنة ١٢٠٩ : لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » . أقوى ما جاء في تاريخ الجبرتي لأنه بهذه الحملة القصيرة قد لخص تاريخ مصر كله دون قصد .

حقاً لم يقع في تاريخ مصر منذ فجر التاريخ سوى جور الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، جور الولاة والحكام والأمراء والسلاطين والمماليك والباشوات والحيدين وتتابع مظالمهم .

فإذا جاءت سنة ١٢١٣ هجرية [١٧٩٨ م] ، أول سني الجزء الثالث من كتاب « عجائب الآثار » ، أشعرك الشيخ عبد الرحمن بأن أمراً جليلاً سوف يحدث في هذه السنة ، « أولى سني الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالي الحن ، واختلاف الزمن ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وتوالي التدمير . »

ثم هو يلقي بالموعة قائلاً : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . إنما الذي لا يفصح عنه هنا : من هم أهلها ! إذا كان أهلها هم الأجناد العثمانية والأمراء المصرية ، فقد جاء عقابهم عدلاً لا ريب فيه . أما إذا أهلك ربك القرى بمن فيها من الفلاحين ، والمدن بسكانها من مساتير الناس والسوقة والعوام ، فلا نعرف إلا أن أهل مصر على مدى تاريخهم لا يستحقون ظلاماً لا من الخالق ولا من المخلوق .

يكتب الجبرتي مذكراته عن سنة ١٢١٣ وهو عارف بالحوادث التي سوف تترادف ، ويكاد اعتقادي يرقى إلى مرتبة اليقين بأن الشيخ عبد الرحمن لم يفكر في كتابة تاريخه بالصورة التي انتقلت إلينا في جزئيه الثالث والرابع إلا بعد إدراكه أهمية الحوادث التي تمر بالبلاد ، وبخاصة نكتة [واقعة] الفرنساوية ؛ لأن تفكيره في المبتدأ كان متجهاً إلى تأليف كتاب للتراجم ، على غرار الجزء الأول من « عجائب الآثار » .

في عاشوراء عام ١٢١٣ ، وردت إلى القاهرة المكاتيب بأن عمارة إنجليزية من نحو ثلاثين مركباً وقفت بعرض البحر أمام الإسكندرية ، وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، « الرئيس المشار إليه بالإبرام والنقض في الإسكندرية » وذلك بأنهم جاءوا لمداغة الفرنساوية الذين يتهددون بر مصر ، وقد علم الإنجليز أن عمارة فرنساوية كبيرة خرجت من فرنسا برئاسة بوناپارته ، ولا يعلمون مقصدها ، ويخشى الإنجليز أن يدهم الفرنسيون الديار المصرية ، « فلا تقدرُوا على دفعهم » ؛ ولا يطلب الإنجليز من المصريين إلا إمدادهم بالماء والزاد بثمانه ، مع وقوف مراكزهم في البحر من بعيد ، محافظة على الثغر .

ولم يقبل محمد كريم وصحابه ، وأجابوهم بكلام خشن : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل . »

أما أمراء الغز بالقاهرة فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكثرثوا به ، اعتماداً على قوتهم وزعمهم « إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقاتلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيلهم . »

وكان للفرنسيين - برغم هذه الخطرسة - سبيل على بلاد السلطان ، بعد أسبوع من هذا الكلام . وداس الفرنسيون على الممالك وبلاد السلطان في أسبوعين . دخلوا الإسكندرية من جزيرة العجمي ، في جنح الليل ، ودخلوا القاهرة بعد موقعة مع مراد بيك في مديرية البحيرة لم تدم ربع ساعة ، وموقعة مع بقية الممالك في بر إنابة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

لم يدس الفرنسيون الممالك بخيلهم ، وإنما داست خيول الممالك أصحابها في موقعة بر إنابة ، وكان مصير الأمراء المصرية واضحاً محمداً : القتل برصاص

المربعات الفرنسية ، والغرق في النيل ، والهرب ، وقد انتشرت جثث القتلى من الرجال والخيال في ميدان المعركة ، وطففت عمائم الغرقى على سطح النيل في ذلك الوقت من يولية .

ولن يهمننا أمر هؤلاء المماليك العتاة يداسون تحت أقدام خيالهم ، ويحصدهم رصاص الفرنسيين ، ويغيبهم النيل ، فقد دالت دولتهم منذ الغزو العثماني في أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وإن رفعوا رءوسهم بعد حين ، كما سبق القول .

ربما كان لهم العذر أيام الدولة المملوكية الكبرى في العسف والبحور ، إذ استطاعوا أن يدفعوا عن مصر غارات الصليبية والتتار ، وأقاموا لمصر إمبراطورية عظيمة ، امتدت من جبال طورس شمالاً ، إلى بلاد اليمن والنوبة جنوباً ، ومن الفرات والخليج الفارسي شرقاً ، حتى بلاد لوبية غرباً .

أما بعد الغزو العثماني ، فقد انقلبوا ، مع الباشا التركى وأجناد الوجاقات ، منسراً من الطغام ، ومجموعة من البلطجية ، يعيشون على سمعة بطولتهم العسكرية . وقد آذنت شمسهم بالمغيب ، وسوف ينحل برمهم عندما يجئ مغامر أرنوڤدى ، من صنفهم وجبلتهم وإن لم ينشأ مملوكاً ، بل كان تاجر دخان ، ليقضى على بقيتهم بواسطة أجناده الأرنوڤد .

إنما نؤكد هنا ظاهرة فذة في تاريخ مصر ، لم تعرفها منذ ألى عام إلا نادراً ، ألا وهى خروج الشعب المصرى إلى الحرب . فقد مرت القرون ولم نسمع أن المصريين اشتركوا في قتال بالداخل أو بالخارج إلا قليلاً ؛ ولعل آخر ما سمعنا من حروبهم كانت في عهد الأسرات حتى الأسرة العشرين . وفي آخر عهد الأسرات الفرعونية ، كان الجيش المصرى مؤلفاً من الليبيين والإغريق والنوبيين ؛ وسوف نسمع على مدى التاريخ بغزوات وحروب مصرية ، تقوم على أذرع وأسلحة جيش مصرى مؤلف من . . . المقدونيين واليونانيين والليبيين وفرسان العرب والبدو والأكراد والمغاربة والفرغانيين والأتراك والبلقانيين والتتار والقبچاك والجرکس والقوزاق . . . وبعض الجرمان الذين أرسلوا إلى مصر مماليك صغاراً اختطفوا من سواحل البلطيق !

يجب أن نعى ذلك كل الوعى ، وأن لا ننخدع بمواقع صلاح الدين وأسرته ،

ولا بغزوات بيبرس والناصر محمد وقايتباي ، وكلها قامت على كواهل الأجناد الأجنبية . فذلك الوعي له أهمية في فهم ما سوف يحدث بمصر بعد « نكتة الفرنسية » . وهذا الحدث سيكون نذيراً بيقظة الشعب المصري ، وإعلاناً بأن هذا الشعب سوف يستغرق مائة عام حتى يرى أول الغيث في « هوجة عراقى » ومائة وخمسين عاماً حتى ينهمر الغيث أثناء حركة الجيش المصرى الصميم ، حركة البعث الكبرى « فى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » .

هذا الحدث الكبير ، كان تطوع أهل القاهرة للذود عن حياضها ، ومحاولة الوقوف في وجه الغزاة .

لم يخرج المصريون لمحاربة الإسكندر ، ولا لمقاتلة أوكتافيانوس أغسطس قيصر ، ولا لصدد عمرو بن العاص ، ولا لصدد جنود هولاجو ، ولا لمحاربة الصليبيين ، ولا الفاطميين ولا العثمانيين . ولكنهم أمام كل غزو بكوا ضياع الحرية وأحسوا — وهم الشعب المتحضر العريق — بزوال سؤددهم ، وانحطاط دولتهم . وكان شعورهم بالمأساة قوياً جداً كلما اقتحم عليهم الغزاة عقر دارهم ، وقوضوا عرشهم [حتى حين يكون الجالس على هذا العرش أجنبياً عنهم] لينزل بوطنهم إلى مرتبة الولاية يحكمها إمبراطور فى روما، وخليفة فى شبه جزيرة العرب، وخاقان فى الأستانة .

وسرى منذ هذا المحرم سنة ١٢١٣ هجرية — أى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى — أن شيئاً جديداً قد حدث ، عندما قام شعب القاهرة يدفع عداته ويدافع عن حومته .

ولم يكن هذا الحدث فريداً ، بل جاء بعد مقدمات وعلامات لا بد من الإشارة إليها واحدة واحدة : فى سنة ١١٩١ [١٧٧٧ م] كان يوسف بيك الكبير ، من أمراء محمد بيك أبو الذهب ، رجلاً سهل الاحتداد والتخليط فى الأمور ، ولا يستقر بالمجلس ، بل يقوم ويقعد ويصرخ . ولما تولى إمارة الحج ازداد عتواً وعسفاً وانحرافاً ، وبخاصة مع طائفة الفقهاء والمعلمين . وقد وجد فى حادثة الشيخ صادومة فرصة للنيل من المشايخ . وكان الشيخ صادومة من سمهود ، وله باع طويل فى الروحانيات ، وتحريك الحمادات والسيئات ، ويكلم الجن ويشافهم ويظهرهم للعيان ؛ كان الشيخ أحمد صادومة ، بلغة عصرنا ، دجالاً

كبيراً ، وقد كشف يوسف بيك ذات يوم عن حجاب خباته إحدى محظياته
بمكان من جسمها ، وقررت أن الشيخ كتبه لها ليحبها إلى سيدها . فقبض
يوسف بيك على الشيخ ، وأمر بقتله وإلقائه في البحر ، ثم احتاطوا على داره ،
وأخرجوا أشياء كثيرة ، منها تمثال من قطيفة على هيئة عضو الإنسان . واحتفظ
يوسف بك بهذا التمثال القطيفة ، ليظهره لمن يجلسون معه ، ويتعجبون ويتصاحكون
وهو يقول : « انظروا أفاعيل المشايخ » .

ثم اتفق أن الشيخ حسن الجداوى المالكى طلق امرأة في غيبة بعلمها ،
وزوجها من الشيخ عبد الباقي ، وحضر زوجها الأول من الفيوم ، وذهب إلى ذلك
الأمير يشكو له الشيخ عبد الباقي ؛ فقبض على هذا الأخير في منية عفيف ،
وأهانته ، ووضع الحديد في رقبته ورجليه ، وحبسه في حاصل أرباب الجرائم ؛
فركب الشيخ على الصعيدي العدوى ، والشيخ الجداوى ، وجماعة كثيرة من
المعممين ، وذهبوا إليه ، وخاطبه الشيخ الصعيدي وقال له : « ما هذه الأفعال
وهذا التجارى ؟ » فقال له : « أفعالكم يا مشايخ أقبح ! من يقول إن المرأة تطلق
من زوجها إذا غاب عنها ، وعندها ما تنفقه وما تصرفه ، ووكيله يعطيها ما تطلبه ؟ »
فقالوا له : « هذا قول في مذهب المالكية معمول به ، ونحن أعلم بالأحكام
الشرعية » . فقال : « لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح . . » فقاطعه الشيخ
الجدادى : « أنا الذى فسخ النكاح على قاعدة مذهبي » ، فقام الأمير على أقدامه
وصرخ قائلاً : « والله أكسر رأسك » . فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه
وقال له : « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ،
ومن جعلك أميراً » . وتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون حديثه وحدثهم ،
وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس ، وأخرجوا به وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم .
وحدث ما يشبه ذلك عندما قبض هذا الأمير على الشيخ عبد الرحمن العريشى ،
وحبسه عند الخازندار ؛ فركب الشيخ السادات إليه ، وكلمه في أمره ، وطلبه من
محبسه ؛ فلما علم الشيخ عبد الرحمن بحضور شيخ السادات ، رمى عمامته وفراجه ؛
وتطور وصرخ ، وأخرج يعدو مسرعاً وهو يقول : « ينخر بيتك يا يوسف بيك » ،
ونزل إلى الحوش صارخاً بأعلى صوته ، واحتد يوسف بيك وقام على أقدامه يصرخ
(٤)

على خدمه ويقول : « امسكوه ! اقتلوه ! » ونحو ذلك ، وشيخ السادات يهدثه قائلا :
« اجلس يا مبارك » ثم أخذ الشيخ عبد الرحمن إلى داره وتلافوا القضية .

وفي حادثة أخرى أرسل يقبض على شيخ من رواق المغاربة ، فاجتمع
المجاورون وطرّدوا المعينين للقبض وشتموهم . وأخبروا الشيخ الدردير ، فكتب هذا
إلى يوسف بيك بأن لا يتعرض لأهل العلم ، ومعاندة الحكم الشرعي ، وأرسلها
صحية الشيخ عبد الرحمن الفرنوي وآخر . فهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم .
فقام الشيخ الدردير وإخوانه وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات بالأزهر ، وأقفلوا
أبواب الجامع ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يدعون
على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق الحوانيت ؛ وعندما حاول إبراهيم بك الكبير
تهدئة الحال وأرسل أغا بيت المال ، اجتمعت على الرسول طائفة من المغاربة ،
ومعهم بعض العوام ، وبأيديهم العصي والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورجموه
بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه ، فقتل ثلاثة من
المجاورين ، وانجرح عدد منهم ومن العامة . وانتهت الفتنة بإعطاء كل ذي حق
حقه ، واشترط المجاورون عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر .

وفي سنة ١٢٠٠ [١٧٨٥ م] ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل
من هجوم حسين بك شعت على دار شيخ دراويش البيومي ، أحمد سالم الجزار ،
وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتفت عليهم جماعة كثيرة من أوباش
العامة والجمعيدية وبأيديهم نبايت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير ، فونّسهم
وساعدتهم وقال لهم : « أنا معكم » ؛ فخرجوا من نواحي الجامع ، وقفّلوا أبوابه ،
وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا
بالأسواق في حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « في غد
نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب
بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » . فلما كان بعد
المغرب ، حضر سليم أغا مستحفظان ، ومحمد كتحدا أرزؤد الحلقي ، كتحدا
إبراهيم بك ، وجلسوا في الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه ،
وخافوا من تضاعف الحال وقالوا للشيخ : « اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها

من محل ما تكون » . واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة وانصرفوا .
وركب الشيخ في صبحها إلى إبراهيم بك فأرسل إلى حسين بك وأحضره
بالمجلس وكلمه في ذلك ، فقال : « كلنا نهابون - أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ،
وأنا أنهب كذلك » ، وانفض المجلس وبردت القضية .

وفي سنة ١٢٠٩ ، جاء الأهالي للشيخ الشرقاوى يشكون من محمد بك الأتلي ،
وذكروا له أن أتباعه ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ ،
وذهب إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وأقفلوا الأبواب ، وأمرؤا الناس بإغلاق الأسواق
والخوانيت . وفي ثاني يوم ركبوا ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وذهبوا
إلى بيت الشيخ السادات ، ومنه إلى بيت إبراهيم بك ، وأخذوا يصيحون : « نريد
العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي
ابتدعتموها وأحدثتموها . »

* * *

هذه أمثلة من الحركات الشعبية التي كانت تحدث في ذلك الزمان بزعامة
الشيخ الدردير وغيره من المعممين . ولنا أن نتساءل : كيف صبر الشعب المصري
طوال هذه الأجيال والقرون وهو يعاني الضيم والجور ؟
المهم أن غزواً أجنبيّاً حدث في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ومن جيش
أمة لا تدين بالإسلام .

أما في الإسكندرية فقد تجمع أهل الثغر وانضم إليهم العربان وكاشف
البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعة الفرنسيين ، ولم يثبتوا لحربهم ، وانهمز الكاشف
ومن معه من العربان . ورجع أهل الثغر إلى الترس في البيوت والحيطان ، ودخل
العدو البلد لخلو الأبراج من آلات الحرب ، ولكثرة العدو وغلبته . فطلب أهل
الثغر الأمان ، ورفع عنهم القتال .

وفي مصر حاولوا الدفاع بإرسال رسول إلى إسلامبول على طريق البر ، « ليأتيهم
بالترياق من العراق » ، كما يقول الجبرتي متندراً . وانهمز مراد بك ومن معه أمام
طلائع الفرنسيين بقيادة الجنرال ديزيه ، قرب الرحمانية . واشتد انزعاج الناس

بمصر ، وبدأ إبراهيم بك فى عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وتولى إبراهيم بك الدفاع عن بولاق ، بينما قام المشايخ والأزهر على قراءة البخارى وغيره من الدعوات ، وكذلك أرباب الطرق والأشايير ، وأطفال المكاتب ، وكانوا يذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء ، وحضر مراد بك إلى بر إنابة ، وعمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمرأؤه وجماعة من خشداشيته ، وحصنوا النيل بالمراكب الكبار والغلايين ، فصار البر الشرقى والغربى ومجرى النيل مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . ومع ذلك فالأمرأء لم يطمئنوا ، بل نقلوا أمتعتهم إلى الخواصل والبيوت الصغار غير المعروفة ، وأرسلوا البعض منها إلى الأرياف . فلما رأى أهل البلد منهم ذلك ، داخلهم الفرع ، واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهرب .

ثم نادوا بالنفير العام ، وخرج الناس للمتاريس ، وقد أغلقوا متاجرهم ، وخرج الجميع لبر بولاق ، فكانوا ينصبون الخيام بنقود جمعوها من كل طائفة ، أو يجلسون فى مسجد أو مكان خرب ، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، فلم يشحَّ فى ذلك الوقت أحد بشيء يملكه .

وخرجت الفقراء وأرباب الأشايير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات ، وهم يفضجون بالذكر ، وصعد عمر مكرم إلى القلعة ، فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة « البيرق النبوى » ، فسار به إلى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبايت والعصى والمساق ، يهللون ويكبرون . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يبتهلون إلى الله بالنصر .

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ، ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحي شبرا وما والاها . وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والبحيزة والصعيد والخيرية وأولاد على والهنادى وغيرهم .

هذه إذن حركة وطنية عارمة بالقاهرة وضواحيها ، تحاول أن تؤدى ما عليها نحو الوطن ، وأن لا تفوت الفرصة التى ضاعت على أهل الإسكندرية . فهى

من ناحية الشعب المصرى يقظة وتساند فى الدفاع عن الحمى .
ولكن الشعوب لا تدافع بهذه الطريقة ، ولا على هذا النمط من « المهرجلة » .
ولا شك أن فوزى حكم العثمانيين والمماليك ظهرت بأجلى صورها فى تلك اللحظات
الحاسمة . لم يجهز الشعب لقتال ولم يعد له . فالحال لم يتغير عما كان عليه فى أية
حقبة سابقة من التاريخ المصرى ، الإسلامى أو المسيحى أو الوثنى ، منذ فتوحات
الرعامة : أجناد أجنب مهمتهم القتال ، وشعب مسلم يتابع صناعات « السلام » .

وسرى أن هذه الجموع الحاشدة لم تعمل شيئاً أكثر من الصياح والدعاء
والتكبير ، والتلويع بالنبايت والمساوق . بل إن الحركة لم تعد القاهرة وأرباضها ،
وقد انقطعت الطرق ، وتعدى الناس بعضهم على بعض . وأغار العرب على الأطراف
والنواحي . وأخذ الأمراء المصرية يتحفظون على التجار الإفرنج ، ويحبسون بعضهم
بالقلعة . وكذلك جرى التفتيش على بيوت نصارى الشوام والأروام والكنائس
والأديرة ، وهددت العامة بقتل النصارى واليهود .

فهى لم تكن حركة وطنية بالمعنى الحديث ، إنما هى « هوجة » فى شعب القاهرة
المسلم ، لم تدرك من غزو الفرنسيين إلا معنى واحداً ، وهو « عودة الحرب الصليبية » ،
فهؤلاء نصارى يغيرون على بلاد الإسلام .

استمع إلى الجبرقى : « وضج العامة بالبر الشرقى يصيحون : يا رب ويا لطيف ،
ويا رجال الله ! ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان
العقلاء يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك قائلين لهم إن الرسول وأصحابه والمجاهدين ،
إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والنباح .

وبعد أن حلت الهزيمة بمراد بك فى البر الغربى [موقعة إنابة] حول الفرنسيين
المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها ، فركب إبراهيم بك والباشا والأمراء
والعسكر والرعايا ، وتركوا جميع الأثقال والحيام ، وسار الكبار إلى العادلية شمالاً ،
أما الرعايا فهاجوا وماجوا ، وعادوا إلى المدينة يضجون بالعويل والنحيب .

ثم خرجت القاهرة بعد ذلك بما يشبه الإجماع ، يهاجر أهلها شرقاً وشمالاً
وجنوباً ، وما إن توسطوا الفلاة ، حتى تلقاهم العربان والفلاحون وأخذوا متاعهم

وأحماهم ولباسهم ، فلم يتركوا لهم ما يستر عورة ، أو يسد جوعاً ؛ وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن ، « وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة » .
 هذه الحركة الشعبية المشهورة — وسوف تتلوها حركتان أشد خطورة لمقاومة المحتل الفرنسي — فيهما دلالة على يقظة الروح القومية ، ولكن في حدود ديانة الأغلبية ، وما لا يتعدى أحياء القاهرة وبعض مناطق بالصعيد — وسوف ينتظر الشعب المصري أكثر من قرن حتى يثوب إلى الشعور بمصريته .

فهؤلاء هم المصريون يطلب إليهم الفرنسيين أن يقيموا من بينهم حكماً فيكون جوابهم : « إن سوق مصر لا يخافون إلا من جنس الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم » .
 فاضطر الفرنسيين على كره أن يسندوا « أغاث مستحفظان » وولاية الشرطة وأمانة الاحتساب إلى جنس المماليك ، بل قلدوا برطلمين الرومي النصراني — « فرط الرومان » بلغة العامة — « كتحدا مستحفظان » ، وهو من أسافل نصارى الأروام القاطنين بمصر ، وله حانوت بنحط الموسيقى يبيع فيه القوارير .

ومهما كان من ضلالة هذه الحركات ، فإن مجرد إضافتها إلى ثورة الشعب على ظلم المماليك ، بقيادة الشيخ الدردير ، يجعل لها معنى عميقاً . فقد كانت بدء صحو هذا الشعب المسكين منذ ثورته الدينية على جنود بيزنطة أيام الصراع بين مسيحية الأقباط (أى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح) ومسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الاعتقاد بازدواج طبيعة المسيح) ، وذلك في القرن الخامس الميلادي ، ثم بين سكان الحوف الشرقى من الأقباط وبين أحد الولاة المسلمين في عهد المأمون .

ولن تقوم للشعب المصري قائمة بعد فتن الاحتلال الفرنسي إلا في أواخر القرن التاسع عشر عندما يتحرك الضباط المصريون ويثورون على رؤساء الجند من الجراكسة ، وتبلغ ثورتهم من العنف ما يحمل القوات الأجنبية على التدخل لتسند الحديير المتخاذل الواهن .

وكما قضى الاحتلال البيزنطى على ثورة المصريين في القرن الخامس ، والاحتلال العباسى على ثورة الأقباط في القرن الثامن ، والاحتلال الفرنسي على ثورة القاهريين

فى القرن الثامن عشر ، فى حركة عربى سوف تترنح تحت ضربات البريطانيين ، يساندهم الجراكسة والأتراك والأسرة الأرثوذكسية ، وتخبو نار الوطنىة المتأججة تحت أقدام الاحتلال البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر .

سوف يرتفع صوت مصر بلسان مصطفى كامل ومحمد فريد فى العشر السنين الأولى من القرن العشرين ، وسوف تجىء جنازة صاحب « اللواء » مظاهرة من أروع المظاهرات الشعبية . ثم تعود مصر إلى غفوة لن يطول أمرها هذه المرة .

سوف يشرق فجر القومية المصرىة فى سنة ١٩١٩ . وحركة الشعب المصرى فى مارس من ذلك العام وما تلاه ، جديرة بعناية المؤرخين ، لأنها تميزت بكل صفات القومية الكاملة ، لا أثر فيها للدين ولا للملة ، ولا زيغ فيها نحو خلافة الباب العالى ، أو نحو المحتل . ومع أنها كانت حركة تحرير من الرقبة الأجنبية ، فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربىة ولم تنبذها . فالكل مصرىون قبل كل شىء ، يقاومون الغاصب ، ويطلبون لبلادهم الاستقلال السياسى والتحرر الاقتصادى والفكرى . أى أنهم يهاجمون الرجعية فى كل صورها .

ثورة سنة ١٩١٩ لن تتوقف بعد هذا ، ونارها لن تخبو ، وإن تأمر عليها ، بالدس والخديعة ، الأغنياء والملك وبطانته ، يظاهرون الإنجليز عياناً بياناً فى بعض الأحيان ، ومن خلف الستار فى أغلب الأوقات ، وما كان أيسر اللعبة على المحتل وعلى صاحب العرش : لعبة فرق تسد . فالملك ينحرف عن الحركة الشعبىة — وكان كارهاً لها فى السر والعلن — مستنداً إلى قوة المحتل . ثم هو يشاكس الغاصب فى سبيل أغراضه الخاصة ، مستنداً إلى فريق من المارقين ، جمعتهم جامعة الجشع وروح الإقطاع والرجعية والتزلف للألبانى ابن الألبانى الجالس على العرش . فئة ملعونة من محترفى السياسة وجامعى المال والألقاب ، لا يراعون للوطن حرمة ولا حقاً .

لو لم تقم ثورة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، لحق للمؤرخ أن يحرر شهادة الوفاة لثورة سنة ١٩١٩ ، ولاستطاع أن يحدد بالدقة ظروف موتها . وكان ذلك بعد تأليف وزارة الوفد الأخيرة ، وقد قامت على أكتاف الشعب فى انتخابات حرة نسبياً ، قامت ضد الملك المستهتر ، وعلى كره منه ، فما كان

أسرع تلك الوزارة إلى خطب ود الملك ، ونوال مرضاته .
 كلا ، لم تمت ثورة سنة ١٩١٩ ، ولقد شعرنا بالحياة تدب في أوصال القومية
 المصرية في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، وأحسنا بنارها تضطرم في
 قلوب الشباب ، طلبة وعمالا ، في كل وقت .
 لذلك أحببت أن أسمى حركة الجيش المصري سنة ١٩٥٢ « ثورة البعث الكبرى »
 لأننى عشت ثورة سنة ١٩١٩ ، وأنا من شبابها ، وراقبت في وعى كيف جارت
 عليها العوادي ، وهى ترفع رأسها بين الفينة والفينة ، لم أكد أستعد لتشيعها إلى
 قبرها ، بعد استسلام حكومة الوفد وبرلمان الوفد للملك العايب ، ثم بعد حريق
 القاهرة في نوفمبر ١٩٥١ — أو ما أسميه حركة انتحار الشعب المغلوب على أمره ،
 وقد فقد كل أمله في ممثليه — حتى صحوت يوم ٢٣ يولييه ١٩٥٢ على صوت البشير
 بنهاية الإقطاع والأرنؤد والجراكسة وعلى رأسهم « شبل إسماعيل » ، وسليل « محمد
 على باشا الكبير » .

أذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس ، أذكر حالتى التاعسة في الأسبوعين اللذين
 تقدما حركة الجيش ، كنت أصحو مبكراً لأجلس إلى نافذتى المطلّة على البحر ،
 أراقب شراع السفن البيضاء تظهر في البعد ، كأنها أجنحة النوارس . أجلس وحيداً
 ساهماً واجماً ، أبكى وطنى ، وكأننى فقدت كل أعزائى في هذا العالم . ثم يدق
 التليفون ليزف إلى البشرى ، فأشعر كأننى عدت من بلاد الغربة النائية ، لألتقى
 بأهلى فى نشوة الفرح ، وأقدامى تطفأ أرض الوطن الدافئ الحانى . وخرجت إلى
 الناس فوجدت شعورهم يلبس شعورى ، وأحسست فى تلك اللحظات كأننا
 نعود جميعاً من ظلام القبور .

من كان يظن أن الشعب المصرى ، الذى بدأ حركاته القومية بالنبايت والمساوق
 وقراءة البخارى ، يتولى أمر تحريره فى النهاية أبنائوه الأصالى من حملة السلاح ،
 رجال المدافع والدبابات والطائرات والطرادات ؟ ولكنه منطق التايخ ، الذى لا يحسب
 أعمار الأمم بالأيام ولا بالأشهر . فقد كان هذا الشعب المصرى ، الذى أغفى إغفاءة
 أهل الكهف ، بحاجة إلى قرن ونصف وقرن من الزمان ، ليصحو صحو الأسد
 المعافى . ما هو قرن ونصف قرن فى عمر أمة تحمل ألوية الحضارة منذ ستين قرناً ؟

الباشا والمصرية

لم يكن محمد على باشا إلا صورة كاملة من عهده ، خرج من دولة المؤامرات والنهب والتقتيل والرشوة برتبة «سرشمة» - لفتنانت كولونيل - في جنود العثمانيين الذين جاءوا ليخلصوا مصر من حكم الفرنسيين . وما أسرع ما فهم هذا الثعلب نوع الوسط الذى يعمل فيه ، وما كان أشبهه بوسط الدولة العلية وإن كان أعمق فساداً وأكثر اختلاطاً ، فيه نفاية كل الأجناس والنحل : من المماليك أو ما يعرفون بالأمراء المصرية ، ومن الأرئود والدلاة والتكرور والمغاربة ، وفيه من أشتات الوجاقات العثمانية الينكجرية [الانكشارية] والإصباحية والجاويشية والعزب والجملان ، وكلها ذئاب عاوية جائعة إلى الأسلاب ، عطشى بالدماء ، اجتمعت في أرض الله المباركة ، أرض الخير العميم ، والشعب المسلم السليم النية ، الخافى على زراعته وفنونه وصناعاته ، بلاد الدين الخفيف يقوم عليه رجال فضلاء من شيخة الجامع الأزهر ، جلهم من أهل التقى والورع ، متجردون عن الدنيا ، متفقهون مؤمنون .

والقصة التالية صورة صادقة من ذلك العهد الحالك الأغبر ، تفسر نفسها بنفسها ، وتوضح أحداث مصر الداخلية في أواخر القرن الثامن عشر توضيحاً لا لبس فيه ، بل هي المقدمة لما تم على عهد «المصلح الأكبر» ، رأس الأسرة العلوية ، من مذبحه المماليك وفنى السيد عمر مكرم والافتتات على حقوق الشعب المصرى الذى لم يحسبوا له حساباً حتى انتصف القرن العشرون .

حدثت وقائعها بين الإسكندرية ورشيد والرحمانية وشلقان وزفيتة ومنية السيرج والقرين والقاهرة ، بطلها رجل من أصل جزائرى اسمه على باشا الطرابلسى ، بسبب توليته ولاية طرابلس . وكانت صفته أبيض اللون عظيم اللحية والشوارب ، قليل الكلام بالعربى ، يحب اللهو والخلاعة .

منقولة بنصها عن ذلك الكتاب العظيم : «عجائب الآثار» ، للشيخ عبد الرحمن الجبرقى ، الوصافة الصادق والوطنى الكبير ، الذى عرك الحياة المصرية بكل تفاصيلها ، وترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق ، فيما بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

في موسم من مواسم الحج ، والقرن الثامن عشر في عشريناته الأخيرة ، روع الحجاج بنجر رجل فاسق يصطحب معه غلامين جميلين . وقد رأى الحجاج الطرابلسيون هذا الرجل ، وعرفوا بأمر الغلامين فذهبوا من توهم لأمير الحج الشامى ، وعرفوه عن الغلامين - وكانا من أولاد الأعيان في طرابلس - وعن الرجل الفاسق - وكان والياً من قبل إسلامبول على طرابلس - فأرسل أمير الحج جماعة من أتباعه في حصة مهمة ، وكبسوا على الباشا ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين ، أو على حد قول الحريرى في إحدى مقاماته : وجدوه «مسافناً لتلميذ» ، على جدى حنيد ، وكأس نبيد . وتبعهم الطرابلسية ، وأخذوا يسبون ويلعنونه ويتنفون لحيته ، وقد

هموا بقتله ، وجرحوه جرحاً بالغاً ، وأخذوا منه الغلامين ليردوهما إلى أهلهما في طرابلس الغرب .

وذهب الرجل الفاسق - واسمه على باشا الطرابلسي - إلى مصر ، وأقام معزراً مكروماً عند مراد بك الأمير المصري ، حيث بقي ما يزيد عن ست سنوات . وحارب الفرنسيين مع الأمراء المصرية في موقعة إنابة ، وهرب معهم إلى قبلي وغير قبلي ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل الشرقي ، وسار إلى الشام ومنها إلى إسلامبول ، وهناك طلب ولاية مصر . . . وفاز بولاية مصر .

وتبدأ قصتنا قبل ولايته بقليل ، عندما هرب محمد باشا خسرو والى مصر إلى جزيرة بدران ، بعد أن نهب العساكر الأرثوذكس بيته في الألبانية ، وأسقطوا بنبة على الباذاهنج ، ثم أحرقوا البيت . وانتقل الأرثوذكس إلى بيت المحروقي ، وبيت حريم خسرو باشا ، وبيت المعلم جرجس ، فهبوها ، كل ذلك بقيادة طاهر باشا ، يساعده محمد علي سرششمه ، ذلك الضابط المغامر الذي ترك تجارة الدخان في قولة وانضم إلى الجنود العثمانية الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيين ، وتخليص ولاية مصر من حكمهم ، لتعود غنيمة سائغة للعثمانيين .

دامت ولاية محمد باشا خسرو سنة وثلاثة أشهر ، وكان سيئ التدبير ، سفاكاً للدماء ، يتكرم على من لا يستحق ، ويبخل على من يستحق . فأنقذ الله منه عباده ، وسلط عليه جنده وعساكره حتى خرج مرغوماً مقهوراً ، ووصل إلى قليوب حيث عشاءه شيخ العرب الشواربي ، ومنها سار إلى دجوة . . .

ونستأذن القارئ في أن ننسى أمر هذا الخسرو في دجوة ، سواء بقي فيها إلى آخر الزمان ، أو غادرها إلى حيث «ألقت رحلها أم قشعم» . ولنعد إلى مصر حيث تولى طاهر باشا قائممقامية البلد ، انتظاراً لفرمان من إسلامبول بتوليته . واعتماداً على عساكره الأرثوذكس قبض على أغا الإنكشارية وباش اختيارهم ، وعلى أغا العزب ، وكل من استطاع أن يضع عليه يده من كبار رجال الوجاقات . وامتد جوره إلى سرتجار مصر ، السيد المحروقي ، فقبض عليه أيضاً .

وفي ذلك الوقت قبضوا على المعلم ملطي ، وكان قاضياً أيام الفرنسيين ، فرموا

رقبته على باب زويلة ، وكذا قطعوا رأس المعلم حنا الصبحاني ، من تجار الشوام ، عند باب الحرق .

وشمخ الأرئود بأنوفهم على الإنكشارية ، وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم فخذ السلطنة ، والأرئود خدمهم . فضاق خناق الإنكشارية ، وركبوا من قلعهم بجامع الظاهر نحو المائتين وخمسين نفرأ ، وذهبوا إلى طاهر باشا يطالبونه بجمالكهم تحرشأ وكيدأ ، فعنفهم ونتر فيهم ، فبادره أحدهم بضربة يطحجان أطارت رأسه من الشباك إلى الحوش ، وسحبت طوائفهم الأسلحة ، ودب الحريق والنهب ووقع في الناس كرشات .

وكان طاهر باشا معروفاً بالهوس والانسلاب ، والميل للمجازيب والمسلوبين والدراويش . فلما رأى الأوباش منه ذلك ، تزياكل منهم بما سولت نفسه وشيطانه ، ولبس طرطورأ طويلا ومرقعة ودلقأ ، وعلق له جلاجل وبهرجان ، وعصا مصبوغة وفيها شخاشيخ وشراريب ، وطبلة يدق عليها ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنة ، موهماً بأنه من أرباب الأحوال .

انتقل الصراع بعد مقتل طاهر باشا الأرئودى بين أحمد باشا وإلى القاهرة وإنكشاريته ، وبين محمد على سرششمه وأرئوده ؛ وكان محمد على يمالئ الأمراء المصرية حتى عدئ كثير منهم ، ومعهم العربان ، من الجبل إلى المدينة ، وساروا إلى باب النصر وباب الفتوح وأقاموا هناك . وبذلك انحل برم أحمد باشا وتفرق عنه غالب الإنكشارية . وجاءه الأمر من إبراهيم بك بتسليم قتلة طاهر باشا ، وبأن يخرج خارج البلد ومعه مهلة إلى حادى عشر ساعة من النهار ، ولا يقيم إلى الليل ؛ فامثل وخرج فى حالة شنيعة ، وكانت ولايته يوماً وليلة لا غير .

وبذلك صفا الجو لإبراهيم بك ، ومر الوالى ينادى بالأمان « حسب ما رسم إبراهيم بك ، وأفندينا محمد على » ، وكثر مرور الغز والكشاف المصاروة ، وترددوا إلى المدينة وعلى أكتافهم البنادق والقرايين ، وخلفهم المماليك والعربان ، وهم يسندون سلطة إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على سرششمه .

وتخلصوا من الإنكشارية بالتعرية والطرده والقتل ، وقد نادى الوالى على الأتراك

والإنكشارية والبشناق والسجماق بالخروج من مصر ، فجلا منهم عن البلاد نحو ألفين وخمسمائة .

وما كاد إبراهيم بك يتولى قائمقامية مصر ، حتى وصل الخبر من الأستانة بتولية بطل قصتنا على باشا الطرابلسي على مصر ، وتأكد الخبر بوصول المذكور إلى الإسكندرية . وأرسل الباشا الحديد خطاب تأنيب للأمراء المصرية على ما حدث من طرد الباشا خسرو وقتل طاهر باشا .

لم يكن الأمراء المصرية ليقفوا مكتوفي اليدين أمام هذا الوالي ، وهم ما صدقوا أن تخلصوا من الفرنسيين ، فليس لديهم أية رغبة في عودة الحكم العثماني إلا في أبسط صورة .

أسرع عثمان بك البرديسي إلى جر شكل الوالي الحديد على باشا الطرابلسي عند بلدة البرج شمالي رشيد . وأرسل إليه الباشا رسولا يواجهه البرديسي بقوله :

— ما المراد ؟ إن كان حضرة الباشا والياً على مصر ، فليأت على الشرط والقانون القديم ، ونقيم معه على الرحب والسعة ، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا ، ولكم مهلة ثلاثة أيام .

وبعد ساعتين من انقضاء الإنذار ضرب عليهم البرديسي مائة وخمسين قنطاراً من البارود ، وأرسل خطاباً إلى إبراهيم بك يقول فيه « . . . وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم من البنب والمدافع والبارود » . فشهلوا المطلوب وأرسلوه في ثاني يوم ، مع صحبة حسين بك الافرنجى .

وحاول الأحمق على باشا الطرابلسي أن يقطع طريق الإسكندرية على البرديسي ، فكسر السد الذى بناه أبو قير ، وهو السد الحاجز على البحر المالح ، وكان من قديم الزمان من السدود السلطانية العظام المتينة ، تتفقدده الدول على مر الأيام بالمرمة والعمارة . فلما اختلت الأحوال وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات ، انشرم منه شرم فتسربت المياه المالحة على الأراضي والقرى ما بين رشيد والإسكندرية . ولما جاء الإنكليز والعثمانية لإخراج الفرنسيين ، شرهوه أيضاً من الناحية البحرية لأجل قطع الطريق على الفرنسيين ، فبلغت المياه المالحة إلى قرب دمنهور ، واختلطت بخليج الأشرفية ، وشرقت الأراضي ، ونحربت القرى

وتلف الزرع وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البحر ، وامتنع وصول الماء إلى أهل الإسكندرية . ولما استقر العثمانية أصلحوا هذا السد ، ولم يكذب فرح الناس بهذا الإصلاح ؛ حتى جاء على باشا وفتحته ، ليمنع وصول البرديسي ورجاله إلى الإسكندرية .

فذهب البرديسي رشيد ، وشحن برج مغيزل — أمام رشيد على الضفة الشرقية للنيل — بالذخيرة والجبخانه .

ونقص النيل في أيام النسيء ، وحلت المجاعة ، واجتمع مشايخ مصر وتشاوروا في الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، وذهبوا إلى إبراهيم بك فقال لهم : ما أحب ذلك إلي ! فقالوا له : ولكن كيف نحقق شروط الاستسقاء ، ومن جعلتها رفع المظالم ورد الحقوق والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك ؟ فأجابهم : هذا أمر لا أقدر عليه وحدي ، ولا أحكم فيه إلا عن نفسي . فقالوا له : إذاً نهاجر من مصر . فأجابهم : ورجلي على رجلكم

واضطرت المجاعة البرديسي إلى إخلاء رشيد والبرج وبرج مغيزل والعودة إلى مصر . وخرجت الفقراء بمقاطفهم للملاقاتهم ، وعيطوا في وجوههم ، فوعدهم البرديسي بخير ، وأرسل محمد على سرششمه وخازن داره ، ففتحوا الخواصل في بولاق ومصر العتيقة ، ووزعوا الغلال بالبطاقات : وبيدة غلة لكل شخص من الفقراء ، فحصل للناس اطمئنان . وما هي أيام حتى أنزلوا بالشعب فردة ، وانقلب الوضع المشروع ، وانعكس الحال إلى أمر شنيع ، وتسلبت العسكر والممالك على خطف ما يصادفونه من الغلة والتبن والسمن ، وسرّب الناس بهائمهم من عدم العلف

وفي الإسكندرية كان على باشا الطرابلسي قد اطمأن إلى حاله بعد سفر البرديسي ، فرتب طائفة من عسكره على طريقة الإفرنج ، فكان يخرج منهم في كل يوم إلى جهة المنشية فيصطفون ويعملون « مارش وأردبوش » ثم يعودون . وفي مرة أثناء عبورهم بمساكن الإفرنج ووكالة القنصل ، أخرج الإفرنج رؤوسهم من الطيقان نساء ورجالا يتفرجون عليهم كما جرت العادة ؛ ويبدو أن بعض الإفرنج أفصح عن سخريته بنظام الجندية المنحرف عن طبيعتهم ، فضرب عليهم

العسكر بالبنادق من أسفل ، وضرب الإفرنج عليهم من الطيقان ، وهجم الجند عليهم في منازلهم ، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ، ونزلوا إلى البحر ، وطلعوا غليون الريالة ، وكتبوا كتاباً بصورة الواقعة ، وأرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم .

وأرسل على باشا الطرابلسي خورشيد باشا وإلى الإسكندرية إلى القناصل ، فأخذ بنحواطرهم وضمن لهم ما أخذ منهم .

وراح على باشا يجمع أهل الإسكندرية علماءها وأعيانها ، وطلب منهم كتابة « عرض محضر » على غير صورة الحال - محاولة منه لتبرئة نفسه في إسلامبول - فامتنعوا عن الكتابة بالزور والبهتان . وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيري المالكي ، ففقهه الباشا ووبخه .

* * *

خرج على باشا الطرابلسي من الإسكندرية لتسلم زمام الأمور بمصر ، وشرعوا في عمل المركب التي تسمى « بالعقبة » لخصوص ركوب الباشا . ووصل إلى ناحية شلقان .

وإذا بشتك بكث المعروف بالألني الصغير ورجاله يبلغون تلك الناحية ، وينصبون خيامهم قبال عرضي الباشا ، بل يداخل خيامه بخيام على باشا . فإذا احتج رجال الباشا قال الألني : هذه منزلتنا ومحطتنا من قديم الزمان . فلم يسع الباشا وأتباعه إلا قلع خيامهم والتأخر .

وأخذ رجال الألني الصغير جمالا ليحملوا عليها البرسيم من بعض الغيطان ، وحضر أمير أخور الباشا بجماله لأخذ البرسيم من نفس الموضع ، ونهروا رجال الألني وطردهم . فأمر الألني واحداً من كشافه بالركوب رشحاً إلى الغيط . وصل هذا الكاشف وأحضر أمير أخور وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا الطرابلسي^١ ، ورجع إلى الألني بالجمال . . . وبرأس أمير أخور !

نادى الباشا على رضوان ، كتحدا إبراهيم بك ، وقال له : أهذا جزائي بعد أن صالحت عليكم الدولة ؟ وما زلت تضحك على ذقني وأنا أصدق تمويهاتك حتى جئت إلى هنا لتفعلوا برجالي هذه الفعال وترذلوني وتأخذوا حملي وجمالي ؟

فلاطفه رضوان كنتخدا واعتذر إليه قائلا : « هؤلاء صغار العقول ، ولا يتدبرون في الأمور ، وحضرة أفندى شأنه العفو والمسامحة . »

وأرسل في طلب جمال الباشا من الألفى ، وردّها إلى وطاق الباشا ، ثم حضر إليه عثمان بك يوسف الحازندار ، وأحمد أغا شويكار ، وأخذوا بخاطره . وإذا بالبرديسى يخرج هو الآخر إلى جهة شلقان ، وينصب خيامه على موازاة خيام الألفى الصغير ، وينصب باقى الأمراء خيولهم فى اتجاه الجبل ؛ أما الأرئودية فاصطفوا فى مواجهة النيل .

ولكن ماذا جاء بهؤلاء الأرئودية ؟ إن مجيئهم صورة من صور الغدر المتأصل فى نفوس كل هؤلاء الناس . من المصرية إلى العثمانية والأرئود والدلاة وغيرهم من الأنجاس ، فقد كان الباشا الطرابلسى قد كتب إلى محمد على سرششمه وأرئوده ، وإلى قبائل العربان ، مكاتبات يستميلهم ويستعديهم على الأمراء المصرية . ونقل الأرئود خبر هذه المكاتيب إلى المصرية ، فاتفقوا على مخادعة على باشا الطرابلسى ، وإفهامه بأن الأرئود ناصروه . فإذا خرج الأمراء المصاروة بحجة ملاقاته والسلام عليه ، يقفون فى مواجهته ، بينما الأرئودية من خلفه ، فيأخذونه بواسطة . وتواعدوا على هذا اللقاء فى شلقان ، وهونوا على الباشا أمر المصرية ، وأنهم فى قلة ، وأن المنضمين إليهم على خلاف معهم ، وأن هؤلاء فى الباطن مع الأرئودية ومع الباشا الطرابلسى . وهكذا دبروا له تدابير ومناصحات تروج على الأباليس . ولما وصل إلى الرحمانية أرسل له الأرئود مكاتبة سرّا ، بأن يعدّى إلى البر الشرقى ، فاعتقد نصيحهم وعدّى ، ورتب عسكره فى شلقان طواير ، وجعل كل بنباشا فى طابور ، وعملوا متاريس ونصبوا المدافع وأوقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضى .

وفى تلك الأثناء تسلل حسين بك الإفرنجى ومن معه بالعساكر فى الغلايين والمراكب ، واستعلوا على مراكب الباشا وأحاطوا بها ، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع ، وساقوهم إلى جهة مصر ، وأخذوهم أسرى ، وعلى رأسهم كبيرهم مصطفى باشا .

ولما تأخر الباشا واستقر بأراضى زفينة ، أحاط به المصريون والعربان وتحلقوا حوله ، ووقفوا لعرضيه بالرصد ، فكل من خرج من الدائرة خطفوه ، ومن الحياة أعدموه .

وأرسل إليه الألفى رسولا يقول له : « حضرة ولدكم الألفى يسلم عليكم ، ويسأل عن هذه العساكر المصحوبين بركابكم ، وما الموجب لكثرتها ، وهذه هيئة النابذيين لا المسلمين ، والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون إلا بأتباعهم وخدمهم ، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بسكندرية ؟ »

فقال : « نعم ، وإنما هذه العساكر متوجهة إلى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخوارج ، وعندما نستقر بالقلعة ، نعطيهما جما كيهم ونشلهما ونرسلهم . » فقال على الكاشف (رسول الألفى) : « يا حضرة أفندى ، لا تفكروا بالقلعة ، فإنهم أعدوا لكم قصر العيني تقيمون فيه ، لأن القلعة خربها الفرنسيون وغيروا أوضاعها ، فلا تصلح لسكنائكم . أما العساكر فلا يدخلون معكم ، بل ينفصلون عنكم ليذهبوا إلى بركة الحاج ناحية المطرية ، ويمكثوا هناك حتى نشل لهم احتياجاتهم ، فالبلد في قحط وغلاء ، والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ، لا يستقيم حالهم مع الأرثودية ، ويقع منهم ما يوجب التعب لنا ولكم . »

فقال على باشا الطرابلسي : « إذا كان الأمر كذلك فإني أرحل عائداً إلى الإسكندرية » . أجابه على كاشف : « هذا لا يكون ، وإن فعلتم حصل لكم الضرر . »

قال الباشا : « إن للعسكر عندى ٤٨٠ كيساً ! أحضروها من حسابي معكم ندفعها لهم فينصرفوا إلى بركة الحاج كما قلتم . »

ورجع على كاشف إلى الأمراء ، فرفضوا قائلين : « إما أن يحضر الباشا عندنا في جماعته وخدمه وخدمهم ، وينزل بمخيمنا ضيفاً مكرماً ، وإما الحرب بيننا وبينه . »

وأصبح الصباح ، فركب المصرية بعساكرهم في طوابير ، وزحفوا على عرضي الباشا من كل جهة ، فأمر عساكره بالمحاربة . . . فلم يتحركوا وقالوا له : « ليس معك فرمان بالحرب ، ولقد رأيت كيف أخذ إخواننا البحرية عن آخرهم ،

ولم تعطنا جامكية ولا نفقة ، فلاتاقة لنا بحرب المصريين . »
 فاضطر الباشا مرغماً إلى الركوب في خاصته ، والذهاب إلى المصاروة ،
 تاركاً خيامه وأثقاله ، فأضافوه في خيام البرديسى . وحضر كتحدا الجاويشية
 وكاتب حوالة الوالى وبقى أرباب الديوان ، وذهب بعض خدم الباشا وفراشيه إلى
 قصر العينى ليفرشوه ويرتبوه وينظموه .

أما عساكر الباشا فقد أمرهم الأمراء بالرحيل تحت حراسة حسين بك الوشاش
 وصالح بك الألقى ، ليوصلوهم إلى شرقية بلبيس ومنها إلى الصالحية ، وكانت عدتهم
 ألفين وخمسمائة .

وانتقل على باشا الطرابلسى والأمراء المصرية إلى منية السيرج ، وطارت الإشاعة
 بأن الباشا سوف يركب بموكبه إلى قصر العينى على طريق بولاق بعد يومين .
 وجمع المحتسب خيول الطواحين لأجل الركبة ، وخرج كثير من الناس إلى
 جهة بولاق لأجل الفرجة ، وانتظروا فلم يحصل . وقيل إنهم أخرؤا الباشا .
 ثم وصلت التنايه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا ، ولكنه
 لم يصل ، وتواترت الأخبار بأنهم أركبوا على باشا وسفروه إلى جهة بلبيس والصالحية .
 وإليك جلية الخبر :

احتفى المصرية بالباشا ، وأرسلوا له رضوان كاشف ، كتحدا عثمان بك
 البرديسى ، ومعه هدية ، وألف نصفية ذهب ، وأبلغه السلام ولاطفه . فقال الباشا
 مسروراً : « أنا منذ قلدونى ولاية مصر قلت للدولة إن أول حوائجى العفو والرضا
 عن الأمراء المصرية ، لأن لهم فى عنى جميلا منذ ما حضرت إليهم هارباً من
 طرابلس فأوونى وأكرمونى . »

أجابه رضوان كاشف : « إن الأمراء يراعون لك ذلك ، ولا ينسون عشرتهم
 معك ، وخصوصاً صداقتك لسبدهم مراد بك ، وهذا برغم ما وقع منك من مكاتبة
 الأرئود والعربان وغيرهم . »

قال الباشا : « هذا شىء مضى وراح ، ونحن أولاد اليوم . »

* * *

مكث على باشا فى عرضى البرديسى بمنية السيرج ، لا يرى من الأمراء الكبار
 (٥)

سوى عثمان بك الخازندار وأحمد أغا شويكار وأرباب الخدم .
وذا ليلة فزع حرس البرديسى لفارس يخرج من العرضى فى جنح الليل ،
ويولى هارباً ، فبحروا خلفه ولم يلحقوه .

واتجهوا إلى الباشا يسألونه عن ذلك فقال : « لعله حرامى أراد أن يسرق شيئاً
ونخرج هارباً » . ومنذ هذا الحادث ، أجلسوا حول الباشا عدة من المماليك
المسلحين ، فسأل عنهم فقليل له : « إنهم جلوس بقصد المحافظة عليكم من
السراق . »

ولم يمض وقت طويل على هذا الحادث الليلى ، حتى قبضوا على هجان بناحية
البساتين عند المعادى ، فى طريقه إلى قبلى ، ووجدوا معه مكاتبات من الباشا إلى
عثمان بك حسن بقنا ، يطلبه للحضور ، ليكون معيناً له على إبراهيم بك والبرديسى
والآلئى ، ويعده بإمارة مصر ونحو ذلك !

فجاءوا فى اليوم التالى إلى الباشا جماعة وسلموا عليه ، واستأذنوه فى الجلوس
فأذن لهم ، فجلسوا وهم سكوت ينظرون إلى بعضهم البعض ، فقال على باشا : « خيراً » .
وتكلم أخيراً رضوان بك قائلاً : « ألم نصطلىح مع حضرة أفندينا وصفا خاطره
معنا ؟ »

قال : « نعم »

قال رضوان بك : « هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك ؟ »

قال : « لا »

قال رضوان بك : « لعلكم أرسلتم مكاتبة إلى قبلى ؟ »

قال : « لم يكن ذلك أبداً »

فأخرج له مكتوباً وناولوه إياه ؛ فلما رآه قال : « نعم ، هذا مما كنا كتبناه
بسكندرية »

قال رضوان بك : « يا سبحان الله يا حضرة أفندينا ! لقد وجدناه أمس مع
الهجان المسافر إلى قبلى عن طريق البساتين »

فسكت الباشا الطرابلسى ولم يجر جواباً . . .

فقاموا على أقدامهم وقال رضوان بك : « بيرون أفندم ! »

فقال : « إلى أين ؟ »

فقال رضوان بك : « إلى غزة ، فإنه لا أمان لنا معك بعد ذلك . »
ولم يمهله لكلام يقوله ، ولا عذر يبيديه ، حتى ولا لمحجىء ركوبته ، بل قدموا له
فرساً لبعض المماليك . فلما رأى الأمراء المستعدين للذهاب معه وقوفاً في انتظاره ،
رجاهم أن يكونوا متباعدين عنه في الخط والترحال ، فأجابوه إلى ذلك ؛ وسار معه
محمد بك المنفوخ ، وسليمان بك صهر إبراهيم بك .
أما أتباع الباشا فركبوا أكاديش الطواحين . وكان الطحانون ينتظرون متى
ينقضى الموكب - وهم يظنون أن خيولهم استعيرت منهم لموكب الباشا بالقاهرة -
ويأخذون خيولهم . فلما تحقق لهم سفر أعوان الباشا بأكاديشهم بعيداً عن مصر ،
طارت عقولهم وذهبوا إلى صيوان البرديسى يشكون إليه عطل مطاحن البلد ؛ فقال
لهم : « دونكم خيلكم ، اذهبوا فخذوها ! » فجروا خلف أعوان الباشا ، ومسك
كل طحان فرسه ، وأنزل عنها راكبها ، وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم .
فركب الأعوان بدلها جمالا ؛ وحجز البرديسى طبلخانة الباشا ، وطقمه ،
ومهاثرته ، وغالب متاعه ، وذهب بها إلى حال سبيله ؛ وقد ركب أمامه حسين بك
الإفرنجى بعسكره المختصين بطبلهم ، مثل طبل الفرنسيين ، وعلى رأسهم برانيط
من نحاس أصفر ، مثل برانيط الفرنسيين ، وهم نصارى وتكرور وأروام .
وركب خلف البرديسى طبلخانة الباشا ونوبته ومهاثرته يطبلون ويزمرون . ودخلوا
على هذا الحال إلى القاهرة .

أما الألفى الصغير ، فركب في أمرائه وكشافه ليعاقب العربان الذين والسوا مع
الباشا ، وهم عرب بلى بالجزيرة . فطرقهم على حين غفلة ، وقتل منهم أناساً ،
ونهب مواشيهم ونجعهم ؛ وضرب أيضاً زفينة وأجهور وعشرين بلداً أخرى ،
وأخذ زراعتها ومتاعها .

هذا والقاهرة تنتظر الباشا على الطرابلسى ، المولى على البلد من قبل إسلامبول ،
وقصر العيى معد لاستقباله ، والباشا على لا يصل ، ولا يسمع عنه خبر . . .
إلا هذه المكاتبات التى جاءت من الأمراء الذين ذهبوا بصحبة الباشا مشرقيين .
فهم يخبرون بموت الباشا بالقرين ! واستيقظت القاهرة على حس المدافع الكثيرة

تضرب بعد العشاء حتى نصف الليل !

يقول الأمراء المصرية في مكاتيبهم : « إن الباشا أراد أن يكبسنا بمن معه ليلاً ، وقد عرفنا بأمر ذلك من سائس يعرف بالتركي ، حضر إلينا وأخبرنا بذلك ، فتحذرنا من الباشا ورجاله . فلما كبسونا كنا لهم مستعدين ، ووقعت بيننا محاربة قتل فيها عدة منا ، منهم خازندار محمد بك المنفوخ ، وانجرح محمد بك نفسه جرحاً يليغاً . أما الباشا فأصيب من غير قصد ، والليل ليس له صاحب ، فقضى نحبه ، وكان ذلك مقدوراً ، وفي الكتاب مسطوراً . وإنكم ترسلون لنا أماناً بالحضور إلى مصر . . . وإلا ذهبنا إلى الصعيد . »

وهذا كذب مصنى ! فإن الباشا لم يعد يملك حلاً ولا عقداً . . ولا كبساً . لم يكن يصحبه من رجاله غير خمسة وأربعين ، وجميعهم محصورون بين عساكر المغاربة من أمام ، والأمراء المصاروة من خلف . فلما وصلوا إلى القرين نزلوا هناك ورتبوا مع المغاربة ترتيباً ، مقتضاه أن يعمل المغاربة مع الخدم مشاجرة ، تتجسم وتعظم ، حتى يتضارب الجميع بالسلاح . . .

وتم تنفيذ التدبير في جنح الليل — والليل ليس له صاحب كما قال هؤلاء السفاحون ! — وقامت الأجناد المصرية من خلف الباشا يضربون ، بينما المغاربة يتضاربون مع الخدم من قدام ، فصار الباشا ، ورجاله الخمسة والأربعون ، محصورين في الوسط ، والضرب نازل ، وقد التحموا عليهم بالقتال . ففر من أتباعه أربعة عشر نفساً إلى الوادي ، وثلاثة عشر رموا بأنفسهم — من حلاوة الروح — في ساقية قريبة . أما الباشا فضربه أحد المماليك بقرايسته ، وقتل معه باقي الثمانية عشر نفساً .

سقط على باشا الطرابلسي وبه رمق ، ورأى أميراً مصرياً فقال له : « في عرضك يا فلان ! إن معي بداخل هذا الخرج كفن ، أستحلفك أن تكفني به ، وأن تدفني ، ولا تتركني مرمياً ! » . وأعطى الأمير المصري بعض العرب دنانير والكفن ، وقال له : « اذهب إلى مكان الموقعة ، ونخذ الباشا وكفنه وادفنه في تربة » . فقال العربي : « أنا لا أعرفه » ، أجابه الأمير : « ستعرفه فإن له لحية عظيمة من دون من قتل حوله » ، ففعل الأعرابي .

هذا ما كان من أمر مصرع الباشا الطرابلسي ، وفي مقتلاته صورة من جبروت الأمراء المصرية .

ولم يكن على باشا خيراً من قتلته ، فقد رد كيده إلى نحره ، وكان ذلك من وبال فعله ، وسوء سريرته . ومما أثر عنه أن قال وهو بالإسكندرية : « إن بلغت مرادى من الأمراء المصاروة وظفرت بهم ، أبحت لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام » . وكان طول حياته فاسقاً ظالماً ، صادر الناس في أموالهم وبضائعهم ، ورذّل أهل العلم وأهائهم ، فقد كان يسمى الشيخ محمد المسيرى بالمزور ، لأنه رفض أن يوقع على عريضته ، التي حاول أن يدلس فيها على الدولة ويزور خبر مقتلة الإفرنج . وكان إذا دخل الشيخة عليه ، ظل جالساً ، بل اتكأ ومد رجله في وجوههم . وقبل مجيئه إلى مصر ، كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، وأرسله سيده برسالة إلى حسين قبطان باشا بالأستانة ، فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس الغرب . وقد استولى على طرابلس ، وأباحها لعسكره ، ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرنكية ، نهياً وهتكاً للنساء وسبياً للحرير ، وفرد على أهل البلد الفرد ، فثار الناس عليه ، ونزل إلى المركب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان ، وهرب إلى الإسكندرية ثم إلى مصر . والتجأ إلى مراد بك فأكرمه وأنزله منزلاً حسناً عنده بالجيزة . ثم حج بعد ذلك ، وراه الحجاج الطرابلسية بالحجاز ، وصحبته الغلامان الجميلان . فذهبوا إلى أمير الحج الشامي — لسبب بسيط هو أن الطرابلسي كان في حماية أمير الحج المصري — وعرفوه عنه ، وعن الغلامين وما يفعل بهما . فأرسل معهم جماعة من أتباعه في حصّة مهمة ، وكبسوا عليه ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين . فسبه الطرابلسية ولعنوه ، ومنتفوا لحيته العظيمة وشواربه الشقراء ، وضربوه بالسلاح ، فجرحوه جرحاً بالغاً وأهانوه ، وأخذوا منه الغلامين .

وعاد إلى مصر وأقام في منزله عند مراد بك زيادة عن ست سنوات . ولما حضر الفرنسيين ، قاتل مع الأمراء ، وتغرب معهم في قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل وسار إلى الشام ، ومنها إلى إسلامبول ، حيث طلب ولاية مصر ونالها .

وقد أراد أن يدبر أمراً للمصاروة ، ويصطاد العقاب بالغراب ، فلم تنفعه
التدابير ، ولم تسعفه المقادير ، فكان كالباحث عن حشفه بظلفه ، والجادع بيده
مارن أنفه .

ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة .

زبانية عتاة

وردت في فصل سابق كلمة عابرة تستأهل مني الرد على نفسي وأنا أقول :
« ولا يعنينا أمر أولئك الأمراء الجراكسة وأجنادهم » . أحقاً أن أمر الأمراء الجراكسة
لا يعني ؟ وهل لا يعني أيضاً أمر المماليك البحرية قبلهم ؟
فلنحاول أن نكون صادقين مع أنفسنا ، ونسأل هذا السؤال : متى شعرت ،
وأنا أطلع التاريخ المصري ، بأنني أعيش بين عشيرتي وبني وطني من أهل القرون
الغابرة ؟ حدث هذا وأنا أطلع التاريخ المملوكي ، ثم ما تلاه بطبيعة الحال . فهما
كان فهمي وإحساسي بحضارة أجدادي الفراعنة ، وجهاد أسلافي المسيحيين ،
ومهما كان إدراكي لمعنى دخول مصر في حوزة الإسلام ، فإنني لم أحس إحساساً
عميقاً بحدوث تاريخي بقدر ما أشعرتني به التايخ المملوكي . ولا أعرف ماذا يكون
إحساس مواطني من أهل الصعيد أو الوجه البحري ، ولا إحساس مواطني القبط ،
ولنأنا أنا معبر عن نفسي كقاهري مسلم ، من أسرة قاهرية حتى القرن السابع
عشر على الأقل ؛ ولدت في أحياء القاهرة التي نسميها المعزية نسبة إلى من أشار
ببنائها ، ولم يبق من آثار منشئها سوى القليل . فالقاهرة القديمة ، التي نشأت
في حاراتها ، هي القاهرة المملوكية ، والطابع الغالب على آثارها هو الطابع
المملوكي . ثمة بقايا طولونية وفاطمية وأيوبية وعثمانية ، ولكن جو القاهرة الذي
غمرنى في طفولتي ، أحسست به وأنا أطلع تاريخ المماليك ، والحياة التي تعيش
بها صفحات الشيخ تقي الدين وأبي المحاسن والسيوطي وابن إياس هي حياتي .
لأول مرة شعرت حقاً بأنني أعيش بين عشيرتي وبني وطني من أهل القرون الغابرة .
وأعود إلى مذكراتي لإعداد هذا الكتاب فأطالع : « أما الغز فلم آسف على
سقوطهم ، لأنه غير كاف في الحكم على هذه الفئة أن نذكر محاسن الممتازين
من سلاطينها وأمرائها ، من أمثال سيف الدين البندقداري ، والناصر محمد ،
وبرقوق ، وقايتباي . ولن أنخدع بآثارهم الحميلة ، ولا بإصلاحاتهم ،

ولا بانتصاراتهم ؛ لأن هذه الطغمة كانت فى مجموعها داعة سفاحة نهابة ، ولأن مجموع سلاطينها ، على الرغم مما حققوه للديار المصرية من سؤدد ، وما أنشئوه من جوامع ومدارس وخوانق ، لا يمكن أن يفلتوا من لعنة الأجيال على أولئك المستنزفين لدماء الشعب وماله ، المذلين له ، الحريصين على مماليتهم الجلبان والخاصكية والحشداشية والقرانصة ، يقطعونهم الإقطاعات ويفرقون عليهم المغل والرزق والجماكى ، وكأنهم ورثوا مصر بوثيقة شرعية . »

ويروقى حديث الرحالة « فولنيه » ، ذلك الرجل ابن الإنسكلوبيديين والقرن الثامن عشر ، وهو يعلق على ما سمعه من امتداح الجاليات الأجنبية فى مصر لعلى بيك الكبير ، شيخ البلد المملوكى ، الذى استقل بحكم مصر عن الباب العالى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان البروفة الأولى لمحمد على باشا ، قال : « ولا أستطيع السكوت على ملاحظة سمعتها بالقاهرة ، على لسان التجار الأوربيين ، الذين عرفوا حكم على بيك حتى نهايته ، وهم يثنون على حسن إدارته ، وحرصه على العدالة ، وحده على الإفرنج ؛ فقد كانوا يتعجبون من أن الشعب المصرى لا يبدى أسفاً على زوال حكمه ، ويتخذون من موقف هذا الشعب ذريعة للحكم عليه بنكران الجميل ، وعدم الثبات على مبدأ . »

« ولكن من يتعمق البحث ، يتضح له أن ليس فى الأمر غرابة كما يبدو . فى مصر كما فى كل البلاد ، ينهض حكم الشعب على مقدار ما يحصل عليه من غذاء وكساء ، وعما إذا كان حاكمه يسر له أموره ، فيتعلق به ويؤازره ، أو لا يسرها فيكرهه وينحى عليه باللائمة . وهذا سبيل فى الحكم لا يمكن الطعن فيه بالتحيز أو قصر النظر ؛ فمن العبث أن يتحدث الحكام إلى الشعب بألفاظ عزة الوطن ومجده ، وبأن تشجيع التجارة والفنون والصناعات يقتضى هذا أو ذاك من التضحيات ؛ لأن لقمة العيش يجب أن تسبق كل شئ ، وعندما لا يجد الناس الخبز ، فإن من حقهم أن لا يعترفوا بجميل ، ولا أن يظهروا الإعجاب . ماذا يهم المصريين أن يتغلب على بيك على ثورة الصعيد ، وعلى بلاد الحرمين ، وعلى سورية ، إذا لم تعد عليه تلك الفتوحات بالإسعاد ؟ بل على العكس ، زادت من شقائه ! لأن تكاليف تلك الحملات أثقلت من أعبائه . إن التجربة على

الأراضي المقدسة وحدها تكلفت ستة وعشرين مايوناً من الفرنكات ؛ وخروج الغلال مع أجناد الحملة ، بالإضافة إلى احتكار التجار حركة الغلال ، سببت مجاعة طاحنة ، دامت طوال عامي ١٧٧٠ و ١٧٧١ . فهل أخطأ القاهريون والفلاحون ، الذين يموتون من الجوع ، إذا ما استنكروا التجارة مع الهند ، عندما لم تعد هذه التجارة بفائدة إلا على فئة المحظوظين ؟ ألم يكن من حق الشعب أن ينعي ويكره الترف الذي يسمح لعلى بيك بدفع خمسة وعشرين ومائتي ألف دره في مقبض خنجر ، ، فيسبح الجواهرجية بحمده ، ويشيدون بكرمه ؟ أما يحق للشعب أن يسمى هذا سفهاً ، إذ يعتبره المتزلفون حسنة من حسنات على بيك ، والشعب هو الذي دفع ثمن هذا البذخ والجود ؟ وهل من الفضائل أن ينثر امرؤ ذهباً لم يتكلف مشقة في جمعه ؟ أمن العدالة في شيء أن يعطى ويمنح محسوبيه . . . على حساب الشعب ؟ فليس بمنكر أن معظم أعمال على بيك صدرت عن شهوة المطامع الشخصية والغرور ، لا عن مبادئ العدالة والإنسانية ؛ فلم تكن مصر إلا ضيعة له ، ولم يكن أهلها سوى قطيع يتصرف فيه تصرف المالك للأرض وما عليها . »

ثم إننى لا أعرف وصفاً للماليك أصدق مما وصفهم به ثاني سلاطينهم عز الدين إيبك التركمانى ، في كتاب إلى سلطان سلاجقة الروم ، يحذره من الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، زعيم المماليك الحمدارية الصالحية ، الذين فروا من وجه إيبك ، ولجأوا إلى سلطان السلاجقة ، قال :

« . . . المماليك البحرية قوم مناحيس أطراف (أى لا يبقون على صحبة إنسان) ، لا يقفون عند الإيمان ، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم ؛ وإن استأمنتهم خانوا ، وإن استحلقتهم كذبوا ، وإن رفقت بهم غدروا . فتحرز منهم على نفسك ، فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك . »

فاستدعاهم السلطان السلجوقى وسألهم : « يا أمراء ، مالكم ولأستاذكم ؟ »

فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : « يا مولانا ، من أستاذنا ؟ »

قال : « الملك المعز ، صاحب مصر » . فقال الباشقردى : « يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان المعز قال في كتابه إنه استاذنا ، فقد أخطأ ؛ إنما هو خشداشنا ،

ونحن وليناه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنًا وقدرًا ، وأفرس وأحق بالمملكة ، فقتل بعضنا ، وحبس بعضنا ، وغرق بعضنا ، فهربنا منه ، وتشتتنا في البلاد ، فالتجأنا إليك . »

ومع كل هذا ، ومهما استنكر الإنسان تاريخ الممالك الدموى ، فإنه لا يتألم أن يحن إلى لحظات باهرة تدين لهم بها مصر في تاريخها الطويل ؛ فإن دولة كدولة الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، أو الناصر محمد بن قلاوون ، أو الأشرف قايتباى ، لا يمكن إلا أن تثير في نفوسنا الإعجاب ، وغير قليل من الزهو ، بأولئك الأجناد المبرزين ، حققوا لمصر إمبراطورية شبيهة بإمبراطورية أمنمحت الثالث . وكان السلطان المملوكى فرعوناً بكل ما تحوى هذه الكلمة من معنى السؤدد والسلطان . وكانت أمور الدولة المملوكية مرتبة منظمة ، وتقاليدها راسخة . وهذا ديوان رسائلها شاهد على كثير من هذه النظم . والشعب المصرى يستنقذ ظلال هذا النظام فى زراعته وتجارته وصناعاته وفنونه . ولجده وقت ولعبث واللهو أوقات ، سواء فى الأعياد القومية الكبرى ، كعجبر الخليج ، أو الأعياد الدينية ، وأهمها طلعة الحج وعودته ، ومولد النبى .

وكانت متنزهات القاهرة واسعة منتشرة ، تنعكس فيها أفراح الناس على صفحات الماء الذى يملأ فى الفيضان منخفضات الأذبكية وبركة الفيل وبركة الناصرية وبركة الرطلى والخليج الحاكى الناصرى ، وتسير سفن اللهو والنزهة ، تميد بالمطربين والآلاتية والمغانى ، وتتألق بأنوار الفوانيس تزين بها صواري المراكب ، أو تعلق على أبواب القواطين ، وتتدلى من الطيخان .

لا تمالك النفس الشاعرة أن تحس بما كان لهذا العصر من أبهة وفخامة وبهاء ، بملابس السلطان وأسلحته ، وركبته المزركشة ، والقبة تحمل على رأسه والطير ، والأمراء حوله يلعبون بالغاشية ، وأمامه الركبدارية ، يسبقهم الخليفة ، ويسير خلف السلطان الركبدارية ، والقضاة الأربعة ، وأتابك العسكر ، فئات الغيبة وأمير أنحور والدوادار والوزراء ومقدمو الألوف فأمراء المائة فأمراء الطبلخانات ، فأمراء العشروات ، وسائر الممالك ، فى أرديتهم الفضفاضة البراقة ، وعلى رأسهم الكلونات والقواويق ، يمتطون أصائل الخيل .

وما أكثر المناسبات التي كانت تُتَّيَّحُ لأهل القاهرة رؤية المراكب الملونة
الوضاءة اللامعة : في طلعة الحج وعودته ، وفي خروج السلطان وجيشه في
التجريدات ، وقد علق الجاليش بالعرضي في الريدانية ، وعند بركة الحبش ،
وفي عودة السلطان من سرحاته للصيد والقنص ، أو في ذهابه إلى ملاعبه ببر
الجيزة وإنابة .

وحياة القاهرة الصاخبة بالنهار ، المضيئة بالليل ، حول حلقات الذكر ،
أو جماعات المستمعين للشاعر ، المتحلقين حول المحبطين والمغزلكين ، يشاهدون
التشخيص ، أو أمام الشاشة البيضاء في الظلام يتابعون أشخاص خيال الظل ،
أو حول البهلوانات يرقصون على الجبل ، أو ملاعبي القردة والحواة والمشعوذين .
حتى لحظات الاضطراب ، لم تكن تخلو من رومانتيكية إذا استوحيناها
على البعد ؛ عندما ترمح فرسان الممالك من هنا وهناك في كبكبة وصليل وصهيل ،
وعندما تدق الكوسات حربيًا من القلعة ، ويجتمع الأمراء المخامرون على السلطان
في ميدان الرميطة أو بسوق الخيل ، ويتأهب السلطان بالقلعة للمقاومة ، ومعه
ممالك الطباق قرانصة وجلبانًا . وتركب المكاحل على أسوار قلعة الجبل ، فتواجهها
مكاحل المتآمرين ، ركبت على سطح مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل ،
وتتبادل إطلاق القنابر . وعندما ينقض فريق منتصر على منازل الفريق المغلوب ،
فإنه يسي نساءها ويسطو على عبيدها وسرارها ، أو عندما يقبضون على الممالك
الهاربين ، وقد تنكروا في لباس العرب ، زنوط قرع ، واختبئوا في مساقي الترب .
ويأوى أهل القاهرة إلى بيوتهم وأرباعهم ، ويقفلون أبواب دروبهم وحاراتهم ،
بعد أن يخلوا متاجرهم ، وينقلوا متاعهم إلى الحواصل والخبائث ، منتظرين مرور
العاصفة بسلام .

أقول إن استيحاء هذه اللحظات الحرجة على البعد ، قد يحرك بعض الحنين
إلى هذا اللون من الحياة الرومانتيكية يقصى عنها الركود والملال والسأم .

لا شك أن القاهرة كانت شديدة القذارة ، مرتفعة العثير ، وأن كلابها
السائمة كانت كثيرة ، والأوخام والطواعين كانت متقاربة الوقوع . وكانت روائح
القاهرة العفنة بحاجة إلى حرق الكثير من البخور ، والتطيب بالأعطار . وإلا فكيف

يمكن تصور تلك الرؤوس المقطوعة تعلق بالأسبله والأسوار والأبواب ، وتلك الرمم
الموسطة أو المكلبة أو المصلوبة أو المشنوقة تترك أياماً في عرض الطرقات أمام الرائح
والغادى ، ويقول عنها المؤرخ في برود عجيب : « وبقيت رمته بلا رأس ثلاثة
أيام ، وقد جافت وولغت فيها الكلاب » ؟ كيف يمكن تصور هذا في جو القاهرة
الحار سبعة أشهر في العام ، دون التيقن بأن أنوف أجدادنا زكمتها روائح القمامة
والعفونة والجيف في كل مكان ؟

نحن مع ذلك أقرب إلى التجاوز عن السيئات ، لنذكر حسنات منشئ
الخوانق والمدارس والجمامع والبيمارستانات ، الأمرين بنسخ الختم المذهبة — رأيت
مصحف السلطان شعبان ؟ — الموقفين الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ،
ومساقى الحيوان ومستشفياته ، القوامين على صناعات جميلة متقنة ، سواء في البرد
والطرز ، أو على النحاس المكفت بالفضة ، أو الفضة المكفتة بالذهب ، والأبنوس
المطعم بالعاج ، وخشب الورد المطعم بالأبنوس ، أو صناعة الخراطين للمشربيات
والمنابر ، والزجاجين للمشاكى والميناء والفسيفساء .

أولئك السلاطين يحكمون إمبراطورية امتدت حتى نهر الفرات وجبال طوروس
شمالاً ، وحتى بر اليمن وحضرموت والنوبة جنوباً ، وحتى آخر بلاد برقة غرباً ،
وعلى امتداد شاطئ البحر الأبيض من برقة غرباً حتى خليج الإسكندرونة ، إلى
الشمال الغربى .

تلك الدولة المنيعة ، التى وطد دعائمها وأوسع فى رقعتها وصد عنها الصليبيين
والتتار ، خليط عجيب من الناس ، نشثوا فى دهاس آسيا الوسطى ، وحول بحر
قزوين ، وفى بلاد القوقاز ، ووادى نهر القوبلجا والدون ، وضيفاف بحر البلطيق ،
وبيعوا أطفالاً فى أسواق النخاسة ، وانتهوا إلى خانات الشرق الأدنى ، وخان مسرور
بالقاهرة ، لا ليكونوا خداماً وعبيداً ، بل ليربوا تربية قديمة جداً : تبدأ بالقراءة
والكتابة وبعض الحساب ، وحفظ القرآن والتثقف بآداب الشريعة ، وملازمة
الفروض ، فإذا قاربوا سن البلوغ أخذوا فى تعلم فن الحرب : من اللعب بالنشاب
وركوب الخيل ، إلى الضرب بالسيف والطبر والتمجاة ، والصيد والكر والفر .
ليتظموا فى سلك جيش عظيم ، يسمح للأفذاذ منهم ببلوغ أرقى مراتب الدولة ،

حتى عرش السلطنة المصرية .

دولة دامت أربعة قرون عزيزة الجانب ، يخطب ودها الديلم والفرس والتتار والسلاجقة والروم والبنادقة والأماشيون والجنوبيون وسائر الفرنجة ، تحيا في حدود نظم ومراسيم ثابتة ، إلا فيما يختص بولاية السلطنة ، فلم تنجح دولة المماليك الأولى ولا الثانية في أن تضع نظاماً ثابتاً لوراثة السلطنة . ولا يغرنك أن يتسلطن أبناء قلاوون وأحفاده ، أو محاولة بيبرس تولية أولاده ، فإن أغلب أولئك السلاطين أبناء السلاطين كانوا أطفالاً وأحداثاً وغلماناً ، يرى فيهم الأتابكيون وسيلة ميسرة للحكم ، وسلماء يقفزون منه إلى دست السلطنة .

لقد بدأنا رحلتنا عبر التاريخ المصري بمأساة انهيار السلطنة المملوكية تحت ضربات العثمانيين ، وتابعناهم بعض الطريق في أول عهد الاحتلال العثماني ، ويجدر بنا أن نتابع الآن هذه الطغمة الرائعة حتى نهايتها .

* * *

لم تكن المصائب لتأتى فرادى ، فإن ضربة سليم القاضية إنما جاءت في أعقاب نازلة اقتصادية عنيفة أصابت مصر في أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت حتى العصور الحديثة ، وربما حتى افتتاح قناة السويس .

فمصر ، التي تتوسط ثلاث قارات ، كانت معبراً من أعظم معاير التجارة العالمية ، وطريقاً من أهم طرق مبادلة المنافع والسلع ، وكانت دولة المماليك تتحكم في أسواق الشرق والغرب ، يخطب الغرب ودها ما دامت أوروبا في حاجة إلى الطيب والأعطار والأفاويه والحرير والكتان والجلود والغضار الصيني والأخشاب والمعادن .

ولكن تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر بدأت تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن اقتحم البرتغالي فاسكو دا جاما بحر الظلمات إلى البحر الشرقي الكبير ، مستديراً حول الطرف الجنوبي للقارة المظلمة ، بالغاً ما ليندى على الشاطئ الشرقي لأفريقيا ، ثم عابراً المحيط الهندي شرقاً إلى قليقوط في بر الهند .

آذن هذا الكشف بصعود نجم البرتغاليين في الشرق ، ونجم مصر المتألق في كبد السماء انحدر إلى الأفول .

وكان ثراء مصر جديراً بأن يجعلها تتلقى الضربة البرتغالية برأس مرفوع ،

ولو استطاع المماليك الجراكسة أن يخففوا من بذخهم ، وأن يمدوا أرجلهم على قدر ألحفهم الحديد ، لتمكنوا من الاستعداد لتلقى الضربة تصيبهم من الشمال على يد الخنكار سليم بن بايزيد آل عثمان .

أما عن المصريين فإننى لا أعرف أن قد ارتفع لهم سعر أو انخفض بزوال دولة المماليك . ذل بذل تداولوه على أيدي الهكسوس والأشوريين والفرس والمقدونيين والرومان والعرب والأكراد والفرغانيين والغز ، وسيواصلون تحمل نير العثمانيين ، فالمماليك من جديد ، فالفرنسيين ، فالأرنؤد ، فالمرابين الأوروبيين ، فشركة قناة السويس ، فالإنجليز فالباشوات المصريين :

لن يجد المصريون في حكم الولاة العثمانيين سوى الإمعان في نهبهم وسلب أقواتهم وكرامتهم ، حتى ليحرم عليهم صنع رغيف الخنطة التي تعبوا في إعداد الأرض لها ، وبذرها وريها وجمعها وحصدها ، فالأوامر أن تسلم الغلال رأساً إلى الكشاف والمليزمين .

سوف يهرب الفلاحون من قراهم — للمرة كم ! لا أدري — أمام جباة الضرائب ومقارعهم وفلقاتهم وسياطهم ، فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة .. إن لم يكن أهلها هم أيضاً هاجروا .

ماذا يعنى المصريون أن يعود المماليك إلى سابق عزهم ، وأن يصبحوا من ذوى الحول والطول ، بعد أن يعجب بهم سليمان القانوني في معسكره أمام رودس ، وينعى على والده سليم أن أراد يوماً قطع دابرهم ؟

سيعود المماليك إلى ما يقرب من سطوتهم القديمة ، وستحول وجاقات العثمانيين إلى وجاقات مختلطة منهم ومن المماليك ، وسيولى مشيخة البلد ، وإمارة الحج ، مماليك ييظطون الباشا إلى صورة فوق الحائط ، أو يسمحون له بأن يندس بينهم لصاً من لصوص منسرههم .

ولن يجدى المصريون استقلال على بيك الكبير عن اسطنبول ، ولا تغلب مملوكه محمد بك أبو الذهب عليه . ولقد طالعنا في أول هذا الفصل ما قاله قولنيه تعليقاً على عهد هذا السلطان المملوكى الصغير .

وأحب أن أنقل لك من تراجم الخبرتى ترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد

من المصريين ، وأقابلها بترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من أمراء المماليك ؛ وستجد أن جميع تراجم الجبرتي ، باستثناء طفيف ، تتخذ صورة شبه واحدة للمصريين ، هي الصورة التي تقدمها للشيخ الحفناوي ، وصورة واحدة للمماليك هي ما نراه في ترجمة إيواظ بيك :

« ومات الشيخ الإمام ، العلامة الهمام ، أوجد أهل زمانه في العلم والعمل ، ومن أدرك ما لم يدركه الأول ، المشهود له بالكمال والتحقيق ، والمجمع على تقدمه في كل فريق ، شمس الملة والدين ، محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الخلوقي ، وينتهي نسبه من ناحية أم أبيه إلى الإمام الحسين . ولد على رأس المائة ببلدة حفنا بالقصر ، قرية من أعمال بلبس . . . (ويسرد الجبرتي هنا قائمة مطالعته ومذاكراته ودراساته ، من حفظ القرآن إلى حفظ المتون) . . . واجتهد ولازم دروسهم حتى تمهر وأقرأ ودرس وأفاد في حياته أسياخه ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأقرأ الكتب الدقيقة ، كالأشموني وجمع الجوامع والمنهج ومختصر أسعد ، وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والحديث والكلام . وأسياخه الذين أخذ عنهم وتخرج عليهم : أحمد الخليلي ، الشيخ محمد الديربي ، عبد الرؤوف البشيشي ، أحمد الملوي ، أحمد الشجاع ، عبده الديوي ، محمد الصغير ، البديري ، الدمياطي . . . وكان إذ ذاك في شدة من ضيق العيش والنفقة ، فاشتري دواة وأقلاماً وأوراقاً ، واشتغل بنسخ الكتب ، فشق عليه ذلك خوفاً من انقطاعه عن العلم . . . وذهب الشيخ إلى البيت ، وكسر الأقلام والدواة . . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ، وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره وطبقته ومن دونهم . . . ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء . . . فن تأليفه المشهورة : حاشية على شرح الشنشوري في الفرائض ، وشرح الهمزية لابن حجر إلخ . . . وكان كريم الطبع جداً ، وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، جميل السجايا ، مهيب الشكل ، عظيم اللحية أبيضها ، كأن على وجهه قنديلا من النور ، وكان كريم العين على إحداها نقطة ، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك لجلالته ومهابته ، وكان في الحلم على جانب عظيم ؛ جاءه تلميذ له ينشد موالا من تأليفه :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار
والعيش الأبيض تحبه ؟ قلت والاكشكار
قالوا تحب المطبق ؟ قلت بالقنطار
قالوا اش تقول في الحضاري ؟ قلت عقلي طار
فضحك الشيخ الحفناوي وقال مماًزحاً : أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما :
قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمسلى والببيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلي

* * *

في مقابل هذه الإنسانية السمحاء ، اسمع تراجم المماليك أو العثمانيين :
« ومات الأمير الكبير المقدام إيواظ بيك والد الأمير إسميل بيك ، وأصل
اسمه عوض ، فحرفت باعوجاج التركية إلى إيواظ ، فإن اللغة التركية ليس فيها
الضاد . وهو جركسي الجنس ، قاسمى تابع مراد بيك الدفتردار القاسمى ، ومراد بيك
ابن رضوان بيك أبى الشوارب . . . ثم وقع الاتفاق على إخراج تجريدة ، وأميرها
إيواظ بك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات . . . وخرج بموكب عظيم وتوجه إلى
قبلى . . . واتفقوا على إمداده بخمسة من الأمراء الصناجق وهم أيوب بيك ،
وإسماعيل بيك الدفتردار ، وإبراهيم بيك أبو شنب (وما أعرفش مين بيك بارم ديله ،
والأمير الملقب : « صنجق سته ») لأنه حصل على الثراء من زوجته ، وسليمان بيك
قيطاس ، وأحمد بيك ياقوت زاده وأغوات الإصباحية) . . . فورد الخبر أن
إيواظ بيك تحارب مع العربان وهزمهم . . . وفي شوال نزلت جماعة من العربان
بكراسة ، فكبسهم ذو الفقار كاشف الجيزة ، وقتل منهم أربعة وأربعين رجلاً
وطلع برءوسهم إلى الديوان . . . فتبعهم عبد الرحمن بيك ومن معه من الكشاف
فأثخنوهم قتلاً ونهباً ، وأخذوا منهم ألفاً وسبعمئة جمل بأحماها . . . وحضر
إيواظ بيك إلى مصر ، ودخل في موكب عظيم ، والرءوس محمولة معه ، وطلعوا
إلى القلعة ، وخلع عليه الباشا ، وعلى أستاذاره الخلع السنية . . .
« وقتل إيواظ بيك في تلك السنة في الفتنة ، وذلك أنه لما اشتدت الفتنة بين

العزب والينكجيرية . . . وبعد أمور وحروب ، وقعت أمور ، يطول شرحها ، مشهورة ، من قتل ونهب وخراب أماكن . . . ووقعت حروب عظيمة بين الفريقين عدة أيام . . . وصار قانصوه بيك يرسل بيورلديات وتنابيه . . . فعندما وصل إليه البيورلدى ، قام وقعد واحتد ، واشتد بينهم الجلال والقتال ، واجتمع الأمراء والصناجق والأغوات عند قائم مقام قانصوه بيك ، ورتبوا أمورهم ، وذهبت طائفة لمحاربة منزل أيوب بيك ، إلى أن ملكوه بعد دقائق ونهبوه . . . وانتهت بيوت الخارجين ، وبیت محمد بيك الكبير ، وأحمد جوريجى القنبيلى . . . فوصل الخبر إلى إيواظ بيك ورمح خلفهم . وكان محمد بيك أجلس جماعة سجمانية بأعلى السواقى ، لمنع من يطرد خلفهم عند الانهزام ، فرموا عليهم رصاصاً ، فأصيب إيواظ بيك ، وسقط على جواده ، وحصل بعد ذلك ما حصل من الحروب ، ونصرة القاسمية والعزب ، وهروب المذكورين ، وعزل الباشا ، ودفن إيواظ بيك بتربة ألى الشوارب . . . »

وتأمل قصة المذبحة الأولى للمماليك ، وقد نسبت إلى الباشا العثمانى حمزة : « وقيل إنها من على بيك الذى بالنوسات (وهو على بيك الكبير ، بروقة محمد على باشا) . . . فى ثانى شهر شوال من سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ركب الأمراء إلى قره ميدان ليهنثوا الباشا بالعيد ، وكان معتاد الرسوم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد ، وكذلك أرباب العكاكيز ، ينطلقون إلى القلعة ، ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر ، فيصلون صلاة العيد ، ويرجعون كذلك ، ثم يقبلون أتكه ويهنثونه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم ، وينزل الباشا فى ثانى يوم إلى الكشك بقره ميدان ، وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور ، واستعد فراشو الباشا بالتطلى والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ، ورتبوا جميع الاحتياطات واللازم من الليل ، واصطفت الخدم والحواشية والسعاة والملازمون ، وجلس الباشا بذلك الكشك ، وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ، ثم يأتى الدفتردار وأمير الحج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجيرية والعزب أصحاب الوقت والمقدام والأوده باشية والتمقات والجريجية فيهنثون الباشا ويعيدون عليه ، على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ، ثم ينصرفون . فلما حضروا فى ذلك اليوم ، وهنا الأمراء الصناجق

الباشا ، وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون النزول ، وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم ، وضربوا عليهم بينادق ، فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بسيف في وجهه ، وحسين بيك كشكش أصيب برصاصة نفذت من شقه ، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم ، واحتاط بهم مماليكهم ، ونط أكثرهم من حائط البستان من الجهة الأخرى ، وركبوا خيولهم ، وهم لا يصدقون بالنجاة ، وأركبوا عثمان بيك حصانه ، وهو يقول : باب العزب ، باب العزب ، وقد قطع السيف وجهه وحنكه ، وذهبوا إلى باب العزب ، وأنزلوه ، فمكث هنيهة ومات ، فشالوه إلى بيته وغسلوه وكفنوه . وانجرح أيضاً إسماعيل بيك أبو مدفع ، ومحمود بيك ، وقاسم آغا ، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بيك . »

* * *

افتح التراجع عند أية صفحة : العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين ؛ والحرب والضرب والغدر والقتل والهب والعودة بالرءوس المقطوعة والجلود المحشوة بؤ ، تجدها دائماً في تراجم المماليك والعثمانيين .

ولا تحسبن أن الفريقين يعيشان في عزلة تامة بعضهما عن البعض ، فهذا الشيخ الحفناوى ، الذى يحب المدمس بالمسلى ، والبيض المشوى والمقل ، يتداخل بين المتحاربين ، ويحاول منع تجريدة سارى عسكرها حسين بيك كشكش ، يسير إلى الصعيد لمحاربة على بيك الكبير : « يتكلم الحفناوى فى المجلس ، ويفحهم بالكلام ، ويمانع فى ذلك ويقول : أخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال . وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد . على بيك هذا رجل أخوكم ونحشداشكم ، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم ، وأرحتم أنفسكم والناس . وأرسل الشيخ مكتوباً لعلى بيك وبخه فيه وزجره ، ونصحه ووعظه . . . ولم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياماً ، ومرض ورمى بالدم ، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ، ليتمكنوا من أغراضهم . »

* * *

« وذهب حسين بيك كشكش ومماليكه إلى طندتا وكرنكوا بها ، وبعد قتال عنيف ، يؤمن محمد بيك أبو الذهب الجماعة ، ثم يقتل منهم حسين بيك كشكش و خليل بيك السكران ، ثم حسن بيك شبكة ، ويستأمن خليل بيك ومن معه فى

ضريح السيد البدوي ، ثم ينفون إلى إسكندرية ، وهناك يخنق خليل بيك ، ومن معه . . . وتعود تجريدة محمد بيك أبو الذهب إلى مصر ، وتدخل من باب النصر ، وأمامها رعوس القتلى محمولة في صوان من فضة ، وعدتها ستة : حسين بيك كشكش ، وخليل بيك السكران ، وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك ، وإسماعيل بيك أبو مدفع ، وسليمان أغا الوالى . والخدم ، حاملو الصوانى ، يقولون : صلوا على النبي ! »

تلك هى الصورة الحقة لتاريخ مصر فى عهد المماليك والعثمانيين : المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة ؛ والأجانب قطاع طرق سلابون نهابون . المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع ، بالفن والصناعة والفكر والعلم ؛ وغزاتهم الأجانب عنايتهم جمع الأموال ، وضرب السكة فيما فيه فائدة الولاة والأمراء ، والفتن حول السلطة والنفوذ ، والاستيلاء على الأرض .

ما أبدعها صورة للمقابلة بين المصرى وحكامه الأجانب : ترجمة الشيخ الحفناوى فى مقابل ترجمة إيواظ بيك !

* * *

ولقد ظننتنى بلغت أسفل سفليين إبان الحكم العثمانى والسطو المملوكى وأنا أطلع الجبرتى ؛ سئمت نفسى وعافت أخبار القاسمية والفقارية ، وعلى بيك القازدوغلى ، ومحمد بيك بارم ديله ، وإبراهيم بيك سنجق سته .

وحسبت أن بونابرت وجنود الجمهورية الأولى قضوا نهائياً على أولئك الطغام ، فإذا الطغام غول كالهيدرا ، ما تقطع رأسها إلا وينبت مكانها رأسان .

فما إن عادت أجناد العثمانية ، يظاهروهم البريطانيون جيشاً وأسطولا ، حتى بليت مصر بألوان جديدة من الطغام والظلمة . ولعلك تذكر أن من بين فرق الجيش العثمانى ، الذى حرر مصر من الفرنسيين ، شزيمة من الأرناؤد يقودها ضابط برتبة سرششمه (أى بنباشى) ، اسمه محمد على ، جاءت من الرومللى لتؤكد لشعب مصر أن ما ذاقوه من هول وإذلال وتقتيل لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأن الوجاقات السبعة الكرام كانت البرد والسلام بالقياس إلى وجاق الأرناؤد هذا .

وسيعود الباشوات بفرماناتهم وبيولردياتهم ، وسيحمل أحدهم للمصريين هدية تهدي ، وبشرى بالحكم الصالح : طغمة الدلاة ذوى الطراير السوداء ، جماعة من الأبالسة سابت من جهنم ، شرذمة جمعت ، فأوعت ، من خثالات المتأولة والأكراد ، ومن مناسر القتلة وقطاع الطرق ، ومن كل عات فاسق لفظته مجتمعات الشرق الأدنى ، التي لم تكن هي ذاتها نماذج باهرة للفضائل !
 وإني أعتذر هنا إذ أختتم على ذلة الشعب المصرى بأنكى وأفزع الوصمات .
 فأمر هؤلاء الدلاة لن يقف عند السطو والنهب والسبي والفسق العلنى ، بل سنسمع أن أولئك البلطجية كانوا « يلوطون فى الرجال الاختيارية » ! . . . ولعلك تعرف معنى الرجل الاختيار ؟ فهو شيخ جاوز الخمسين أو قارب الستين ، اختلط البياض بسواد لحيته ، وطلعت على جبينه زبيبة الصلاة سمراء من غير سوء !
 وتتصادم هذه الخثالات البشرية وتتطاحن ، ويقتلون مقدميهم ورؤساءهم ، بل يستديرون على الباشا الذى جلبهم فيعدمونه الحياة ، قبل أن يرسلهم جام غضب على أعدائه . . . ومحكوميه .

فى هذا المعترك الجهنمى ، وذلك الهول والبغى ، يعيش رجل واحد ، تطق عيناه بشرار القسوة ، وتتدحرج مقلته كأنهما عيون الزط والنور . لاشك فى ذكائه وقدرته على تركيز جهوده نحو هدفه الواحد ؛ فهو يضع كل ما وهبته الطبيعة من قوة وحيلة ، وكل ما أفاءت عليه البيئة والمنبت ، فى خدمة غرضه الأوحى : ولاية مصر ، ثم الاستقلال بها عن الأستانة ، كما فعل على بيك الكبير .

مع أنه ، كما يقول الجبرتى ، من الأراذل الأصاغر فى دولته ، ممن لا تنتظر لهم ولاية ، حتى من الولايات التى يعين لها حامل طوخ أو طوخين ، بله ولاية مصر التى لا يتقلدها سوى باشا من ذوى الثلاثة أطواخ . هذا الرجل هو تاجر الدخان الألبانى ، الجندى المغامر ، بطل التاريخ المصرى الحديث ، محمد على سرششمه ، على سن ورمح .

الوحيد الذى لم يفقد رشده فى هذا الخضم العفن ، فهو البارد حسناً ، يثير الجنود على الباشا آنأ ، وعلى المماليك آنأ آخر ، ويسعى بين المماليك بالوقية ، متلمساً كل وسائل الإغراء والتهديد .

ولعل أكبر درس تعلمه في المدرسة الوحيدة التي طرق أبوابها — مدرسة شيخة ، رب الملاعب — هو طريقة اجتذاب المعممين المصريين ، وعلى رأسهم ذلك الرجل الطيب أكثر من اللازم ، كبير النفس نبيل المحتد ، السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف بالديار المصرية .

ومهما استغلق الأمر على أغبياء الباب العالي ، فلا أقل من إدراكهم أن صنفاً واحداً من الرجال يمكنهم أن يركنوا إلى رأيه بمصر — لأنه من جنس لا يصلح لرئاسة الجند ولا للولاية — ألا وهو صنف المعممين ؛ فهما كان طلابهم من الدنيا ، فإنهم ، بعد ، رجال صلاح ودين ؛ ومحمد علي يعرف رجال دولته العلية جيداً ، يعرف تهالكهم على المال ، وجريهم وراء الرشوة ، وقبولها مع الغطرسة . ولكنه يعلم أيضاً أن فيهم شيئاً من الميل نحو الشيخة المصريين . سيجيء وقت يستطيع فيه شراء رجال دولته بذهب المعز ، كما سوف يعرف كيف يشهر على دولته في اللحظة المناسبة سيف المعز . أما في الآونة الحاضرة فلا مال عنده يهديه ، وهو أحوج ما يكون إلى أن يحيثه المعممون بولاية مصر على طبق ؛ فجاءوا بها إليه في مكبة فاخرة ، حملها إليه الرجل الطيب القلب ، الكريم ابن الكرام ، السيد عمر أفندي . وقبل أن تبرد الهدية في صحنها الفاخر ، كان الغادر قد بلغ غرضه ، فكافأ نقيب الأشراف . . . بالنفي !

ومحمد علي يصالح المماليك ليؤلبهم على الأتقي الكبير ، ويستعمل على هذا عثمان البرديسي ، ذلك « الممخرق الغشوم » . وكان محمد علي والأتقي — على حد قول محمد علي نفسه — يلعبان على الحبل كبهلوانين . استطاع البهلوان الألباني أن يشيط طبخة البهلوان المملوكي بالدس والوقيعه ، مستغلاً في ذلك حسد البرديسي ، وغيره الأمراء من « عظمة الأتقي وتعاضمه . »

وكان الأتقي قاب قوسين أو أدنى من تملك مصر ، مستقلاً عن إستنبول ، بمعونة الإنكليز . فيرسل محمد علي تجريدة عظيمة لمحاربة الأتقي ، فيها جميع عساكر الدلاة — هواة الرجال الاختيارية ! — وجميع الأرئود ، برئاسة حسن باشا طاهر ، وبها أتراك ومغاربة وغير ذلك ، فيكسرهم الأتقي شر كسرة . ولو حرص أن يطارد المغلوبين لأخرجهم جميعاً من القاهرة على وجوههم . ولكن

مدينة دمنهور امتنعت على الألفى ، وكان قصده أن يجعل منها معقلاً يقيم فيه حتى تأتبه النجدة الإنكليزية الموعودة . كما أن بعض إخوانه وخشداشيته خذلوه ، فاضطر أن يرحل عن البحيرة بجيوشه ، ومن معه من العربان ، حتى وصل إلى الأخصاص . فنادى محمد على باشا على العساكر بالخروج ، فخرجوا أفواجا بالليل والنهار ، حتى بلغوا ساحل بولاق ، وعدوا إلى بر إنابة ، وجيشوا بظاهرها .

فلما وصل الألفى إلى كفر حكيم ، وانتشرت جيوشه بالبر الغربى ، فيما بين إنابة والحيزة ، ركب محمد على وعساكره ، ووقفوا على ظهور خيولهم ، واصطففت الرجال ببنادقهم وأسلحتهم . ومرّ الألفى حيالهم فى هيئة عظيمة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على وعرب الهنادى والشرق ، فى كبكبة مروعة .

رأى محمد على ذلك فتعجب وأخذ يقول عن الألفى : « هذا طهماز الزمان والا إيش يكون ! » . ثم يأمر الدلاة والخيالة بالتقدم ، ويرغبهم بالمال الكثير ، فلا يتقدمون . واستمر الألفى سائراً فى جيوشه حتى بلغ إلى قرب قناطر شبرامنت ، فنزل على ربوة هناك ، وزاد به الهاجس والقهر .

ماذا حدث ؟ لماذا لم يهجم الألفى على تلك الأجناد المرتزة فيقتحمها إلى القاهرة ؟ أريدنا الجبى أن نفهم بأن عين الذئب الغادر أصابت طهماز الزمان ؟ الواقع أن الألفى لم يكن متمتعاً بصحة كاملة ، وأنه فى ذلك اليوم اتجه ببصره الزائغ نحو الضفة الأخرى من النيل ، وهو يرى القاهرة أمامه بماذنها العديدة ، من قناطر شبرامنت ، وأخذ يقول :

« يا مصر ! أنظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين . لقد استوطنك أجلاف الترك واليهود ، وأراذل الأزنود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك « وبرجالك الاختيارية ؟ » ويطمسون على بهجتك ونورك . . . »

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، حتى تحرك به خلط دموى — وقيل أصيب بالكوليرا ، وهذا غير معقول — فتقايأ دماً ، وعرف أن قد دنت نهايته ، فقال :

« قضى الأمر ! وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم . »
 ثم جمع مماليكه وأوصاهم بالآلفة ، وحذرهم من التفاضل ، ومن مخادعة عدوهم .
 ثم أوصى إذا مات أن يحملوه إلى وادى البهنسا ، ليدفن بجوار قبور الشهداء .
 وهذه الفكرة الإسلامية العميقة تدهشني من أولئك المماليك السفاحين ،
 الذين ولدوا في أرض غير إسلامية : أن يذكر الألفى العرب الأولين ، وقبور
 من استشهد منهم في قتال جيش عمرو بن العاص ضد دوق الفيوم في وادى
 البهنسا !

ولكن المؤرخين قد اتفقوا على أن المماليك كانوا يجمعون المتناقضات في
 خلقهم . فهم أهل صلاح وتمسك بالفرائض والسنة ، فيما يشبه سلوك المجرمين
 المحترفين في الصعيد ، الذين يصلون العشاء ، ثم يجوسون في الظلام لتقليع زراعة ،
 أو إزهاق روح ، مقابل مبلغ من المال . وقيل بأن أحدهم أخذته الشهامة فقال
 لامرأة فقيرة تطالبه بأخذ ثار : « طيب روحى يا وليه ، حاجتلك لوجه الله ! »

ولما عرف محمد على بموت الألفى قال : « طابت لى مصر ، وما عدت أحسب
 لغيره حساباً » ؛ وألبس المبشر فروة سمور ، وأجزل له العطاء ، وأمره أن يركب
 بالحلقة ، ويشق القاهرة ليراه أهل البلد ، ويسمعوه معلناً لنهاية الألفى .

طابت له مصر حقاً ، ولأولاده ، وأعقابيه من بعده ، ولم يعد هو ، أو هم ،
 يحسبون لأحد حساباً ، إلا للفرنسيين أيام سعيد وإسماعيل ، وللإنجليز منذ عام ١٨٨٢ ،
 حتى جاءتهم ساعة الحساب على أيدي أولاد الفلاحين والصعايدة ، ذات فجر
 من شهر يولييه سنة ١٩٥٢ .

طابت له مصر ، وانقضى على المماليك مرتين ، كانت الأولى بروفة صغيرة
 للثانية ، عندما دخلوا القاهرة بحجة الاشتراك في موكب جبر الخليج ، فما انحشر
 موكبهم في شارع النحاسين ، حتى انطلق الرصاص يدوى من النوافذ والأسطحة
 والقيعان ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى البرقوقية ، وهناك دخل وراءهم
 أجناد محمد على ومسكوكهم وقتلوهم .

أما في المرة الثانية ، وهى الأخيرة ، فقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون

لمحاربة الوهابيين . ثم عرف كيف يتصيدهم واحداً واحداً في منحدر باب القلعة ،
يمطرهم أرنؤده بالرصاص ، ويأخذونهم بالقتل من كل جانب ، فلا هم قادرون
على التقدم ، وقد أقفل باب القلعة ، ولا هم يستطيعون التأخر وقد اختلط حابلهم
بنابلهم في الممر الضيق .

وفي نفس اليوم كانت أوامره قد صدرت إلى مشاعليته بقتل كل من يجدونه
من المماليك في أنحاء البلاد ، حتى تمكن من القضاء على نيف وألف مملوك ،
وبينهم أكثر أمرائهم .

ويقال بأن عدد من ذبح بالقلعة كان نحو ثمانين وأربعمائة أمير مملوكي
وأتباعهم ، وفي رواية أنهم كانوا أكثر من ذلك ، ماتوا عن آخرهم إلا أمين بيك الذي
تسلق السور وهرب إلى الشام .

وكانت تلك نهايتهم كقوة محاربة وكحزب سياسي ، وبذلك حقق محمد علي
ما لم يحققه سليم العثماني في مطالع القرن السادس عشر ، ولا بونابارت الكورسيكي
في سلخ القرن الثامن عشر .

« طابت لي مصر وما عدت أحسب لغيره حساباً »

وله أن يصبح سوط عذاب وأس الرزايا ، بليت به مصر ، وسترزاً بأسرته
كابرًا عن كابر ، طوال القرن التاسع عشر ، وإلى عامين بعد انتصاف القرن
العشرين .

قال الكونت دي سان فريول ، من كبار الزائرين الفرنسيين لمصر ، في
خطاب خاص إلى أهله بفرنسا ، يصور حالة البلاد فيما بين عام ١٨٤١ و ١٨٤٢
[وتاريخ الخطاب ٤ يولييه سنة ١٨٤٢] :

« ذرعت مصر طولاً وعرضاً ، وأحسبني مستطيعاً التوكيد بأن الشمس لا تطلع
على شقاء أو تعاسة أشد مما يوجد بهذه اللجنة الأرضية . . . ولقد هبط تعداد البلاد
بمقدار الخمس ، بفضل نظام في الحكم لحمته استغلال الفرد ، وسداه السطو
المنظم » .

وإذا أردت أن تعرف تفاصيل استغلال الفرد ، وبعض هذا السطو المنظم ،
فاقرأ الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي ، أو طالع ما كتبه الدبلوماسي البريطاني

ياتون ، وقد خبر ذلك العهد عن رؤية ومشاهدة .
مات الألفى فباض محمد على وصفر ، واستدار لبقية المماليك ، يقضى
عليهم بطريقة وحشية لا يمكن تبريرها ، من أية ناحية إنسانية .

* * *

ولقد حانت اللحظة التي نتابع فيها نهاية المماليك بعد المذبحة ؛ لأن من حق
سلاطين مصر علينا ، من حق شجرة الدر وبيبرس وقلاوون وأبنائه ، وبرقوق
وقايتباى والغورى وطومان باى ، أن يعرف الجليل الحاضر خاتمة ممالك الصالح
أيوب ، ومن جاء بعدهم ، الذين حكموا مصر اسماً وفعلاً حتى الغزو العثماني ،
وفعلاً حتى موت الألفى ومذبحة القلعة ، أى من عام ١٢٥٠ م حتى عام ١٨١١ م .
والجبرتي ، الذي نقل عنه الصور النهائية للمأساة ، كان كارهاً لهؤلاء المماليك
القتلة الفاسقين . بيد أنه لا يتألك من إبداء الأسف على ما آل إليه حالهم . فهو
في ذلك ، وفي غيره ، إنسان بكل ما في هذه الكلمة من معنى أخلاقى رفيع قال :
« وفي منتصف رمضان سنة ١٢٣٢ [١٨١٦ م] وصلوا برمة إبراهيم بيك
الكبير — زميل مراد بيك — من دنقلة . وذلك أنه لما وصل خبر موته ، استأذنت
زوجه ، أم ولده ، الباشا في إرسال امرأة تدعى نفيسة لإحضار رمتة . فأذن بذلك ،
وأعطى المتسفرة ، فيما بلغنا ، عشرة أكياس ، وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه
القبلى بالمساعدة . وسافرت ، وحضرت به في تابوت وقد جف جلده على عظمه ،
لنحافته ، وذلك بعد موته بنحو ستة شهور . وعملوا له مشهداً ، وأمامه كفارة ،
ودفنوه بالقرافة الصغرى عند ابنه مرزوق بيك . »

ولقد سبق ذلك أن حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرية البواقي ،
في حالة رثة وضعف وضيم واحتياج ، وكانوا أرسلوا إلى محمد على باشا يطلبون
الأمان . كما حضر بعدهم طائفة من بواقيهم من دنقلة إلى بر الجيزة ، وهم نحو
الخمسة وعشرين شخصاً ، وملابسهم قماص بيض لا غير ، فأقاموا في خيمة
ينتظرون الإذن .

ويعود الجبرتي إلى تلخيص ما جرى على المماليك من العوادي ، وذلك في نهاية
ترجمته للأمير إبراهيم بيك عين أعيان أمراء الألوف المصريين :

« عاثوا فساداً إلى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزائري عام ١٢٠٠ ، وساعدته الرعية ، وخرجوا من المدينة إلى الصعيد ، وانتهكت حرمتهم . ثم رجعوا في سنة ١٢٠٦ إلى إمارتهم ودولتهم ، وعادوا إلى حالتهم الأولى وأزيد منها في التعدي ؛ فأوجب ذلك ركوب الفرنساوية عليهم ؛ ولم يزل الحال يتزايد ، والأهوال يتلو بعضها بعضاً ، حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية ، وزالت حرمتها بالكلية ، وأدى الحال بالمرجم [إبراهيم بيك] إلى الخروج والتشتيت والتشريد ، هو ومن بقي من عشيرته ، إلى بلاد السودان ، يزرعون الدخن ، ويتقوتون منه ، وملابسهم القمصان التي يلبسها الجلابة في بلادهم ، إلى أن وردت الأخبار بموته في شهر ربيع الأول من سنة ١٢٣١ .

« وفي أواخر ربيع الثاني من العام نفسه ، حضر شخص يسمى سليم كاشف من الأجناد المصرية ، مرسل من عند بقاياهم من الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم الزمان بكلكلة ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم ، واستوطنهم دنقلة من بلاد السودان ، يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن ، وبينهم وبين أقصى الصعيد مسافة طويلة ، نحو من أربعين يوماً ؛ وقد طال عليهم الأمد ، ومات أكثرهم ومعظم رؤسائهم وبقي ممن لم يموت منهم إبراهيم بيك الكبير ، وعبد الرحمن بيك ، تابع عثمان بيك المرادى إلخ وبواقى صغار الأمراء والمماليك . وقد كبر سن إبراهيم بيك وعجزت قواه ووهن جسمه . فلما طالت عليه الغربة ، أرسلوا هذا المرسل بمكاتبة إلى الباشا [محمد علي] يستعطفونه ، ويسألون فضله ، ويرجون مراحمة ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم ، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة إلى أية جهة من أراضى مصر يقيمون بها ، ويتعيشون فيها بأقل العيش ، تحت أمانه ، ويدفعون ما يجب عليهم من الخراج الذي يقرره عليهم ، ولا يتعدون مراسمه وأوامره .

« فلما حضر وقابل الباشا ، تكلم معه ، وسأله عن حالهم وشأنهم ، ومن مات ومن لم يموت منهم ، وهو يخبره .

« ثم أمره بالانصراف إلى محله الذي نزل فيه ، إلى أن يرد عليه الجواب ، وأنعم عليه بخمسة أكياس . فأقام أياماً حتى كتب له جواب رسالته ، مضمونها

أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم بشروط شرطها عليهم ، إن خالفوا شرطاً واحداً ، كان أمانهم منقوضاً ، وعهدهم منكوثاً ، ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم . »
ويذكر الجبرتي سبعة من الشروط التي سمع بها ، ثم يقول :

« فسبحان المعز المذل ، مقلب الأحوال ومغير الشئون ! فمن العبر أنه لما حضر المصريون [يقصد المماليك المصرية] ، ودخلوا مصر بعد مقتل طاهر باشا ، وتآمروا وتحكموا ، كانت عساكر الأتراك في خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم ، وكانت علائقهم [علائق الأتراك] تصرف عليهم من أيدي كتابهم [كتاب المماليك] وأتباعهم . وإبراهيم بيك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد علي باشا هذا من الخبز واللحم والأرز والسمن الذي عينه له إبراهيم بيك من كيلاره ، نعوذ بالله من سوء المنقلب ! »

وفي مراسيم استقبال الباشا محمد علي لقنصل إنجلترا ، يصف باتون ، مساعد القنصل ، منظر استقبال الباشا للمفوضين الأجانب وصفاً دقيقاً ، ثم يلتفت إلى جانب من البهو الكبير ، فيرى آخر المماليك واقفاً مع خدم الديوان ، وقد أحنت الشيخوخة ظهره ، ولبس عمامة كبيرة ، وقفطاناً أحمر ، أثراً من آثار العز الدارس . ويستحضر باتون في ذهنه أطياف مراد بيك وإبراهيم بيك والصراع بينهما وبين بوناپرت وكليبر .

ونستحضر نحن أطياف الظاهر بيبرس وقطر وفارس الدين أقطاي وقلاوون والناصر محمد وقايتباي ، أولئك الذين دونخوا فرسان الصليبيين ، وإلخانات التتار ، وخطبت ودهم جمهوريات البنادقة والأماقيين والجنوقيين وإمبراطرة بيزنطة .

الهوان بعد السلطان ، والذلة بعد العز ! فهل يليق أن أضيف إليها صورة المماليك وقد استحال إلى كرنفال كنا نراه في طفولتنا أمام زفة المطاهر والعروس ؟ وهي صورة « ملك الزمان » يركب أكديشا ، ويلبس قاووقاً ، كما صورتها في فصل « ملك الزمان » من كتاب « سندباد عصري » . أي أن ملابس التشريفة المملوكية كانت قد انتهت إلى مخازن الأكسسوار بشارع محمد علي والدواية .

ولا أنفك أفكر بصورة في متحف « اللوفر » للمصور دافيد ، تمثل القائد البيزنطي بليزار يوس ، حامى ملك يوستينيانوس ، في صورة شيخ كفيف يستجدي

المارة ، ووقف بين ساقيه حفيده الصغير ، يمد ذراعيه بنخوذة القائد ، ويتلقى الإحسان من يد عابرة سبيل . ويظهر أن لا أساس في التاريخ لهذه النهاية المحزنة لقائد من أحسن قواد بيزنطة ، حماها من جيوش كسرى أنو شروان ، وانتصر على القانдал في أفريقيا ، وخلص روما وناپولى وراڤينا وسردينيا من الغوط الشرقيين ، وحمى القسطنطينية من الهون . ولكن شناعة الشائنين ، وغيره الإمبراطور يوستنيانوس ، بتحريض الإمبراطورة تيودورا ، أودت به .

وحتى لو صدقت حكاية استجداء بليزاريوس ، فلم تكن سوى مأساة رجل واحد ؛ وهذه مأساة مجموعة بشرية كبيرة ، بدأت من لاشيء ، وفدت على مصر من أسواق النخاسة بالشرق الأدنى ، ومن وراء سيحون وجيحون ، وجبال كردستان والقوقاز وأودية القوقاز بأرض قوبان ، ومن الأناضول والبلقان وضيفاف البحر الأسود وبحر أزوف وبحر قزوين ، وقيل من شواطئ البلطيق أيضاً ، وبدءوا خطاهم إلى المجد من خان مسرور إلى دكة الممالك ، سوق الرقيق الأبيض الكبير بالقاهرة ، وحكموا أكبر إمبراطورية مصرية عرفها التاريخ ، بعد إمبراطورية أمينمحت الثالث ، إمبراطورية واسعة الأرجاء ذات موقع جغرافي في الدرجة الأولى من الأهمية الحضارية والاقتصادية والسياسية ، رأسها ودعائمها بلد واسع الثراء ، لا بأرضه ونيله وشمسه وزراعته وصناعاته وتجاراته فحسب ، بل بشعب من أعرق الشعوب حضارة ، وأميزها شخصية ، وأقدرها على الحياة .

ولدى

« أماه ويا أمهات الناس ! من لى بمن يعيد إلى ولدى !
سافر مع العسكر إلى بلاد العثماني ، انتزعوه من بين أحضاني ،
حملوه السلاح قسراً ليحارب عدواً بعيداً ، فى بلاد نائية .
غادرنا وهو يبكى ؛ فارق زوجته الشابة تحمل طفلها ، وهو يبكى ؛
حمل قرابيته على كتفه ، ومشى فى الصفوف مع رفقائه ؛
تبعناه يوم رحيل الأورطة ، ورأيناه يخفف السير فى منعرج الطريق ،
يزودنا بنظراته الحاطفة ، آخر نظراته ، وهو يودعنا إلى الأبد ،
ثم اختفى !

ماذا دهاه ؟ ماذا جرى له ؟
لم أسمع بخبره حتى عاد رفقاؤه ، ولم يعد معهم :
« أين ولدى ؟ »
« ولدك يا غلبانة ، سقط صريعاً بأيدي العدو ،
« هناك بعيداً فى البلاد النائية . »

* * *

أماه ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟
مات ولدى ولم أكن بجانبه ،
لا أنا ولا زوجته الشابة ،
مات ولم يحن عليه مخلوق يرخى جفونه !
يا أمهات الناس ! من يعيد إلى ولدى ،
ولدى !

* * *

وأنا من يدلنى على أصل هذه الأنشودة الحزينة التى كان يرددوها الشعب
المصرى تحت حكم عباس الأول ، بعد عودة الجيش المصرى من محاربة المسكوف

على ضفاف نهر الطونة ؟ فأنا أترجمها عن لغة أجنبية ، بلغة فصحي ، لم تكن لغة الأغنية الشعبية .

ثم هل حان الوقت لنصحح التاريخ ؟ وهل ما زلنا نخجل من الإشارة إلى ما كان يحدث إلى عهد قريب منا ، عندما كان الأهالي يشقون الجيوب ، ويولولون على أبنائهم وقد « راحوا الجهادية » ؟ أليس الأولى من الخجل ، أن نعرف الحقيقة ، والعلة التي جعلت الشعب المصرى يبكى أبناءه المجندين ؟ سوف تفهم وترثى معى أشد الرثاء للشعب المصرى .

فالناس كانوا على حق فى عويلهم على أولادهم « فى الجهادية » ؛ استمع إلى هذه الصفحة من تاريخ مصر ، كتبها أديب من أصل سويسرى اسمه شارل ديديه ، أقام بمصر أيام عباس الأول وسعيد ، وترك لنا كتاباً عنوانه « ليالى القاهرة » ، جاء فى الصفحة الثامنة بعد الثلاثمائة من طبعة باريس عام ١٨٦٠ ، ما يلى :

« حان الوقت لأحدثكم بأمر الجهادية فى مصر ، وكيف نظمها محمد على وحفيده عباس ، الذى لم يحتفظ من أعمال جده إلا بأشدها نكراً وسوءاً . وما تزال شئون الجهادية تجرى على هذه الوتيرة إلى اليوم ، تحت حكم " المصلح العظيم " سعيد .

يجند الناس بمقتضى نظام جائر ثور له النفوس . فالتجنيد هنا عملية سطو ضارية ، تقوم بها عصابة من الباشى بوزق اختيروا لهذه المهمة على أساس استعدادهم لها ، وخلق قلوبهم من أى أثر لمشاعر الإنسان .

تنزل هذه العصابة بالقرية المسالمة نزول الجوارح والضواري على الحيوانات الأليفة ، فتضرب عليها حصاراً وثيقاً لا ينجو منه إنسان . . . وتعيش على حساب أهل القرية حسب ما يحلو لها ، وتقرر على القرية العدد المطلوب للجهادية من شبابها الأقوياء ، وشيخ البلد هو الموكل بتحرير قوائم المجندين .

فأول ما يفعله هذا الشيخ ، هو إبعاد أسماء أولاده ، وأولاد أقربائه ، من القوائم ؛ فأولاد أحبائه ومحسوبيه ، حتى لا يتبقى فى القائمة سوى أسماء الغلبة من عباد الله .

ونظارة الجهادية لاتعنى بنوع المجندين ، إنما يهتمها العدد المحدد من الأنفار ... وإذا اكتشفت تلاعب شيخ من مشايخ البلاد ، أو اتضح لها تغاليه في الإعفاء ، فإن الجهادية تفصل في الأمر . . . بفصل رأس الشيخ عن جسده ، ليذهب في المشايخ مثلاً.

لن يحشد إذن أبناء الأعيان في سلك الجهادية ، والبركة في شيخ البلد ، وممالاته لهم ؛ هذا إن لم تكن في حكيم الجهادية نفسه ، الذي تخصص في باب من فنون الطب غير معروف في الكليات الطبية . ولهذا الباب علاقة مباشرة بثروة أهل من يجرى الكشف عليهم من المرشحين للجندية ؛ ويظهر أثر هذا التخصص الطبي في نتائج الكشف ؛ فجميع أولاد الأعيان تفريهم العلل ، وتقعدهم عن العسكرية شتى العاهات . أما أولاد الإيه ، فكلهم ، بقدرة قادر ، يتمتعون بالصحة والعافية ، لا تعرف العاهات طريقها إلى أكوأخهم .

وهي ظاهرة عجيبة ، لعلها من أسرار علم الإحصاء . والأعجب أنها تتكرر عاماً بعد عام .

لا شك أنها تكلف الأهلين مالا له صورة . . . وأنها مصدر ثراء للحكماء الذين يضعون علمهم في خدمة الأصفر الرنان . ويؤسفني أن أقرر بأن أغلب أولئك الأطباء من الإفرنج ، وما أقل من يمكن أن يترك منهم بين المصريين شيئاً من حسن الأحداث وطيب الذكر .

جيش مصر في عهد محمد علي وأبنائه وأحفاده ، لا يجند إلا من بين أولاد الفلاحين المعدمين . فما إن ينتهى شيخ البلد من حشد حشوده ، حتى يسلمها للباشى بوزوق ، وهؤلاء يسوقون المجندين إلى « مصر المحروسة » ، موثقى الأيدي مقيدى الأرجل ، في حراسة قوية ، وكأنهم من عتاة المجرمين .

كنت أرى جماعاتهم تمر بي كل يوم ، وأنا جالس إلى قهوة تحت داري بحى الأزيكية ، في رتل طويل يسوقه الباشى بوزوق إلى القشلاقات سوق السائمة ؛ منظرهم يفتت الأكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهلهم ، ومن بين أحضان الحرية ؛ يسرون مشى مشى ، مربوطين برقابهم إلى حبل من مسد ، يمتد على طول الرتل . فتية ترتسم على وجوههم وفي أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع ،

لاتكاد تستر عورتهم أسمال قدرة كانت فيما مضى هدموا زرقاء .
وسرب من النساء يتبع قطيع الآدميين : أمهات وأخوات وزوجات يتبعن
أعزاهن من القرية حتى العاصمة ، يتحملن ما يتحمل رجالهن من عناء السفر ،
ويحاولن ما استطعن أن يخففن عنهم وطأة الجوع والعطش بجرار من الماء ، وقليل
من خبز الأذرة والبلح .

أما رعاة هذا القطيع البشري ، فكانوا من فرسان الأرباوط ، يحفون بالصف
وسيوفهم تضرب بطون أفراسهم ، والطبنجات تتخيم مناطقهم ، والكرباج مغلول
إلى أرساغهم .

وفي القشلاق يتسلمهم « جاويشية العلام » ، وهم أضل سبيلا وأسوأ منقلباً .
ومن لغو القول أن أذكر بأن هؤلاء المجندين لا يبلغون شيئاً في أورطهم ،
لأن الرتب العسكرية من حق المحظوظين ، دون قاعدة أو قانون ؛ والغلمان من أبناء
الذوات ، وأنحدان عباس باشا ، وأصحاب مزاجه ، ومحاسيب سعيد باشا ، يلعبون
بالرتب العسكرية لعب الأولاد بالأكر .

طبعي أن يكره المصريون عموماً ، والفلاحون بخاصة ، الجهادية اسماً ورسمياً ،
حتى يهرب من يستطيع الهرب منهم إلى البادية وكهوف الجبال ، ليجنب نفسه
الذل والهوان . مع أن الفلاح المصري من أرقق الناس بأهله وقريته ، ومن ألصق
أهل الأرض تعلقاً بالأرض التي أنبتته . . .

وكيف يمكن أن تحب النساء والأولاد والآباء العجزة هذه الجهادية ، تنتزع
من بينهم القائم على أودهم ، ليغادر ضفاف النيل الحاني . . . ويذهب إلى الحرب
أمام قلاع نهر الطونة ؟ »

هذه أقوال شاهد عيان ، أثبتها ونشرها بين الناس . فهل كان صعباً على
أساتذتنا في المدارس أن يذكروا لنا هذه الحقائق ، كلما أبدينا نخجلنا ونحن
نسمع « ضرب الصوت الحياني » يزف المجند يوم يستدعى ؟ ربما ! فمن كان يجسر
على ذكر الحكام بغير الخير ، وكانوا أولياء النعم وخدم « البادشاه » الأعظم ،
ظل الله على ضفاف القرن الذهبي في الأستانة العلية !

وقبل خمسين عاماً من كتاب شارل ديدييه ، قال اليوزباشى تورمان ، ذلك الشاب الألبانى الذى كلف من قبل سارى عسكر بونايرته بإقامة التحصينات على طول الساحل المصرى الشمالى ، وعاش فترة فى منطقة برارى الحامول وبلطيم والبرلس ودسوق وفوه [صفحة ١٣٣ من كتابه « بونايرت فى مصر » طبع بباريس عام ١٩٠٢] :

« لن تدرك مهما بلغ بك الخيال مدى فقر الفلاح وبؤسه ، فهو لا يكاد يجد ثمن جلباب أزرق يلبسه طوال العام ؛ يعيش مع أهله ومواشيه وكلابه ، فى مساكن هى مباءة الحشرات : يتكشف فى مأكله إلى درجة أن الغذاء اليومى لواحد من أبناء بلادنا على ضفاف الراين قد يكفى عائلة الفلاح المصرى لبضعة أيام . ولست فى هذا متغالياً ، فالبؤس هنا بلغ قرارته .

ومع كل هذا ، فإن المصريين أهل مرح وإشراق ، يأسرك لطفهم . وإذا تعمقت الملاحظة أدركت رقة شعورهم ، وتوقد ذهنهم الذى يفوق ما نلاحظه فى فلاحينا . أما السمعة اللاصقة بهم فى أوروبا عن ضراوتهم ، فإنها أثر من آثار غضباتهم السريعة . فطويتهم سليمة ، وطباعهم كلها دماثة ؛ حتى الحيوانات التى تؤالفهم تبدو كأنها اكتسبت طبيعتهم ؛ فالثور يجر المحراث هادئاً مطيعاً ، والطلائق لا تعرف الشراسة ، والثعابين تتسلل تحت حصير الفلاح ، وتعيش معه دون أن تؤذيه ، وكلابه قليل منها ما يصاب بالسعار . . . إن الجو المحيط بهؤلاء الناس يفيض بنفحات الحضارة . . . » .

فإذا عدنا إلى صاحبنا شارل ديدييه ، فى منتصف القرن التاسع عشر ، وجدناه يردد بعد اليوزباشى تورمان بنخمين عاماً : « ولا يوجد فى أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء الفراعنة هؤلاء . فالمصرى يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكرى العثمانى ، ذلك الجلف الجافى ، الذى يفاجئك هو وضباطه بفضاظتهم ، على حين أن المصرى يحتفظ ، مجنداً ، بهدوء سريره ، وكرم طباعه ، وسماحة سجايه . »

ووصف ديدييه للجندى العثمانى يذكرنى بما قاله ابن إياس أيام الغزو العثمانى ، يصور الجنود العثمانية بالقاهرة :

«وأما عسكر السلطان سليم فكانوا ، جميعاً ، عيونهم دنية ، ونفوسهم قدرة ، يأكلون الأكل وهم راكبون على خيولهم في الأسواق ؛ وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة ، وقلة دين ؛ يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس . ولا جاءهم شهر رمضان ، كان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجامع ، ولا صلاة الجمعة ، إلا قليلاً منهم . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف ، لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم . »

* * *

أماه ، ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟

ولدى !

مصر والحضارة الغربية

درج الناس على القول بأن مصر فتحت أبوابها للحضارة الغربية بعد غزو الفرنسيين لها في أواخر القرن الثامن عشر ، وبعد تقلد محمد علي باشويته في أوائل القرن الماضي . وهذا صحيح في ظاهره ، من ناحية أن بعض المصريين تنبهوا إلى أشكال حضارة غربية عنهم ، رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسية بالقاهرة . ولو أن هذه الأشكال ، في بعضها ، لم تكن إلا نموذجاً سيئاً لتلك الحضارة ؛ فلسنا بحاجة إلى تصور سلوك الجنود الفرنسيين وضباطهم في شوارع العاصمة ، فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احتراموا تقاليده . وربما كانت معاقرة الحمر علناً ، ومعاشرة النسوة الخليعات ، والسير بهن في الطرقات ، والجلوس معهن في الحانات ، أول ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوروبية . وكانت فتاة مصرية من بيت كريم أول ضحايا التبرج والتفرنج ، مما حمل والدها على قتلها بعد أن خرج المعتدون . وسلوك جند الجمهورية الأولى كان تكذيباً صارخاً لادعاء بونابرت الإسلام ، أو على الأقل تبجحاً في بلاغاته بأنه جاء لحماية المسلمين من ظلم المماليك . ولقد سئل نابليون في منفاه بجزيرة سانت هيلانة عن حكاية لبسه العمامة والفراجة ، وادعائه الإسلام ، فقال لمحدثه الكونت لاسكازيس : « كانت شعوذة ما بعدها شعوذة ، ولكن من الضرب الرفيع » . وصور فكتور شوفان ، في بحث صغير نشره بدورية محلية في بلجيكا عام ١٩٠٢ ، سخرية المصريين بادعاءات بونابرت وكرههم للفرنسيين . وكذب الأساطير التي أذاعها كتاب الغرب المظنون بالملحمة النابليونية ، وأشار إلى بعض قصائد عربية ، ألفها متشاعرون سخفاء في مدح بونابرت ، ومنها قصيدة لأحد الشوام ، المسمى نقولا الترك ، قدموها لسارى عسكر في مقابل دراهم معدودة . وندد بفلاكة كاتب ألماني ادعى أن كلمة Lions ليست غريبة عن العرب ، فهم يصورون بونابرت في صورة بطل خرافي يطير في السماء ، ثم يهجم على أعدائه هجمات الأسود ، واسمه عندهم « أبو ليون » أى « أبو السباع » ! ؟

ويظهر أن المحتل الفرنسي لم يأل جهداً في أن يعلن عن تقدمه العلمى بكل الوسائل ، ومنها حكاية البالون الذى حاولوا أن يطروه من ميدان الأذربكية ، فإذا به لا يريم . وكانت « كسفة » للفرنسيين ما بعدها كسفة ، كما يظن الجبرقى . وفى حكاية أخرى ، جمع بونا برته شيوخ الديوان ، ليشاهدوا تجارب المجمع العلمى ، ومنها بعض التجارب « الخلقانية » ، يسلط فيها تيار كهربائى على أعصاب حيوانات شبه ميتة — وهى تجربة العصب والعضلة ، التى يجريها طلبة الفسيولوجيا بكليات الطب والعلوم — وإذا بعضلاتها تتقلص وتنفرج . وقد احتفظ الشيوخ ، ذوو العمامات الكبيرة واللحى الطويلة ، بوقارهم طوال التجارب . وسأل أحدهم برتوليه ، الذى قام بتجربة « إعادة الحياة إلى الأموات » ، إن كان فى استطاعته أن يراه الناس فى القاهرة ومراكش فى وقت واحد ؛ فلم يجر برتوليه جواباً بل هز كتفيه ؛ وإذا بالشيخ يقول له : « رأيت إلى قصور سحرك عن بلوغ المقاصد ؟ »

كل ذلك لم يحل بين المصريين وبين ملاحظة ظواهر أخرى لحضارة الغرب . ومن قبيل هذا إعجاب الشيخ عبد الرحمن الجبرقى بنظم الفرنسيين فى حياتهم ، وطريقة فرض ضرائبهم ، وأسلوبهم فى المحاكمات وفى حركاتهم العسكرية . وتنبه الشيخ عبد الرحمن إلى عنايتهم بدراسة الطبيعة المصرية ، وشاهد بعينه وسائلهم لتدوينها وتسجيلها ، وحفظ نماذج من نباتها وحيوانها وتربتها وصخورها ، وكتب فى ذلك صفحة لا تخلو من سذاجة ، يصف زيارته لدار المعهد العلمى ، واطلاعه على كتبهم وصورهم ومجموعاتهم الحيوانية المحفوظة فى قرطميزات من زجاج .

ثم هو يلاحظ اتجاههم نحو استخدام الظواهر الطبيعية ، على أساس من العلم بها ، فيما يوفر على الإنسان مشقة ، ويختصر جهداً . ومن أدق ملاحظاته فى رأيى — على بساطتها — تلك التى أبداها بعد أن راقب الجنود الفرنسية — وهم يزِيلون متاريس الثائرين المصريين — يستخدمون عربات يد صغيرة ذات عجلة واحدة فى نقل الدبش والأتربة بدل نقلها بالخلق . فكأن الشيخ عبد الرحمن فهم القيمة العملية للعلم ، واستخدامه للسيطرة على قوى الطبيعة .

كل تلك الملاحظات البسيطة فى ظاهرها ، العميقة فى دلالتها ، سوف يلاحظها شيخ آخر بعد موت الجبرقى بسنوات قليلة ، وفى عاصمة فرنسا ، ولكنها

تتسع هناك لتشمل أهم معالم الحضارة الغربية ، ظواهرها وبواطنها . وكان هذا الشيخ الآخر تلميذاً أثيراً عند الشيخ حسن العطار ، صديق الجبرتي الحميم . والشيخ حسن هذا هو الذى شجع تلميذه على السفر إلى فرنسا إماماً لأول بعثة علمية أوفدها محمد على إلى أوروبا . فلما عاد من بعثته عرض كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » على أستاذه حسن العطار الذى قدم له وحثه على نشره . وبعد خروج الفرنسيين ، أخذ بعض المماليك فى تقليد النظام العسكرى الفرنسى ، أو ما يسميه الجبرتي « مارش وأردبوش » ؛ وعرف أحدهم منذ ذلك الحين باسم حسين بيك الإفرنجى ، لتماديته فى هذا التقليد . وحدث أن سارت بعض طواير الجند على طريقة « مارش وأردبوش » فى استعراض بالإسكندرية ، وإذا الجند يلحظون على ثغور الأجانب المطلين عليهم من الطيقان علائم الابتسام ، فيحسبونها — وقد تكون — سخرية بهم ، ويضربون عليهم بالبندق ، ويرد عليهم الأجانب بإطلاق النار من النواقد .

وكما أن السلطان العثمانى محمود — وهو الذى أطلق محمد على اسمه على الترعة القديمة التى أعاد حفرها فيما بين النيل والإسكندرية ، وما زالت تعرف بترعة المحمودية — حاول إدخال نظام أوربا فى الجيش العثمانى ، وثار عليه الإنكشارية ، فإن محمد على طبق هذا « النظام الجديد » فى مصر ، وتذمر منه الجند المدرب على الطريقة القديمة .

ومحمد على كان يكره حتى تلك اللحظة أن يرى المصريين ضمن جنوده . وقد جهز تجريدة لفتح السودان طمعاً فى استجلاب العبيد من جنوبيه للاتجار بهم ، وإنشاء جيش منهم ، أقل كلفة من جيوش العثمانية . وعندما ثار حماس المصريين وطلبوا الخروج لمحاربة الإنكليز . . . ولكنى أفضل هنا أن نترك الجبرتي يتكلم :

« ولا جاء الخبر بانهمزاد الإنكليز من رشيد ، جاء أيضاً أنهم رجعوا إلى الإسكندرية ، واستعدوا استعداداً هائلاً ، فأرسلوا لنا النجدة حالاً » . فقرأ عمر مكرم الجواب على الناس ، وحثهم على التأهب والخروج للجهاد — وكانوا قبل ذلك قد شرعوا فى حفر الخندق حول القاهرة ، ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والحنانات ، وكذلك أهل بولاق والنصارى فى ديوان المكس ،

والأروام والشوام ، وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبتية — فامتلأوا ولبسوا الأسلحة ، وجمع إليه طائفة من المغاربة وأتراك خان الحليلي وكثيراً من العدوية [أى عرب بنى عدى] والأسيوطية وأولاد البلد . وركب في صباحها إلى كتخدا بيك ، واستأذنه في الذهاب ، فلم يرض وقال : « حتى يأتى أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك » . ولما وصل محمد على — وكان في ملوى — خرج عمر مكرم والمحروقي والمشايخ ، ودار بينهم الكلام في أمر الإنكليز ومحاربتهم ، فقال محمد على : « ليس على رعية البلد خروج ، وإنما عليهم المساعدة بالمال . . . لعلائف العسكر ! » وسيضطر محمد على اضطراراً إلى استخدام المصريين — ولن يأسف على ذلك عندما يتحدث إليه ابنه القائد العام بحسن بلائهم ، وقوة احتمالهم ونظامهم — سيضطر إلى استخدامهم عندما يهب لمعاونة أسياده وأولياء نعمته في إسطنبول ، ثم لمحاربتهم . وقد اطمأن إلى أن « النظام الجديد » لا قيمة كبيرة فيه للانفجار بغير ضباطهم . وما دام هؤلاء الضباط من الجراكسة والأرنؤد وبعض الفرنجة ، فلا خوف عليه وعلى آله وصحبه ، ولا هم يحزنون .

كان « النظام الجديد » خيراً وبركة على محمد على ، وعلى مرتزقته من الضباط غير المصريين . كما كان الباعث الأكبر له على « النهوض بمصر » ، عندما أفهمه مستشاروه الأجانب أن تأليف قوة مصرية محاربة يقتضى إنشاء مدارس الحرب والهندسة والأركان والطب والبيطرة والفنون والصناعات ، ومصانع الأسلحة والذخيرة ، ودار الصناعة والترسانة ، ومصانع النسيج والطرابيش ، والمطبعة لطبع الكتب وغيرها مما تحتاج إليه كل تلك المنشآت .

تلك كانت الخطوات العملية لإدخال الحضارة الأوربية إلى مصر . وكان أهم مظهر لها تغيير في اللباس ، فخلع محمد على العمامة ولبس الطربوش هو وابنه إبراهيم وأركان حربه ، وضباطه الغرباء ، وعساكره المصريون . والعجيب أن الطربوش الذى كان رمزاً لمجاعة روح العصر والتجديد في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، انتهى أمره إلى أن يصبح ، في أواخر عهد أسرة محمد على ، عنواناً على الرجعية والتمسك بالتقاليد ، وما كانوا يدعونه « القومية » !

وظل ابن البلد نفراً في الجيش لا يرقى إلا إلى الرتب الصغيرة ، ومستخدماً

لا يرتفع في الدواوين إلى أعظم من باشكاتب ، وظلت الدولة إقطاعاً لمحمد علي ولأولاده من بعده ، ولأقاربهم وأنسابهم والضاشيتهم وقواديتهم ورجال أعمالهم من الأرنبود والبحراكسة والعثمانية ومن إليهم ، ومن شر ما كان يلقي به علينا الشرق الأدنى من أشكال وألوان .

بدأ عهد الإصلاحات في حكم محمد علي ، وهي إصلاحات هامة ليس من ينكرها ؛ انتظم بها الأمن ، وانحل برم البدو العابثين ، وتلاشت سطوة المماليك وشقت الترع وأنشئت القناطر ، ونظم الري والصرف ، على أيدي جهابذة المهندسين والعلماء الأجانب ، واستثقلت زراعات جديدة ، وأصلحت الأراضي البور ، واختطت الشوارع ، وقامت بالقاهرة مصلحة للتنظيم باسم « ديوان القدارة » ، ودبت الحياة في الإسكندرية بفضل تجديد مينائها وإنشاء ترسانتها . ولم يكن المقصود بهذه الإصلاحات أي خير يصيب الشعب المصري ، فالمصري لا يملك شيئاً في بلاده ، حتى ولا حفنة الأذرة التي يصنع منها بتاوه .

ويرد عليك الرجال العمليون قائلين : المهم أن أعمال الإصلاح أجريت ، وميناء الإسكندرية فتح للتجارة ، واستتب الأمن ، فجاء الأجانب برءوس أموالهم (؟) — أو بعقولهم وعلمهم — يعملون في خدمة الاقتصاد المصري . وتمكن بريد الهند من اختزال طريق رأس الرجاء الصالح ، بالعبور براً من الإسكندرية إلى السويس ، ثم مواصلة السفر بالمراكب إلى الشرق .

مثلما يتحدث إليك المدعو إيفلين بيرنج ، وشهرته لورد كرومر ، في كتابه « مصر الحديثة » ، بنعمة الإمبراطورية البريطانية على مصر ، وفرضها الحضارة الغربية عليها — دون أن يكون مؤمناً بأن مصر متقبلة لتلك الحضارة — لا شيء إلا لإشاعة الأمن وتنظيم الاستغلال . فلنصدق هذا الكذاب حتى باب الدار ، أو حتى يطرد من الديار ، ولنؤمن على إصلاحاته ، ولنسلم له بالنجاح في خاق نوع من الدولة العصرية .

إنما تأمل عدالة التاريخ عندما يتزاح الستار ، وإذا هذا المتحضر المصلح ، ينقلب إلى مجرد وال أجنبي أو باشا من العثمانيين . لقد كشفت مأساة دنشواي عن روح ذلك المستعمر العاتي ، إيفلين بيرنج ، فهذا المتشدد بالنثر والشعر من الآداب اليونانية

واللاتينية والإنجليزية ، الذى يتمثل بأقوال توكيديد ويوفينال ودرايدن ، المدعى تزعم حركة التحضر والتقدم العمرانى فى مصر ، سرعان ما ينقلب إلى مجرد سفاح سوقى ، وباشا عثمانى ، وقائد برابرة فى بلد محتل . أية عدالة تاريخية أبرع وأصدق من أن يحتم هذا النصاب حياته « المتحضرة المحضرة » بمقتلة رخيصة ، وظلم رهيب ، أمام قرويين أبرياء ، وقرويات ساذجات ، لم يفعلوا أكثر من الاحتجاج على ضباط بريطانيين يصيدون حمامهم الأليف ، ويصيبونهم برصاصهم الأهوج فى عقر دارهم .

كلا يا سيدى ! لن تجد ، لا فى نهضة محمد على ، ولا فى إصلاحات المدعو كرومر ، ما يمثل شيئاً آخر غير « الحضارة المادية » . ومصيبة مصر أن طرقها حضارة الغرب على هذا الوجه الأغبر . جاءتها بخيرها فى الصور المادية لهذا الخير ، وحملت إليها شرورها فى الصور الروحية للشر . مصر لم تتطور عقلياً ولا فكرياً فى محاذاة تلك الانقلابات العمرانية التى حققتها حضارة أوروبا بمصر منذ عهد محمد على . وما فتئت الصور المادية للحضارة الغربية هى المتغلبة ، تسبق ، بمراحل طويلة ، الحالة العقلية والشعورية لبلاد وادى النيل .

وما أسهل استعارة العنصر المادى فى حضارة أجنبية والاقتباس منها . وأرجو أن نكون تنبهنا إلى هذه الحقيقة الخطيرة ، وهى أن إدراك عنصر واحد من حضارة غربية عنا ، يجب أن يستدرج عناصرها الأخرى ، إذا أريد لتلك الحضارة الأجنبية أن تؤتى ثمارها الثقافية . ولكننا ألبسنا الحضارة الغربية كما يلبس قميص المجانين ؛ أقحمت علينا من عل فى شكلها المادى ، وفى جبروت أهلها ، وشهوة أطماعهم البشعة .

وبذلك اختلطت علينا سبل الإصلاح الروحى ، وتاهت منا المقومات الحقيقية للنهضة ، وكنا إذا آمنا بحضارة الغرب الفكرية والفنية والعلمية ، كمجموع متكامل لا ينفصل عن حضارته المادية ، قام الرجعيون فى وجوهنا ، يهتموننا بممالة الغاصبين والمستعمرين . فلا نحن مستطيعون أن نخطو خطوات التطور الطبيعى للانتفاع الكامل بتلك الحضارة ، ولا الرجعيون قادرين على الاستغناء عن أدواتها وأجهزتها

المادية . وليتنا وقفنا من حضارة أوربا عند علومها وتكنولوجياها ! ولكن ما كان أسرعنا إلى استعارة مظاهرها البراقة الأخرى ، وتطوراتها الدنيوية ، دون أن نتطور روحياً فيما يقابل تلك المظاهر . أخذنا بعض العلم وعرفنا بعض تطبيقاته ، ونحرص على الاستزادة منه ومنها . ولكننا أيضاً نتفرنج في اللباس والأثاث والزينة ، وفي حفلاتنا ومجتمعاتنا ؛ نرقص في الكباريه ، ونعيش في شبق الأغاني والأفلام الجنسية والأدب المكشوف ، وكأن هذه المظاهر الغربية أصبحت لازمة لنا ، لزوم الثلاجة والسيارة والطيارة والراديو تليفزيون . فإذا طالبنا بالاستزادة من فنون الغرب الرفيعة ، وفكره وفلسفته ، اتهمنا بالتفرنج ، والتقليد الأعمى ، والاعتداء على الأصالة والقومية . أما القواد ، منظم حفلات ملكات الجمال ، وصاحب الماخور المسمى «صندوق الليل» ، وملحن الكباريه على إيقاع السامبا والوجي - بوجي ؛ أما المنتج السينمائي الناقل لأحط ما يرمينا به الغرب من أوزار ، فليس هم المعتدين على الأصالة والقومية !

إن حديثي في هذا الكتاب لا شأن له بالحاضر ، ولغيري أن يراقب حاضره ، ليقدر إن كنا ما زلنا سادرين في غفلتنا ، أو أن العناصر العاقلة الواعية بدأت تقودنا من ظلام الفلاكة ، إلى نور الفن الجميل والفكر العالى . لغيري أن يفحص ويشخص علامات النقاهة من ذلك المرض الانفصامى العجيب ، الذى عانىنا طويلاً نتيجة تقبل أدوات الحضارة المادية ، وأسوأ مظاهرها الاجتماعية ، دون أساسها الفكرى والفنى والروحى .

مصر التى أتحدث عنها حتى الماضى القريب ، ما فتئت فى أواخر عصرها الوسيط ، تحاول أن تعود إلى نفسها بعد إغفاعة أهل الرقيم بضواحي إفسوس . رأيتها تحبوما بين عصرها الوسيط وعصر الإحياء ، وكان عهدى بها أن اتخذت الحضارة الحديثة لباساً وزخرفاً مزيفاً وطلاوة ، من تلك الطلاوات التى حرص أمراء أسرة محمد على أن يلبسوها بها جسم مصر ، لتتم لهم صورة مزوقة ، تحشرهم فى زمرة الأمراء والملوك المتحضرين ، حتى ليتبجح إسماعيل ، غير المفترى عليه ، بقالته المشهورة إن بلاده لم تعد من أفريقيا ، بل هى قطعة من أوربا .

حركة الإحياء الأوربية ، فى القرن الخامس عشر ، لم تنبعث من أمثال

هذه الفنجرة والفشخرة ؛ إنما جاءت على إثر يقظات في الفكر والمشاعر ، وتخلص من ربة الغيبيات ، والتزمت في العقائد ، وتنبه إلى آثار الحضارات الكلاسيكية ، من عمارة وتماثيل وصور ، وعلم وأدب وفلسفة . وعندما لم تعثر على بعض الآثار الفكرية في أصولها القديمة ، التجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم ، ممن تغدوا بتلك الحضارة ، وترجموها لها ، ودرسوها وعلقوا عليها ؛ لم يصددها عن ذلك تعصب صليبي ، ولا ذكريات فتوح الأندلس ، وصقلية ، وغزو جنوب إيطاليا وفرنسا .

وتحولت تلك الحركة في بعض البلاد الأوروبية من انصياع أعمى للجالس على كرسي بطرس الرسول ، إلى شعوب تستقل فكراً وعقيدة عن روما . بل كانت تحرراً للفكر الإنساني في صميم البلاد الكاثوليكية ؛ وانطلق الناس هنا وهناك يناقشون الظواهر الطبيعية ، ويفحصونها ويفسرونها ، دون التزام لما جاء في كتبهم المقدسة ، أو حتى في كتب أرسطاطاليس . بل على أساس من الملاحظة المباشرة ، يساعدها الإدراك والتدوين ، والمقارنة والمقابلة ، والقدرة على الانتقال من التفاصيل إلى العموميات . هكذا خرج الأوروبيون من عصورهم الوسطى .

أين مصر من كل هذا في ماضيها القريب ؟ متى بدأ المصريون يشعرون بواجبهم الروحي في هذا التطور ، ويحسون بأن البقاء على القديم فكرياً هو الركود والموت ؟ وأن عليهم واجب اللحاق بركب الحضارة ، إذا أرادوا أن لا يداسوا كالدواجن ، ويدلوا كالأنعام ؟ ومثل هذا الشعور لا يتأتى إلا عن طريق واحد ، هو طريق التعليم الصادق ، وأقول الصادق لأن التعليم قد يكون هو أيضاً مجرد دهان وقشرة على سطح الفكر ، ودغدغة خسيصة للمشاعر .

ولو أن بعثات محمد علي اتجهت إلى الإحياء ، أي لو أنها كانت بعثات فكرية علمية ، بلجأت بخير كثير ، وبأسرع مما آتت . ولكن محمد علي لم يوفد « الأفندية » إلا ليتعلموا حرفاً ومهنأ تتصل بشئون الحرب . ومع هذا فإن تلك البعثات تركت في أغلبهم أثراً عميقاً ، وساعدتهم على التحرر ، ووضعت أقدامهم على أولى درجات السلم الحضاري . ولو كان « الأفندية » مصريين ، لاستطاعوا أن ينقلوا إلى مصر بعض لقاح الثقافة . ولكنهم ، في أغلبهم ، عادوا إلى بيئاتهم

الأرستقراطية التركية ، وعاشوا حياتهم بمعزل عن الشعب .
لقد استعرضت تاريخ البعثات التي أوفدها محمد علي وخلفاؤه الأقربون ،
وفيها بعثات صناع ، وضباط برية وبحرية ، وهندسة عسكرية ، وطب وبيطرة
وصيدلة وكيمياء صناعية ؛ والقليل منها اتجه لدراسة الرياضة والفلك والجغرافيا ،
وواحد من كل تلك البعثات كان من حظ مصر أن يوفد لا ليتعلم شيئاً ، بل
لمجرد أن يؤم « الأفندية » في الصلاة . فيتعلم الشيخ الفرنسية ويحذقها ، ويقوم
على رأس حركة الترجمة في القرن التاسع عشر . من هنا يبدأ تطور الفكر المصرى
حقاً . فالشيخ رفاعه رافع الطهطاوى هو ظاهرته الكبرى ، الجدير حقاً بلقب
« باعث النهضة المصرية » .

هذا المجاور المتحفظ ، المصر على الإسجاع ، إلا حينما يكتب فيما لا يحتمل
التلكؤ الذى تقتضيه القيود اللفظية ومحسنات البديع ، وحينما كانت الأفكار في
نظره أهم من الاحتفال باللفظ ؛ هذا المجاور ، لم تمنعه بيئته المحافظة الأولى من
أن يوسع أفقه ، ويلاحظ الناس والوقائع في أوربا ، ويطالع ويترجم ما يختار من
مطالعاته ، ليفيد به أهل وطنه . يعلق على الحوادث ، ويفصح عن آماله في مستقبل
بلاده ، بنوع من التورية والاختباء خلف ما يسرد من مواعظ ، ويستشهد به
من شعر . إنه ليرجم كتاب مونتسكيو عن تدهور الحضارة الرومانية ، ولا أشك
في أنه قرأ كتاب مونتسكيو الأشهر وهو « روح الشرائع » ، ولكنه لم يجسر على
ترجمته ، خشية أن تكشف الترجمة عما يجول بخاطره من كره للاستبداد ومقت
للاستعباد . ثم هو يترجم حياة بطرس الأكبر « باعث النهضة الروسية في اتجاه
الغرب » .

عاد رفاعه إلى وطنه ، سنة ١٨٣١ ، زاهر النفس بمعانى حياة جديدة ،
متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى ، بتعليم الشعب وتنبيه الأذهان . عاد ليدرس
وينشئ المدارس ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . راح يستعرض كتب
الثقافة الغربية ، ويترجم ، ويتخرج على يديه المترجمون ، يتولون معه ، وبإشرافه ،
ومن بعده ، نقل تلك الكنوز المكشوفة . مضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات
والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم

الآراء الفاسدة ، ويبذر بذور التقدم ، يبصر أمته بروعة ماضيها ، وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها ، لا يكل في ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود ، ولا نفي عباس باشا له إلى السودان ؛ إنه رائد عملاق ، لولاه ، ولولا الفريق الذى رباه ، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل .

رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس ، كانت أول اتصال روحى بالغرب أنخسبت به عقول أهل مصر ، « وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج ، وشعر الفنى الصعيدى بمكانه من الدنيا والتاريخ ، وأدرك روعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته . »

بعثات عسكرية أو هندسية أو علمية أو طبية ، أعضاؤها من المتمصرين أو من المصريين ، لا شك فى أن تلك البعثات قد وهبت مصر رفاعة رافع الطهطاوى ، كما وهبتها على مبارك ، ومحمود الفلكى ، ونخبة من الحكماء والبحرانية والكحاليين .

وللباحث فى تطور المجتمع المصرى أن يدرس أثر أولئك الرواد العظماء ، وأن يتعمق الدراسة وهو يترجم لهم ، بدل أن يضيع وقته وجهده فى تحليل حياة محمد على وسعيد وإسماعيل ، مدحاً أو قدحاً . لأن القليل الذى عرفته مصر ، فتحوّلت عن غفلتها ، جاء بتفكير أولئك الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر . ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه وخبروه من آثار الحضارة الأوروبية .

وما أطول الطريق برغم هذا ، وما أبعد الشقة ! فقد أصابنا الاحتلال البريطانى بنكسة عقلية وخلقية ، عندما أوقف تلك البعثات ، ثم حوّلها إلى قلة - كقطرات الماء - توفد إلى كليات ثانوية من أمثال كلية برورود ، التى اشتهرت فى تاريخنا الثقافى بثورة أعضاء بعثة عليها . وكان محجوراً على المصريين أن يوفدوا على حساب الدولة إلا إلى إنجلترا ، ومحجوراً عليهم أن يحصلوا فيها من الدرجات الجامعية ما قد يضعهم على قدر من المساواة العلمية بأترابهم البريطانيين ، الذين يجيئون إلى مصر غلماناً ، ليعينوا لها رؤساء وحكاماً .

وجاءت ثورة ١٩١٩ تصحح ذلك ، وعادت البعثات ترد موارد العلم والثقافة والفن حيثما وجدت فى بلاد الغرب .. وأنشئت جامعتنا الكبرى ، حصناً للحرية

الفكرية ومنازة للعرفان . فإذا الرجعية تثربص بها ، وتتجمع تحت راية «منشئ الجامعة» ، الملك المستبد ، وتعمل على تطفيش الشباب «روحياً» ، وإبعاده عن معين الحضارة الحققة ، بحجة «المحافظة على تراثنا وقوميتنا» . واشتهر وزير للمعارف إذ ذاك باسم وزير «التقاليد» ، في وقت اندفعت فيه البلاد اندفاعاً في طريق التطور المادى ، فلم تعرف إلا قليلاً من معنى الحضارة : فهي انطلاق الفكر وصدق الشعور ، على أساس من الخلق القويم والثقافة . فالحضارة الأصيلة لا تنبت إلا في حقل النفوس المهذبة الأبية ، ولا تنبت إلا من صميم الروح المطلق .

كان الشباب يتخرج موزعاً بين تقاليد ورواسب وغيبيات راسخة ، وبين علم وفن وحضارة لازمة لرقية ماديّاً وروحياً . فهو مقيد موثق الأقدام ، يخطو في حياته خطوات متثاقلة ، لأن سلاسل الرجعية توقر أقدامه ، وقد ترخى له القيود إلى مدى ، لتجذبه كلما أحست في حركاته من ضعف ، وفي مقاومته من اضمحلال . لقد عرفت كل هذا في تربيتى وتعليمى ، وراقبت كل هذا في تربية طلبتى بالجامعة وتعليمهم . قد ينجح الشاب في كسر قيوده وفك عقاله ، ولكن ثمن هذا الفكك والانطلاق ، يكون فى الغالب على حساب الأخلاق . لأن الشاب لم يحصن الحصانة الكافية بشيء أهم من الأوامر والنواهي ، وأهم من العلم والمعرفة ، ألا وهو الثقافة ، بكل ما تحوى هذه الكلمة من تفكير صادق ، وإحساس سليم بشئ ما تنشئه العقول الجبارة ، والمشاعر المرفهة شرقاً وغرباً .

ما هى الحضارة إذن إن لم تكن فى هذا التفكير الصادق والإحساس السليم؟ يندفع الإنسان بقوتهما فى رحاب الحياة الحرة ، لا تتفاعل فى نفسه رواسب الحزبيلات ، مع رحيق العلم والتحصيل ، والتمكن من المعارف النافعة .

II

الخيط الأبيض والخيط الأسود

ألف عام

صراع القومية المصرية

ثلاث ملكات

أم خليل

بنت الزمار

الصعيدية

القيراط الخامس والعشرون

ألف عام

دخلت مصر في حوزة الإسلام عام ٦٤٠ م ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ .
وليس أمر الفتح العربى مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويداً ، أو حتى مجرد لغة
حلت شيئاً فشيئاً محل اللغة الرسمية للبلاد ، وهى اليونانية ، ثم انتهت بالتغلب على
اللغة القومية القديمة . ولكن ما حدث نتيجة للفتح العربى هو أن مصر أصبحت ،
منذ ذلك التاريخ ، ركناً هاماً من أركان العالم الإسلامى ، وارتبطت مصائرهما
بمصائر الإسلام ، وأصبحت لغتها القومية هى لغة العالم الإسلامى السائدة ، وهى
اللغة العربية . فصر اليوم ، بحكم لغتها ، قطاع من العالم العربى ، وبحكم ديانتها
الرسمية ، شطر من العالم الإسلامى الذى يشمل شعوباً وأممًا احتفظت بلغاتها
الأصلية ، مثل إيران وتركيا والباكستان واندونيسيا . مصر اعتنقت الإسلام ديناً
واتخذت الضاد لغة ، ولعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى كله ، دوراً سياسياً
بحكم ثرائها ونظامها ومركزها الجغرافى ، ودوراً ثقافياً بفضل جامعها الإسلامية
العتيقة .

وهذا التحول الكامل فى حياة مصر فصلها فصلاً تاماً عن تاريخها السابق على
الفتح الإسلامى . ولكن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعاً انفصال
مصر عن تاريخها الفرعونى ، لأنها فى الواقع كانت نبذت تاريخها القديم عند ما تحولت
من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطأ أن نحمل
المسلمين المصريين تبعاً تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسؤل الأول عن هذا
التخريب هم المصريون المسيحيون . فما إن أصدر الإمبراطور تيودوسيوس عام ٣٩٥ م
أمره بإيقاف العبادات الوثنية فى أنحاء الإمبراطورية ، حتى راح المسيحيون المصريون
يهدمون أو يخربون تلك المعابد ، أو يحيلونها إلى كنائس وبيع . وإذا كان
المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة ، فإنهم يتحملون تبعاً ضياع مفتاح الكتابة
المصرية الهيروغليفية والديموطيقية ، حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم

خمسـة عشر قرناً ، إلى أن كشف شامبوليون رموزها فى أوائل القرن التاسع عشر . فلم يكن ثمة ما يدعو المسيحيين المصريين إلى الاحتفاظ بأسرار الكتابات القديمة وقد يسرت لهم الأحرف اليونانية كتابة لغتهم ، التى عرفت منذ ذلك الوقت باسم اللغة القبطية . وليس معنى ذلك أن الأقباط نبذوا كل شىء من تاريخهم السابق على المسيحية — وهو أمر لا يقبل عقلاً — فلا شك أنهم احتفظوا بتراث علمى وطبى مختلط بالسحر . ولعل الحرص على دقة التلفظ بالتعاويذ السحرية ، هو الذى شجعهم على كتابة اللغة المصرية بأحرف يونانية ، لها من حروف العلة والحركة ما لا يوجد فى الكتابات القديمة ، مما يحفظ لهذه التعاويذ صحة النطق بها ؛ فمن شروط فعل السحر دقة التلفظ بكلماته وتراكيبه وجمله ، وقد يكون من المهم المحافظة على تنعيم التعاويذ .

ومع ذلك فإن الشعب المصرى المسيحى كان يمثل فى غالبيته الكبرى شعب مصر القديم ، الذى احتفظ بخصائصه ، فضائله وعيوبه ، على طول الاحتلال المقدونى والرومانى والبيزنطى . ولكن لغته تأثرت دون شك باللغة اليونانية السائدة فى الهيئات الرسمية ، فاستألفت ألفاظاً ومصطلحات يونانية كثيرة ؛ كما تأثرت طقوسه وألحانه الكنسية ، وطرزه المعمارية وزخرفته ، بالفن البيزنطى ، بعد أن تحول الأمباطرة الرومانيون إلى الديانة المسيحية .

وحين اعتنق المصريون فى غالبيتهم الإسلام ، لم يحتفظوا لا بلغتهم القبطية ، ولا حتى بجنسهم ، تمام الاحتفاظ ، فيما عدا القلة التى تمسكت بالمسيحية ، وجاهدت فى الإبقاء على لغتها حية حتى قرون متأخرة . ولكن هذه اللغة انتهت ، بعد القرن السادس عشر أو السابع عشر ، إلى أن تكون لغة الطقوس الكنسية فحسب . بل آلت إلى أن تكتب بحروف عربية ، ويتعلمها ، من يحرص على تعلمها ، فى كتب مؤلفة بالعربية .

أما المصريون المسلمون فقد اختلطوا بالعرب وبغير العرب ، من المسلمين الذين توافدوا على مصر فى مختلف العصور ، واستقروا فيها .

ومع أن الباحثين فى علم الأجناس يرون أن الجنس المصرى لم يتأثر فى غالبيته بذلك الاختلاط ، وبرغم ما يقوله — وهو على صواب — المؤرخ إرمان من « أن

الشعب الذى سكن مصر القديمة يعيش حتى الآن فى السكان الحاليين لهذه البلاد ، فإن الحقيقة الواقعة ، وما نراه من إحساس المصريين بعروبيتهم ، تدل على انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها . فالمصرى المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس لحضارته ؛ ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهى أمره . والمصرى غير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته . وإذا أردنا تقسيماً أدق ، فإننا نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : إما مسلم يحس إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامية ، بحكم اقتضار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامى ، والدور الذى أداه الإسلام للحضارة ، وإما مسلم - أو مسيحي - يشعر بجامعة اللغة والتراث الحضارى ، وهى التى تجمع شمله بالشعوب التى تتكلم اللغة العربية .

والنتيجة العملية لكل هذا ، هى أن سكان مصر ، من المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضارى بالفتح الإسلامى ، ومن غير المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضارى بكرة مرقس الرسول ، ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين فى ثقافتهم العربية . ولكن مصر لم تبق ، ولا يمكن أن تبق ، بمعزل عن العالم الذى تطور منذ القرون الوسطى ، وأنشأ فى أوروبا حضارة نبتت أصولها من حضارة اليونان والرومان والتوراة والإنجيل ، وأخصبتها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليونانى . فإذا أضفنا إلى هذا أن حضارة اليونان تعترف لمصر القديمة ببعض الفضل ، وأن الحضارة العربية تأثرت فى بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطى ، فإن السلسلة الحضارية التى تجمع بين مصر القديمة ، ومصر المسيحية ، ومصر الإسلامية ، والحضارة الأوروبية الحديثة ، سوف تضيق حلقاتها .

وما إن تتيقظ مصر ، وتفتح عيونها على حضارة أوروبا ، حتى تكتشف أمراً عجيباً ، هى التى نسبت تاريخها القديم : ستكتشف أن لتاريخها الذى نسبته ، حساباً أكبر حساب ، عند أصحاب هذه الحضارة الحديثة . ستكتشف أن هؤلاء يعتبرون الحضارة الفرعونية أقدم يقظة للفكر والضمير والإحساس الإنسانى ، عرفها التاريخ . فلم يعد مقبولا أن يظل المصريون على جهلهم بحضارة أجدادهم المنسيين منهم وحدهم : ويتنبه المصريون إلى هذه الحقيقة ، وبخاصة فى عهد

التحرر ، وعقب حركة سنة ١٩١٩ ؛ وكان هذا منشأ المدرسة التي نادت بالفرعونية في عشرينات هذا القرن . ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة ، فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً في صدارة كتاب العربية ، ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامى . إنما كانت حركة تحاول أن تمحو عن المصريين سبة وعاراً ، سبة جهلهم بتاريخهم ، وعار ازدرائهم بأجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ . فإذا كنا قد صححنا ، إلى حد ما ، موقفنا من الحضارة المصرية القديمة ، فإننا ما زلنا ، مع شديد الأسف ، نتنكر أو نتجاهل حقبة هامة من حقبات التاريخ المصرى ، وهى الحقبة المسيحية ، ونكتفى منها بكلمة أو كلمتين عن اضطهادات دقلديانوس ، ثم نقفز فجأة إلى مقدمات الفتح الإسلامى .

وتاريخ مصر—فى طريقة كتابته—ما زال شذرياً مقطعاً ، لا نرى فى فصوله أكثر من التابع التاريخى . فهى فصول لا تكاد تجمعها صلة ؛ أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف . وحقيقة التاريخ المصرى هى فى أنه قصة واحدة طويلة ، تدور حوادثها حول أشخاص عديدين ، من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة ، ولكن بطلها واحد ، هو الشعب المصرى .

والعلة فى هذا التقطيع هى : أولاً طول التاريخ المصرى — وليس يعرف تاريخ غيره بهذا الامتداد والاتساع — ثم اختلاف وسائل دراسته ، تبعاً لكل حقبة : دراسة النصوص القديمة ، والمعابد والمقابر الباقية ، والحفر والتنقيب على ما يوجد منها تحت الأرض ؛ يقضى فيها الأثريون والمؤرخون طول حياتهم بحثاً وكشفاً ونقلًا وتسجيلاً وفك رموز وترجمة نصوص ، وتطبيق ذلك على ما جاء فى تواريخ اليونان والرومان ، وأقوال رحالهم وجغرافيتهم عن مصر الفرعونية . ودراسة اللغة الإغريقية واللاتينية والقبطية ، والتمرس بقراءة البرديات والشققات والأوستراكا ، والتبحر فى التاريخ اليونانى والرومانى والبيزنطى ، لغة وحضارة وديانة ، لمن يعنى بتاريخ مصر الهلينستية ، أو مصر الرومانية الوثنية أو ، مصر المسيحية . وفى العهد الإسلامى ، يضطلع المؤرخ اضطلاً كاملاً بالحضارة الإسلامية عامة ، ويعمل فى مطالعة النصوص على شواهد القبور وفى البرديات والشققات وما إليها ، بالإضافة إلى دراسة كل من أرخوا لمصر والإسلام دراسة مستفيضة .

وينشأ عن هذا الاختلاف الكبير في الوسائل ، انفصال بين مؤرخي مصر ، انفصال علمي مدرسي ، يجعل من الصعب على المطلع العام أن يلم بتاريخ بلاده إلاماً موحداً . ومن يكلف نفسه مشقة قراءة هذا التاريخ مسلسلاً ، ينسى في آخره أوله ؛ ويصده عن تاريخ الفراعنة بعد الشقة ، وانقطاع الصنلة الحضارية ، وصعوبة فهم الديانة ، وقلة النصوص الأدبية ، وشعور قارئها بأن ترجمتها مهزوزة ؛ ويصده عن تاريخ البطالسة والرومان أنه تاريخ أسرة مقدونية وحضارة هلينستية ، أو امبراطرة رومانيين ، وحضارة لاتينية ، لا يكاد المؤرخون فيها يذكرون شيئاً عن الشعب المصري ؛ ويصده عن تاريخ مصر المسيحية ، جهله بحضارة بيزنطة ، وصعوبة متابعة المناقشات الدينية التي نشبت في العالم المسيحي ، وكان الكرسي الرسولي الإسكندري في القرون الأولى للمسيحية طرفاً هاماً ، ومناوئاً خطيراً ، لما تتقدم به كل من روما وبيزنطة وأنطاكية . هذا إلى أن القارئ العام لا يجد بين يديه تاريخاً للحقبة المسيحية يبسط له أمور العقيدة ؛ لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول في بعض التفاصيل ، كما يتحرج المؤرخ القبطي من التبسط فيها ، إذا كان يكتب لمواطنيه جميعاً ، وغالبيتهم من المسلمين . وبذلك ظلت الحقبة المسيحية تعيش في شبه ظلام تاريخي .

ولا أحسبنا نفهم الفتح العربي ، إلا إذا عرفنا مقدمات الحوادث التي تحولت فيها مصر من الوثنية إلى المسيحية ، وأهملت طريقة كتابة لغتها القديمة بالحروف الديموطيقية ، والظروف التي عاشت فيها مصر المسيحية ، يحكمها إمبراطور مسيحي في بيزنطة ، ويضطهد أهلها اضطهاداً أنكى وأشد من اضطهاد الإمبراطرة الوثنيين . عندئذ يمكن أن نفهم كيف انتقلت مصر من المسيحية إلى الإسلام ، وكيف أهملت لغتها القديمة ، لتتخذ من لسان العرب لغتها الوحيدة .

كما لا أظن أننا نبني قوميتنا بناء سليماً مؤسساً ، إلا أن ندرس تلك التحولات الروحية ؛ فإن مجرد سرد بعض الوقائع ، فيما يشبه التعمية ، قد قصم ظهر تاريخنا من وسطه . يتعين علينا أن نطالع خلال حوادث الألف عام ، التي انقضت بين غزو الإسكندر والفتح الإسلامي ، حياة مصر الروحية ، وحياة الشعب المصري خلف ستار البطالسة ، والأمبراطرة الرومانيين والبيزنطيين ؛ لأننا بدون فهم تلك

الحياة ، لن نعرف من تاريخنا شيئاً غير تاريخ مصر الإسلامية ، فهو التاريخ الحى فى نفوسنا إلى اليوم .

ويحسن أن نعرف أولاً أن الملكية المصرية القديمة كان قد تغير وجهها منذ أمد طويل ، قبل أن يقضى الفرس القضاء النهائى على استقلال مصر . فلم يعد الفرعون فى أغلب الأسر المتأخرة مصرياً ؛ ونلاحظ أن شعبين أو ثلاثة من الشعوب الأجنبية بدعوا التغلغل فى الحياة المصرية . أولها شعب لوبيا ، وقد كان كبير الكهنة فى طيبة يحمل اسماً لوبيياً وهو « مصحرتا » . والغالب أن التوغل اللوبى كان أبرز فى الطبقة العسكرية . وكانت الأسرة الثانية بعد العشرين ، عندما ارتقى شيشونق عرش مصر فى بوباسطيس ، لوبية خالصة . وجاء بعدهم الإثيوبيون ، ولم يكونوا سوداً بل كانوا من أصل لوبى ، ويحملون أسماء لوبية . وكان ملوك الأسرتين الرابعة بعد العشرين ، والسادسة والعشرين ، — وهذه الأخير هى الأسرة الصاوية — من أصل لوبى أيضاً . والغالب أن ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين ، والثلاثين ، كانوا غير خلصاء الدم المصرى . والدم الأجنبى قبل أن يجرى فى عروق الفراعنة ، كان قد جرى فى أوعية العسكريين المعروفين بالمشاوشة ، ووقعت على عاتق هذا الجيش الأجنبى مهمة الدفاع عن الاستقلال المصرى .

وجاءت الجنود المرتزقة الإغريق بعد ذلك ، ومرتزقة آسيا الصغرى ، ليحلوا محل المشاوشة . ولم يتناول هذا المزج سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية ؛ وبقى المصريون ، كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن ، خلصاً ، يحتفظون بصفاتهم الأصيلة ، ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون ، مثل أجدادهم .

ومراكز الحكم ، فى الأسر الفرعونية الأخيرة ، تحولت من الجنوب إلى الشمال ، وتبعها المراكز الدينية . وإذا كانت طيبة ، وثالوثها « آمون — موت — خونسو » ، قد احتفظت بمقامها إبان حكم الأسرة التانيسية والبوباسطية ، فقد بدأت تنزوى رويداً ، وتفقد أهميتها حيال معابد منف وصا وأتريب وبوطو ومنديس وسمنود ، وحيال آلهة هذه المعابد من أمثال إمحوتب بن فتاح ، ونيط إلهة السماء ، وبسطيظ الهرة ، وهاتور البقرة . ولا يبق من البانتيون القديم سوى إله العالم

السفلى ، أوزيريس ، وأخته وزوجته إيزيس ، وابنه هوروس . وظل المصريون ينقشون النصوص المقدسة على نواويسهم وتوابيتهم ، ويرسمون صور الحياة العامة والحياة المنزلية على جدران مقابرهم ، ويجمعون نصوص كتاب الأموات فى نحو مائتى فصل . وظاهر أن العبادة المصرية القديمة كانت فى طريقها إلى الانحلال والتدهور ، حتى أمست مجرد طقوس ومتون قديمة ، غلب عليها السحر ؛ كما أن عبادة الحيوانات أخذت تنتشر ، ولم تعد تلك الحيوانات ، كما فى الماضى ، رموزاً للآلهة ، بل أخذت تعبد لذاتها .

وكانت مصر قد فتحت أبوابها للتجار الأجانب ، فدخلت السفن الفينيقية إلى مصر عن طريق فروع الدلتا ، وعليها التجار الآسيويون ؛ وجاءها تجار الإغريق وميليتيا . وعندما استقر حال البلاد ، واستتب الأمر لبساماتيك ، من ملوك آخر الأسرات الفرعونية ، كان هؤلاء التجار قد ألفوا جاليات تجارية وصناعية هامة . ولم تعد صا ونوقراطيس ، وحدهما ، مراكز الجاليات اليونانية ، بل إن منف ، ومدن الدلتا الكبرى ، احتوت على أحياء إغريقية كاملة . وبذلك توطدت العلاقات بين بلاد اليونان ومصر ، وتبادلا السلع التى ينتجها ، أو يستوردانها من فينقيا وبابل وبلاد العرب السعيدة وإثيوبيا ، كالزيت والنبذ والغلال والذهب والنحاس والبخور والأعطار والطيب والأفاويه والعاج واللازورد والأخشاب .

وكان رواج التبادل التجارى مصدر ثراء لخزينة فرعون ، مما يسر له إنشاء المعابد الكبرى فى صا ومنف وواحة آمون . وأخذ الإغريق ينقلون إلى بلادهم حكايات عن وادى النيل ، وأوصافاً تختلط فيها الحقائق بالأساطير والخرافات ، مما أثار فضول محبى المعرفة من أهل المدن اليونانية ، فوفدوا على مصر ، ليحققوا بأنفسهم ما سمعوه على ألسنة النواتية والتجار الثرارين .

أى أنه كان لتلك الوشائج الاقتصادية الفضل فى أن يزور مصر رجال كبار ، من أمثال المشرع الأثينى صولون ، والفلاسفة والعلماء من أمثال يودكسيس الكنيدوسى وفيثاغورس وطاليس ، بل وأفلاطون العظيم بذاته . وقضى هؤلاء بمنف أعواماً يدرسون ويتعلمون ؛ وذلك قبل أن يفد على مصر ذلك المخبر الصحنى الأول فى التاريخ ، المولود فى هاليكارناس ، ليدبّج مقالاته المثيرة عن مصر ، ويجمعها

في الكتاب الثاني ، من تاريخه المشهور ، بعنوان « أوتريبا » . وكان لهذه المقالات أكبر حظ من الذبوع في العالم القديم والحديث على السواء ، ضمن ما ذاع مما يعرف باسم « تواريخ هيرودوتس » . ونقول العالم الحديث ، لأن العالم لم يكن يعرف عن مصر ، حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، غير ما ورد في كتابات هيرودوتس وديودورس واسطرابون وبوليبيوس ويوسيفوس وجرجس سنسيلوس ، إلى حد أن يقول برستيد عام ١٩٣٣ ، في الفصل الأول من كتابه عن الفكر المصري ، المسمى : « فجر الضمير » ، بأن الكشف عن آلاف الأعوام من تاريخ الشرق ، أمره قريب منا ؛ فالترجمة الإنجليزية لكتاب رولان المسمى « التاريخ القديم » - مع أن مؤلفه لم يكن تحت يده أكثر إلا قليلاً من كتاب هيرودوتس والتوراة كمصادر لتاريخ الشرق القديم - كانت ما تزال تعرض منها نسخ في واجهات المكتبات بالبلاد الأميركية ؛ ويذكر برستيد جيداً أن كتاب رولان هذا كان ذائعاً أيام حدثاته . والواقع أن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة ، تركت أثرها في حياة الإغريق الأوائل ، وغير الإغريق ، من شعوب العالم القديم ؛ هذا إلى أن عبادة إيزيس ، بالذات ، انتشرت في العالم الهلينستي والروماني .

وعندما جاء الإسكندر إلى مصر ، اعتبر نفسه وريثاً لحضارتين : الفرعونية واليونانية . وأخذ عنه بطليموس بن لاجوس سياسته في معاملة المصريين معاملة شعب عريق صديق . وحرص البطالسة بعده على هذه السياسة ، بل حاولوا أن يوائموها بين عقائدهم السطحية ، وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار . ولكنهم أخفقوا أمام احتفاظ المصريين بديانتهم ، وكرههم أن يتدخل الغرباء في طقوسهم وأن ينفذوا إلى دخائل إيمانهم .

وليس معنى هذا أن البطالسة تنكروا لحضارتهم ؛ فلم يكن بطليموس سوتر ولا أولاده وأحفاده ، في غنى عن وطنهم الأصلي . ولكن مبادئ الإسكندر في المواءمة بين الشرق والغرب [أي بين حضارات الشرق الأدنى والحضارة اليونانية] هي التي أقام عليها البطالسة والسلوقيون الحضارة المعروفة بالهلينستية .

وأنشأ سوتر لأهل وطنه مدينة بطليموسة [بطوليمائيس] في الطيبائيدة ، فأضاف بذلك مدينة جديدة إلى مدن الجاليات اليونانية بمصر .

ولا نعرف مصدر الهداية في إنشاء عبادة مزدوجة ، اتخذت أهمية خاصة في العالم الغريقوروماني ، وهي عبادة سيرابيس [أوزير - أبيس] ، أي العجل أبيس الذي مات وارتفع إلى مرتبة الآلهة ، فأصبح أوزيريس . وهذا الإله البزرميط ، يتقمص عند اليونانيين شكلا إغريقياً محضاً ، يشبه كبير آلهتهم زفس ، أو إله العالم السفلي آذيس . ويجتمع سيرابيس مع إيزيس والابن هوروس [وهو هاربوكراتس اليونان] في الثلاث الذي كان يعبد بهيكل الإسكندرية الأكبر ، أي السرايوم مقام سيرابيس . والغالب أن يكون بطليموس الأول هو الهادي إلى تلك العبادة .

وليس معنى حرص المصريين على تقاليدهم وطقوسهم ، أن لم يأخذوا عن اليونان شيئاً البتة . فقد نقل المصري عن اليونانيين طريقة رى الأراضي بواسطة الساقية والطنبور ، كما تخلى عن مئزره المصري القديم ليلبس الجلابية اليونانية .

وسينقل إلى المصريين بعض الفن اليوناني ، ويظهر أثره المهجن في مقابر كوم الشقافة ، والصور الجنائزية الملونة على ألواح الخشب ، التي عرفت في القيوم ومصر الوسطى . وستأثر مصر الرومانية بالفن البيزنطي ، وهو نفسه فن هليينستي ، امتزج فيه الفن اليوناني والروماني والفارسي ؛ ومن بعض ذلك المزيج سوف يخرج الفن الإسلامي في مطالعه .

والحياة الهلينستية كانت تتشابه حول الحوض الشرقي لبحر الروم ، وعواصمها كانت الإسكندرية وأنطاكية وأثينا ، ثم برجامة فيما بعد . واحتفظت الفلسفة في أثينا بمكانها المفضل ، بينما نزعت الإسكندرية إلى البحوث العلمية واللغوية والأدبية في مدرستها الكبرى [الموزيون] ، ومكتبة القصر الملكي المشهورة ، والمكتبة الفرعية الملحقة بالسرايوم ، معبد الإله سيرابيس .

وظهرت بالإسكندرية أسماء إقليدس وأرشميدس ، عندما وفدا على مدرستها ليتصلا بالعلامة إراطوسطين ؛ وكان هبارخوس يمثل مدرسة الفلك في القرن الثاني قبل الميلاد ، وهيرون يختص بالميكانيكا إبان القرن الأول ، واشتهر في الطب هيروفيلوس الخلقدوني ، وإرازسراطس اليولي ؛ وفي تاريخ أدب اللغة كليماخوس . أما التحقيق العلمي للنصوص الأدبية ، وبخاصة أشعار هوميروس ، فقد أفلق فيه زينودوطس الإفيسوسي ، وأرسطوفانس البيزنطي ، وأرستارخوس .

لم يكن للمصريين أدنى علاقة بما يجري في مدرسة الإسكندرية من دراسات وبحوث ، فهم يواصلون بناء معابدهم الكبرى في إدفو وكوم امبو ودندرة . أما يهود الإسكندرية ، وكانوا يؤلفون جالية كبيرة وغنية ، فكانوا يمالئون الغالب ، ويتملقون الحكام — مثلما فعل أحفادهم ، يهود شمال أفريقيا في القرن التاسع عشر بعد احتلال الفرنسيين للجزائر — ويبلغون في تصنعهم الحضارة الإغريقية حد نسيان غالبيتهم اللغة العبرية ، حتى ليضطر فقهاؤهم إلى ترجمة التوراة إلى اليونانية ، وهي الترجمة المشهورة باسم السبعينية إشارة إلى الاثنين وسبعين عالماً الذين اشتركوا أو أشرفوا على تلك الترجمة .

فلنتصور الحالة على وجهها الصحيح : حكام أجنبية وجاليات أجنبية ، تحيا حياتها الهلينستية ، وتنظر إلى الأهالي نظرة تشبه إلى حد كبير نظرة الجاليات الأجنبية إلى المصريين فيما بين القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . نظرة فيها تعال واستهتار ، لا يحدهما إلا مجرد الاحترام الظاهري لعقائدهم وطقوسهم . ولم يكن أولئك الأجانب يعنون لا باللغة الوطنية ، ولا بالتاريخ الفرعوني ، مع أن الكاهن المصري مانيتون وضع تاريخاً للأسرات باللغة اليونانية . ولو كان هذا التاريخ متداولاً لعثرنا على بعض نسخه ؛ أما أن يختفى تماماً في حريق مكتبة الإسكندرية ، فهذا دليل على عدم انتشار الكتاب . وإنما ألفه الكاهن السمنودي بتكليف رسمي من بطليموس الثاني ، ووضعه هذا في المكتبة الكبرى سجلاً ومرجعاً لا غير ! ولولا أن المؤرخ يوسيفوس اضطر اضطراراً إلى الرجوع إلى هذا الكتاب ليرد على أبيون الذي وسم اليهود بكل نقيصة ، ولولا بعض المؤرخين المسيحيين ، فيما بعد ، اضباع حتى اسم ذلك المؤرخ المصري القديم .

وكان أهل البلاد المحقرون المهانون لا ينفكون يضرعون إلى آلهتهم ليخلصوهم من كل أولئك الغرباء ، وتتحرك السنة آلهتهم بالنبوءات ، تبشرهم بالتخلص وشيكاً من النير اليوناني . وتنشب ثورة مصرية في الدلتا ، وتنتقل إلى الصعيد ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، ويحكم الأمير هارماخيس في الصعيد كملك مستقل ، ويتحصن الثوار في معبد إدفو ، وتستمر هذه الثورة حتى يقضى عليها بطليموس العاشر ، ويدمر العاصمة القديمة طيبة . ويحدثنا المؤرخ بوليبيوس عن زعماء تلك الثورة ،

ويسمىهم الأمراء الملكيين ، والغالب أن جلهم كانوا من كبار الكهنة .

وفي هذا القرن الثاني قبل الميلاد ، يبدأ نجم روما في الصعود ، بعد ختام حربها الثانية مع قرطاجة [٢١٧ ق.م. ، الحرب البونية الثانية] وينتهى التوسع الروماني في الشرق حتماً إلى الاصطدام بالمقدونيين ، مما يدفع ملك مقدونيا إلى التحالف مع عدو روما الأكبر ، هانيبال .

وينتزع الملك السلوقي أنطيوخوس الكبير سوريا من مصر ، وتسليخ مدن آسيا الصغرى من حكم البطالسة ، ولا يبقى لهؤلاء خارج مصر من أملاك سوى جزيرة قبرص ، وبعض بلاد لوبيا .

وبدأت روما في القرن الأول قبل الميلاد تتحشر في ثنايا التاريخ المصري ، بعد أن ضمت مقدونيا إلى ملكها ، ثم أخضعت اليونان ، ومحت قرطاجة من على وجه البسيطة ، وتسلمت أرض برقة ، تنفيذاً لوصية أبله من ملوك البطالسة [عام ٩٧ قبل الميلاد] .

وما إن سقط مترايداتس الرابع ، ملك البونطس [حول البحر الأسود] ، تحت ضربات القوادسيلا [٨٧ - ٨٥ ق.م.] ولوكوللوس [٧٧ - ٦٧ ق.م.] وبومبيوس الكبير (٦٦ - ٦٢ ق.م) حتى تم إخضاع منطقة الشرق الأدنى لروما ، وأصبحت مصر محاطة بالولايات الرومانية من كل جانب . وكان الحزب الشعبي في السيناتو الروماني يطمع في تملك مصر ، وجاء في قانون الإصلاح الزراعى ، الذى اقترحه رولوس على المجلس ، وهو يفرض إعادة تقسيم الأراضى بين الفلاحين الرومانيين ، أن تكون الأراضى المصرية ضمن ما يعاد توزيعه من أراضى الممتلكات الرومانية فيما وراء البحر ! مع أن مصر كانت في ذلك الوقت دولة مستقلة يحكمها اللاجيديون . وإنما فعل رولوس هذا استناداً إلى وصية نسبت زوراً إلى أحد أمراء البطالسة . ولم يتأخر ضم مصر فعلاً إلا لأن حزب الأرستقراطيين - الأوبتيماتس - بزعامة القنصل سيسيرون ، قاوم قانون رولوس مقاومة عنيفة ، حالت دون الموافقة عليه .

والأمير اللاجيدى ، الذى زيفت الوصية باسمه ، كان شابا اسمه اسكندر يعيش فى روما ، وهو ابن بطليموس اسكندر الأول . فلما مات اسكندر هذا ، تولت العرش ابنته ، باسم الملكة برنيقة الثالثة ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، فأوفد الدكتاتور الرومانى سيلا الشاب اسكندر ، ليتزوج أخته ، ويحكم إلى جانبها باسم اسكندر الثانى . وما عثم هذا الغر أن قتل برنيقة ، ففتك به الاسكندريون ، وسط الملعب عام ٨٠ قبل الميلاد . ونحلا العرش اللاجيدى ، وذاعت وصية الأحقق اسكندر الثانى بوضع مصر فى حوى الشعب الرومانى . فاضطرا الاسكندريون إلى تولية ابن غير شرعى للبطالسة وزوجوه أخته كليوباترة السادسة ، ولقب بطليموس فيلوباتر فيلادلفوس ، ولكن الشعب لقبه بالزمار (أوليتس أى عازف الناي) ، وفى هذه الأثناء ابتلعت روما جزيرة قبرص ، وقاومت الاعتراف بالزمار عشرين عاماً . وما إن اعترفت به حتى ثار عليه الاسكندريون ، ففر هارباً إلى روما ، وتولت ابنته برنيقة عرش مصر . ويعود الزمار إلى عرشه مؤيداً من القائد بومبيوس الكبير ، فيأمر بقتل ابنته ، ويملك حتى موته عام ٥١ ق . م .

ثم يبدأ العهد المشثوم ، فى صورة المشاحنات والصراع بين كليوباترة السابعة ، ابنة بطليموس الزمار ، وبين شقيقها الغلام . وهذه هى كليوباترة التى اشتهرت فى التاريخ بمغامراتها السياسية والغرامية ، مع ابن بومبيوس الكبير ، ويوليوس قيصر ، ومارك أنطونيوس ، ومن يدرى من غير هؤلاء .

وتنتهى مغامرات بنت الزمار بانتحارها ، وانتقال مصر إلى ملك شخصى لأغسطس أكتافيانوس قيصر ؛ وهذا هو التحول الكبير فى تاريخ مصر ، تنزل فيه من دولة مستقلة تحكمها أسرة أجنبية ، إلى ولاية تابعة لإمبراطورية فيما وراء البحر ، عاصمتها روما ، ثم القسطنطينية . وستظل ولاية تحت حكم العرب ، حتى تستقل بها الأسر الطولونية فالإخشيدية فالفاطمية فالأيوبية فالمماليك البحرية فالبرجية . وستعود ولاية مرة ثانية بعد غزو سليم بن عثمان فى أوائل القرن السادس عشر ، وتظل تابعة ولو اسمياً لتركيا ، حتى أوائل القرن العشرين .

ولقد تحسنت الأحوال بمصر في القرن الأول من الاحتلال الروماني . وفيما عدا سيطرة المراقب المالي الروماني — الإيدوس لوجوس — على المعابد المصرية ، وأوقافها الشاسعة ، لم تتدخل إمبراطورية روما في ديانة المصريين ولا في طقوسهم ، وواصل المصريون إقامة معابدهم وتجديدها في دندرة وفيلى .

ولو سئل أمبراطرة الرومان عن قيمة مصر لهم لأجابوا توأ : الغلال والجزية . فلم يشترك المصريون في الجحافل الرومانية ، ولا كانت لهم كلمة بين حكام الإمبراطورية ، بل لقد منعوا من أن يكونوا مواطنين رومانيين ، على خلاف المعمول به في الولايات الرومانية ، وبالأولى لم ينتخب منهم أعضاء بمجلس الشيوخ « السناتو » ؛ ولم ينبغ من المصريين تحت الحكم الروماني علماء وأهل ثقافة ، مثلما حدث في ولايات آسيا الصغرى واليونان . ومع أن الرومانيين كانوا يتعجبون من الديانة المصرية العتيقة ، ويعتقدون بأن الكهان المصريين مستودع أسرار خفية ، فإن نظرهم إلى طقوس الشعب المصري ، وإغراقه في عبادة الحيوانات ، كانت مليئة بالاحتقار . وإذ دعى أغسطس قيصر ذات مرة للاشتراك في الاحتفاء بالعجل أبيس ، أجاب الداعين بنصف أنه : « درجت على عبادة الآلهة ، لا الثيران ! » . وكان الرومان يقاومون السحرة والمشعوذين المصريين الذين كانوا يدعون تمثيل الديانة المصرية في الخارج ، كما اعتبروا عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة في المجتمع الروماني . ولم تدم مقاومتهم طويلاً ، فقد أنشئ أول معبد رسمي في روما لسيرابيس وإيزيس في عهد دومطيانوس قيصر (٨١ - ٩٦ م) ، وأقيم في حكمه معبد إسنا [لاطوبوليس أى مدينة الإله لاطس ، وهو سملك اللفش] . وجاء إلى مصر يوقينال ، الشاعر الساخر الهجاء ، ضابطاً في جيش الاحتلال ، بمعسكر أسوان ؛ فعرف بأمر خنافة بين أهل دندرة وكوم امبو على عبادة التمساح ، وراح يتندر ، في إحدى قصائده ، بالمصريين وعبادتهم للبهائم .

وفي حكم أدريانوس قيصر [١١٧ - ١٣٨ م] قامت ثورة مصرية من تلك الثورات التي لم تخرج عن نطاق محدود ، والتي كانت الجيوش الرومانية تقمعها فوراً . وزار أدريانوس مصر مرتين ، اصطحب في إحداها زوجته سابينا ، وذهب مع صحبهم في رحلة سياحية إلى الصعيد ، وشاهدوا تمثالي « ممنون » ، وسمعوا صوت

الصغير الذى كان ينبعث من أحد التمثالين عند مطلع الشمس ؛ وسجلت الشاعرة بلبلة ، إحدى سيدات الحاشية ، ذكرى الزيارة فى قصيدة نقشتها على ساق التمثال ، قالت فيها :

« ولقد استمعت ، أنا بلبلة ، الجرس الحلو الذى يخرج من فامينوت أو ممنون ، تحت هذه الصخرة ؛ وحياء أدريانوس ثلاث مرات . وأنشدت بلبلة هذه الأشعار » تذكراً للصوت الذى أيد حب الآلهة لأدريانوس . »

وكانت زيارة أدريانوس لطيبة عام ١٣٠ ميلادية ، وقد عنى عناية خاصة بمدرسة الإسكندرية ، وعين لها أساتذة غير مقيمين ، ولا قائمين بتدريس ، إنما أراد أن يشرف الجامعة بهم ، أو يشرفهم بالانتساب إليها . وكتب أدريانوس لقريبه سرفيانوس يصف زيارته لمصر :

« لقد تقصيت أحوال مصر ، يا عزيزى سرفيانوس ، مصر التى كنت تشيد بها ، فإذا هى بلاد طائشة ، قلب ، لا تكف عن المشاغبة . ووجدت فيها عباد سيرابيس نصارى ، وأولئك الذين يدعون الولاية المسيحية فى لباس الأساقفة ، يعبدون هم أيضاً سيرابيس . فليس فى مصر حاخام ولا قس ولا كاهن ولا عراف ولا عياف لا يعبد سيرابيس . وفى ظنى أن كاهننا الكبير ، لو جاء إلى مصر ، لعبد سربيس أو المسيح . والشعب هنا فى الإسكندرية شعب يحتدم ثورة ، سليط اللسان ، شديد الغرور . المدينة تفيض ثراء ، وتعمل وتنتج حتى لا تجد فيها عاطلاً . أهلها أرباب حرف وصنائع ، وما أكثر نساج الكتان فيها . ولن ترى حتى الأعمى ، ولا المقعد ، خالى شغل . وللجميع ، من مسيحيين ويهود وغيرهم ، رب واحد . والمدينة جديرة حقاً بأن تكون عاصمة مصر ، ولو أنى كنت أرجو أن تلزم شيئاً من النظام . لم أرفض لها طلباً ، وأعدت إليها حقوقها القديمة ، بل وأكثر ، حتى يكونوا راضين عن حاضرهم . وما إن أدت ظهري حتى سلقوا ابني فيروس بالسنة حداد ، وأترك لك أن تتصور ما قالوه عن أنطونوس ! »

وهذا الامبراطور ، العلامة الساخر ، جاء إلى مصر ومعه خليله الأمرد أنطونوس ، فاخترمه النيل ، وقيل بأن الغلام مات منتحراً . فأقام له الإمبراطور

معبدًا باسمه ، فى مكان قرية الشيخ عبادة حالا ، بمدينة كانت تعرف باسم أدريانوبوليس أو أنطونوبوليس .

ومن سخر بمصر ، من كتاب الرومان ، بروكوبيوس ، ويوحنا اللىدى ، وأنسطاس ، وأوناب . وكانوا يقولون بأن الأهرام ليست سوى شنشنة كلفت أموالا باهظة ، وجهوداً مضنية ؛ وكانوا يحتقرون «هذا الجنس المصرى الذى لا يخرج من بين صفوفه أديب ، وعلماءه اللاهوتيون لا قدرة لهم على التفكير العميق» .

وفى عهد مرقس أوريليوس قيصر ، الفيلسوف الرواقى المشهور (١٦١ - ١٨٠ م) تنشب ثورة مصرية فى برارى الدلتا وبحيراتها ، تزعمها الكاهن إيزيدورس ، وقام بها على رأس الفلاحين بمنطقة شرقى الإسكندرية ، تعرف باسم « بوكوليا » ، أى مرعى البقر . وكسر الجند الرومانى وبلغ أبواب الإسكندرية ، فأنفذ إليهم الإمبراطور جحافله الرومانية التى تحتل سورية ، بقيادة حاكمها ، ففضى على الثورة بالحيلة والوقية بين الثوار .

وعندما أصدر الإمبراطور كاراكلا مرسوم عام ٢١٢ م ، الذى أوسع فيه مدى التمتع بالرعية الرومانية ، طبق على سكان مصر . . . فيما عدا المصريين ! هذا كان حال مصر طوال السنوات التى انقضت منذ غزو الإسكندر : ذلة وهوان وثورات ، لا أمل فيها للتخلص من حكم الرومان ؛ وتدهور العقائد الدينية ، بالرغم من مواصلة إنشاء المعابد ، ومظاهر الطقوس الألفية البراقة . وتجىء النصرانية إلى مصر ، لا لتغير من حال أهلها ، ولا لتجعلهم أقدر على القتال ، بل لتكون ذريعة جديدة للإمعان فى إذلالهم ، وإنزال الهوان بهم فوق كل هوان .

ولو أنك استجمعت كل الظروف والمحن التى مرت بالمصريين ، منذ قضى الفرس على استقلالها ، حتى آخر العهد الرومانى والبيزنطى ، لما توقعت سوى نتيجة واحدة : هى القضاء على القومية المصرية ، إن لم يكن محو المصريين من على وجه الأرض . وما عليك إلا أن تتأمل ما حدث فى بلاد الغال وأيبيريا ورومانيا ، حيث تحولت تلك البلاد الكبيرة إلى مقاطعات لاتينية ، وكانت لغة الرومان هى

الأصل في تكوين اللغات الفرنسية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا الحديثة، وما زال أهل تلك البلاد يعترفون بأصلهم اللاتيني .

ومع ذلك ، لم تستطع كل تلك الأرزاء والإحن أن تقضى على القومية المصرية . وكلما زادت محنتهم ، كلما ازدادوا استمساكاً بقوميتهم . وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية في مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء ، وهي حقبة رهيبة رائعة في وقت واحد ، سنعود إليها في الفصل التالي . وإنما هذه صورة رسالة حفظها لنا تاريخ المسيحية في مصر ، كتبها البابا أثناسيوس ، بطريرك الكنيسة القبطية ، يصف واقعة من الأحداث الكثيرة التي جرت في عهد ولايته ، كما حدثت من قبل ومن بعد . قال يصف محاصرة آلاف من الجنود البيزنطيين ، لكنيسة العذراء بالإسكندرية وقت الغروب :

« أما أنا فجلست على الكرسي الخاص بي ، وأوعزت إلى الشماس أن يتلو المزمور السادس والثلاثين بعد المائة ، وكان المصلون يرددون قائلين "هو الرحيم إلى أبد الآبدين" . وحان وقت الانصراف ، وكان الظلام قد بدأ يهوى على خارج الكنيسة ، وشرع العسكر يطرقون أبوابها طرقات عنيفاً . . . ثم فتحو الأبواب عنوة ، واقتحم الجيش الروماني الكنيسة ، ورجاله يزعمون كمن فتحوا مدينة حصينة . وكانت سيوفهم تلمع في ضوء أسرجة الكنيسة ، واندفعوا كالسيل الجارف متجهين إلى حيث أجلس ، فوقفت وأمرت الناس أن ينجوا بأنفسهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولكن بعضهم حاول اعتراض الجند في طريقهم إلى ، فذبهم الجنود ذبحاً ، وداسوهم بأقدامهم ، وتعقبوا الفارين منهم . وألح القساوسة على كي أنجو بنفسى فأبيت قائلاً : "ليست نفسى بأعز على من نفوس الآخرين" ، وكنت موقناً بأن ثباتي في مكاني ، أمام الساعين إلى حتفى ، سيجعل الجنود ينصرفون إلى شخصى ، ويتركون الآخرين ؛ فعولت أن أبقي حتى ينجو الشعب . . . ولما انصرف أكثر الناس ، جاء الرهبان ، مع من تخلفوا من القساوسة ، وحملوني خارجاً »

فهل كان أولئك الجند الروم من الوثنيين ؟ كلا بل هم جنود الإمبراطور

البيزنطى المسيحى ، فى العام السادس والخمسين بعد الثلاثمائة من الميلاد ! والذى لا يعرفه إلا قلة من المصريين — وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم ! — هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الإمبراطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية ، التى أقرها أعظم المجامع الكنسية ، وأولاها بالاحترام ، وهو المجمع المسكونى الأول ، المنعقد بمدينة نيقيا ، فى آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م .

ذهب أثناسيوس إلى هذا المجمع شماساً وسكرتيراً للبطريرك ألكساندروس الأول ، ولم تحل رتبته الكنسية الصغيرة ولا شبابه ، دون الاشتراك فى مناقشات المجمع ومدارساته . وبعد ما ارتقى إلى كرسى مرقس الرسول ، حاز هذا البطريرك الاسكندرى العظيم فى حياته المفعمة بالجهاد والنفى والتشريد ، لقب « قاضى المسيحية فى العالم » ، وقال غريغوريوس النازيانزى عنه : « رأس كنيسة الإسكندرية هو رأس كنائس العالم »

ولكن الآراء تشعبت بعد مجمع نيقيا ، واختلفت فى طبيعة المسيح ، بسبب المذهب الذى نادى به القس آريوس المولود عام ٢٧٠ م بشمال أفريقيا . وهو المذهب الذى قسم العالم المسيحى قسمة خطيرة ، وأثار أعاصير هوجاء بين عواصم المسيحية حينذاك : الإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية وإفيسوس . وتشابكت المؤامرات واستحكمت حلقاتها حول إمبراطور القسطنطينية وإمبراطورتها لمناصرة آريوس على اثناسيوس .

ومصدر الخلاف قول آريوس بأن « الابن يختلف عن الآب فى الجوهر » ، وأن الآب أقدم من الابن ، لأن الابن مخلوق » ، وفى هذا مناقضة خطيرة لقانون العقيدة المسيحية الذى نادى به المجمع النيقاوى ونصه :

« نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لا يرى . ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور ، إله حق ، من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، والذى به كان كل شيء نزل من السماء .

وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . اتخذ شكله الإنسى من أجل
البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب في عهد بيلاطس البنطى ، ودفن ، وقام من
بين الأموات فى اليوم الثالث ، كما جاء فى الكتب ، وصعد إلى السماء . «
ويصعب على كاتب مسلم أن يخوض فى تفاصيل هذه المناقشة التى اتخذت
أشكالا وأوضاعاً خطيرة بعد أثناسيوس ، مدارها طبيعة المسيح . فالمسيحيون
لا يختلفون فى أمر ألوهية المسيح ، وإنما الخلاف على إله عرفه الناس فى صورة
بشر . فهل هذا الإنسان المخلوق ، المولود من أنثى ، هو الإله ، أو أن عنصره
اللاهوتى ، وأصله كلمة الله تجسدت ، وهى ترمز فى جسد العذراء ، لم يتحد
بعنصره الناسوتى ؟ وبمعنى آخر : هناك المسيح ، وهو الرب ، ويسوع وهو
ابن الإنسان ، ولدته مريم العذراء .

والعالم المسيحى اليوم ينقسم إلى غالبية كبرى تؤمن بعدم اختلاط الطبيعتين :
اللاهوتية والناسوتية ، وتؤمن بأن الآلام والصلب والدفن نزلت بالطبيعة الناسوتية
وحدها ، دون الطبيعة اللاهوتية ، التى لا تخضع لما يخضع له الجسم الحائل الزائل .
وهذه هى العقيدة المعروفة بعقيدة الطبيعتين فى المسيح ، مذهب الكنيسة
الأرثوذكسية اليونانية [الملكية] ، ومذهب الكاثوليكية البابوية ، وهى التى أقرها
مجمع خلقدونيا ضد البطريرك القبطى ديوسقوروس عام ٤٥١ م . ومع أن الكاثوليك
يقولون بأن المسيح أقنوم لاهوتى بحت ، فإن ذلك لا يبنى اعتقادهم بأنه اثنان ،
بعد قولهم بأن له كيانين وذاتين وطبيعتين .

أما الأقباط ، وكنيسة الحبشة ، وبعض الكنائس بالشرق الأدنى ، فتقول
بالطبيعة الواحدة ، حسب ما قرر مجمع نيقيا . وعبر ساويرس الأنطاكي عنها
بقوله : « إذا قلنا بطبيعة واحدة للمسيح ، من طبيعتى اللاهوت والناسوت ، نقول
أيضاً إن ذلك يكون بغير امتزاج ولا اختلاط ولا فساد ، بل مع بقاءهما على
ما كانتا عليه . فطبيعة البشر من طبيعتى الروح والبدن ، وطبيعة الروح من طبيعة
الهيولى ، أما البدن فهو صورة الجسد ؛ فلا تنقلب الروح بدنأ ، ولا الهيولى جسداً ،
ولا يحدث العكس . »

والكاثوليك مع إيمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب

[ثيوتوكوس] ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين : « إن اعتقادكم بأن العذراء أم الإله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلهاً أم إنساناً ؟ إن قلتم إلهاً ضللتكم ، لأن الإله لا يولد ؛ وإن قلتم إنساناً كانت العذراء أم إنسان لا أم إله ، وذلك تنكرونها ؛ وإن قلتم ولدت إلهاً وإنساناً ، كانت أم إله وأم إنسان ، فلها ابنان ، أحدهما إله ، والآخر إنسان ، وهذا قول ينقضه العقل ويزيفه ؛ فإذا لا يصح إلا أن الإله والإنسان صاروا واحداً ، ولذلك ولدت مريم واحداً ، لا هو إله بالإطلاق ، ولا هو إنسان بالإطلاق ، ولا هو إله وإنسان في وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق . »

ويقول البطريك الإسكندري الكبير كيرلس الأول ، في كتاب إلى القيصر ثيودوسيوس :

« إننا لا نعري الناسوت من اللاهوت ، ولا نعري كلمة الرب من الناسوت ، بعد ذلك الاتحاد الغامض ، الذي لا يمكن تفسيره . بل نعترف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتماعاً إلى واحد مؤلف من كليهما ، لا بهدم الطبيعتين ، ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف في الغاية ، تم بوجه عجيب . »

لعلنا جاوزنا الحد ، كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلقه الله الذي « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، إذ ذكرنا كل هذه التفاصيل . ولكن أمر ذلك ضروري لفهم ما قام بين المصريين وحكامهم الروم ، بعد أن سادت الشعبين ديانة واحدة ، من جفوة وكره وعداء ، هي التي نشرحها في هذا الفصل ، وفي الفصل الذي يليه ، لنذكر موقف المصريين من أعظم حادث في تاريخ مصر ، وهو الفتح الإسلامي ، الذي غير لغتها ، وسلوكها في التوحيد ، وربط أقدارها بأقدار العالم العربي .

وقد لا نرى كمسلمين أن هذه الخلافات تعدو أن تكون اختلافات في تفسير شيء واحد ، يتفق المسيحيون عليه ، وهو ألوهية المسيح . ولقد اقترح بعض من حاولوا التوفيق بين المذهبين المتعارضين إضافة حرف واحد إلى كلمة Homo-ousion [ومعناها المساوي في الجوهر] التي نحتها أثناسيوس في مجمع نيقيا ، فتكون الصفة

هي Homoi-ousion [ومعناها المشابه في الجوهر] . فإرد أنصار الطبيعة الواحدة قائلين : الفرق بين الصيغتين حرف واحد هو « يوتا » ، ولكن ما أعظم الفرق بين اللفظين في المعنى !

ففي سبيل هذه « اليوتا » وقف أثناسيوس ضد الإمبراطور البيزنطي ، وضد بابا روما ، بل ضد العالم المسيحي في أغلبه ، وحقت عليه الكلمة الماثورة : « كل العالم ضد أثناسيوس ، وأثناسيوس ضد العالم . »

ولم تكن في الحق مجرد « يوتا » ، أو مجرد خلاف في العقيدة ، بل كانت روح مقاومة وطنية أذكت أوارها المسيحية ، وهي نفس الروح التي أملت على المصريين ترجمة الأناجيل إلى اللغة القبطية ، وحافظت على لغة الآباء والأجداد ، وهي اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية ، مدى ألف عام بعد غزو الإسكندر ، وألف عام بعد الفتح الإسلامي . هي التي قاومت الفكر الهلينستي ، ومدرسة الإسكندرية القديمة ، وأقامت لمعارضتها مدرسة الكاتشيسس [الديدسقلية] . روح المقاومة الوطنية هي التي حرمت على مصر ورود منابع الحضارة الإغريقية ، علماً وفلسفة وأدباً . فإذا كان ثمن هذا فادحاً ، فإن معناه القوي لا يمكن أن يغيب عنا ، وهو شدة مقاومة المصري لغزاته ، مقاومة روحية .

وتتخذ المقاومة صورة جديدة ، في الحركة الدينية التي تعد من مآثر الكنيسة المصرية على العالم المسيحي : ألا وهي حركة الرهبنة والتبتل والانفراد للتعبد . ولم يكن الانفراد والتعبد جديداً على المصريين ، فقد عرفوه في عهد الأسرات ، ونقله عنهم « الثرابيوتاي » ، الذين روى عنهم فيلون الاسكندري أنهم كانوا رهطاً من بني إسرائيل هجروا متاع الدنيا ، وخرجوا رجالاً ونساء إلى أرباض الإسكندرية في منطقة مريوط ، يتأملون الإلهيات ، ويقىمون الصلوات ، ويسبحون بالمزامير والتراتيم .

ويقال بأن أول دير مسيحي تأسس عام ١٥١ م ، حين أزمع فرونتينوس هجر العامر إلى الغامر ، زاهداً في الدنيا ؛ فضم إليه جماعة من المجتوين أمثاله ، وسار بهم إلى وادي النطرون ، وهناك قضوا بقية حياتهم في النسك والتعبد ، آوين إلى بعض الكهوف الصحراوية .

ولكن مؤسسي الرهبنة في مصر ، على التحقيق ، هما القديسان بولا [أو بولس] ،

المولود في طيبة عام ٢٢٨ ، وأنطونيوس ؛ وقد بدأت بالتوحد والانفراد . والمعروف عن حياة مار أنطونيوس أنه ولد بمدينة كوما من أعمال بنى سويف عام ٢٥١ ، وأنه نشأ في قريته محباً للعزلة ، وخرج عام ٢٨٥ إلى الصحراء الشرقية ، حيث وجد حصناً مهجوراً يعرف بحصن « بسبار » أو « بسبير » ، عاش فيه عشرين سنة ، اجتمع حوله عدد من التلاميذ ، وانتهى بأن غادرهم متوغلاً في جوف الصحراء ، مصعداً في سلسلة جبال العرب ، حتى وجد مكاناً لا يسهل الوصول إليه . وكان أنبا أنطونيوس يعود إلى تلاميذه في بسبار ، ويسافر إلى الإسكندرية ليواسي المضطهدين في سجونهم وهم رهن المحاكمة ، ويشد أزهرهم قبيل استشهادهم الرهيب ، وليحيي البطريك أثناسيوس في عوداته من المنفى . وعاش أنطونيوس حتى العام الخامس بعد المائة وتنيح سنة ٣٥٦ م .

وتطورت الرهينة في عهد أمونيوس ومكاريوس إلى ما يعرف برهينة الشركة ، أى عندما يشترك الرهبان في المعيشة ، ويتعاونون في القيام بالأعمال المنزلية واليدوية ، كلما فرغوا من صلواتهم وعباداتهم .

وجاء من بعدهم أنبا شنودة وأنبا باخوم ، فنظما جمعيات الرهينة ، وسنا لها القوانين ، ووضعنا لها القواعد .

والرهينة في مصر تعرف في ثلاثة أوضاع : رهينة النساك ، وهم سكان الأديرة ، ورهينة الزهاد ، وهم يتوحدون في الخلوات والصوامع الصحراوية والجبلية ، ورهينة المتبتلين الذين يجتمعون في المدن اثنين أو ثلاثة ولا يتزوجون .

وأنبا مكاريوس ، أو أبو مقار الكبير ، ولد بالصعيد ، وقيل بشنشور منوفية سنة ٣٠١ ؛ وهو منشئ دير البراموس ، ودير أبي مقار ، بوادي النطرون .

أما أبو الشركة فهو أنبا باخوم ، منظم حياة الجماعة بالأديرة تبعاً لقانون واحد ، وتحت رئيس واحد . وقد بدأ حياته جندياً وثنياً في الجيش الروماني ، وحارب في الحبشة ، ثم ترك الجندية وذهب إلى أسقف دندرة الأب سرابامون ، وتعهد على يديه ؛ ثم خرج إلى البرية ، وتعلم على أحد شيوخها ، الأنبا بلامون ، الذي أنذره بأن « حياة السواح أشد قسوة مما يتصورها » . ولما اجتاز التجربة ، ألبسه إسكيم الرهينة .

اشتهر أمر هذه الأديرة في العالم المسيحي ، ووفد على مصر كثير من الأجانب ، كتبوا عما رأوه في البرية . ومنهم روفينوس والقديس هيرونيوموس [سان جيروم مترجم الإنجيل إلى اللاتينية] ، وكاسيانوس ، والقديس أرسانيوس ، وأنبا باسيليوس الكبير ، منشئ الرهبنة في اليونان ، وهيلاريون ، مؤسس الرهبنة في فلسطين . وتحول هؤلاء دعاة للرهبنة المصرية في الشرق والغرب . وأرخ لها بلاد يوس في أوائل القرن الخامس . ومن بين زوار الزهاد والعباد والتساك سيدات من أشرف الدولة الرومانية الشرقية والغربية ، من أمثال السيدة باولا ، والسيدة ملانيا ، التي جاءت إلى مصر بصحبة سان جيروم .

وكانت جماعة الرهبان تظاهر البطارقة المصريين في دفاعهم عن العقيدة المصرية ، سواء في الإسكندرية أو في شتى المجمع الكنسية المشهورة . ولم تقف مقاومة المصريين عند حدود التمسك بالعقيدة ، بل اتخذت مظهراً إيجابياً في ثورات محلية ، لم تكن تجدى نفعاً حيال السيطرة الرومانية الجبارة . وأهم تلك الثورات ، ثورة « الإخوان الثلاثة » : قامت في أوائل حكم القيصر موريس [سنة ٥٨٢] عندما تحرك الإخوة أبو سخيون ومينا ويعقوب ، ببلدة « أيكيله » [زاوية صقر مركز أبي حمص بحيرة] ، يحتجون على اعتقال حاكم سمود لاثنين من عظماء القبط ، وتبعهم الأهليون ، فتهياً حاكم الإسكندرية لقمعها ، بعد أن امتد لهيب الثورة إلى غالب أقاليم الوجه البحري ، وبلغ الثائرون أبواب الإسكندرية ، وتمكنوا من منع الحنطة عنها ، كما استطاع إسحاق ، ابن الأخ الأكبر ، من الاستيلاء على مراكب الغلال المخصصة للقسطنطينية .

وانتهى أمر تلك الثورة بوقوف حاكم الإسكندرية أمام الثائرين يهدد بإعدام القبطيين المعتقلين ، وثلاثة آخرين من كبار الأقباط ، فاضطر الثوار إلى الانفضاض عن الإخوة الثلاثة ، وهرب هؤلاء إلى صان ، ثم قبض عليهم وشهروا في الإسكندرية ووضعوا في السجن حيث جزت رقابهم .

ومن الثورات المحلية : ثورات صان وخربتا وبسطة وسنهور وإخميم وغيرها ، أخفقت كلها وأغرقت في دماء المذابح الوحشية . وتلاها طرد المصريين من الوظائف العامة . هذا كان حال مصر في القرن السادس .

ويدخل القرن السابع الميلادي ، ويتولى الكرازة المرقسية البطريك الثامن والثلاثون ، المسمى بنيامين الأول سنة ٦٢٠ ، في حكم الإمبراطور هرقل . ويوفد إلى مصر وال بيزنطى من نوع جديد ، عينه هرقل حاكماً مدنياً ، وبطريكاً ملكياً ، في الوقت نفسه ، وهو قوروش [المقوقس] . ولم ير الإمبراطور أن يتحدى شعور المصريين في أول الأمر ؛ فقد استشار بطريك القسطنطينية ، وبطريك أنطاكية في أمر توحيد المذاهب المسيحية على مبدأ جديد ، وهو أن المسيح واحد ، وفعله واحد ، ومشيتته واحدة ، دون إشارة إلى وحدة الطبيعة أو ازدواجها . ولم تخف على المصريين حيلة المستعمر ، ورفض البطريك المصرى الاعتراف بممثل الإمبراطور ، بطريكاً ملكياً ؛ فاضطهد وهرب إلى برية الإستقيط [برية شحات] ، بوادى النظرون ، حيث لم يجد سوى قلة من الرهبان ، بعد أن عاث الفرس فساداً وتقتيلاً ، إبان عشر السنوات التى سلخوا فيها مصر عن الحكم الرومانى ، وتركوا برية المتوحدين الشركاء قاعاً صفصفا . فذهب بنيامين إلى الصعيد حيث ظل مختبئاً عشر سنوات ، بعد أن أوصى أساقفته بالاختفاء ؛ فأطاعه البعض وبقى الأكثرون ، وضل عدد كبير منهم . وأقام هرقل أساقفة خلدونيين ملكيين في طول البلاد وعرضها ، واضطهد المصريين اضطهاداً ذريعاً .

وهجم عمرو بن العاص على مصر ، وكان يجمع إلى القيادة العسكرية الباهرة ، حكمة السياسى وسماحته ، متأثراً في ذلك رئيسه ، الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وما إن تم لعمرو فتح مصر ، حتى قرب إليه الأقباط ، وكتب إلى البطريك بنيامين [أبى الميامين] يؤمنه ، ويدعوه إليه ؛ فلبى الرجل الدعوة ، واستقبله عمرو استقبالا حسناً . ومن المأثور عن ابن العاص قوله في جيشه : « حدثنى عمر ، أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لكم فيها صهراً وذمة ، فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم . »

وسمع الرهبان في مخابثهم الصحراوية ، وصوامعهم الجبلية ، بأمر قوم جاءوا من الشرق ، ليقضوا على الروم المارقين . فاحتشدت حشودهم ، ووفدت على القائد عمرو ، في جماعات كثيرة ، تحييه ، وتستبشر بقدومه ، وهو معجب

بتلك الوجوه السمرء ، والشعور الشعثاء ، والإسكيات المهلهلة ، لا تكاد تغطي أجساداً أوهنها الزهد ، وضميرتها العبادة . ويطيب لى أن أتصور ابن العاص ناظراً إلى جيش الحفاة أولئك ، وهو العربى المتكشف بطبيعته ، قائد أمير المؤمنين المتواضع ، الذى كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه ، ! مع هيبة قد رزقها ، وكانت رحله مشدودة بالليف : أتصور ابن العاص متأملاً هذه الإنسانية الحشنة ، فإذا به يقارنها بما رأى من بدخ الروم الفاضح ، فيكره الاسكندرية وحياتها ، التى تم عن الترف والسرف .

إلا أن السياسة السمحاء التى سار عليها عمرو ، لم تدم طويلاً بعد مقتل أعظم الخلفاء ، واستبدال عمرو بغيره من الولاة . وجاءت ولاية عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠ ، وكان أبوه مشغولاً بقتال أبى العباس ، فاشتد على الأقباط فقاوموه ، وثار سكان البشمور فى برارى شمالى الدلتا وبحيراتها ، وقاموا على عمال الحراج فقتلوهم . وكبسهم عسكر عبد الملك ، فقاوموه وانتصروا عليه ، بقيادة مينا بن بquire . وجاء مروان إلى مصر فاراً من وجه أبى العباس ، وجرد عليهم الجند وقهرهم ، فتحصنوا فى براريهم وسياحتهم ، فلم يستطع مطارداتهم ، واكتفى بحصارهم ، فكان البشموريون يخرجون إليهم ليلاً ، ويديرون فيهم القتل حتى اضطروهم إلى الرحيل ؛ وذهب مروان إلى الصعيد يشقى غليله ، حتى انتهى أمره بانتصار منشىء الدولة العباسية .

وظاهر الأقباط هذه الدولة الإسلامية الجديدة ، فأمنهم أبو العباس عن نية حسنة ، وانتجاعاً للعدالة . ولكن بعد مصر عن عاصمة الخلافة ، وقصر مدة الولاة فى مناصبهم ، ساعدا على التراخى فى تنفيذ السياسة العادلة ، فعادت الحالة إلى ما كانت عليه فى الدولة الأموية .

وآخر الثورات المصرية انفجرت فى عهد المأمون ، واستفحلت ؛ مما اضطّر معها المأمون إلى معالجتها بنفسه ، فجاء إلى مصر ، وكبح جماحها ، وظفر بالثائرين ظفراً كاملاً . وعقب تلك الثورة الأخيرة ، بدأ عدد الأقباط يتناقص ، إذ أسلم منهم حوالى ربعهم . وما إن ينسلخ القرن التاسع الميلادى ، حتى تدين الغالبية من سكان مصر بالإسلام ، وتكون اللغة العربية قد زحزحت اللغة اليونانية

عن دواوين الحكم ، وبدأت تحتل مكان اللغة القبطية في المعاملات بين الناس .
 فإذا جاء القرن الحادى عشر ، ظهرت كتب قواعد النحو القبطى مكتوبة بالعربية ،
 وظهرت قواميس قبطية عربية ، ألفها أقباط ، أخذت أسماءهم تنتحل الطابع
 العربى . عندما زار الأب فانسليب الصعيد عام ١٦٧٢ - ١٦٧٣ ، بلغ أسيوط ،
 وتعرف بمطران المدينة أنبا يؤنس ، ويقول فانسليب بأن « المطران عرفه بقبطى اسمه
 المعلم أثناسيوس ، كان الرجل الوحيد فى مصر العليا العارف بلغة بلاده ، أى
 بالقبطية . ولكنى لم أستفد منه كثيراً ، فالرجل بلغ من العمر ثمانين عاماً وكان
 أصم . وعلى أية حال ، فقد رأيت الرجل الذى ينحدر إلى القبر ، فتدفن معه اللغة
 القبطية ، نهائياً . » وهذه مبالغة رحالة ، لأن القبطية ظلت لغة طقوس الكنيسة ،
 وقال الأثرى كوبيل فى القرن الماضى ، إن القبس دافيد سترونج قابل بعض
 العجائز ، فذكروا له أنهم سمعوا فى شبابهم بعض الصعايدة يتخاطبون باللغة
 القبطية .

ويشهد كاتب هذه السطور أنه عرف أسرة يتحدث أعضاءها فيما بينهم
 بالقبطية ، نتيجة محاولة محدودة جداً لإحياء تلك اللغة . ولكن أمثال هذه المحاولة
 كان لها أثرها فى عناية مواطنينا وإخواننا الأقباط بالمحافظة على اللغة التى يتكلمها
 المصريون منذ فجر تاريخهم .

* * *

هذه خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجيء المأمون إلى مصر ،
 أى فى نحو ثلاثة عشر قرناً ، لم يفت فى عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم
 ولا جبروت .

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين ، وقد تحولت غالبيتهم
 العظمى إلى الإسلام ، كشعب حريص على شخصيته ، متمسك بعقيدته .
 وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعونى ، وفقدوا أسرار الكتابة
 المصرية القديمة ، وخربوا المعابد والمدافن ، أو حولوها إلى كنائس وصوامع ،
 وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى ، ولم يحافظوا على
 لغتهم العتيقة ، كما حافظ غيرهم من المسلمين على لغاتهم ، فإن تاريخ مصر

الإسلامية الذي يمتد إلى أربعة عشر قرناً ، مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة . فما كان أسرعهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة ، وأن يحولوا الأزهر ، وقد بدأ مدرسة للشيعة ، مركزاً عالمياً للدراسات الإسلامية ؛ وما زال الجامع الأزهر حصن اللغة الحصين ، وحصن السنة ، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام .

وليس أروع عندي من كلمة ذلك الباشا العثماني في آخر القرن الثامن عشر ، ومصر في حضيض من المهانة والذل والفقر والعذاب ، وكان يستقبل مشايخ الأزهر ، فيناقشهم ويباحثهم في الرياضيات فيحجمون ، لأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فيتعجب الباشا ويقول مستنكراً :

« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ! »

صراع القومية المصرية

كانت مصر دائماً - وما فتئت - موضع عجب الرحالة وإعجابهم . ونتقبل نحن المصريين هذا الإعجاب قضية مسلمة ، كأنه واجب على الناس جميعاً أن يعجبوا بمصر القديمة والحديثة ومصر الغد ، ولا نتساءل عن بواعث هذا الإعجاب . ولو تساءلنا حقاً لعيننا أول ما عيننا بمعرفة ما قاله عنا هيرودوتس في كتابه الثانى المعنون « أوتربى » . فقد كان ابن هاليركارناس من أول الرحالين العظماء الذين زاروا مصر ودونوا أثر زيارتهم في الكتب ، وكانت زيارته إبان الحكم الفارسى .

وواضح أن مصدر عجب الرحالة هو اختلاف طبائع المصريين عما عهده الناس في العالم القديم ، وأن هيرودوتس أعجب أيضاً بالحكمة المودعة في قلوب أهل مصر ، وبتقاليدها العتيقة ، وبمظاهر حضاراتها ، واطمئننا إلى أنها أقدم شعوب العالم ؛ فقد كان الكهنة يقولون لزائريهم من اليونان ما أنتم أيها الإغريق إلا أطفال بالنسبة لنا .

والرومان ، وإن تندرنا بعبادة المصريين للحيوانات ، أشادوا بغيرهم بنظام المصريين في ريهم وصرفهم ، وفي وسائلهم لاتقاء غوائل الفيضان العالى أو المنخفض . كل هذه ، وما أضافته الحضارات التالية التى قامت فى وادى النيل ، تفسر ولا شك عناية الرواد بمصر منذ القدم . فالسائح اليوم ، كما كان فى القرن الماضى ، وكما كان أيام قولنيه وساقارى ، ومن قبلهما نوردن وسونى وبوكوك ونيبور ، يتأمل فى إعجاب ما خلفته الحضارات المصرية من آثار .

وقصة اكتشاف التاريخ المصرى القديم فى ذاتها قصة بالغة الروعة ، حرصنا أن نلم بها فى بعض فصول هذا الكتاب . ولكننا ، أهل البلاد أو زائريها ، ننسى دائماً ، فى إعجابنا ، المسئول الأول عما نتأثر به . فالأهرام والبرابى والتقويم ونصوص الأهرام والكنائس والبيع والمدارس والمساجد والأضرحة المملوكية ، كل هذه الآثار توحى إلينا بأسماء الملوك والحلفاء والسلاطين ، وننسى منشئها الفعلى ، وهو الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى يقف خلف كل هذه الروائع ثابتاً للرزايا والحن .

ونسأه لأنه غير مسمى ، فلا هو بطليموس ولا رمسيس ولا هو الناصر محمد ابن قلاوون . نسأه وهو المائل أمام عيوننا اليوم ، كما كان منذ الألف وثلاثة الآلاف وستة الآلاف من السنين . فالفلاح المصرى اليوم ، هو نفسه فلاح آلاف السنين ، لافى نوع التفكير ، ولا فى لغته ولا فى عقيدته ، ولا فى لباسه — وإن كان المظنون أن لبس الفلاح اليوم هو « الكلاميدة » اليونانية من أيام البطالسة — ولكن فيما له علاقة بالأرض والرى والزراعة ، يخرج إلى الحقل ويعود إلى مأواه البدائى ، يتزوج ويخلف الأولاد أيادى عاملة ، وينام هو وهم والبهائم والدواجن فيما يكاد يكون مكاناً واحداً ، ينظر إلى العمدة وشيخ البلد نظرتة إلى صاحب السلطان ؛ هذه هى وحدة المصرى عبر تاريخه ، وحدة الحياة على ضفاف النيل .

وأهم منها وحدة الشقاء الناشئ عن الاستغلال : استغلال رجل المدينة صاحب الأرض ، وكاهن المعبد ، وممثل السلطة . وقصة الشقاء هذه لا تتغير بتغير الأشخاص : جناب اللورد فى قصر الدوبارة ، وأفندينا فى القصر العالى ، ومولانا ظل الله على الأرض فى المابين ، والملك الإله فى القصر الكبير « فر — عاو » . قاع الصورة واحد لا يتغير . مظلم عابس نياخ بكلكله . وحياة الفلاح ترسف فى سلاسل محكمة الحلقات ، لا فكاك له منها : المال للحكومة ، والسخرة للدولة ، وكل شىء لصاحب الأرض : أى للمملوك المالك ، والباشا ، ورجل الدين ، والاستراتيجوس الرومانى نائباً عن قيصر ، والبطليموس ، وكل من حكم به عليه الزمان من قديم الزمان .

وساكن المدن فى عهود الذلة ، وتحت حكم الأجانب ، خضع لظروف ربما كانت أقسى من ظروف الفلاح ، بسبب آلامه الروحية : كان اليونانى يحتقر المصرى ، وكان اليهودى — الممالىء — لليونانى — يحتقر المصرى ؛ وجاء الرومان ينظرون إليهم جميعاً من علٍ . ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب على أمره ، ولا كان الولاة العرب ، فيما عدا عمرو بن العاص ، وقلة ممن حذوا حذوه فى المائة عام الأولى من حكم الولاة العرب . فالنقمة الطويلة ممسكة بخناق الشعب المصرى على يد حكامه الأكراد والترك والشراكسة والصقالبة والفرغانيين والمغاربة . وجاء حكم العثمانيين

ضغثاً على إيالة ، وفي أعقابهم الدلاة والأرنؤد . وعاد الفرنسيون إلى مصر — بعد اعتداءاتهم الأولى أيام الصليبيين . أموري ، وجان دي بريين ، ولويس التاسع — ثلاث مرات : الأولى بقيادة بونابارت ، والأخيرة إلى جانب العصابات الصهيونية ، والثانية بفضل أسرة محمد علي ، عندما دعاهم الباشا رأس الأسرة ليقيموا مشروعات استغلاله الأناني ، وليستنبطوا له شتى اختكاراته في الزراعة والصناعة ، وحتى في شئون الكيف .

وأعس ما بليت به مصر في القرن التاسع عشر هو جيش المغامرين من الشرق والغرب ، نزلوا ببر مصر وليس لهم شرعة إلا الكسب . وما أقرب أن يتحول الكسب نهياً عندما ينزل الأفاق بقوم سدج سليمى الطوية . جاءت طغمة الغرباء يعملون تجاراً وأصحاب صناعات واحتكارات ومرابين ولصوصاً وقوادين . وبدأ أغلبهم ذليلاً لينتهى سيداً مطاعاً ، بفضل الباشا والحديو ، وبفضل زخرف الحضارة الذى طالب به الباشا والحديو ، لمجرد الزهو والاستمتاع . وتحول بعض أولئك المغامرين إلى وسطاء فوزراء ، وانتهت مأساة السفه بالديون الثقال واحتلال البريطانيين . وكان المغامرون عون المحتل في الدواوين وفي الأعمال الحرة .

لم يكن المصرى يملك شيئاً من أرضه ، ولا من غير أرضه . كلها إقطاعات للفرعون وأسرته ، وللمعبد وسدنته ، ثم لبطليموس فالإمبراطور في رومة وفي بيزنطة ، ثم للخلفاء في شبه جزيرة العرب جنوباً وشمالاً ، ولما جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب ، أبناء طولون والإخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك والباشوات وأسيادهم في الأستانه ، ثم لأسرة محمد علي والمقربين منها ، فاللدائنين والمرابين ، وأخيراً للباشوات والبكوات المصريين أنفسهم ، وهؤلاء لم يكونوا أرحم من الغرباء ، ولا أضعف أثرة من سابقهم أو لاحقهم أصحاب الشركات الكبرى زراعية أم صناعية .

تطالعك على مدى الأجيال نظرة الحاكم إلى مصر نأى عنها أم قرب . فابن عفان يعزل عمرو بن العاص ، ثم يعرض سياسته المعتدلة في فرض الضرائب قائلاً : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » ، فيجيبه أعدل من ولى مصر : « ولكنها أضرت بوليدها » . ويقول الإمبراطور الرومانى طيباريوس لعامله في مصر :

« لقد أوفدتك لتجز صوف الشاة لا لتسلخها » . ويقول البك الألفى جليسه :
 « الإنسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه
 أن يرفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتنتج له النعاج ؛ بخلاف ما إذا أجاعها
 وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحماً ولا دهناً . »
 فيجيبه المملوك جليسه : « هذا ما اعتدناه وربينا عليه . »

تلك نظرة حكام مصر جميعاً منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين ، سواء
 أجاعوها وأجحفوها ، أو ترفقوا بها فى العلف حتى تسمن . فمصر هى البقرة
 الحلوب ، واللحمة التى تدر ، والشاة التى يجز صوفها فى أرفق وسائل الحكم .
 معجزة هذا الشعب المصرى إذن ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب ،
 إنما فى أن يظل الشعب حياً متمكن الشخصية ، لا يفنى فى غزاته ومستغليه .
 شعب زارع بناء صناع اليدى ، صانع حضارة ، سواء حكمه محب للعلم ، ذواقة
 للفن ، أو عيهور مغامر . شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضاً .

وإلا فإننى أطلب تفسيراً لهذه الظاهرة الثابتة فى التاريخ المصرى : بناء المصاطب
 والأهرام والبرابى ، وإقامة التماثيل والمدافن ، وإنشاء الكنائس والأديرة ، فالمدارس
 والجوامع والقصور والأضرحة ، وحفر الترع وإقامة الخزانات ، ووصل البحرين
 سواء عن طريق النيل ، أو مباشرة بين القلزم والفرما . ثم من كان يصنع الآثواب
 الشرب ، والديقى والتنيسى ، والقباطى الإخيمية ؟ ومن قام بزينة المساجد ومنابرها ،
 والكنائس وهياكلها ؟ ومن رسم الصور الشعبية على الخشب ، ووضعها فى توابيت
 الفيوم والبهنسا ؟ ومن قام على مدرسة الكهنوت فى هليوبوليس ، ومن فتح مدرسة
 اللاهوت المسيحى « الديسقلية » فى مواجهة مدرسة الإسكندرية الوثنية ؟ ومن أنشأ
 الجامعة الأزهرية ؟ أكان الفرعون والقائد الفاطمى والسلطان المملوكى ودلسبس
 ومحمد على وغيرهم ممن حفظ التاريخ أسماءهم مقرونة بتلك الأعمال العمرانية ؟
 أو أنه ذلك المجهول المفترى عليه : الشعب المصرى ؟

طالع الصورة الحية التى رسمها وكيل القنصل البريطانى أيام محمد على ، وهو
 يصف حال الفلاحين المصريين عندما أصاب الطاعون ماشيتهم : لقد رأهم يربطون
 الحمار مع الحمل لجر المحراث ، وشهدهم يتكاتفون جماعات ليحجروا محاريثهم فى

سبيل خصاصة من العيش ، كى لا يموتوا جوعاً . كل هذا الجهد الجبار لمجرد حفنة من الأذرة ، وقليل من المش وخشاش الأرض ، وهدمة زرقاء !

يتأخر الفيضان وينخفض منسوبه ، فينزل القحط بالبلاد ، ويحل الوباء بأهلها ، ويهلك الطاعون مواشيهم ؛ ويرتكب حكام مصر كل موبقة دون رادع ، لسبب ولغير سبب ؛ ومع هذا يعود الشعب إلى حقله ، أو إلى مقعده أمام النول وآلة الخراطة وفرن الزجاج ومعمل التفريخ ؛ يعود إلى مطرقته يكفت النحاس بالفضة ، وإلى كتبه ينسخها ، ومصاحفه يوشىها ويجلدها ، وقد نسى ما حل به . يستأنف نشاطه الحضارى ، لأن جبلة الحياة فيه تتصل بصميم تربته السمراء وشمسه ونيله ، ولأن أحلام نفسه الوداعة لا تتعدى الرقعة السوداء يحيلها زمرداً ، والحضرة اليانعة يجنيها نضاراً . جبلة الحياة فى هذا الشعب هى الحضارة نفسها . فهو ، فى شعوب الأرض طراً ، مثال رجل الاستقرار والسلام . ومع ذلك لم يمنح السلام والاستقرار فى تاريخه إلا قليلاً .

عندما خمدت نار الفتنة فى مصر وهدأت الاحوال ، شرع المأمون فى تسكين جأش الناس فصار يطوف بالبلاد يتفقد أحوال الرعية ؛ ومر بضبعة تسمى طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها ؛ وجاءته عجوز اسمها ماريما ، هى صاحبة القرية ، وأخذت تصيح عليه ، فوقف لها وسألها عما تريد ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضبعة وتجاوزت ضيعتى ، فأتوسل إليك أن تشرفنى بحلوك فى ضيعتى ، كى لا تشمت بى الأعداء » . فأجابها المأمون إلى طلبها ؛ وقدمت له ولابنيه المعتصم والعباس ومن معهم من فاخر الطعام شيئاً كثيراً . فلما أصبح الصباح وقد اعتزم الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصيفات فى يد كل واحدة طبق . فقال المأمون لمن معه : « جاءكم القبطية بهدية ريفية » ، وإذا فى كل طبق كيس من ذهب . فأمرها بإعادة الهدية ، فقالت له : « لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا يا أمير المؤمنين » . فلم يسعه إلا إجابة طلبها ، ثم سألها : « من أين لك كل هذا ؟ » فأجابت : « يا أمير المؤمنين ! هذا . . . » — وأشارت إلى الذهب ، ثم انحنت فتناولت حفنة من الطين رفعتها فى وجه المأمون لتقول : « من هذا . . . ثم من عدلك يا أمير المؤمنين . »

تلك كلمة الشعب المصرى لحكامه : « لا أطلب منك إلا أن تجرى فى أحكامك بين الناس بالعدل ، وأن ترعى شئونهم بالرفق ؛ ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك ، ما دمت تتركنى أعمل فى وادى الخصب . »

فى هذه الحملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يبقى المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقدما استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بآلهته القديمة فتخلى عنها إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالئ كهنته السلطان الأجنبى . واستشهد المصرى متمسكاً بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ؛ واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهباً مسيحياً بعينه ، يخالف مذهب المصرى .

آمن بالإسلام فلم يحمه إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيراً — إلا قليلاً — من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته .

ليتعبد وثنياً ، أو ليؤمن بعبسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلعنة حكاهم قائمة دائماً ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانياً ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطياً ، ويقاوم الصليبيين مسلماً ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكاهم المخادعين ، ولن يغير ما بتفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وذراعيه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره ، انتصر دائماً على ظلمته ، ولو بعد حين ؛ إذ لم يستطع حكاهم أن يدلسوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ، وعانى ذلهم وظلمهم ، ليحتفظ لنفسه ، مدى ستة آلاف سنة ، بأعز ما يملك ، ألا وهى إنسانيته المتحضرة ، وشخصيته المتكاملة .

ولست ألقى هنا الكلام جزافاً ، فقد طالعت تاريخ بلادى كله ، مركزاً عنايتى فى أمر واحد : هو دراسة هذه الإنسانية ، وتحليل هذه الشخصية . لم تكن

دراسة ميسرة ، لأن أكثر من أرخ لمصر من أهلها ، ومن غير أهلها ، أعشى عيونهم التاج الأبيض والتاج الأحمر ، وأوراق الغار ، ولعان السيوف ، وانفجار بارود المكاحل ، وشنك انتصارات السلاطين والملوك والقواد ، والاحتفالات الكبرى بافتتاح قناة أو بناء خزان .

في تنقيبي عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية ، وهي ألا تعتمد على الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية . وإنك لواجد أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصري : في العهد القديم ، وبعد استتباب الأمر للبطالسة ، وإبان الحكم الروماني والبيزنطي والعربي والعثماني والفرنسي والأرنؤدي والبريطاني . بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها يقظة الوطنية المصرية . لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية . وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم « العصيان المدني » ، فكثيراً ما كانت كذلك في الحقيقة كما سيجي شرح ذلك .

ومصر لم تفن في غزاتها ، بل إن غزاتها هم الذين يفنون في مصر ، إن لم يكن بالطريقة التي ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز — كما قيل — فبوسيلة أفعل سحراً وأقوى أثراً . الغزاة يفنون في مصر بالحياة : يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازاً إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز في الأسطورة . هم أيضاً يذوبون ، لا في رمال الصحراء ، ولكن في بوتقة الشخصية المصرية . وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب حيناً في الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم ، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء الذي يثبت القاعدة ؛ والفناء الذي نقصد ، هو فناء الشعوب الغازية في الشعب المصري ، وهضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة ، التي قاومت ما استطاعت المقاومة ، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها .

ولامعدي لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب ، حتى يفهم الشخصية المصرية . فقد كانت العقائد « قطب الرحى » في كل الحركات القومية ، إلا في حركة سنة ١٩١٩ .

ودراسة العقائد الدينية غير ميسرة دائماً ، لأن المؤرخين اختلفوا في كل مرة يتحول المصريون من ديانة إلى أخرى . فهذا أميلينو ، العالم في القبطيات ، يقول ،

ويؤيده لوبيولت ، بأن وثنية المصريين انهارت عاجلاً أمام المسيحية ؛ على حين يحاول عالم البرديات الشاب جان ماسيرو أن يبين طول الوثنية في مصر ، مستنداً إلى بقاء بعض المعابد الوثنية هنا وهناك ، حتى القرن السادس الميلادي . وشبيه بهذا ما يقال عن تحول المصريين من المسيحية إلى الإسلام . وفي رأي أن التحول في الحالين استغرق قرناً قبل أن يستتب الأمر للديانتين التاليتين للوثنية في مصر .

لنستعرض الآن السرد التاريخي الذي ورد في الفصل السابق : ماذا فعل الشعب المصري بعد ضياع استقلاله وزوال عهد أسراته ، أي منذ غزو الفرس والإسكندر ؟ وقبل ذلك يجب أن نذكر أن المصريين يتقبلون الغزاة ليخلصوهم من حكم غاشم . رضوا بالعرب لينقذوهم من حكم بيزنطة ، وفتحوا أذرعهم للإسكندر ليزيح عنهم نير الفرس . والإسكندر جاء إلى مصر يحمل رسالة تحرير العالم ، على الأقل في الظاهر ؛ دخل مصر كما دخلت جنود الثورة الفرنسية إيطاليا وألمانيا . ولو كان بونابرت مسلماً لرضى به المصريون مخلصاً لهم من جور المماليك . وكان بونابرت مدركاً لهذه الحقيقة ، معداً لها بعد مطالعة كتاب « فولنيه » ، ولذلك راح يدجل بالآيات ، ويلبس العمامة والفراجة ، ويدعى الإسلام ، ويقول للمصريين بأنه حارب البابا وهزم « كوالراية » — أي فرسان — مالطة ، جند المسيح . ولم يجز هذا الدجل على المصريين .

دخل الإسكندر يحمل رسالة توحيد العالم في إمبراطورية هلينستية ، ويدعى الإيمان بديانة المصريين ، ويقدم القرابين لآلهتهم ، ويسافر إلى سيوة [واحة آمون] حيث استقبله كهنة المعبد الكبير ، وضحكوا على ذقنه بمسرحية دينية تركوا فيها الإسكندر يناجى كبير البانتيون المصرى وجها لوجه ، فيلقى إليه الصنم آمون [وهو صورة من زفس في ذهن الإسكندر] برسالة إلهية يغيبها إسكندر في صميم روحه ويكتب لأمه في مقدونيا بأنه لن يبوح بالسر العظيم إلا لها بعد عودته إلى وطنه . ولما لم يعد ، اختفى سر الحديث الإلهي إلى الأبد .

وكشف هذا السر ليس من الصعوبة كما يبدو ، أولاً لأن الصنم آمون لم يتكلم ، فإذا كان حديث قد جرى بين الحجارة والإسكندر ، فعن طريق كاهن يتكلم من بطنه « فنتريلوك » : حيا المقدوني وبياه ، كما يحيى أى فرعون . والفراعين كلها

منحدرة من صلب الآلهة في عرف المصريين . وما دام الإسكندر قد أصبح فرعون مصر بحق الفتح ، فليس بعيداً أن يكون الكاهن المدلس قد خاطبه على أنه ابن آمون ، ولم يجد هذا المتكلم من بطنه باسم آمون صعوبة في إقناع الشاب المغرور بأصله الإلهي ؛ لأن الإسكندر كان يشك فعلاً في بنوته لأبيه ؛ وكانت أمه أوليمبياس مصدر هذا الشك ، فهي التي نشأت غلامها على الاعتقاد بأنه ابن زفس كبير آلهة اليونانيين . ولم يكن عسيراً على الإسكندر ، ولا على أى إغريق من القدماء ، أن يصدق مثل تلك الخرافة ، لأن حياة زعيم الآلهة كانت سلسلة خيانات لزوجته الإلهة هيرا مع نساء البشر : يدخل عليهن في شكل من الأشكال ، فهو ذكر يجمع مرة ، وثور مرة أخرى ، ومطر من الدنانير مرة ثالثة . كان هذا الرب الفلاتي يتسلل إلى خدر معشوقاته من البشر ، أو يقابلهن في الغاب وحول ماء الغدير ، متنكراً على طريقة الروايات البوليسية ؛ وقد بلغ به الخداع أن يتقنص شخصية الزوج في بعض الأحيان . المهم أنه كان يلبس شكل عكروت ما . وغرور جوبتر - زفس - كان يدفعه إلى أن يعلن عن شخصيته ، فما بعد ، تكريماً لمشعوقة رب الأرباب .

لم يكن كاهن سيوة المتكلم من بطنه باسم آمون يعنى أكثر من التحية التقليدية لفرعون مصر . . . المقدوني ، ولكن الإسكندر حمل التحية محملاً الجدد ، ورأى فيها تأكيداً لما حدثته به الملكة أوليمبياس . إنه إذن الابن البكر لجوبتر - آمون ، وسيعمل على مرضاة شعبه الأمين . فسياسته في مصر ستكون سياسة المسالمة ، والحرص على معتقدات المصريين وعاداتهم .

وجاء أبناء لاجوس الأوائل بعده يهيجون نهجه ، ويتظاهرون بمجاراة طقوس المصريين واحترام تقاليدهم . ولكنهم ، فيما عدا ذلك ، يعيشون حياتهم الهلينية ، في بلاد أنشئت خصيصاً لهم ولأبناء جلدتهم . وكانت عاصمتهم الإسكندرية مدينة هلينية في كل شيء ، ليس بها من أثر للمصريين سوى طبقة عاملة من سكان « راكودة » محلة الصيادين التي أنشأ الإسكندر مدينته إلى جوارها .

ولكن فعلة كهنة آمون النكراء في واحة سيوة ، وهي صورة من فعالهم في معابدهم الكبرى ، كانت لها آثار بعيدة في نفوس المصريين . ولقد درج الكهنة على تملق

البطالسة ، وإدخالهم في البانتيون المصري ، وتصويرهم على جدران المعابد في بزة الفرعون يتلقى بركة الآلهة ، وربما كان بطليموس يتوج وفقاً للطقوس المصرية ، وهو لا يرى بأساً من ذلك . فديانة الهلنيين كانت ديانة مجبوحة لا ترفض أن ينضم إلى مجمع آلهتها من يشاء . من الآلهة الأغراب ، هذا إلى أنهم تعرفوا على آلهة المصريين وأطلقوا عليها أسماء آلهتهم : فأمون هو زفس ، وهاتور هي أفروديت ، وإيزيس هي ديمتر ، وسبك ، الإله التمساح ، من يكون غير خرونوس ؟ وإلههم هفيستوس ألا يكون فتاح أو رع ؟ وقد يكون هرمس هو توت ، أو أنه أنوبيس . ما كان أشبه البطالسة بأمر نافتار البروتستانتى عندما انقلب كاثوليكياً غداة دخول باريس ليتوج ملكاً على فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، باسم هنرى الرابع . ومن ماثور قول هنرى دى نافتار حين ذاك : « إن باريس بلحديرة بقداس كاثوليكي . »

وسياسة البطالسة في مصر كانت حذوك النعل بالنعل وسياسة الماريشال ليوتى ، بطل الاستعمار الفرنسى في مراکش : احترام العقائد والطقوس والعادات لدى المغاربة عرباً وبربراً ، والاحتفاظ لهم بمحلاتهم ومدنهم وديارهم ، مع إنشاء مدن حديثة يحيا فيها المستعمرون حياتهم الفرنسية فكراً واقتصادياً على حساب أهل البلاد . والحقيقة أن المستعمرين الأوربيين في العصر الحديث لم يأتوا بجديد في وسائلهم لاستعمار آسية وأفريقية ؛ إنهم في كل ما قاموا به من « استعمار حضارى » حذوا حذو أساتذتهم المقدونيين والرومان .

وساعدت الإسكندرية ونوكراتيس في الدلتا ، وبطليموسة [بطوليمائيس] في الصعيد ، وغيرها ، على إقامة خلايا يونانية تحيا حياتها الهلينية كاملة ، على حين تسير الحياة المصرية الصميمة سيرها التقليدى ، وتستكمل المعابد أبنيتها ، بل ويقام غيرها ، وعلى النمط القديم .

واستمرت الحال حتى بعد الاحتلال الرومانى ، فجاء الإمبراطرة إلى مصر يمالئون أهلها ، ويشاركونهم في حفل تنصيب العجل أبيس ، وهم يتضاحكون إذا خلوا بعضهم إلى بعض . وما تزال بعض آثار هذا التندر في بعض كتاباتهم وقصائد شعرائهم [الهجاء الساخر رقم ١٥ ليوثينال] وإذا كان الهلينيون قد شعروا بعظمة

الحضارة المصرية فكروها ، فإن الرومان رجال عمليون لم يقدرُوا هذه الحضارة حق قدرها ، بل ولم يرفعوا لمصر حرمة ، بعدما استتب لهم الأمر في وادي النيل .
 فاهليينون والرومان كانوا يعيشون حياتهم على هامش الحياة المصرية ، والأصدق أن نقول بأن المصريين هم الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الرسمية اليونانية أو الرومانية ؛ يعملون من أجل أسيادهم في مصر وفي روما ، وقد انحدرُوا إلى قعر القفة ، وفوقهم اليهود ، فاهليينون وفوق هؤلاء وأولئك السادة الرومان . ثار المصريون غير مرة ولكن لم يحدث أن اتصلت أسباب الثورة وامتد لحيها ؛ كانت اضطرابات محلية سرعان ما تسحقها القوة القاهرة .

ظاهر إذن أن المصريين استكانوا ورضوا بالذلة والخضوع ، بل راح بعضهم يرطن باليونانية واللاتينية ليحيا حياة المحتل ويماحكه^١، ويعيش على مرضاته . ولكن المتعمق دراسة الحياة المصرية القديمة يدرك تَوّاً كيف تمسك أغلب المصريين بقوميتهم ، وكيف كانت الضعة تمزق نفوسهم ، لأنهم انحدرُوا بعد الغزو الروماني إلى مرتبة الولاية . ويلاحظ المؤرخ قوة الشعور بالقومية عند المصريين في تاريخهم الطويل عندما لا يجدون عزاء عن الاحتلال الأجنبي في أسرة مالكة ترعى على الأقل استقلالهم كدولة كبيرة . تملكهم هذا الإحساس بعد احتلال الهكسوس ، وبعد الغزو الروماني والفتح الإسلامي والاعتداء العثماني . وتتجلى صورة هذا الشعور فيما كتبه ابن إياس بعد موقعتي مرج دابق والريدانية ، راثياً لحال بلاده ، إذ يقارنها بما كانت عليه أيام سلاطين المماليك ، مع أنهم كانوا أجانب عن مصر ، كما كان البطالسة . فشعور المصري بأن له بطليموسه وإخشيده ، وخليفته الفاطمي ، أو سلطانه الأيوبي أو المملوكي ، يعزّيه بعض العزاء ، لبقاء استقلاله مؤيداً ، بالرغم من هذه الأسر الحاكمة الأجنبية . ولا أحسب نظرة المصريين تنطوي على فلسفة سياسية خاصة ، إنما هو شعور بالفارق بين أسرة حاكمة - أجنبية أو من أهل البلاد ، تملك مصر وتعنى بأمورها ، كضيقاتها الخاصة ولا شك ، في تنظيم الري والصرف ، والاستعداد للفيضان العالي ، وتوقي الفيضان المنخفض ، وتشجيع التجارة والصناعة والبناء والإنتاج الفني والفكري - وبين حاكم موظف يوفد من حاضرة بعيدة في روما أو بيزنطة أو دمشق أو بغداد أو إستانبول ، وكل همه إرضاء

الملك البعيد ، إمبراطوراً أو خليفة أو سلطاناً ، بل جل عنايته أن يجمع لنفسه ثروة خاصة من بلاد غنية لا يتاح له الحكم فيها لأكثر من عام أو عامين . ونتيجة ذلك ، في الغالب ، الفوضى وقصر النظر والرشوة والسرقة والجور والاستغلال في أقبح صوره .

فالباحث عن القومية المصرية ، السارية كالنار في الهشيم ، وعن شخصية المصريين وحفاظهم بكيانهم ، يتعين عليه أن يدرس عهود الحكام والولاة الموفدين من حواضر الإمبراطوريات الأجنبية ، أكثر من عنايته بعهود الأسر المالكة الأجنبية التي تستقل بشئون مصر .

لذلك نغنى في هذا الفصل بمصر تحت حكم روما وبيزنطة ، وقد امتد نحو سبعة قرون ، منذ تغلب أكتافيانوس قيصر على كليوباترة حتى الفتح العربي . كانت مصر طوال هذه القرون ولاية قطعت أوصالها في إصلاحات يوستنيانوس ، فأمست مجموعة من الدوقيات ، لكل دوقية منها حاكمها وقائدها ، ورئيس ماليتها ، وجيش احتلالها . وهذا التقطيع في ذاته يفسر هزيمة الروم في مصر أمام جيش عمرو بن العاص ، أي هزيمة نحو ثلاثين ألف روماني ، أمام مجموعة من فرسان العرب ، أقل من نصف هذا العدد على أقصى تقدير .

والعهد الروماني في مصر يشبه في أوله من ناحية معاملة الأهالي القرن اللاتيني : محاولة استرضاء المصريين بالتظاهر باحترام ديانتهم وطقوسهم ، وتشجيع إنشاء المعابد الجديدة وإتمام قديمها ؛ ولو أن تركيز السلطة في روما قضى على المحتل بمراقبة رؤساء الكهنة ، وفرض التزامات إدارية ومالية عليهم . بل انتهى الأمر إلى أن يشرف موظف روماني كبير على كل الشؤون الدينية في مصر .

وتמיד أرجاء الإمبراطورية بهجوم البرابرة على أطرافها ، من الغوط الشرقيين والغربيين ، والقانдал والآفار ، كما يتآكل بناؤها من الداخل تحت ضغط ظروف اقتصادية اجتماعية ، عرفت في التاريخ باسم « تدهور الإمبراطورية الرومانية وانحلالها » .

وأجل حدث في داخل هذه الإمبراطورية — وأمره مرتبط بمنطقة الشرق الأدنى على وجه الخصوص — هو ظهور المسيحية ، لا من حيث تهديدها بالقضاء على

ديانة الدولة الرومانية فحسب ، ولكن لأن اعتناق بعض من رعايا الرومان لهذه الديانة قد صاحبه ، وربما كانت من حوافزه ، حركة تحرير كبيرة ، لشعوب الشرق الأوسط ، من ربة الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التحرير ممكناً ولا ميسوراً ، وقد جردت تلك الشعوب من أسلحتها ، واحتفظت روما فيها بحافله .

ولن نخرج عن النطاق المصرى ، ونحن نحلل أثر المسيحية في تحرير مصر من الرومان . وفي اعتقادنا أنه ليست المسيحية هي التي أيقظت الوطنية المصرية — فالوطنية المصرية لم تدركه سنة ولا نوم في أى وقت من تاريخها الطويل ، ويحدثك المطالعون لأوراق البردى في آخر عهود الوثنية المصرية عن كلمة الوطن « Patrios » ترد في بعض المخطوطات — بل إن اعتناق المصريين للمسيحية هو في ذاته مظهر من مظاهر مقاومة الاحتلال الرومانى . ولم يبشر مار مرقس بكلمة الإنجيل عبثاً ، عندما جاء إلى الإسكندرية في القرن الأول للميلاد . فلا يقارب القرن الثالث نهايته حتى تكون مصر قد تحولت عن ديانتها القديمة التي مارسها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، إلى ديانة يسوع الناصرى ، وآمنت بأنه كلمة الآب المتجسدة .

وظاهرة انتشار المسيحية تكاد تكون واحدة في كل مكان من الإمبراطورية . اعتنقها الفقراء والمحرومون والعبيد ، لاعتقادهم أنها تحررهم من مساوئ هذا العالم ، وهي تعدهم بملكوت السماء ملكاً خاصاً لهم يعوضهم عن العسف والخور والحرمان تحت النير الرومانى . وكان الشعب المصرى من أشد الشعوب بؤساً بحكم الرومان ، فقد لاقى من هذا الحكم شيئاً أنكى من الاستغلال : عرف الذلة مضاعفة ، فالمصرى ينجى بعد الرومانى واليونانى واليهودى ، وكل أجنبي في بلاده . وكان لكل هؤلاء الحق في الرعوية الرومانية ، إلا المصرى ، فلم يكن له من حقوق غير حق الذل . أما واجباته ، فتبدأ وتنتهى عند إنتاج الغذاء والكساء ، وزخرف الحياة ، للغالبين .

ومن السهل فهم نجاح الدعوة المسيحية لدى هذا الشعب المغلوب على أمره ، لولا قيام صعوبة واحدة : كيف لم يحرص المصرى على ديانته العتيقة ، وهي آخر صلة له بمجده الغابر ؟ إلا أن نظرة واحدة إلى ما جرى على هذه الديانة ، بعد

الغزو الفارسي والمقدوني ، وبعد قرن من الحكم اللاجيدى والرومانى ، كفيلة بأن تفسر لنا كيف جاز للمصرى ، المتمسك بتاريخه وحضارته ، أن يتحول عن ديانته : لقد روع المصرى على مدى سنى الاحتلال الأجنبى بمظاهر الزيف والفساد فى ديانته . ولا أحسب المصرى تقبل ببساطة حكاية البطليموس أو القيصر يغتصب عرش فرعون فى الدنيا والآخرة . وكان الكهنة — حفاظ الملة ورعاتها — يمالئون ويداهنون المحتل ؛ فعلوا ذلك مع الفرس ومع الإسكندر ومع البطالسة ومع الإمبراطور الرومانى . ورأى المصريون صورة أولئك الملوك الأغراب تنقش على جدران المعابد وصروحها فى الملابس الفرعونية ، تحت بصر الآلهة الألفيين وسمعهم ، إذا جاز لنا هذا التعبير . كما رأوا المعابد تقام بأسماء جديدة ، وتضاف أرباب أجنبية إلى البانتيون المصرى . وتكرس معابد لبرنيقة وغيرها من زوجات البطالسة وشقيقاتهم ، ولأمهات الإمبراطرة وزوجاتهم ، بل للشاب الجميل أنطونوس ، خليل الإمبراطور أدريانوس . لقد مسخت الديانة الرسمية وداخلها الغش والتدليس ، وحرفت أسماء الآلهة ، وأضيفت إليها أسماء يونانية ركبت تركيباً مزجياً ، تختلط فيه رطانة اليونان باللغة المصرية القديمة ، فانهارت حقيقتها فى نفوس المصريين ، وإن احتفظوا زماناً بكل طقوسها وهيلها وهيلمانها ؛ وانصرف المصريون بكليتهم إلى العالم الآخر ، وإلى عقائدهم الشعبية ؛ وأصبح لطقوس الثالوث الأوزيريسى القدح المعلى لديهم ، فهى الطقوس التى تصور لهم النشور بعد الموت ؛ ولعلمهم رأوا فى قصة إيزيس روح بلادهم تحاول أن تجمع أشلاء قوميتهم من تحت أقدام الغاصبين . ظل المصريون يمارسون طقوسهم فى الحياة والموت ، وقد تحولت عقائدهم إلى مجرد رموز لا معنى لها ، وانحدرت إلى ضروب من السحر ، ومجموعة من التعاويذ والتمايم . ظلوا يحنطون موتاهم ويدرجونهم فى لفائف الكتان ، ويزودونهم بنصوص كتاب الموتى ، مؤمنين بالنشور والحياة الباقية . وقد أحب المصرى الإلهة إيزيس ، وكان يتمثلها وهى تحمل طفلها الإلهى هوروس ، وإذا بالعقيدة المسيحية تحدثه عن مريم العذراء ، وعن الطفل يسوع ، وعن الآب ، وعن الصلب والقيامة والروح القدس . فما أيسر النقلة من أوزيريس وإيزيس وهوروس ، إلى الآب والابن ومريم البتول . ولم يكن الروح القدس بجديد على المصريين ، وقد عاشوا

آلاف السنين يؤمنون بالروح « با » في صورة طائر ، وبالقرين « كا » ، وهو الصورة الروحانية التي تتقمص المومياء أو التمثال الجنائزى ، فيقوم الميت من مرقده ، يحيا حياته في « آمنى » ، كما عاش على الأرض . وإذا كان الصليب القائم يرمز إلى آلام المسيح ، وإلى الحياة الأزلية ، فما أقرب هذا الرمز إلى الصليب ذى الحلقة ، « عنخ » ، رمز الحياة الأبدية .

ولا أحسب المصرى تابع منطقاً بعينه ، فما تحول الناس عن دياناتهم بدوافع منطقية ، إنما أزعج أن الأسباب السالفة مجتمعة — وربما كان أهمها رغبته في مناوأة حكامه الأجانب ، والتخلص من ربة كهنته — جعلت المصرى يتحول إلى عبادة جديدة ، مكانها نفسه المتدينة ، بعيدة كل البعد عن مظاهر العنف ، لا تفرض عليه عبادة الإمبراطور ، سواء في مظهره الرومانى ، كما يريد له الاستراتيجوس ، أو في مظهره الفرعونى ، كما يريد له الكاهن المصرى .

ولا أحسب المصريين انقلبوا مسيحيين بين عشية وضحاها ، كما فعل ثلاثون ألفاً من المنبوذين الهنود في أكتوبر ١٩٥٦ ، عندما تحولوا إلى الديانة البوذية . ولا شك أن الكهنة المصريين قاوموا ما وسعته المقاومة ، ولكنها مقاومة لم تكن تجدى لدى شعب فقد ثقته في إخلاص كهنته وصدقهم ووطنيتهم . والغالب أن المقاومة تركزت حول بعض المعابد ، التي ظلت بمن يرتادها ويسكن حولها وينتفع بخيراتها شبه جزر من الديانة المصرية القديمة وسط بحر زاخر بالمسيحية .

فلنتصور مصر في القرن الثانى للميلاد ، وفيها أنواع وأشكال من العبادات المصرية القديمة وقد اختلط حابلها بنابل العقائد الهلينية ، والديانة اليونانية دون اختلاط ، ثم الدين الرسمى للدولة الرومانية ، فالعقيدة الموسوية ، ثم هذا الدين المسيحى الجديد ، الذى نرى آثاره في نهاية القرن الثانى لإنجيلا للمصريين ، وكنيسة بالإسكندرية ، يرأسها أسقف مصرى هو ديمتريوس [١٨٩ — ٢٣١ م] . وما نلبث حتى نسمع بأمر مدرسة اللاهوت [الديسقلية] قامت بالإسكندرية في مواجهة جامعة البطالسة المشهورة ، وفي مواجهة المدارس الإسرائيلية التي عاشت بفضل الفيلسوف فيلون الإسكندرى ، وإلى جانب مدرسة الغنوسطين أى العارفين . وكان بنطائينوس أول أستاذ نسمع باسمه شيخاً للديسقلية ، وهو فيلسوف رواقى

تحول إلى المسيحية . وخلفه على إدارة المدرسة عظيم من عظماء الفكر المسيحي ، هو اكليمانضس ، الرجل الذى درس الشعر اليونانى ، وأحاط علماً بالفلسفة الإغريقية ، بقدر ما تفقه بالنصرانية ؛ وبذلك استطاع أن يحقق مواءمة جميلة بين الفكر اليونانى والعقيدة المسيحية .

وأقل الإمبراطور سبتيميوس ساويرس المدرسة اللاهوتية عام ٢٠٢ م ، فى أول موجات الاضطهاد ؛ وعادت بمجرد أن خفت وطأته ؛ وسلم الأسقف ديمتريوس إدارتها إلى عظيم آخر من عظماء الفكر المسيحي : أوريجانوس الحكيم ، تلميذ اكليمانضس ، والمتفوق على أستاذه . لقد انتهى أوريجانوس « إلى اللاهوت المسيحي خلال المعارف اليونانية كافة » . وحقق نصوص الكتاب المقدس فيما بقى لنا باسم مخطوط « الهكسابلا » ، أى ذى الستة الأعمدة ، كل عمود منها يفيض بالشرح والتعليق والتفسير . ثم غضب ديمتريوس على أوريجانوس ، وقد خالجه الشك فى انحرافه ، فقدمه لمحكمة المجمع المقدس ، التى أدانته بتهمة الهرطقة ؛ فاضطر أن يرحل إلى قيصرية فلسطين ، حيث افتتح مدرسة ، ومن هناك انتقل إلى صور حيث توفى سنة ٢٥١ م .

وعاشت مدرسة اللاهوت حتى أوائل القرن الرابع ، أى حتى عهد الاضطهادات الكبرى ، المعروف باسم عصر الشهداء .

ولم تكن المسيحية محصورة بين جدران الإسكندرية ، بل الثابت أنها تقدمت بخطا واسعة خارج العاصمة ، منذ بداية القرن الثالث ، وبخاصة فى الطيبائيدة [الصعيد الأعلى] ، وفى الفيوم والبهنسا [الصعيد الأوسط] ، حيث أنشئت الكنائس ، وأقيم على رأسها المطارنة يأترون بأمر كبيرهم بالإسكندرية ، أسوة بأهل المدن الخمس الغربية [وما زال البطريرك القبطى يحمل هذه الأسماء ضمن ألقابه الكنسية] .

وكلما أمعن إمبراطرة رومة فى الاضطهاد ، زاد المصريون تفافاً حول ديانتهم الجديدة . حدث هذا بعد اضطهادات ساويرس فى أول القرن الثالث ، وبعد اضطهادات دقيوس [سنة ٢٥٠ م] . وكان يخضع للاضطهادات من يخضع فيرتد ، ويستشهد من يستشهد . واختطف المصريون أسقفهم دنيس — وكان

يطلب اللحاق بالشهداء — ليخبئوه في ليبيا ، حيث يواصل جهاده وقيادته للكنيسة المصرية .

واستمرت المقاومة بعد اضطهادات دقلديانوس (ديوقليسيانوس) (٣٠٣ م) وقاليريوس وماكسيمين دازا . وما أكثر من قضى من الشهداء والشهيدات ! وما أكثر من عذب أو أرسل إلى المعتقلات في محاجر سيناء والبحر الأحمر ! حتى صدر المرسوم الإمبراطوري في ميلانو عام ٣١٣ م يعلن حرية العبادات في الإمبراطورية الرومانية .

وها نحن أولاء نعرف أربعين على الأقل من المدن المصرية كان لكل منها أسقف . وكان بالإسكندرية وحدها مائة أسقف ، وكثير من الكنائس ، وقدر عدد المسيحيين في القرن الرابع بمليون من الأنفس .

وكان لانتشار المسيحية بين المصريين في داخل البلاد أثر من أبعد الآثار في تطور القومية المصرية . فالتبشير بالمسيحية بدأ في المدن الكبرى ، وباللغة اليونانية . ولكن غالبية المصريين المقيمين خارج هذه المدن كانوا يجهلون تلك اللغة ، وإن اضطروا إليها في معاملاتهم مع الحكومة ، وأمام المحاكم . واقتضى انتشار المسيحية خارج المدن أن تجرى الطقوس وتلقى المواعظ بلغة البلاد ، بتلك اللغة المصرية التي يتخاطب بها المصريون منذ فجر التاريخ . كما فرض انتشار المسيحية وإقبال الناس على استيعاب نصوصها استعمال الحروف اليونانية لكتابة اللغة المصرية . وفي الحق لم تبدأ كتابة اللغة المصرية القديمة بالأحرف اليونانية بعد تحول المصريين إلى المسيحية ، إلا أن هذا التحول كان من أفعال الأسباب في استخدام المصريين للحروف اليونانية . فالكتابة الديموطيقية معقدة ، وخالية من حروف الحركة . وقليل جداً من المصريين كانوا يعرفون الكتابة أو القراءة . أما اليونانية — وهي اللغة الرسمية منذ البطالسة ، وتحت الحكم الروماني كله ، وفي بداية الحكم العربي — فقد كانت مستعملة في المكاتبات الرسمية وبعض المكاتبات الخاصة ، وكان من السهل على الأميين المصريين أن يجدوا كتبة عموميين يخطون اللغة اليونانية ، وأتصور أولئك الأميين كانوا يملون رسائلهم بلغتهم ، فيكتبها الكتاب العموميون بالأحرف اليونانية ، مثلما تكتب التلغرافات العربية من الخارج بالحروف اللاتينية . وكذلك من يتلقون

تلك الرسائل ، كان أسهل عليهم أن يجدوا كتبة عموميين يطالعون لهم هذه الرسائل .
وقد شعر رجال الدين بالحاجة إلى نشر الكتب المقدسة والتعاليم الكنسية
باللغة المصرية ، فكان من الأسر أن تترجم إلى المصرية ، وتكتب بالحروف
اليونانية ، وبذلك يسهل إيجاد قراء لها ، كما يطمئن رجال الدين إلى حسن التلفظ
بأسماء الأنبياء والرسل والحواريين والبلاد التي كانت مسرحاً لحوادث الإنجيل .
وكان هذا منشأ اللغة القبطية ، وهي اللغة المصرية القديمة بعد أن عدت عليها
عواذى أربعة آلاف سنة ، وتطورت وتحورت بحكم اتصالات المصريين بالأجانب
منذ الدولة الحديثة ، وقد دخلتها ألفاظ يونانية عديدة ، من أسماء الآلات والأشياء ،
والاصطلاحات الرسمية ، وأخيراً كل ما أدخلته الكنيسة من مصطلحات ، بحكم
أن التبشير بالمسيحية بدأ في مصر باللغة اليونانية . ولما كانت هناك مخارج حروف
مصرية لا يوجد مقابل لها في الأحرف اليونانية ، أضاف المصريون إلى ألف باء
الإغريق سبعة أحرف من الكتابة الديموطيقية .

ومقاومة المصريين للاحتلال الأجنبي لم تقف عند حد الانضواء في هذا الدين
الحديد ، دين المغلوبين والمحرومين ، بل قد اتخذت المقاومة صورة من أعجب
الصور ، واتجاها كان عظيم الأثر في تاريخ المسيحية . اتخذت المقاومة شكلاً
عرف في العصر الحديث باسم « العصيان المدني » و « المقاومة السلبية » ، عندما
بدأت حركة السياحة والرهبة . هذه الحركة الروحية ، أول ما نسمع بها في القرن
الثالث ، عندما خرج رجل صعيدى اسمه بولا أو بولس إلى الصحراء يتعبد وحيداً
متوحداً . لم يكن التوحد ولا الانقطاع للعبادة بجديد على المصريين ، فقد عرفت
الديانة المصرية القديمة نظام الاعتكاف والنسك ، والصحراء في مصر ملاصقة
للوادي الخصيب ، إليها يخرج المعنى والهارب من العدالة أو من الظلم ، وطالب
الانفراد للتأمل والتهجد .

والحركات الثورية المصرية كانت تنشب وتعتصم بثلاث نواح : بلاد البشمو
وهي البرارى في شمال الدلتا وفوق مياه بحيراتها ، وبين هيشها وحامولها ، والحواف
الشرقى ، وهو جزء من مديرية الشرقية حالا ، ثم الطيبايدة أى الصعيد الأعلى .
وهذا الصعيد الأعلى كان « الهنترلاند » والمقل لصمم المصرية في كل زمان ،
ومنه خرج أمراء الصعيد ، وعلى رأسهم أحمرس يطردون أول أمة فتحت مصر ،

وهي الأمة المجهولة الأصل والنسب ، التي عرفها القدماء باسم الهكسوس ، وترجموا هذا الاسم بملوك الرعاة .

ومن الصعيد خرج رواد الرهبة الكبرى . من الصعيد خرج الراهب الأول أنبا بولا ، والراهب الأشهر القديس أنطونيوس . وفي الصعيد نشأ أنبا باخوم مؤسس الرهبة الجماعية ، رهبة الشركة [الكنوبيتية] ، وأنبا شنودة ، أصلب الرهبان عوداً وأشدهم نكراً على الوثنية المصرية وأول من يحمل أمام التاريخ تبعة هدم الآثار المصرية القديمة .

والتف حول حركة الرهبة آلاف من المصريين ، لم يكونوا كلهم من القديسين ، ولا حتى من الصلاح . فقد اندس في حشود الرهبان الوريين غير قليل من الهاربين من وجه القانون ، عادلاً أو ظالماً ، لسبب أو لآخر ؛ وكلمة الهروب من القانون بمعناها في ذلك الزمان ، تدل في غالب الأمر على روح المقاومة السلبية في الشعب المصري ، عندما يطفح كيل الغاصب المحتل وأعوانه من جامعي الضرائب ورؤساء الجند القدمين . وقد سبقت الإشارة إلى البطريك دنيس ، الذي حزب أمره على الاستشهاد مع رعاياه ، ورفضت الرعية أن يضحي بنفسه ، فأجبرته على الاختباء في الصحراء مع رهبانه ، ليقود حركة العصيان ، وينهض رمزاً لحياة الكنيسة ، بالرغم من اضطهادات الإمبراطرة الرومانيات .

في هذا العهد الأول للمسيحية تأسس الدير الأبيض قرب سوهاج ، وتجمع الرهبان في وادي النطرون بشقه الجنوبي حيث دير السريان ودير أنبا بشوى حالا ، وشقه الشمالى في برية شحات [الاسقيط] .

وذاع أمر هذه الحركة في أرجاء المسيحية ، فوفد على مصر المعجبون بهذا التجرد والقنوت . جاءوا على حس العجائب التي تتم على أيدي النساك ، وقصص التهجد وتقتيل الجسد . وفدوا على مصر من سوريا والقسطنطينية وروما وبلاد الغال وإسبانيا ، ليروا بأعينهم ، ويتحدثوا بألسنتهم وفي رسائلهم ، عما يشهدون ، وليتبركوا بأبطال «الرياضة الروحية» . وعادوا إلى بلادهم ممثلين إعجاباً بما رأوا ، ووضعوا أسس الرهبة الأوروبية والأسبورية ، بعد أن ترجموا إلى اللاتينية والسريانية دستور رهبة الشركة الذي وضعه أنبا باخوم . وكان من كبار الرحالة الرومانيين

كاسيانوس وبلاديوس والعلامة هيرونيوموس [القديس جيروم] والراهبة أوتيريا ،
والسيدة النبيلة ميلانيا .

وكان بابا الكرازة المرقسية يعتبر هؤلاء الرهبان جيشه الروحي والمادى . فإذا سافر
إلى المجامع العدة ، التى كانت تعقد غالباً فى آسيا الصغرى بأمر إمبراطور بيزنطة ،
للتداول فى شأن فقه الديانة المسيحية وأركان عقيدتها ، حاط نفسه بجموع الرهبان
الصاخبة ، يعاونهم نوع من « الصبوات » الدينين يعرفون باسم « البارابولاني » ؛
ووظيفة أولئك الرهبان والصبوات تشبه ما عرفناه فى عصرنا باسم « المظاهرات » ،
وجموع « المتأفة » . لم يكونوا يعنون ، ولا كانوا يفقهون شيئاً من المساجلات
البيزنطية الطويلة ، التى كانت تجرى فى تلك المجامع حول طبيعة المسيح ؛ إلهية
خالصة هى ، أم إنسانية إلهية ، أم إنسانية فحسب . إنما هم سافروا بطانة لبابا
الإسكندرية ، مؤيدين لزعم الوطنية المصرية ، « بلدّيّاتهم » كيرلس أو أثناسيوس ،
أو من يكون ، لأن ما يقوله داخل الجمع هو الحق ، ولا يعرفون حقاً غير ما يقوله
رئيسهم الروحي و « رمز أمانيتهم » .

هؤلاء الرهبان والصبوات هم الذين أطلقهم كيرلس على يهود الإسكندرية ،
تلك الجالية الثرية المرفهة ، الوثيقة الصلة بالموظفين الرومان ، تعرف الطريق إلى
اجتذاب عطفهم بشتى وسائل الإغراء من إطعام الفم وملء الجيوب ، على حساب
أهل البلاد . فلم تغرب شمس النهار حتى أجلاهم الرهبان و « الصبوات » المصريون
عن أحيائهم الكبرى إلى أرباض المدينة .

وهم هم الذين حقدوا على هيبارسيا الجميلة العاقلة ، ابنة الفيلسوف ثيون ،
وأستاذة الرياضيات والفلك بجامعة الإسكندرية الوثنية . فتربصوا بها ذات يوم ،
وهى خارجة من قاعات الدرس ، وانتزعوها من فوق عربتها ، وسحبوها إلى صحن
الكنيسة حيث جردوها من ثيابها ورجموها ثم قطعوها إرباً إرباً وأحرقوها .

إن المسيحية ، التى وجدت فى أمثال أكلمينضس وأوريغانوس رجالاً متفقيهاً
بالفلسفة الهلينية ، لم تعش طويلاً فى مصر ، بسبب قوة اندفاع القومية المصرية ضد
كل دخيل ، وضد كل ما يمثله هذا الدخيل ، فلسفة أو غير فلسفة .

لم تهدأ حفيظة المصريين على المحتلين بعد أن اعتنق إمبراطورة روما وبيزنطة

ديانة الناصري ، ولم يطفى لظى كرههم للإمبراطور الجالس على ضفاف القرن الذهبي تحوله إلى المسيحية . فما كان أسرعهم إلى الاستئثار بمذهب مسيحي يخالف مذهب الإمبراطور البيزنطي . فإذا اتجهت القسطنطينية إلى الهرطقة الأريوسية ، قامت مصر تناهض الأريوسية ، وحيناً نادى مسيحية الروم بازواج طبيعة المسيح ، أعلنت الكنيسة المصرية ، وتمسكت إلى يومنا هذا ، بعقيدة الطبيعة الواحدة [المونوفيزية] . فلا عجب أن عانى أقباط مصر من اضطهاد أهل ملتهم البيزنطيين ، أشد بكثير مما لاقوه على أيدي الوثنيين .

وليس بيسير على كاتب هذه السطور ، وقد نشأ مسلماً في بيئة إسلامية صحيحة ، أن يفهم فيشرح أسس الخلاف الذي نشب في الكنيسة إبان القرن الخامس ؛ وقد حاول في الفصل السابق أن يوضح بشئ من التفصيل هذا الخلاف . وغاية ما وسعه فهمه هو اختلاف اللاهوتيين في تعريف تجسد كلمة الآب في صورة يسوع . لأنه وقد ظهر بين الناس بشراً سوياً ، أليس في هذا الدليل على أن طبيعته من طبيعة البشر ؟

ولكن المسيحيين آمنوا بالطبيعة الإلهية لابن مريم ، بحسبان أنه كلمة الآب . فجاء آريوس ، أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الآب الذي لا شريك له . وبذلك أكد نوعاً من الوجدانية ، ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية . وجاء أعداء آريوس ، والكنيسة المصرية على رأسهم ، فشاحوه ، وأنكروا أى أثر للطبيعة البشرية في المسيح ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح ، وهى الطبيعة الإلهية . وإذا كان المصريون لم ينكروا وجود طبيعتين للمسيح قبل تجسد الكلمة ، فإنهم يقولون بزوال أو انزواء الطبيعة البشرية كلها بعد التجسد . انزوت كما تنزوى نقطة الماء في المحيط ، فهى موجودة وغير موجودة ؛ أما كنيسة بيزنطة فتؤمن بأن للمسيح طبيعتين ، بشرية وإلهية .

كان هذا هو أسس الخلاف والمساجلات والمشاحنات في المجامع ، بين الكنيسة المصرية [المونوفيزية] ، وتسمى عند الكتاب الأجانب باليعقوبية] وبين كنيسة بيزنطة [وتعرف بالملكية] . ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب ، يحمل معنى مناوأة الضعيف للقوى ،

بل هي الظهير الروحي للمقاومة الوطنية . فالمصريون يعارضون بيزنطة ، ويكرهون المحتل ، كما أنهم يعتزون بشخصيتهم وشخصية كرازتهم المرقسية ، ولا يريدون لكنيسة الإسكندرية أن تراجع إلى الصف الثاني خلف بيزنطة ، الأحداث منها مسيحية . فإذا كانت القسطنطينية هي عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية في العالم .

ولكن روما حيث يجلس على كرسى الأسقفية خليفة بطرس الرسول ، تطالب هي أيضاً بزعامة المسكونة ، وتفضل في أسوأ الاحتمالات أن تبقى الزعامة للإسكندرية ، على أن تفوز بها عاصمة الإمبراطورية الشرقية ، لمجرد أنها مقر الإمبراطور البيزنطي . ولقد استفاد بطاركة الإسكندرية من هذا التزاحم على الزعامة بين روما والقسطنطينية ؛ ولعله أطال عمر الزعامة المصرية لكنائس العالم المسيحي في ذلك الوقت . كان البطريرك المصري يدخل المجامع الإكليروسية ، وحوله رهبانه وصبواته ، يملون لإرادتهم على إكليروس بيزنطة . ولقد بلغ من جبروت الأنبا كيرلس الأول ، في مجمع إفسوس عام ٤٣١ م ، أن استطاع ، بحشد رهبانه وصبواته وهتافاتهم ، أن ينزع من المجمع قرار حرم نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية ، وكان بابا روما يلعب من وراء الستار لعبته البارة لضعفة كرسى القسطنطينية .

ولكن بمجرد أن توطد التحالف بين الإمبراطور البيزنطي وبابا روما ، شعر البطريرك ديوسقوروس ، خليفة كيرلس ، بالكرسى البطريركي يميل به ، وذهب إلى مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م ، ورعاياه يصدونه عن السفر ، ويحرضونه على عصيان أمر الإمبراطور بالتوجه إلى خلقدونية . وهناك لم يستطع الرهبان و « الصبوات » شيئاً حيال القوة القاهرة . وحكم المجمع بحرم ديوسقوروس ، وإبعاده عن كرسى الكرازة المرقسية ، كما قرر بالإجماع « أن المسيح والآب من طبيعة واحدة في ألوهيته ، وأن المسيح والبشر من طبيعة واحدة في إنسانيته » . بهذا قضى مجمع خلقدونية المشهور وانفصمت العرا نهائياً بين الكنائس الأوربية ، شرقية وغربية ، وبين الكنيسة المصرية .

يقول كرسنوفر دوسون في كتابه « أصول أوروبا » :

« إن الأزمة الدينية الكبرى في القرن الخامس ترتد في أصولها إلى قلب العالم

الهلينى ذاته بمدينة الإسكندرية ، لأن تقاليد الثقافة الشرقية العريقة عادت إلى الحياة فى صورة من صور المسيحية . لقد احتفظ الشعب المصرى تحت حكم البطالسة والرومان بديانته وحضارته . وبينما كانت الإسكندرية حاضرة التمدن الهلينى اللامعة ، اتصلت أسباب الحياة المصرية القديمة على ضفاف النيل دون تغيير . وبذلك جرى تيار الحضارتين جنباً إلى جنب ، دون أن تختلط مياههما ؛ لأن مصر الألفية احتفظت بطقوسها الدينية . ثم جاءت المسيحية وغيّرت كل هذا ، فانهارت الحواجز الدينية التى تحيط بالشعب المصرى ، حتى وجد نفسه مختلطاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية . ومع ذلك فإن قوة القومية المصرية لم تضعف ، والحضارة اليونانية البيزنطية لم تجد سبيلاً إليها ، بل كان العكس هو الصحيح ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف ، وتبوأّت اللغة القبطية — أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية — مكانها بدل اليونانية ، كما احتلت الكنيسة مكان الديانة الرسمية القديمة فى تمثيلها للقومية المصرية . وبينما قام على رأس الطبقات الحاكمة أسياد أجنبية تبوءوا عرش الفرعون ، فإن التحول إلى المسيحية تبعه تزعم البطريك المصرى للكنيسة المصرية . وكما كانت مصر فى أيام تضعضعها تلقى بمقاليد زعامتها لكبير كهنة آمون — رع فى طيبة ، فإن جميع قوى الوطنية المصرية التفت الآن حول البطريك ، وهو « السيد الأقدس ، البابا والبطريك لمدينة الإسكندرية ، وبلاد لوبيا ، والمدن الخمس الغربية ، وإثيوبيا ، وسائر أرض مصر ، أبو الآباء ، أسقف الأساقفة ، الحواري الثالث عشر ، قاضى العالم » . وكان سلطانه على الكنيسة المصرية سلطاناً مطلقاً ، أقوى بكثير من سلطان البابا على الكنيسة الغربية ولم تكن تقف إزاءه سوى قوة واحدة : هى قوة الرهبان ، الزعماء الطبيعيين للشعب ، إلى درجة تتفوق على زعامة الأساقفة .

« والرهبنة المصرية نتاج أصيل للمسيحية المصرية ، خلاصة مصفاة لفضائل مبدعها ورذائلهم ، فهى تجمع إلى جانب حكمة أنبا مقار أو أنبا باخوم وروحانيتهما ، تعصب الرهبان والصبوات الذين قتلوا هيباسيا ، وأثاروا الاضطرابات الدامية فى شوارع الإسكندرية . وكان هذا التعصب قوةً تُساند البطريك ، الذى وجد فى الرهبان جيشاً عنيفاً جسوراً . فإذا ذهب البطريك إلى مجمع مسكونى ،

اصطحب الرهبان والصبوات « البارابولاني » ، الذين كانوا يؤلفون حرساً يحميه ، ويرهب أعضاء المجمع بهتافاته واعتداءاته . وقد بلغ البطريك المصري من القوة والسؤدد ما جعله يطمع في أن يكون الحاكم الديني المطاع للإمبراطورية الرومانية . ووقف البطريك أثناسيوس وحده ضد الإمبراطور قسطنطيوس الثاني وأساقفته كلهم ؛ ولم يك خلفاؤه مستعدين لقبول زعامة تلك البطريكية الحديثة العهد ، القائمة في القسطنطينية ؛ وانتصرت الإسكندرية مرتين بزعامة بطاركها العظام : تاوفيلوس ، وكيرلس ، عندما أذلت كرسى القسطنطينية ، وكرسى أنطاكية ؛ وفي المرة الثالثة ، بعد الحكم على فلاقيانوس في إفسوس [سنة ٤٤٩] ، حاقت بها الهزيمة عندما اضطرت إلى قطع علاقاتها بروما والغرب ، وكانت روما والغرب يظاهرانها حتى ذلك الحين .

« وفي سنة ٤٥١ م بمدينة خلقدونيا ، تكاثفت قوى روما والقسطنطينية ، برياسة البابا لاون (ليون) والإمبراطور مركيانوس ، لسحق البطريكية المصرية الكبرى التي هيمنت على أقدار الكنيسة الشرقية طوال هذه المدة .

« ومجمع خلقدونيا ، من دون كل المجمع ، يبرز بأهميته الدرامية ، كما يتميز بنتائجه . وقد اجتمعت في كنيسة آيايوفيا بخلقدونيا جميع القوى التي تتنازع العالم المسيحي : قوة الكنيسة المصرية في ناحية ، وقوة الكنيسة الشرقية في ناحية أخرى . وكان أصحاب الفريقين المتنازعين يحتلون جناحي الكنيسة ، كل إلى ناحية من صحنها ، وهم يتبادلون السباب . على حين جلس كبار الإمبراطورية أمام الحاجز الذي يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة ، وإلى جوارهم رسل البابا يتحكمون في الجموع الحاشدة الصاخبة ، وهم جامدون ، يوجهون المناقشة في إصرار نحو اتخاذ قرار نهائي يتفق مع إرادة البابا وإرادة الإمبراطور .

« وهذا القرار لم يتخذ إلا بعد أخذ ورد غاية في العنف ، وبعد أن طالب الرسل البابويون بجوازات سفرهم ، استعداداً لعقد مجمع جديد في الغرب . وسلم الإمبراطور لبلاغهم النهائي ، فوافقت الأغلبية على التعريف الغربي لطبيعة المسيح المزدوجة مجتمعة في جسد واحد .

« وهذا الحل — الذي فرضته إرادة بابا من عظماء البابوات ، وإمبراطور قوى

الشكيمة — لم يكن ليضع نهاية لعناصر الخلف والشقاق بين شعوب الإمبراطورية ، فقد أكد الأساقفة المصريون أنهم لا يجرؤن على العودة إلى بلادهم وهم يحملون خبر عزل البطريك ، خشية أن يمزقهم قومهم شرمزق . ولم يكن تخوفهم مجرد تخيلات ، فقد هاج الشعب الإسكندري وماج في وجه الحامية الإمبراطورية ، وأعمل فيها ذبحاً وتقتيلاً ؛ ولكن الحكومة الإمبراطورية نجحت في فرض بطريك من المذهب الملكي على كرسي الإسكندرية .

« وما إن توفي الإمبراطور ماركيانوس القوى الشكيمة ، حتى هجمت جمهرة الشعب الاسكندري على البطريك الخلقدونى [الملكى] ، ومزقته شرمزق في صحن كنيسته ، وفي يوم الجمعة الحزينة .
« وهكذا ظلت يعقوبية ، أى عقيدة الطبيعة الواحدة ، هى المذهب القومى ، وغدت قوة في يد البطريك المصرى . »

* * *

هذه هى قصة الشعب المصرى فى حقبة من أعقد أحقاب تاريخه . فالمقاومة المصرية لحكم بيزنطة يشتد عضدها ، والتهرب من دفع الضرائب يصبح القاعدة ، وذلك بأن يهجر الناس أرضهم ويدخلوا الأديرة ، أو أن يحتتموا بكبار الملاك القادرين على التخلص من الضرائب. أما الكنيسة فتتمتع بإعفاءات عدة .
وحاول الإمبراطور هرقل ، فى القرن السابع ، مصالحة الكنيسة المصرية ؛ ولم يكن له فى هذه المصالحة فضل ، إنما اضطر إلى المسالمة بعد أن غزا كسرى ولايات الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ، فدخل بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، ومصر سنة ٦١٦ م . وبموت كسرى ، عادت مصر إلى حظيرة بيزنطة ، ورأى الإمبراطور من الحكمة استرضاء المصريين ، فابتدع مذهباً لا يننى ازدواج طبيعة المسيح ، ولكنه يقول « بوحدة مشيئته » ؛ وأوفد إلى مصر البطريك قوروش يبشر بالمذهب الجديد ، ويضم إلى سلطته الروحية السلطة الزمنية .

وهنا يقول ساويرس بن المقفع ، المؤرخ القبطى : « أوفد قوروش إلى مصر بطريكاً ، وحاكماً عاماً . »
وقبل أن تطأ أقدام المقوقس أرض مصر ، اجتمع البطريك القبطى بنيامين ،

بالإكليروس والشعب ، ونظم أمور الكنيسة الوطنية ، وأوحى إلى الجميع « بالمقاومة حتى الموت في سبيل العقيدة » . ثم نرح إلى الصحراء يحتفى بها هو وأساقفته .

وفشل المقوقس في فرض مذهب « المشيئة الواحدة » على الكنيسة المصرية ، فاستعمل وسائل العنف والاضطهاد في عشر السنوات الباقية للحكم البيزنطى في مصر ؛ وكان له المصريون أقذع السباب : فهو ابن الشيطان ، والمسيخ الدجال ؛ وواصل بنيامين قيادة حركة المقاومة من منفاه الصحراوى .

وكانت تلك اللحظة مرصودة في لوح التاريخ للفتح الإسلامى ، بقيادة عمرو ابن العاص . فليس عجيباً ولا مستنكراً ، كما يدعى بعض المؤرخين ، أن يساعد المصريون الفاتح العربى ، وقد جاء ينقذهم من ذلك الاحتلال اليونانى الرومانى الجاثم على صدورهم منذ سبعة قرون ؛ ولم يقدم المصريون المعونة لفرسان العرب فحسب ، بل حارب بعضهم إلى جانبهم . وكان عمرو قائد رجال ، اجتمعت له صفات الجندى العظيم ، والسياسى المحنك ، فأحسن استقبال البطريك بنيامين ، وهو عائد من منفاه . ولدينا شهادة مصرى من عظماء الإكليروس القبطى في ذلك الزمان ، أو بعده بقليل ، وهويوحنا النقيوسى ، قال :

« احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملاً يعاب عليه ، فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة إنشاء الكنيسة الوطنية ، وأديرة وادى النطرون ، ودير أنبا مقار . وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى . »

ملكات ثلاث

أم خليل - بنت الزمار - الصعيدية

كأن تاريخ مصر لا تنقصه الغرائب والأعاجيب ! وليس العجب أن تحكم مصر نساء ، وقد حدث هذا في أكثر من مكان خارج مصر ، ولكن العجب أن تمتاز ثلاث ملكات في تاريخ مصر ، تشتهر إحداهن في التاريخ العام ، وتشتهر الثانية في تاريخ الفراعنة ، وتشتهر الثالثة في تاريخ مصر الإسلامية : كليوباترة ، وحشيسوت ، وشجرة الدر .

فلنبداً مصعدين في التاريخ بالجهة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى مصرية بحياتها وسيرتها ، ولكنها أصلاً مملوكة تركية - أو أرمنية - أهداها الخليفة المستعصم بالله ، آخر بنى العباس في بغداد ، إلى الملك الصالح أيوب .

ثم نثنى بكليوباترة : مصرية المولد والسيرة ، ولكنها مقدونية الأصل من ناحية الأب على الأقل ، لأننا لا نعرف شيئاً عن أصل أمها الراقصة ، عشيقة بطليموس فيلوباتور - فيلوميتور ، المكنى بالزمار . ١

ونختم بالمصرية الصعيدية ، بنت تحوتمس الأول ، أو بنت الإله آمون ، الملكة حشيسوت .

* * *

أم خليل

كانت أم خليل امرأة ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، حتى إنها كانت تدبر الملك في حياة أستاذها الصالح أيوب . وكانت إلى جانب زوجها قبيل المعركة التي كسبها المماليك الصالحية من جيوش فرسان الصليب ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

ومن أعجب أدوارها أن يموت الملك الصالح أيوب على فراشه ، في الوقت الذي تحركت فيه جنود الرى دى فرانس من دمياط إلى شرمساح ، عند مخرج الفرع التنيسى للنيل من فرع دمياط ، وكان هذا الفرع التنيسى يعرف باسم ترعة أشموم [وهو الآن البحر الصغير] . فكان النيل إلى يمين الصليبيين ، وأمامهم بحر أشموم هذا ، ويواجههم في الضفة المقابلة ممالك الصالح الأشاوسة ، يسندون ظهورهم إلى المنصورة الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات إلى الجنوب من مخرج بحر أشموم ، وإلى أسطولهم النيلي . فكان على سان لويس أن يعبر بحر أشموم ، تحت سمع الجيش المصرى وبصره - وهو ما لا يفكر به قائد - لولا أن خائناً اسمه سلامون كشف للصليبيين عن معبرة بالقدم [مخاضة] إلى الجنوب من موقع المصريين ، فتقدم الملك الصليبي إلى هناك ، وأمر رجاله بالعبور ، وعلى رأسهم فرسان الداوية [التامبلييه ، أى فرسان المعبد] .

وما إن بلغ روبر ، كونت أرتوا ، شقيق الملك ، الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، حتى بادر بمفاجأة المعسكر المصرى فاخرقه ، ونفذ إلى المنصورة ، وتعداها حتى بلغ قصر الملك الصالح على الضفة الشرقية للنيل . وقتل في المعركة أتابك العسكر فخر الدين ، وأشبع الصليبيون العسكر المصرى قتلا ، وشرعوا يهجمون على قصر السلطان الأيوبي . ولكن الممالك الصالحية ، وعدتهم عشرة آلاف مقاتل من خيرة المدربين على فنون الحرب ، جمعوا حشودهم قرب القصر ، وقادهم بيبرس البندقدارى في الهجوم على فرسان الصليب ، فارتد هؤلاء إلى المنصورة ، ليجدوا أنفسهم محشورين في حوارى البلدة ، يطاردهم فرسان البندقدارى من وراء ، ويضرب عليهم رماة السهم من الأسطح والطيقان ، فتذهب ريجهم ، ويموت قائدهم كونت أرتوا ، وثلاثمائة من رجاله . ولم ينج في الموقعة من فرسان الداوية سوى خمسة ، وفى الفرسان الصليبيون ، حملة القوس . ويقدر من أبيد من الصليبيين في ذلك اليوم بأكثر من خمسمائة وألف مقاتل . وتقهقرت فلول الجيش الصليبي إلى بحر أشموم من حيث بدعوا ، وهناك التقوا بملكهم لويس ، وكان قد عبر البحر إلى الضفة الجنوبية ، وحارب لويس التاسع في بسالة ، وحاول عسكره العودة إلى معسكرهم بالضفة الشمالية لبحر أشموم ، فغرق منهم جم غفير ، وملاؤا البحر بنخلهم ورجلهم

ما بين غريق وقتيل وجريح . وصمد لويس على رأس الكبرى ، فى حرب الساقة ، والرجال يتناقصون حوله ، حتى انتهى أمره بالتسليم مع من بقى من أمرائه وفرسانه . حدث كل هذا والملك الصالح قد وافاه أجله منذ تقدم فرسان الصليب من دمياط . ولو علم المماليك بموته لانفرط عقدهم وتبلبل أمرهم . ولكن شجرة الدر أخفت خبر موته عن الجميع واستدعت الأمير فخر الدين أتابك العسكر — وهو الذى قاد المعركة وقتل فيها بعد ذلك بقليل — والطواشى جمال الدين محسن من خاصكية السلطان ، واتفقت معهما على إخفاء موت السلطان ، وقيامها بشئون الملك حتى يحضر طورانشاه ، ابن زوجها ، من قلعة كيفا ، على الضفة الغربية لنهر الدجلة ، قرب ديار بكر . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر مجهزة بتوقيع الملك الصالح أيوب ، يزوره على ما يقال سهيل ، خادم السلطان المتوفى .

بهذا تتقدم إلينا شجرة الدر على صفحات التاريخ المصرى .

ولا يعرف لهذه المملوكة الفطنة أصل . قيل إنها تركية وقيل بل أرمنية ، تلقاها الصالح أيوب هدية من الخليفة العباسى ، ثم أحبها فتزوجها بسنة الله ورسوله ، وكانت خير عون له فى أمور الدولة ، بدليل وجودها إلى جانبه أثناء الحملة التى قامت لدفع الصليبيين عن الديار المصرية ، ثم رباطة جأشها بعد موته ، وتحايلها فى إخفاء الحادث الجلل . فكان أكل السلطان المتوفى يدخل إليه فى « فراش مرضه » ، على أن به وعكة ، وتقوم هى مقامه فى استقبال رجال الدولة من خلف ستار . بهذا كسبت هى موقعة المنصورة ، أو موقعة أشموم ، وأبقت على كيان الدولة الأيوبية حتى عاد ابن زوجها طورانشاه من بلاد الرافدين ، فسلمته مقاليد الأمور ، وأشرف على شئون الحرب بنفسه ، ودبر خطة نقل قطع المراكب مفككة على ظهور الإبل إلى شاطئ النيل ، شالى الأسطول الفرنسى الراسى بدمياط . وركبت قطع السفن هناك ، وكبس رجالها على الأسطول الصليبي ، فأسروا منه ثلاثين سفينة . وبذلك قطعت خطوط تموين لويس التاسع . فلا هو فى قوة يقتحم بها أعداءه ليلغ القاهرة ، ولا هو ممون من قواعده . وأخذ فى التفهقر شمالا ، كما ذكرنا ، ومماليك الصالح تتعقبه ، وتدير التقتيل فى رجاله المهزمين ، حتى بلغوا فارسكور ، حيث أيد جيش الصليب ما بين مقتول ومأسور ، وكان الملك على

رأس الأسرى ؛ ولم ينقذه ، وأمراءه ، من القتل إلا عقل شجرة الدر وحسن تدبيرها ، عندما قبلت افتدائهم بمال له صورة .

ولم يفلح طورانشاه ، برغم انتصاره ، في اجتذاب ممالك الصالح إليه ، لأنه عاد من « كيفا » محفوفاً بماليكه وخاصكيته ، يحلهم محل ممالك أبيه في مناصب الدولة ، ويضمّر للممالك الصالحية ما يضمّر من الغدر ، ثم هو يضيق على شجرة الدر ويتوعدها لتقر له بمال أبيه ، وهى ترفض ، حتى عيل صبرها وصبر ممالك زوجها ، فأرسلت إليهم من يقول : « اقتلوا طورانشاه ، وعلى رضاكم » ؛ فتولى أمراؤهم قتل آخر الأيوبيين — فيما عدا خرافة أخيرة — بزعامة بيبرس ومعه الأمراء قلاون الصالحى وفارس الدين أقطاي الحمدار وعز الدين إبيك التركمانى وغيرهم .

وبمقتله يبدأ حكم الممالك البحرية ، وكان أول سلاطينهم . . . ذات الحجاب الحميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل (عام ١٢٥٠ م) .
ويقول هنا الأستاذ ستانلى لين — بول ، صديق المصريين ، ومؤرخ عصورهم الوسطى ، ودارس الفن الإسلامى المصرى — وهو لا يتخلى عن نعرته الاستعمارية — « وتكاد تكون شجرة الدر الملكة الوحيدة التى تولت الحكم على بلاد المسلمين قبل إمبراطورة الهند الحالية » . . . أى الملكة فكتوريا !

والحق أن اختيار الممالك لزميلتهم المملوكة سلطاناً عليهم أمر يدعو إلى أشد العجب . لأن السلطان ، إن لم يكن قاضى القضاة ، فهو الرئيس الأعلى للجيش ، والمرأة لاتولى قيادة الجيش ولست أصدق أن إخلاص الممالك الصالحية لأستاذهم الملك الصالح أيوب هو الذى دفعهم إلى الحرص على تولية زوجه ، وأم ولده خليل . فإن من يعرف الممالك فى مستقبل حياتهم بمصر ، ويدرس أحوالهم ، لا يمكن أن يقبل قصة هذا الإخلاص ؛ إنما هى الحكاية القديمة التى عرفناها فى الحرس البريتورى بروما ، وفى حرس الخليفة العباسى من الديلم ، وفى حرس السلطان العثمانى المعروفين بالإنكشارية ؛ وهى أيضاً حكاية الثورات العسكرية فى جمهوريات أميركا اللاتينية ، عندما يعتمد الحكام أولاً وآخرآ على الجند ، دون الشعب .
وقديماً قيل « من يبذر الرياح ، يحصد العاصفة » ، والاعتماد الكلى على الجند ينتهى

بهؤلاء إلى إدراك قوتهم ، فيوجهونها حسب رغباتهم وأهوائهم ، ويولون ويعزلون .
 لعل المملوك الوحيد الذى أخلص للسلطان المتوفى ولأسرته هو زوجه ، وأم ولده
 خليل . فقد حرصت على استدعاء ابن زوجها من قلعة كيفا ليتولى ملك أبيه .
 ولم يرضخ المماليك لهذا إلا محافظة على تماسك الدولة الأيوبية ، وخشيتهم من
 انفضاض سورية عنهم ، ورفض الخليفة العباسى الاعتراف بسلطنتهم . ولما لم يحسن
 طورانشاه معاملتهم - ويمكنك أن تترجم ذلك بأنه لم يخضع لتحكمهم - قتلوه ،
 وحافظوا بعد ذلك على خرافة امتداد الدولة الأيوبية ، أولا بتولية شجرة الدر ،
 ثم بتولية طفل أيوبى إلى جانب عز الدين إيبك التركمانى ، ثانياً سلاطين المماليك
 البحرية بعد شجرة الدر . فالملك لهم فى كل الأحوال . ولقد أيدت الحوادث ذلك
 بتزويجهم شجرة الدر من زميل لهم ، وبإقامة طفل أيوبى لإرضاء سورية وإرضاء
 خليفة بغداد . وتأيد ذلك بحرص شجرة الدر إبان سلطنتها القصيرة على الانتساب
 إلى الملك الصالح ، وتوكيدها هذه الحقيقة فى الأوراق الرسمية ، وهى توقع عليها
 بكلمة « والدة خليل » ، مع أن خليلًا هذا مات طفلاً وشبع موتاً . وسكّنت النقود
 بألقابها الملكية ، هكذا : المستعصمية [أى مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن
 يهبها للصالح] الصالحية [أى مملوكة الصالح أيوب] ، ملكة المسلمين ، والدة الملك
 المنصور [أى ابنها الطفل المتوفى] خليل ، أمير المؤمنين [و خليل هنا تلاعب باللفظ
 فيما بين اسم علم واسم نكرة بمعنى صديق ، تبعاً لقراءة لين - بول] ، والغالب
 أن الكلمة هى أم المؤمنين ، لا أمير المؤمنين .

فكان المماليك يحققون بتولية شجرة الدر غرضين : الاستيلاء على السيادة
 الفعلية ، والتمويه فى الخارج ، وعلى السوريين بخاصة ، بأن الحكم باق فى بيت أيوب .
 تولت شجرة الدر السلطنة ، وأخذت تفرق الوظائف السنية والإقطاعات على
 أمراء المماليك الصالحية ، وأغدقت الرزق والأموال والخيول على صغار المماليك ،
 وأرضت هؤلاء وأولئك بكل ما يمكن .

وكان زملاؤها يقبلون لها الأرض من وراء حجاب ، وقد اتخذت من الأمير
 عز الدين إيبك ساعداً لها فى تدبير أمور المملكة ، ولكنه كان لا يتصرف فى
 الأمور إلا بعد مشورتها .

وكانت تكتب على المراسيم في العلامة بخطها « والدة خليل » ، ويخطب يوم الجمعة باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الحميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . »

ولم يكن كل هذا التحايل ليجدى نفعاً ؛ فالمسلمون خارج مصر — بل ونظن داخل مصر أيضاً — يكرهون أن تتولى أمورهم امرأة . فما أسرع ما خرج أهل سوريا عن طاعتها ، وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي ، صاحب حلب .

وكان من أشد الناس استنكاراً في خارج مصر هو أمير المؤمنين ، الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو جعفر ، فأرسل إلى مصر من يقول للأمرء : « اعلموا ، إن كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ؟ »

وهنا ينقلب ابن إياس الحنفي من التقيض إلى التقيض ، وينسى كل ما قاله ، وسيقوله ، مدحاً في أم خليل ، فلا يكتفى بذكر إنكار الخليفة ذلك على الممالك غاية الإنكار ، وتهديده وأمره لهم بالرجوع عن ذلك ، بل هو يتغنى ببيتين سخيفين من الشعر :

النساء ناقصات عقل ودين ما رأينا هن رأياً سنيا

ولأجل الكمال لم يجع ل الله تعالى من النساء نبيا

ثم يعود بعد ذلك إلى القول بأن شجرة الدر « كانت تدبر أمور المملكة في حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة » . وهنا لنا أن نفهم من موقفه ما نفهم ، وفي رأي أن « القافية حكمت » ، وعنى الله عن ابن إياس الحنفي ، فقد كان يحفظ قدراً من الشعر السمج الدارج ، يدسه على كتابه القيم ، وكان من حسن طالع الكتاب أن رسماً ابن إياس من هذا الشعر ، ومن غيره ، كان ضئيلاً .

أمام تهديد الخليفة — وربما كانت إشارته إلى نقص الرجال أشد نكيراً على

المماليك من التهديد — اضطرت أم خليل إلى أن تخلع نفسها من السلطنة ، لا برضاها من غير كره لها ، كما يقول المتمثل بالشعر السخيف ، فإن القليل الذى نعرفه عن أم خليل ، يبعث على الظن بأن قبول خلع نفسها من السلطنة ، كان أصعب عليها من خلع روحها ؛ ثم تزوجت بالتركماني الذى تولى السلطنة .

وكان هذا — على قول ابن إياس — ابتداء دولة الأتراك بمصر — والأتراك هنا هم المماليك ، أما الأتراك بالمعنى الحديث فكان يسميهم العثمانية أو الروم — فما دامت تولية أم خليل لم تتأيد بمرسوم خليفتي ، فلا بقاء لها في قائمة سلاطين مصر ، هذا إلى أنه يمكن اعتبارها آخر الأيوبيين . كما أنك ستبحث عبثاً عن اسم حتشبسوت في قوائم ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وذلك لأسباب أخرى ، وبرغم أن الزعامة الدينية في آخر الألف الثاني قبل الميلاد قد أقرت فرعنة حتشبسوت ، بل أقرت أكثر من ذلك كما سيجي .

ظلت شجرة الدر صاحبة الكلمة العليا على زوجها ، فهي التى تدبر أمور المال ، وتحكم على عقدة الكيس . ويدير عز الدين التركماني أمور العسكر ليرد أطماع الأيوبيين عن مصر ، وليهدئ من ثائرة العرب القاطنين على أطراف وادى النيل ، وقد اجتمعوا على المدعو حصن الدين بن ثعلب ، يزعم أنه من ذرية الإمام على . ويبدو من هذا أن الشيعة لم تفقد الأمل في العودة إلى ملك مصر ، بعد انتهاء دولة الأيوبيين . أو لعل ابن ثعلب هذا ممن ظلوا يطالبون على طوال تاريخ مصر الإسلامية بحق الفتح ، فقد تأمروا على الدولة الطولونية ، وها هم يشورون في بدء دولة المماليك ، حتى تولى فارس الدين أقطاي وغيره من المماليك تأديبهم وإعادةهم إلى نجوعهم مشتى الشمال ، محلولى البرم ، إلى أمد طويل إن شاء الله .

وما من شك في أن عز الدين إيبك كان يود لو استطاع التخلص من ربة شجرة الدر ، لولا أنها تأبى أن تقر على مال الصالح أيوب . ولقد هادنها زماناً ، واحتمل جبروتها زماناً ، على أمل أن تكشف له عن مخبوء الكنوز الأيوبية . بل ذهب إلى حد الرضوخ لها بتطليق زوجه أم ولده المنصور ، فلم يجده ذلك نفعاً ولا شفعاً . وما عثم أن وقع التشاحن والتباغض بين رجل في شرخ شبابه ، وزوجة في

خريف العمر أو في شتائه . ثم حاول الزوج أن يرفه عن نفسه ، ويوسع نطاق سياسته ، فخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصل ، وكان في هذا هلاكه . أقول في خريف العمر أو شتائه ، تقديرًا ؛ لأن مؤرخينا لم يتركوا لنا أثراً يدل على عمر أم خليل ولا على سيمائها . ومخيلتنا نحن المصريين تجعلني أتصور شجرة الدر في أواخر أيامها شبيهة بالجواري الأتراك ، اللاتي كن يخرجن من قصور إسماعيل ليتزوجن بأعيان المصريين . وأغلب من رأيناهن تعدين سن الشباب بزمان طويل ، وكن يحتفظن بمسحة من الجمال ، وبكل ما في طبائعهن من عنجهية . وأذكر في صغرى « جارية بيضاء » ركبت ترام الخليج المصرى ، وأخطأت الاتجاه ، فأصدرت أوامرها إلى الكمسارى ليعكس الترام خط سيره !

وانقضى أمر السلطان المعظم عز الدين إيبك التركمانى مع الجهة الصالحية ، عصمة الدنيا والدين ، بأن انقض عليه خمسة من خدام ذات الستر الحميل ، فقتلوه داخل الحمام ، وقيل بل أعدموه خنقاً . وتقول رواية بأن ذات الحجاب بالخليل أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه حتى فارق الحياة . وقيل — وهو الأقرب إلى المعقول — إن القتلة لما انقضوا عليه أخذ يستغيث بأم خليل ، ويضرع إليها ، وإنها تأثرت بتضرعه ، وطلبت من غلمانها الأشداء أن يتركوه ، ولكنهم لم يستمعوا إليها خوفاً على حياتهم إذا ما بقى في الرجل رمق . وأذيع في صباح اليوم التالى أن السلطان إيبك انتقل إلى الرفيق الأعلى على جناح السرعة ، دون معونة من أحد ؛ فلم يصدق الناس هذا النبأ ، لأن الرجل لم يبد عليه يوماً أنه يتعجل الرحيل إلى . . . هناك !

ولا أحسب شجرة الدر كانت في كامل عقلها عندما دبرت أمر هذه الجريمة ، ولعل لهذا علاقة بسنها المتأخر ، وما يحدث للنساء في ذلك السن من اضطرابات نفسية وعقلية . أنظر إليها وقد قبض عليها ووضعت في الترسيم ، تلازم الصمت المطبق ، وتندق جواهرها وحليها في هون ، لا أدرى من تركه بأيدي تلك المجنونة ! كيف أتصور تلك العاقلة الحازمة ، التى دبرت أمور المملكة على الصورة التى عرفناها ، تقدم على قتل زوجها السلطان هذه القتلة القروية ، وتحسب أنها فى مأمن من اكتشاف أمرها ؟

فما إن يتولى السلطنة ابن إيبك من زوجته الأولى ، حتى يرسل مماليكه إلى القلعة يحققون في مقتلة أبيه ، ويقبضون على الفاعلين ، ويقررونهم ، ولم يكن ذلك ذلك بعسير في زمان التوسيط والسلخ والسلح وما إلى ذلك من فنون التعذيب والقتل . وتعتقل أم خليل في البرج الأحمر بالقلعة ، ثم تقاد إلى « أم على » ضربتها التي طلقها إيبك بناء على أمر المستعصمية الصالحية ، فتأمر جواريتها بضربها بالقباقيب حتى الممات . وكان ذلك في يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الثانى عام ٦٤٨ هـ . وسحبوها من رجلها ورموها فوق السور إلى خندق القلعة وهى عريانة ليس عليها غير اللباس فى وسطها . فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام تلغ فيها الكلاب . وقيل بأن بعض الحرافيش نزل إلى الخندق تحت جناح الليل ، وقطع دكة لباسها ، لأنها كانت من حرير أحمر ، وفيها كرة من لؤلؤ ونافجة مسك . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، حملت فى قفة ، ودفنت فى تربتها المعروفة إلى اليوم عند مدخل قرافة الإمام ، قرب مقام السيدة نفيسة ، بقسم الخليفة بالقاهرة .

* * *

بنت الزمار

كان مشكل شجرة الدر سياسياً عسكرياً ، عندما اضطرت إلى إخفاء موت زوجها الملك الصالح ، إبان معركة كبيرة تعلق بتتائجها أقدار الوطن المصرى . ولم يكن هذا المشكل بأقل أو أكثر من دفع هجوم حملة الصليب الغربيين على الديار المصرية ، فتحوا دمياط وبلغوا المنصورة فى طريقهم إلى القاهرة ؛ ويحدث هذا بعد كل ما صنع رأس الأسرة الأيوبية لتحرير الأراضى المقدسة من عصبة المتعصبين الأوربيين .

أما مشكل كليوباترة فى أول حياتها العامة فكان مشكل وراثة العرش اللاجيدى ، وسيكون لهذا المشكل حساب فى حديثنا عن الملكة حتشبسوت . ومع أن البطالسة ألها زوجاتهم ، وجلست نساء على عرش أبناء لاجوس ، فإن بطليموس الثالث عشر ، الملقب بعازف الناي [أوليتس] أو الزمار ، نص فى وصيته على أن يتولى الملك أكبر

أبنائه ، تشاركه في الحكم وتزوجه كبرى بناته . وكان سن الصبي لا يتعدى ثلاثة عشر عاماً ، والصبيّة تكبره بخمسة أعوام — وهي زيجات ، كما ترى ، من النوع العرفي ، لضرورات سياسية ! — ويعين مجلس أوصياء من مربى الأمراء الطواشي فوتينوس ومن قائد الجيوش أخيلاس ومن أستاذ البلاغة النحرير طيودوت الجنوسى . وهذا الأخير اشتهر في التاريخ بنصيحة مشهورة تقدم بها عندما طلب القائد بومبيوس الكبير الالتجاء إلى صاحب عرش مصر ، بعد هزيمته الماحقة أمام يوليوس قيصر في سهل فارساليا . قال أستاذ الأخلاق : « إذا آويناك أغضبنا يوليوس قيصر وإن صرفناه وارتفع نجمه يوماً ، حل بنا غضب روما . والرأى أن نأويه . . . ونقتله ، فالموتى لا يعضون » ، والجملة في الأصل تلاعب بلفظى الموت والعرض وقد نحاول أن ننقل هذا التلاعب في اللفظ فنقول : « فالصرعى لا يصرعون » أو « فمن عضهم الموت بناه لا يعضون » .

تولى الغلام والبنية عرش مصر في أخرج الظروف . فنجم روما قد بلغ السميت أو قارب ، فهي تهيمن على بلاد شواطئ بحر الروم كلها على وجه التقريب ، وأسماء عظمائها وقوادها ترن كالطبل في العالم القديم : سيلا وماريوس وسبيون الأفريقى وكراسوس وبومبيوس الكبير ويوليوس قيصر .

والمستقبل مظلم أمام الفتاة كليوباترة ، وتدهور الأسرة اللاجيدية أصبح بادياً للعيان ، بعد بطليموس الثالث . وروما تتدخل في شئون دولة البطالسة الداخلية وسياستها الخارجية . فهذا أبو كليوباترة ، بطليموس الزمار ، عاد إلى عرشه بفضل مؤازرة جابنيوس ، حاكم سورية الرومانى ، وصديق بومبيوس الكبير . وكلما خلا عرش البطالسة ، ازدادت روما قرباً من غايتها وتحقيق أطماعها . فهذا بطليموس حمص [لاتيروس] يموت دون وريث ذكر ، فتتولى العرش بريقة الثالثة ، وكان الإسكندريون يحبونها ، ويفضلون أن تبقى دون زواج . ولكن القائد سيلا ، الدكتاتور في روما ، كان يتولى حماية أمير غرّ من أمراء البيت اللاجيدى ، هو ابن بطليموس إسكندر الأول ، فوجد الفرصة مؤاتية ليوفد هذا الغرّ عريساً لبريقة الثالثة . وسافر الفتى إلى الإسكندرية وتزوج ملكة مصر ، وشاركها الملك باسم إسكندر الثانى . . . ثم قتلها في الأسبوع الثالث من الزواج لينفرد بالملك . فانقض الإسكندريون عليه

في الملعب ، وقتلوه انتقاماً لملكهم المحبوبة .
 ويشاع في روما بأن هذا الأحمق السفاح أوصى بمملكته لشعب روما .
 وكانت الإشاعة كافية ليبادر القصر ، ومن ورائه عدو روما متريداتس ، ملك
 البنطس على ضفاف البحر الأسود ، ويولي عرش مصر ابنا غير شرعى لبطليموس
 حمص ، ويزوجون الغلام من أخته كليوباترة الثانية . وكان هذا الغلام هو الذى
 استحق كنية عازف الناي [أوليتس] أو ما أسميه تبسطاً ودعابة بطليموس الزمار .
 فقد كان الولد هاوياً للناي ، واعتبرها الإسكندريون هواية غير جديرة بملك .
 وتوج الزمار في منف طبقاً للطقوس الفرعونية ، وكان ، كجميع أفراد أسرته
 يعنى بالتقليد المصرى في التتويج ، دون إيمان بآلهة المصريين ، ودون حساب لهم .
 وقد عبد الزمار هذا ديونيسيسوس إله الخمر ، حتى لقب بديونيسيسوس الجديد .
 وإذا حق لى أن أتمادى في السخرية ، فإننى أسمى والد كليوباترة ، موضوع هذا
 الحديث ، بطليموس الزمار المحمور .

وطبىعى أن تتوانى روما وتتردد طويلاً قبل الاعتراف بالملك الزمار ، مع أنه بذل
 جهداً كبيراً لتحقيق هذا الاعتراف ، وأرسل ثمانية آلاف فارس من جيشه لمساعدة
 بومبيوس على فتح فلسطين . وسافر الزمار إلى روما ضيفاً على بومبيوس ، فإذا شعب
 الإسكندرية — المتوجس خيفة من عيون روما وهى تزغل نحو مصر — يعزل الزمار ،
 ويولى إحدى بناته ، باسم برنيقة الرابعة ، فيهرول الزمار إلى سورية ، يطلب من
 حاكمها جابنيوس ، صديق بومبيوس ، معاونته على استرداد عرشه ، ويعيده جابنيوس
 إلى العرش ، مقابل دفع الثمن ذهباً رناناً .

ويقتل الزمار ابنته برنيقة الرابعة ، ويتحكم في رقاب الإسكندريين ، وينهب
 ثرواتهم على يد مراب روماني جاء يطالب الملك بديونه ، فأقامه جابياً لخزائنه ،
 يستولى على ما شاء من أموال المصريين . ومات الملك الزمار عام ٥١ ق.م
 مكروهاً محقراً من شعبه .

تلك هى الظروف العسيرة التى تولت فيها كليوباترة عرش مصر بالاشتراك مع
 أخيها الحدث ، تحت وصاية طغمة من الأوغاد ، لاسياسة لهم أكثر من سياسة
 زميلهم أستاذ البلاغة ، الذى يعنى بالحناس أكثر مما يعنى بمبادئ الأخلاق :

« فن عضهم الموت بنابه لا يعضون » . أى أمل لبقاء مصر مستقلة فى هذه الظروف ، وروما تتغزل فى قمح مصر ، وتتلمظ بنبىذ مريوط ، وتحصى السلع الشرقية التى تدخل مصر عن طريق البحر الأحمر ؟

ولا يحفظ استقلال مصر بعض الوقت إلا الحرب الأهلية الضروس ، التى قامت بين أعظم قائدين رومانين : بين بومبيوس قاهر الشرق ، الرجل الذى أضاف إلى أملاك روما ألفا وخمسمائة قرية ومدينة ، واثنى عشر مليوناً من الأنفس ، وبين يوليوس قيصر ، فاتح الغرب : إسبانيا وغاليا وجرمانيا وبريطانيا .

فى عشرين عاماً من هنا ستتحكم روما فى أقدارها ، بعد أن يخلصها يوليوس قيصر من بومبيوس ، ويخلصها بروتوس وكاسيوس ، وأفراد العصابة الديمقراطية ؛ من يوليوس قيصر ، ويخلصها مارك أنطونيوس وأكتافيوس من قتلة يوليوس قيصر ، ثم يقضى أكتافيوس على أنطونيوس . وتتحول روما الجمهورية إلى إمبراطورية يحكمها أكتافيوس باسم أغسطس أكتافيانوس قيصر .

ماذا كانت تستطيعه فتاة جميلة فى السابعة أو الثامنة عشرة ، متزوجة من غلام فى العاشرة أو الثالثة عشرة من عمره ، ويسيطر على ملكها ثلاثة أو أربعة من الأوصياء الأوغاد ، ماذا كانت تستطيعه فى ذلك الصراع العالمى ، مخاض أعظم إمبراطورية فى العالم القديم ؟

كل هذا يجب أن يكون معروفاً تماماً لنفهم كليوباترة ، ونذكر ما صنعتته تلك المرأة الفذة فى سبيل المحافظة على عرشها ، أو كما نقول نفاقاً فى لغتنا الحديثة : الدفاع عن استقلال بلادها .

* * *

أول ما تظهر كليوباترة على صفحات المؤرخ الفنان بلوتارك تبدو فى صورة طريفة ، أبادر بأن أنقلها إليك من صفحاتها الأصلية فى ترجمة حياة يوليوس قيصر؛ قال المؤرخ اليونانى الكبير :

« ويختلف المؤرخون فى أسباب حرب الإسكندرية ؛ فمن قائل إن غرام يوليوس قيصر بكليوباترة دفعه إلى تلك الحرب فأبت سمعته بالخزى ، كما تعرض شخصه للهلاك ؛ ومن قائل إنهم وزراء بطليموس ، وعلى رأسهم الطواشى

فوتينوس ، وهو الذى يحمل أعباء الحكم ، بعد أن أمر بقتل بومبيوس وأقصى كليوباترة عن العرش ، وأخذ يدبر المؤامرات لقيصر ، مما دعا قيصر إلى السهر فى المآدب حرصاً على حياته . . . [ويظهر أن فوتينوس تمادى فى وقاحته يوماً ، فنصح قيصر بأن يفكر بمحاربة أعدائه خارج مصر ، قبل أن يعنى بتسوية الخلافات حول عرش البطالسة . . .] فأجاب قيصر بأنه لا يتلقى نصائح من المصريين ، وأرسل فى طلب كليوباترة [وكانت قد ذهبت إلى سوريا لتطلب معونة من يعيدها إلى عرشها ، ثم وصلت إلى حدود مصر الشرقية] ؛ فسافرت برفقة أبولودورس الصقلى على ظهر سفينة صغيرة وصلت بها تحت القصر الملكى بليل . ولكى تتمكن من الدخول إلى القصر دون أن يراها الحراس [خوفاً من ظفر عدوها فوتينوس بها] ، استخفت فى لفافة ملابس ، ربطها أبولودورس بسير من الجلد وبذلك استطاعت كليوباترة أن تصل إلى قيصر .

« وكان هذا هو الطعم الأول الذى غمزه قيصر ، فقد أعجب بروح كليوباترة وظرفها ، وأجهزت عليه بلطفها ورقة حديثها ؛ فأصلحها على أخيها ، واشترط على الأخ أن يقبلها شريكة له فى العرش . وفى المأدبة التى أقيمت احتفاء بالمصالحة ، عرف حلاق قيصر بتدبير فوتينوس ، مشتركاً مع قائد الجيوش أخيلاس ، للقضاء على قيصر ، فتحذر منهما ثم تخلص من فوتينوس بقتله ، بينما هرب أخيلاس إلى مقر جيوشه ، وأثارها حرباً عواناً على قيصر الذى لم يكن يحكم فى الإسكندرية إلا على جند قليل . وأول خطر أحاط بقيصر كان نقص المياه بسبب قطع المصريين لها عن الجريان فوق السور ، والخطر الثانى كان تهديد المصريين له بأسطولهم المربط بالميناء الشرقى ، مما اضطره إلى إشعال النار فيه ، فاتصلت النار بالترسانة ، ومنها إلى القصر الملكى ، فاحترقت المكتبة الكبرى التى جمعها ملوك مصر . . . »

أعاد يوليوس قيصر كليوباترة إلى عرشها ؛ وكان الأوصياء أقصوها عنه ، فى ظروف غير معروفة تماماً ؛ فسافرت إلى سوريا تحشد جيشاً زحفت به إلى حدود مصر الشرقية ، وكان بطليموس الصغير والأوصياء واقفين لها بالمرصاد عند رأس قاسيوس إلى الشرق من فيلوزيوم [الفرما] ، وهناك وافاهم بومبيوس الكبير عقب اندحاره على يد يوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا ، ولائذاً بحمى بطليموس ،

معتمداً على ما كان له من فضل على أبيه الملك الزمار . ولكن أستاذ البلاغة السفسطائي ، طيودوت ، أشار باستقبال بومبيوس ثم قتله ، معتمداً على أن « من عضهم الموت بنابه لا يعضون . »

وصل قيصر إلى الإسكندرية ليلحق ببومبيوس ، على رأس جحفلين ، وأسرع أستاذ البلاغة لاستقباله ، وقدم له رأس عدوه بومبيوس ، عربوناً على إخلاص المملكة المصرية للمنتصر في معركة فرساليا ، فأشاح يوليوس قيصر بوجهه وبكى ، ثم أقسم لينتقم من قتلة بومبيوس . وبر بقسمه فقتلهم جميعاً ، ما عدا الأستاذ السفسطائي ، الذي تمكن من الهرب ، وجوَّب في الآفاق شريداً طريداً ، حتى قبض عليه مارك بروتوس في آسيا ، وأعدمه بعد أن عذبه عذاباً شديداً .

يحتاز قيصر شوارع الإسكندرية في خيلاء الظافر ، محفوفاً بحرسه الليتورى ، يأمر وينهى كأنه في مدينة محتلة . يقضى بتسريح جيش بطليموس المرابط في فيلوزيوم ، ويستدعى بطليموس الصغير . ولن يخضع الجيش فقد عصى قائده أخيلاس أوامر قيصر . أما فوتينوس رب الحيل ، فسيلبى الطلب ، ويسرع إلى حضرة قيصر ، بصحبة الملك الغلام . وتصل كليوباترة في « بقجة » على الوجه الذى وصفه بلوتارك ، ويقضى قيصر لها بأن تعود إلى عرشها ، بجانب أخيها ، تنفيذاً لوصية أبيهما الزمار .

وتنشب ثورة المصريين حول قيصر ، وتحدث الوقائع المشهورة ، التى ينجو منها بحياته ، إلا أن ثمنها الفادح كان حريق المكتبة العظيمة ، التى تعد أكبر خسارة علمية حلت بمصر ، بل وبالعالم أجمع . وتلحق النجدة بقيصر على أيدي متريداتس أمير برجامة ، والملك أنتيباتر بن هيرودايوس ، ملك اليهودية ؛ فيهزم البرجاميون جيش أخيلاس فى الدلتا ، ويدور قيصر حول بحيرة مريوط ، ليتصل بمتريداتس ، ويقضى على فلول بطليموس الصغير ، الذى يموت فى الموقعة أو يغرق فى النيل (عام ٤٧ ق.م.)

وهنا يتساءل بلوتارك عن أسباب حرب الإسكندرية هذه : أكانت غرام قيصر بكليوباترة ، أم مؤامرات مربى الأمراء الطواشى فوتينوس ، الذى طرد كليوباترة من العرش ؟

أما إن يوليوس قيصر أحب كليوباترة ، فهذا ليس موضوع شك . فقد تلبث طويلاً إلى جانب الملكة الفتاة ، التي لم تبلغ بعد العشرين ربيعاً ، واصطحبها في رحلة سياحية إلى الصعيد ، قضائها معها فيما يشبه شهر العسل . ولم تنكر كليوباترة علاقتها بالدكتاتور الروماني ، فقد سمت الطفل الذي أنجبته منه قيصار يون [أى قويصر] .

أضاع قيصر وقته ، والجيش تحشد ضد روما على ضفاف البوسفور بقيادة الملك فرناس ، وفي إسبانيا وشمال إفريقيا ، حيث يحكم أصدقاء بومبيوس وأعوانه ، بينما شبه الجزيرة الإيطالية مملأى بالمتاعب والاضطرابات ؛ فما أحوج الوطن الروماني إلى قيصر !

ويهب قيصر بعد عودته من رحلة العسل بمصر العليا ، فيسافر إلى البسفور ، وينقض على فرناس في البلقان ، ويقضى عليه في لمح البصر ، ويرسل إلى روما أقصر بلاغ عسكري ، وأبلغ رسالة يقول فيها : « جئت وعانيت وظفرت »

كانت كليوباترة كاعباً لا تقاوم ؛ رآها قيصر في زهرة العمر تخرج رقيقة صغيرة ، من لفافة ملابس ، فأعجب بتلك الغادة الساحرة ؛ وما أظنه إلا وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ، وهو يرى أمامه ملكة مصر ، وريثة عرش البطالسة والفراعنة ، تخرج من بقعة !

كانت في ربيع العمر أشد ما تكون نضارة ، رائعة السناء ، حلوة النغم ، ذكية الطبع ، مشرقة النفس ، متعلمة مثقفة ، ربما كانت الوحيدة من بيت لاجوس التي تحدثت إلى المصريين بلغتهم .

أحبها يوليوس قيصر وهو في قمة مجده ، والمستقبل في روما له . واستضافها في قصره الريفي ، عبر نهر التيبر بضواحي روما ، في العام السادس والأربعين قبل الميلاد لتشهد الاحتفالات الكبرى بانتصاراته في بلاد الغال ، وفي بنطس ، وفي إفريقيا ، وفي مصر . وكانت كليوباترة قذى في عيون الرومان الجمهوريين ، كارهى الملوك . حتى إن سيسرون لم يفتأ يكرر كلما جاء ذكرها « أكره الملكة » ، ونعتها بلينيوس الصغير نعتاً بذيئاً : « ملكة المومس » . ولعل الرومان حملوها تبعة تحول أطماع قائدهم الكبير نحو القضاء على النظام الجمهوري ، بل لقد ذهبوا

إلى أن قيصر يطمح في أن يقيم في روما نظاماً ملكياً من قبيل ما كان يمارسه البطالسة والسلوقيون في مصر والشرق الهلينستي . ثم ألا تكون كليوباترة هي التي أوجت إلى مارك أنطونيوس بتلك الحركة المسرحية في أعياد منتصف فبراير ، « اللوبركالات » ، عندما قدم لقيصر تاجاً ، فصاح الشعب مستنكراً ، وطالب قيصر بأن يرفض هذا الرمز البغيض .

ولبثت كليوباترة في روما سنتين ، أو بضواحيها ، ولم تعد إلا بعد مقتل يوليوس قيصر في أعياد منتصف مارس ، « الإيدات » . عادت وقد شهدت انهيار آمالها في أن تحكم العالم الروماني إلى جانب قيصر .

ويقتسم نفوذ قيصر في روما ، إيان الأعوام الأخيرة من حياة الجمهورية ، اثنان ، وهما اللذان طاردا قتلة قيصر ، ودحراهم في وادي فليبس : الأول أكتافيوس ، ابن بنت أخت يوليوس قيصر ، وقد ورث جده ، وأصبح اسمه كايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، والثاني مارك أنطونيوس ، قائد الفرسان في جحافل يوليوس قيصر . ويعود أكتافيانوس إلى روما يسوس أمور شبه الجزيرة ، ويوزع الأراضي على قدماء المحاربين ؛ ويذهب أنطونيوس إلى الشرق ينظم أحواله ، ويبتز لخزانة روما — ولنفسه — من المال ما تصل إليه أيدي أعوانه .

ولقد أبلغ أنطونيوس عن بعض مواقف الملكة مصر بعد مقتل قيصر ، مما دعاه لأن يرسل في طلبها لتبرئ نفسها مما اتهمت به . ونشك في أن يكون هذا السبب صحيحاً ، وإنما هي حجة القائد المغرور ، زير النساء الذي لا خلاق له ، تذرعه بها ليتصل بعشيقة أستاذه ورئيسه ، يوليوس قيصر .

والملكة المصرية كانت ولا شك تعرف من أمر أنطونيوس الشيء الكثير ، وقد تريثت في الاستجابة إليه ، دون غيرها ممن استدعاهم القائد الروماني ، من حكام آسيا ، ليمتحن إخلاصهم لروما ، ولشخصه . فلم يغضب أنطونيوس من تلكؤها ، وإنما زاد ذلك من ناره ، فأوفد إليها صديقاً يؤكد لها أن سيده لا يريد بها شراً . ولم تكن كليوباترة من السداجة إلى حد أن تخشى على نفسها من شر ذلك الجندي ، الذي زاحمت خمر ياته ومغامراته النسائية ، أعماله العسكرية .

ولعل بلوتارك هو الساذج عندما يقص علينا أن الصديق دليوس ، عندما زار الملكة وسحر بحديثها وجمالها ، أيقن أن أنطونيوس لا يمكن أن يجرح أو يضايق امرأة على هذه الحصال وبهذا القدر والحسن . وما هو ذا الصديق القواد ينصح كليوباترة بأن تذهب إلى مركز قيادة أنطونيوس في أبهى حلة ، مما يضاعف من سحرها ؛ وهو يؤكد لها أن أنطونيوس إنسان يفيض رقة وحناناً ... وكأنه أراد أن يقول لها إن الرجل كله نظر !

ويقول بلوتارك بأن كليوباترة صدقت أقوال دليوس ، وقد خبرت كيف كان تأثيرها على يوليوس قيصر ، وعلى ابن بومبيوس الكبير من قبل ، مع أنهما لم يعرفاها إلا وهي فتاة غرة ؛ أما أنطونيوس فسيرها في السن الذي يتفجر فيه جمال الأنثى ، ويبلغ عقلها كماله وقوته .

وقصة وصول كليوباترة إلى بلاد كليشيا ، وسفرها في نهر الكدنوس على سفينة رائعة البهاء ، قصة مشهورة . وقد بهر الناس عندما رأوها في فلكها المذهب ، ذى الشراع القرمزية والمجاديف الفضية ، تتحرك على إيقاع ألحان الشبابة والنأي والقيثار ، يحف بها أطفال في لباس كيوبيد إله الغرام ، ووصيفات في لبسة المتفضل ، وكأنهن « النرياد والناياد » جنيات الماء ، يمشين في ركاب فينوس ؛ وأعطار الملكة تتضوع على ضفاف الكدنوس ، والبخور يعبق وينطلق إلى اليمين وإلى اليسار من مجامر الذهب والفضة ، حتى ليحسبن الناس أن فينوس تخلق من جديد ، وتخرج من صدقها درة يتيمة ، سويت من زبد البحر الناصع البياض . وبما أن أنطونيوس كان يروق له ، في أعياد انتصاره ، أن يظهر في صورة إله الأحمر ديونسيوس ، فقد قال الناس : هذه فينوس همت للقاء ديونسيوس .

ويمكن تصور بقية الحكاية ، فلم يكن في الأمر كما قلنا تحقيق سياسى ولا مساءلة عسكرية . إنما كان موعد غرام .

يدعوها أنطونيوس ، فترجوه أن يتفضل بقبول دعوتها أولاً . وطار شعاعاً عقل القائد الرومانى وقد رأى في حفلها ما رأى وسمع وشم وذاق وازدرد . فإذا وافته إلى مأدبته ، كان على رأس الساخرين بطهاته وسقاته ومنظمى سمه . وعندما لاحظت كليوباترة أن نكات ذلك العتل الرومانى تنضح بخلافة الجندى ، حذت حذو أسلوبه ،

وسابقته في بذاعاته .

يقول بلوتارك ، كما يقول ديون كاسيوس وغيرهما ، إن جمال كليوباترة لم يكن في ذاته فائقاً عزيز النظر ، وإنما كانت لها جاذبية لا تقاوم ، فحسبها ، وحلو حديثها ، ورقة طبعها ، كانت تسدد كلها سهاماً إلى أم الفؤاد ، كان جرسها كله حنان ، ولسانها آلة موسيقية تلعب على أوتارها لعب صناع ؛ تنطق باللغات الأجنبية نطقاً سليماً ، لم يحوجها شعب من الشعوب التي تعاملها إلى ترجمان ، فكانت تتحدث بلسانهم إلى الإثيوبيين والبيجاويين والعبرانيين والعرب والسوريين والميديين والفرس ، بينما البطالسة كانوا يعانون صعوبة في تعلم لغة المصريين ، ونسى بعضهم لغته الأصلية ، كما نسي بلوتارك أن يقول لنا بأية لغة كان يتحدث هؤلاء إذا كانوا قد جهلوا لغتهم المقدونية . . . ولم يتعلموا لغة المصريين !

استحوذت كليوباترة على قلب أنطونيوس حتى أهمل أمر زوجته الأولى ، فولقيا ، وهي التي كانت تجاهد من أجله في روما ضد أكتافيانوس ، وترك جيوش الفرس تتأهب للهجوم على سورية ؛ وسلم قياده لتلك المرأة تسحبه من أنفه حتى الإسكندرية ، حيث لم يعد للزمن عنده حساب ، وقد ضحى في الفراغ والجلدة والمملذات أعز ما يملك الإنسان ، والسياسي بوجه خاص ، وهو الوقت .

لم تكن كليوباترة تتركه ليلاً ولا نهاراً ؛ يأكلان ويلعبان سوياً ، يخرجان للصيد يداً بيد ، وتحضر معه العرض العسكري .

ومن الدعابات التي يحكيها بلوتارك ، دعابة عملية قامت بها كليوباترة على حساب خبيثها المأخوذ بسحرها . أراد أنطونيوس أن يظهر لها براعته في صيد السمك ، فأوعز إلى بعض الغواصين أن يشبكوا السمك في سنارته ، كلما ألقى بنخبطه إلى الماء . ولم تخف الحيلة على الملكة ، ودبرت له أمراً . . . وإذا مارك أنطونيوس ، ثالث الثلاثة الكبار في روما [التريومفير] يسحب سنارته فتصيد . . . فسيخاً ! يضحك الجلف ، ويقهقه الصحاب وتقول الملكة : « خل عنك يا سيدي القائد ، واترك لنا المحيط والسنار ، نحن الذين نحكم في كائوب وجزيرة الفنار . أما أنت فليبق صيدك الملوك والمداين والأقطار ! » . تقول له ذلك وهي تعلم أن أنطونيوس لم يعد أكثر من فرخ سمك تعلق في شصها ، أو عجل بحر وقع في شراكها .

لم تكن روما لتقف من أمر رجلها الكبير موقفاً سلبياً ؛ فهي تسعى لانتشاله من بين أحضان الساحرة الشرقية . وكان موت زوجته فولفيا — التي قضت نحبها كمنداً فيما بغلب — فرصة انتهزها أولاد الحلال لإصلاح ذات البين ، ووصل ما انقطع بين أكتافيانوس وأنطونيوس . فسعوا لتزويجه من أكتافيا أخت أكتافيانوس . ونجحوا في إبعاد أنطونيوس عن كليوباترة زماناً طويلاً ، ليعيش مع زوجته الرومانية الفاضلة ، ويعنى بشئون الدولة والحرب . ولقد سافر إلى الشرق يستأنف القتال ، واصطحب معه أكتافيا . ولكنه ، عند أول فرصة ، تخلص منها بحجة عدم تعريضها لمتاعب الحملة العسكرية وطار إلى أنطاكية ، حيث وافته كليوباترة ، وكان فراقهما قد امتد إلى نحو ثلاث سنوات .

لا أحسب المدافعين عن كليوباترة — لأن للسيدة الشهيرة أنصاراً معاصرين لنا — بقادرين على نقض حكم التاريخ عليها . فهي إما امرأة تستخدم العلاقات الغرامية لتحقيق أطماعها السياسية ، وذلك يضع قدرها كامرأة ؛ أو أن غرامها بأنطونيوس أعماها عن مصالح الدولة ، فهي ملكة وضيعة .

ولابد أن تكون الحقيقة بين بين — ولم نكتشف هنا شيئاً جديداً فالمسألة كما ترى « فيها قولان » ! — كليوباترة أحبت أنطونيوس حباً جارفاً ، قد يكون شكسبير غير بعيد عن حقيقته في أعظم رواياته الغرامية : « أنطوني وكليوباترة » ، ولكنه كان حب المرأة المدربة « القرارية » ، التي لا تنسى مصالحها في غمار عواطفها . وقد رأت في رجل روما الكبير وسيلتها الوحيدة لإنقاذ مملكتها من براثن روما ، بل لاستعادة مجد العرش المصري . وانقاد الرجل لها ، وراح ينفذ أغراضها ، وقد نبذ العقل والحكمة والوطنية جانبا .

أما أن سياسة كليوباترة نجحت إلى حين ، فالوقائع تثبته . ولفهم ذلك يحسن أن نعرف شيئاً عن سياسة البيت اللاجيدى ، وهي السياسة التي رسمها بطليموس الأول لنفسه ولأحفاده :

يجب على الدولة المصرية أن تحكم البلاد المتاخمة لها حتى تؤمن حدودها . يجب أن تحكم في برقة إلى الغرب ، وفي سورية — بمعناها القديم — أو على الأقل في الجزء الجنوبي منها . يجب التحكم في مجرى النيل الأعلى ، وفي مرافئ البحر

الأحمر ، رأس الخط الملاحي إلى الجنوب وإلى البحر الشرقى الكبير . يجب أن تقوم صلات من نوع ما ، فيها معنى السيطرة ، بين الشاطئ المصرى والبحزر الواقعة فى شرقى بحر الروم : كريت وقبرص ورودرس وأرخييل السكلاده ؛ وبين الشاطئ المصرى والشاطئ الفينيقي وشواطئ آسيا الصغرى ، لأن موانئ تلك الشواطئ هى رأس الطريق البرى عبر آسيا ، لوصول الأفاويه والطيب والغضار والحرير .

ومصر — فى سياسة بطليموس الأول — يجب أن تستعين برعوس الأموال وبالعقول الهلينية ، ويستدعى ذلك ضرورة اجتذاب الإغريق إلى مصر ، والحفاظة على هبة الوطن المصرى فى بلاد اليونان .

ومعنى هذه السياسة ، فى أقلها ، الحيلولة دون قيام دولة عظمى موحدة تتأخم مصر .

ولكن الظروف الدولية تغيرت فى نهاية أسرة اللاجيديين ، وقامت دولة عظمى — روما — لا تتأخم مصر ، ولكنها تستولى على العالم القديم كله ، أو ما يكاد . فإذا تستطيع امرأة وحدها ، أمام هذه الدولة الزاحفة كأنها قوة من قوى الطبيعة ؟ وهل تصورت كليوباترة أن سيطرتها على أنطونيوس — أحد الثلاثة الكبار فى روما ، بل أحد الاثنين لأن ثالثهما لبيدوس أهمل أمره وانتهى بأن لزم بيته وضعيته — يمكن أن تحقق لها بعض ما حفظته فى أسرتها من مبادئ سياسية ؟ كان يجب أن تفهم أن مارك أنطونيوس ليس يوليوس قيصر ، وأن وارث قيصر الفعلى والسياسى ، هو أكتافيانوس ، الرزين الحريص ، الذى يعمل فى تودة ، ويعرف متى يقبع متحفزاً ، ومتى يشب وثباته التى تنقل روما من عهدها الجمهورى (فلم يعد أهلها صالحين للحياة الديمقراطية ، التى تتطلب اول ما تتطلب : الأمانة والنزاهة وإقامة شرعة العدل المطلق بين المحكومين) إلى عهدا الإمبراطورى ، حيث تتركز السلطة فى يد رأس الدولة . وسيرفض أكتافيانوس لقب الملك والعاهل ويكتفى بلقب « Princeps civitatis » ، أى المواطن الأول فى الجمهورية . أما لقب « إمبراطور » فعناه القائد الأعلى للجيش ، وأهم منه لقب « أغسطس » ، أى المعظم . وسيعمل أغسطس قيصر على إقامة السلام الرومانى تحت قيادة روما ، وسوف يعرف حكمه الطويل باسم العهد الأغسطينى .

لم تكن كليوباترة تستطيع الاستحواذ على فلسطين ، لأن ملك اليهودية هيروديوس كان أسبق منها وأقدر على كسب صداقة روما . ولكن أنطونيوس مكنها من إمارة خلقيس ، في شمال سورية ، ومن الشاطئ الفينيقي ، فيما عدا صور وصيدا ، ومن أراضي « بطرا » ، شرق الأردن ، ومن بعض قبرص وكريت ، وبعض شاطئ كليشيا ، الغنية بأخشابها ، وبعض أجزاء من بلاد اليهودية ، مثل منطقة أريحا ، وأشجار بلسمها المشهور ، وبعض أرمينيا وليبيا . وكل هذه الأراضي كانت ثمرة انتصارات قواد روما العظام : سيلا وكراسوس وبومبيوس الكبير .

ولو عرفت كليوباترة أن أنطونيوس ارتكب إداً في حق الجمهورية الرومانية ، عندما تصرف في أملاكها هذا التصرف الأحق ، لوقفت بها أطماعها عند هذا الحد . ولكنها - المرأة - لم ترض بأن تشاركها في أنطونيوس ضرة رومانية ، هي أكتافيا ، أخت الرجل الأول في روما : أكتافيانوس قيصر . ومن هنا كانت لعبتها الخطرة الحمقاء ، التي أضاعت بها كل ما كسبت ، بل كل ما ورثت عن أبيها . فالقطيعة بين أنطونيوس وزوجته أكتافيا نهاية العلاقات بين أكتافيانوس وبينه ، ولا بد أن تنتهي بالحرب بين الاثنين . وروما ظفرت دائماً بأعدائها ، سواء كانوا من الأجانب أو من أبنائها ، حتى لو كان الثائر عليها قائدها العظيم بومبيوس .

وقد حدثت القطيعة النهائية عندما أرسل أنطونيوس ورقة الطلاق للماترونة الرومانية ، فخرجت من منزل زوجها إلى منزل أخيها أكتافيانوس . وتلقت روما هذه الإهانة البالغة صفعة مدوية ، جاءت على إثر عطايا أنطونيوس إلى عشيقته الملكة المصرية ، يقطعها من أملاك روما . ولقد هالتها أخبار حفلة انتصار أنطونيوس ، التي أعلن فيها تقسيم مستعمرات روما في الشرق الأدنى بين عشيقته وأولادها :

ففي ملعب الإسكندرية الكبير أمام كبار رجال الدولة والجيش والشعب ، وعلى مقربة من « السوما » ، قبر الإسكندر ، أقيمت منصة كبيرة من الفضة ، وضع في أعلاها عرشان من ذهب ، جلس عليهما كليوباترة وأنطونيوس ، وفي الدرجة التالية جلس قويسر (قيصاريون) بن يوليوس قيصر من كليوباترة ، وقد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ؛ وتحتة جلس ثلاثة أطفال كليوباترة من

مارك أنطونيوس : التوأمان إسكندر هليوس (شمس) وكليوباترة سلينة (قمر) ، وعمرهما ستة أعوام ؛ ثم آخر العنقود لأنطونيوس ، الطفل بطليموس فيلادلفوس ؛ وعمره سنتان . أما إسكندر شمس فقد ألبس ملابس بلاد ميديا بآسيا الصغرى ، ووضع تاجها السامق فوق رأسه . ولبس الطفل بطليموس ملابس ملوك مقدونيا .

وقام أنطونيوس يخطب - وكان للرجل ملكة خطابية لا تنكر ، إلى جمال رجولته ، وارتفاع قامته - ويعلن إرادته بأن تلقب كليوباترة ، زوجة قيصر العظيم ، ملكة مصر وقبرص وسوريا ، بلقب « ملكة الملوك » (لا الملكات فحسب) . ثم يتجه إلى قويسر ويعلن بأنه الابن « الشرعى » ليوليوس قيصر وكليوباترة ، يشارك أمه الحكم ، ويلقب بملك الملوك . أما إسكندر شمس فيوليه ملكاً على أرمينيا وميديا وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهري السند والفرات ، ومنها مملكة « الفارطيين » (مع ملاحظة أن هذه الأراضى لم تكن قد افتتحت !) . أما الطفل بطليموس فيلادلفوس فقد أقامه ملكاً على سورية ، وعلى كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات ومضيق الدردنيل (أى آسيا الصغرى) . والطفلة كليوباترة قمر وليت عرش ليبيا !

* * *

ذهب الهادى الرزين أكتافيانوس قيصر إلى هيكل « القستا » ، حين عرف بأن أنطونيوس أودع وصيته بين أيدي الراهبات القستالات سدنة المعبد ؛ طالب الكاهنات بها فأجبنه بأن ما ينويه ، من اعتداء صارخ على شرائع روما لن يسمح به . فاقتحم المعبد ، وانتزع وصية أنطونيوس وذهب بها إلى مجلس الشيوخ ، ليمتلى على الملاء . ومع أن شيوخ روما يكرهون هذا التشهير العلنى بدخائل الناس ، وما استودعوه من سر لا يفشى إلا بعد موتهم ، فإن الوصية تكشف عن مخازى تجعلهم ينسون كل شئ سوى أن ابناً كبيراً من أبناء روما ، يوصى بكل شئ لأولاد « الملكة الشرقية الداعرة » ، بل ويوصى ، إذا مات بعيداً عن مصر ، أن ينقل جثمانه ليدفن بالإسكندرية !

لم يبق إلا أن يقوم أكتافيانوس قيصر بأداء وظيفة من وظائفه الكهنوتية هي وظيفة « النفسىال » ، فيتجه حاملاً رمحاً إلى معبد « بللونة » ، إلهة الحرب ، ويجرى

التقليد الروماني العريق في إعلان الحرب ، وهو رمي الرمح فوق عمود قائم أمام المعبد ، يرمز إلى حدود روما . وينضو الشيوخ عنهم « التوجا » ليلبسوا عدة القتال .

على من أعلنت روما الحرب ؟ على كليوباترة ، لا على أنطونيوس ، ولا على جيوشه ورجال أسطوله ، من أبناء روما . وفي ذلك نستبين كنه المدبر الماكر أكتافيانوس : إنه ، فيما يجيء من أحداث الحرب ، وفي مفاوضات التسليم أو السلام ، لن يرد على أنطونيوس ، وإنما على الملكة المصرية ؛ فأنطونيوس لم يعد له وجود شرعى على ظهر الأرض ! أما أتباعه ، فإنهم لم يعلنوا بأنهم أعداء الوطن ، ليترك لهم الباب مفتوحاً ، كي يتخلوا عن زعيمهم الخائن ، ويعودوا إلى رحاب الوطن الروماني .

ويقع الصدام على شاطئ إبيروس من بلاد اليونان ، في اليوم الثاني من شهر سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد ، بين أسطول أنطونيوس وكليوباترة الذي تجمع في خليج يعرف الآن باسم خليج بريثيزا ، وجيوش أنطونيوس المحشودة عند رأس أكتيوم ، وبين أسطول روما بقيادة منشئه البطل أجريبا ، وجيوش روما بقيادة أكتافيانوس ، على الضفة المواجهة لرأس أكتيوم .

وقد اتجه رأى مستشارى أنطونيوس إلى بدء المعركة في البر ، ولكن العدد المتزايد من رجال جيشه ، الذين أخذوا يتخلون عنه ، حدا بأنطونيوس إلى تجنب الحرب على الأرض ، بل وفي البحر ، فقد فكر في أن يهرب بأسطوله وأسطول كليوباترة ، ويترك جيشه البرى لقضائه . ولكن أجريبا ، الواقف له بالمرصاد ، يرغمه على القتال . وتنشب المعركة التاريخية الكبرى ، بين أسطولين متعادلين عدداً ؛ إلا أن أسطول روما كان مدرباً تدريباً خاصاً على سرعة الحركة والالتفاف ، وسفنه كانت أخف مناورة من سفن أنطونيوس .

وفي إبان المعركة — التي لم يشارك فيها أسطول كليوباترة الراسى بخليج بريثيزا — تهب ريح مؤاتية ، فتأمر الملكة المصرية سفنها بالإقلاع ، وتمر بمراكبها الستين وسط المتحاربين ، تلتمس النجاة ، وتتجه إلى شواطئ البلوبونيز ، ومنها إلى الإسكندرية . وما إن يرى أنطونيوس عشيقته تهجره ، حتى يتبعها بسفينته ، ويتخلى عن رجاله في البحر ، كما تخلى عن رجاله في البر عند رأس أكتيوم .

ويستسلم جيش أنطونيوس لأكتافيانوس ، ويدمر أجر يبا أسطول عدو روما .

ونتائج هذه الموقعة المشهورة كان يجب أن يتوقعها العابثون بأقدار الممالك .
فقد انتهت بها ، أو بعدها بعام ، دولة البطالسة ، ودخلت مصر في حوزة الرومان ،
وتحولت للمرة الأولى أو الثانية في تاريخها إلى إقليم أو مقاطعة ، يحكمها موظف
روماني من قبل الإمبراطور . وسوف تجرى عليها العوادي على هذه الوثيرة مرتين
بعد ذلك : بعد الفتح العربي في القرن السابع الميلادي ، وبعد الغزو العثماني في
القرن السادس عشر .

لم يطارد أكتافيانوس أعداءه المهزمين ، بل تركهم يمرحون ، أو بالأولى يعمهون
في ضلاتهم نحو العام . فقد وثق أن لا منجاة لهم بعد الآن . وأرسلوا الرسل يسترحمون
الظافر ؛ فإذا هو يستجيب لكليوباترة وحدها ، ويحيي في نفسها بعض الأمل .
أما أنطونيوس فقد سبق القول بأنه لم يعد له وجود شرعي على ظهر الأرض .
يحيي في كليوباترة بعض الأمل ، أو أنه الأمل الكامل في سحر أنوثتها ، تجربته
مع عظماء روما ، وكان دائماً مضمون المفعول ؟ ومن يكون هذا الأكتافيانوس ،
وما زال في شرح الشباب ، إلى جانب الرجال المحنكين يوليوس قيصر ومارك
أنطونيوس ؟

وأخيراً ينقض أكتافيانوس ، كالقضاء إذا حم على ميناء فيلوزيوم [الفرما] ،
فلا يلقى مقاومة ، ويزحف على الإسكندرية دون هوادة ؛ ويحاول أنطونيوس أن
يقاوم بفرسانه — وهو ضابط الفرسان ! — وبالأسطول المصري ، فيخونه فرسانه ،
ويحبي البحارة المصريين أسطول أكتافيانوس برفع مجاديفهم . عندئذ تتكشف أمام
عيون القائد الروماني المغرور هوة الخيانة ، لا خيانتته هو لروما ، بل خيانة عشيقته
الملكية ! . . . ولكن عيني العاشق لا تريان ، وأذنيه لا تسمعان ، ومشاعره كلها
تكذب ما يدركه العقل . وإذا بواقعة واحدة تحي في نفسه الأمل بأن كليوباترة
مقيمة على عهده : فقد جاءه الخبر من لديها بأنها فارقت الحياة ، في داخل القبر
الواسع ، أو المدفن اللاجيدى الفرعوني الكبير ، الذي أعدته لنفسها ، وكدست
فيه كنوزها !

وكانا قد تعاهدا على الموت سوياً ، فلم يبق أمامه إلا الموت على الطريقة الرومانية . وبينما يعاني سكرات الموت ، يبلغه أن خبر موت كليوباترة سبق أوانه ، فيطلب أن يحمل إليها لموت إلى جانبها ؛ وكان له ما طلب .

كما كان لكليوباترة ما طلبت من أن تلتقي بأكتافيانوس ؛ وتم هذا اللقاء بعد مناورات ومداورات طويلة — ولا نقول مفاوضات — بين ذلك السياسي المراوغ الحذر ، وبين المرأة العبقريّة ، التي هزت العالم الروماني هزاً . كان أكتافيانوس يحرص على شيء واحد ، هو أن يقتادها إلى روما لتسير في موكب انتصاره . وقد أثرت عن كليوباترة كلمة ، كانت تعاود التلغظ بها في إصرار عجيب : « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرني على السير في موكب انتصاره » . لقد شهدت في شبابها موكب انتصار عشيقها يوليوس قيصر ، ورأت أختها وعدوتها أرسنوى تجر أسيرة في ذلك الموكب ، فلن يجرى عليها ذلك أبداً أبداً !

تم اللقاء في قصر الملكة ؛ فقد انتهت المناورات إلى أن رضيت بمغادرة قبرها الكبير ، والعودة إلى القصر ، حيث قام على حراستها إيبيا فروديت ، ينفذ تعليمات أكتافيانوس بأن تعامل كملكة ، تحقق كل رغباتها ، فيما عدا ما يمكنها من الانتحار .

ماذا حدث في هذا اللقاء بين مؤسس الإمبراطورية الرومانية والملكة التي دونخت الرجال بأنوثتها وسحرها وعقلها وجمالها ؟ ماذا كان الحوار بين الملكة الشرقية والإمبراطور الغربي ؟ من يدري ؟ كل ما تركه لنا التاريخ — وقد لا يكون صادقاً — أنه هدأ من روعها وقال لها « سرى عنك ، ولا تخشى أية معاملة عنيفة » . فالتاريخ يتصور الرجل البارد الهادئ ، لا يعني إلا بأمر واحد ، لا ثاني له ، وهو أن يقتاد كليوباترة حية إلى روما ، لتسير في موكب انتصاره . لأن روما ، وعلى رأسها هذا الشاب الذي يحمل على كتفيه أقدار العالم القديم ، وفي رأسه عقل السياسي الحكيم ، تريد أن تشفى غليل حقدتها على المرأة التي استأسرت بلب رجلها الأعظم يوليوس قيصر ، ونزلت بقدر قائد من كبار قوادها ، وقنصل من قناصلها ، وأحد « التريومفير » ، إلى وهدة الخيانة الوطنية .

وعندما تأكدت كليوباترة من أن مراوغات أكتافيانوس ، ولطفه معها ، لا تهدف إلا إلى إذلالها في موكب النصر بروما ، قررت أن تموت ، ولجأت إلى حيلة بسيطة ، وهي أن يفهم الجميع بأنها راضية ، وأنها تعد نفسها للسفر مع أكتافيانوس وجعلت تختار الهدايا التي ستقدمها إلى ليثيا زوجة أكتافيانوس ، وإلى أوكتاڤيا أخته ، مطلقة أنطونيوس . وذهبت لزيارة قبر حبيبها أنطونيوس لتودعه « قبل سفرها » . كل ذلك خدع حارسها إيبأفروديت ، مما سهل لها الحصول على السم الذي أنهى به حياتها .

وذات يوم نادى على حارسها هذا — وهو موقن باستسلامها — وأعطته رسالة عاجلة إلى أكتافيانوس ، وما إن أدار الرجل ظهره ، حتى أوصدت الباب عليها وعلى وصيفتي الشرف إراس وكارميون .

فتح أكتافيانوس رسالة كليوباترة ، وفهم من أول كلماتها ما حدث : إنها ترجوه أن يوسدها القبر إلى جانب مارك أنطونيوس !

وهرب الجميع إلى القصر ، ليروا الملكة كليوباترة ، بنت بطليموس الثالث عشر ، الملقب فيلوباطور — فيلوميتور ، التي شغلت حياتها العالم الروماني ، وأقضت مضاجع عظمائه ، كليوباترة آخر سلسلة الملوك المستقلين الذين تولوا حكم مصر منذ مينا ، رأس الأسرة الفرعونية الأولى في الدولة القديمة ، كليوباترة الساحرة الجميلة الذكية ، معشوقة يوليوس قيصر ، وحبيبة مارك أنطونيوس ، هرب الجميع ليروا كليوباترة ممددة على سريرها ، في أبهى زينة ملكية ، فاقدة الحس والحركة ، وإلى جانب سريرها سقطت الفتاتان كارميون وإراس ، وثلاثهن فارقت الحياة ، كما قرر الأطباء الذين استدعاهم أكتافيانوس توجاً . وقيل بأن ضابطاً رومانياً اقترب من الوصيصة كارميون ، وهي في الرق الأخير ، وقال لها : « ما هذا الصنيع ؟ » فأجابته الفتاة : « خير صنيع ، والأجدر بملكة انحدرت من صلب كل أولئك الملوك ! » . وقد التجأ الإمبراطور إلى الحواة المشهورين في مصر القديمة باسم « بسللوس » ، ليمصوا السم من جرح بذراع كليوباترة ، وقيل بل فوق صدرها ، ولكن كليوباترة أفلتت من أيدي أسرها الروماني ، و « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرني على السير في موكب انتصاره . »

أما إن كليوباترة ماتت مسمومة ، فهذا ما لا ينقضه شك . ولست مستعداً لتصديق حكاية الصل [كوبرا = Naja haje] الذى أدخل عليها مختبأ فى سلة تين ، وأنها مدت يدها ودستها بين التين ، ليعضها ذلك الصل الأنيس ، الذى يقضى عطلته السنوية مكعكا بين حبات التين ! وكأنه على ميعاد مع ثلاث غانيات يعضّ أولاهن . . . برفق . . . ، ثم يخرج متثاقلا لينفث سمه فى رفيقتها . لكنها حكاية رومانتيكية تنفع المخرجين السينمائيين ، كما انتفع بها أكتافيانوس فى موكب انتصاره بروما ؛ فقد سحب خلفه تمثالا يصور ملكة مصر ، ممددة على سريرها يلتف حول ذراعها صل قاتل .

وكليوباترة تستحق منا كلمة رثاء ، كامرأة رائعة البهاء ، وملكة استردت كل حقوقها الملكية ، ووسعت رقعة ملكها ، عن طريق أنوثتها وألمعيتها وجمالها . وكان المؤرخ طارن ، وهو على رأس الثقافات فى تاريخ الحضارة الهلينستية ، يعتبرها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر ، وقال فيها قالتة المشهورة : « كانت روما فى زمانها ، وهى التى لم تخش أمة ولا شعباً ، تهاب شخصين ، أحدهما هانيبال — هانيبال ، وكان الثانى . . . امرأة ! » .

أما مارك أنطونيوس فحسبه أن يذكر فى عداد . . . شهداء الغرام .

* * *

الصعيدية

أضاعت بنت الزمار عرش البطالسة واستقلال مصر ؛ وحفظت أم خليل الملك ، الذى ورثته عن آل أيوب ، لحشداشيتها . كانت كليوباترة آخر ملوك البطالسة ، وكانت شجرة الدر أول سلاطين المماليك . أما ثلاثة الملكات ، فلم تختم على خيبة أسرة ملكية ، ولم تفتح الطريق لأسرة ملكية ، وإنما قامت فى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بشخصيتها الفارعة ، وسط صف من الملوك العظام : أسرة تحوتمس وأمنحوتب ، والثائر آخيناتون ، والملك الصغير المرتد توت عنخ آمون .

ثلاثة ملكاتنا مصرية صعيدية ، وكانت أعظمهن شخصية وقدرأ . فالجرب التى مارسها لم تكن حرب فتوح ، ولا حرب دفاع . ولكنها كانت حرب امرأة

تطالب بحقها في العرش — مثل كليوباترة — وتحصل عليه ، ثم تطلب شيئاً لم تفكر به كليوباترة ولا شجرة الدر ، وهو مساواتها بالرجال : فتسوى بالرجال ، لا لترفس وتنطح ، بل لتعمل من أجل السلام ، وتمارس المهنة المصرية القديمة : صناعة الحضارة !

في حفلة الملعب الإسكندري ، أطلق زير النساء الروماني على عشيقته المقدونية لقب « ملكة الملوك » — لا الملكات — ، ولكن ملكة الملوك حقاً ، كانت حثشبسوت . لأن كليوباترة — مثل شجرة الدر — كانت ، قبل كل شيء ، امرأة ؛ لها كل صفات الأنثى من قوة محركها الضعيف ، وسيطرة عن طريق اللعب بالعواطف ، واستغلال حب الرجال ، ومن قدرة على حبك المؤامرات والحيل . كانت حياة كليوباترة سلسلة من المغامرات ، تختلط فيها السياسة بالعاطفة . فعلاقتها الغرامية — أو على الأقل ما حفظه التاريخ منها — كانت ذات هدف سياسي ، سواء عشقت ابن بومبيوس الكبير ، أو انطوت وتكورت في أحضان قيصر ، أو فتحت صدرها للبض ليغوص فيه رأس أنطونيوس ، ولكنها ، وقد قاربت الأربعين ، جربت أخيراً حظ كاليبسو من تليماك ، وعرفت يأس الملكة ديدونة من إخضاع إنياس ، فجرى عليها مع أكتافيانوس ما جرى على ملكة قرطاجة مع بطل الإنياذة . وآثرت الموت على الحياة عندما تحققت من بطلان سحرها .

وشجرة الدر ، كانت حياتها هي أيضاً حياة أنثى ، ولكن في الحلال ، ووراء أستار « البردة » . حكمت على بعلها التركماني إيبك بتطليق ضرته أم ولده . فنفذ حكمها صاغراً . وعندما تحققت بطلان سحرها ، أو عصيان أوامرها ، وسار عز الدين إيبك في إجراءات الخطبة لمصاهرة صاحب حلب ، دبرت قتل زوجها شر قتلة ؛ وكانت كذلك الحيات التي يقال إنها تموت إذا ما أفرغت سمها القتال ، ولكن أعداءها لم يمهلوها ، بل سحقوا رأسها بالقباقيب سحقاً ، ورموا جثتها عريانة في خندق القلعة .

أما حثشبسوت فكانت المرأة — الرجل حقاً ، كانت المسترجلة بالمعنى المعاصر ، على الأقل فيما عرفناه عنها ، وحدثتنا به آثارها . ولقد ضحكت سخرية يوم عرفت

أن بعض المؤرخين المحدثين يهتمون صلاتها بمهندستها « سنن - موت » ؛ ذلك لأن الصورة البسيكولوجية التي بقيت لنا عن تلك المرأة الغريبة ، ليس فيها قليل من الأنوثة . ولست أعنى أن عملية جراحية حديثة كانت تحولها إلى رجل ، فإننا نعرف للملكة المصرية بنتين ، والقليل الذى نراه من صورها لا يمكن الاستدلال منه على أكثر من أنها مثلت نفسها فى ملابس الفرعون . ولست أجد فارقاً كبيراً بين تماثلها من حجر الجير الذى استصلحه الأميركان ، والموجود بمتحف المتروبوليتان ، وبين التمثال الرائع لتحتشمس الثالث بالمتحف المصرى . فى التمثالين نرى صورة من صور الشباب ، وقد غطى كل منهما رأسه بذلك الغطاء المصرى الصميم ، الذى يغطى رأس خفرع ، ورأس أبي الهول ؛ وستر كل منهما النصف الأسفل من جسده بالمتزر المصرى القديم . ونرى حتشبسوت على مسئتها الملقاة قرب البحيرة المقدسة بالكرنك ، وهى فى هيئة شاب يافع ، يلبس التاج الأزرق المنتفخ ، يطل منه الصل الملكى فوق الجبهة . وفوق صدرها العقد الملكى ذو السبع « بوردورات » ، أو الستة الصفوف ، وفى خصرها المتزر يغطى ساقها حتى فوق الركبة ، وقد ركعت بين يدي آمون - رع ، وأولته ظهرها ، وإله طيبة يرفع يديه فى حركة من يباركها ، أو ربما فى حركة إلباسها التاج الأزرق . وفى أعلا الصورة ، بالحفر البارز ، رمز السماء بنجومها فى خط مستقيم ، وتحتة نقش اسم « آمون - رع ، رب السموات » ، وقوله : « آتينا ابنتى معا - كا - رع ملك الأرضين ، وتراث آتوم ، عربوناً دائماً على حبي لتلك التى وهبناها الحياة » .

وفى صور أخرى لها ، تظهر بلحيثها المستعارة ، كعادة ملوك الفراعنة ؛ وهى فى جميع صورها تمثل مقلطحة الصدر . وجاء عليها حين رفعت حرف التأنيث من اسمها ، فهى ملك مصر لا ملكته ، وهى الفرعون لا الفرعونة ، وهى حتشبسو لا حتشبسوت . ومن أسف أن لم يعثر على موميائها من بين الموميات التى عثر عليها فى القرن الماضى بقاع بئر عند معبد الدير البحرى .

وحتشبسوت من أهم شخصيات الأسرة الثامنة عشرة ، خلفت لنا آثاراً عظيمة ، من أمثال مسئتى الكرنك : القائمة ، وهى أعلا المسلات بالكرنك ، والنائمة ، ثم المعبد الصغير الأنيق هناك ، المعروف بقاعات الملكة ، وهيكل سفينة آمون ،

(١٣)

والصرح الثامن بالكرنك . ولكن أعظمها معبدها الكبير بالدير البحرى ، « رائعة الروائع » ، وهو من طراز يختلف عن الطراز المعروف فى معابد الدولة الحديثة ، يظهر أنه يستوحى طراز المعبد الجنازى لميتوحتوب ، الذى ما تزال بقاياها المهذمة قائمة بالدير البحرى ، إلى جانب معبد حتشبسوت ؛ والغالب أن كان هذا الطراز سائداً فى الدولة الوسطى .

ومع أن الملكة الصعيدية حكمت أكثر من عشرين عاماً ؛ فإننا لا نجد لاسمها أثراً فى القوائم الملكية المعروفة ؛ ومضى اسمها من الخانات [الحراطيش] الملكية ، وضرب على الخطوط التى تمثل شخصها فى الصور الحائطية .

وحتشبسوت ما زال أمرها لغزاً تاريخياً ، تضارب الأثريون فى طريقة حله ، وذهب العلامة كورت زيته فى التعقيد شوطاً بعيداً ، ليفسّر التسلسل التاريخى فيما بين تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث . ولم يؤخذ برأيه فيما نعلم ، وذهبت تفسيراته إلى غير رجعة . لأن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذا اللف والدوران ، فإن تحوتمس الثانى ، وقد تزوج أخته حتشبسوت ، ترك بعد وفاته ابنتين شرعيتين — أى من أمهات ملكية — وولداً غير شرعى ، أى من زوجة غير ملكية . وقانون الوراثة المصرى كان يعنى بالأمومة [تبعاً للنظام المترياركالى] . ولكن الإمبراطورية التى أسسها تحوتمس الأول بجيوشه حتى نهر الفرات شمالاً ، وإلى الشلال الثالث جنوباً ، كانت بحاجة إلى ملك يقود الجيوش . والغالب أن الحزب العسكرى خشى أن تجلس على العرش امرأة ، فانهى إلى أن يولى هذا الابن غير الشرعى ، وهو تحوتمس (الثالث) ، على أن يتزوج ابنة عمته حتشبسوت زوجة وأخت تحوتمس الثانى ، وابنة تحوتمس الأول . ولتوكيد الحق الإلهى لتحوتمس الثالث أشار فى آثاره — عندما بلغ مبلغ الرجال ، وتولى الملك وحده ، بعد موت حتشبسوت — إلى أن الرب آمون بذاته هو الذى اختاره لعرش آبائه . فتقول النقوش التى وجدت بالكرنك بأن تحوتمس هذا ، وهو الابن غير الملكى ، كان يدرس استعداداً لتولى وظيفة كهنوتية بمعبد آمون ، وأنه فى خلال حفل دينى ، وقد حمل الكهنة تمثال آمون من قدس الأقداس ، فتجول التمثال المحمول هنا وهناك وكأنه ينشد ضلّته — على طريقة النعش فى عصرنا حين يطير بميته ! — ثم وقف فى مواجهة الشاب تحوتمس ،

بمكان يعرف بموقف الملك ، وبذلك أعلن آمون عن فرحته بابنه ، وفي هذا يقول تحوتمس الثالث :

« لقد فتح لي أبواب السماء ، فتح لي مغاليق أفق رع [أى قدس الأقداس] ، فاندفعت طائراً كالباشق الإلهي ، أتأمل كيانه في كبد السماء ، وصليت لجلالة الرب ، ورأيت في مسار الأفلاك وجه ذى الجلال والإكرام . لقد ولاني رع بنفسه ، وتوجني بالتيجان المرفوعة على رأسه ، وعقد الصل الملكي على جبيني . . . وتلقيت عنه مراسم الألوهية ، ووضع لي الأسماء الملكية العظيمة . »

ولما كان تحوتمس عند توليته التي يشير إليها حدثاً متزوجاً من طفلة — ابنة حتشبسوت — فقد اضطلعت عمته وحماته هذه بشئون الحكم ، كوصية على تحوتمس الثالث ؛ ثم أزاحت الغلام ، وتولت الملك حوالي اثنين وعشرين عاماً [١٥٠٥ حتى ١٤٨٣ ق . م .]

وتصف نقوش معاصرة الموقف عند موت تحوتمس الثاني على الوجه التالي :

« وصعد الملك إلى السماء ليدرج في عداد الآلهة ، وتولى ابنه [أى تحوتمس الثالث] مكانه ملكاً على الأرضين ، وجلس على عرش من أنجبه . وساست حتشبسوت ، ابنة الرب ، أمور الدولة حسب ما رسمت ، وأحنت مصر رأسها تعمل من أجلها ، تلك النطفة من صلب الرب . لقد كانت حتشبسوت الحبل الذي تعتصم به مصر السفلى ، والعماد الذي تعتمد عليه مصر العليا . وكانت الدفة المستقيمة للدلتا ، والسيدة التي تدبر الخطط ، وتصدر الأوامر ، فينزل السلام على وجه الأرض . »

وليس معروفاً ما جرى لتحوتمس الصغير [الثالث] أيام استيلاء حتشبسوت على العرش . فاسمه يظهر في النقوش خلف اسم عمته في أول الأمر ، ثم ما يلبث أن يختفي هذا الاسم طوال حكم عمته ، حتى يتولى الملك وحده ، بعد موت الملكة المعظمة نفسها . ولا يمكن أن نتصور أن هذا الشاب — الذي سيصبح أعظم ملوك مصر قاطبة — راضياً بأن يهمل هذا الإهمال الطويل . فهل كان معتقلاً أم كان هارباً ؟ من يدرينا ؟ إنما نحن نفهم لماذا يحرص بعد موت عمته على أن يدق ويضرب ويمحو اسم الملكة حتشبسوت ورسمها أينما كان . فلم يكن الأمر مجرد إبعاد اسم حتشبسوت من القوائم الملكية لأنها امرأة ، وقد حكمت مصر القديمة ملكات

مشهورات ، وإنما كان عملاً مسوماً بالتشنى والغضب . وقد سبق القول بأن الحب الذى استخلصت منه موميات ملوك الأسرة وكثير غيرهم ، لم يكشف عن مومياء حتشبسوت ؛ فهل جرى التشنى أيضاً على جثمان الملكة ؟

ثم كيف استطاعت الملكة الاستئثار بالحكم إلا أن تستند إلى قوة حزب معين ؟ ونحن نعرف أسماء زعماء ذلك الحزب الذى آزرها ؛ وأول هذه الأسماء « سنن- موت » ، الوزير والمعماري الكبير ، ثم « هابو- سنيب » كبير الكهان ، ثم حامل الأختام « نه- سي » ، فوزير الخزانة « بيت الذهب والفضة » ، توتى . حزب الملكة إذن هو حزب آمون الإله الأعظم . وكان كبير كهنته ، « هابو- سنيب » ، يجمع في يديه السلطتين الروحية والزمنية ، لأنه كان رئيس وزراء الملكة . ومن هنا يمكن أن ندرك ما بلغته الرئاسة الدينية في الدولة الحديثة من سؤدد ؛ والأوج الذى ارتفع إليه آمون- رع وسدنته .

وتعلن الملكة ، على جدران معبدها بالدير البحرى ، إخلاصها لربها ، وأنها فى سبيل آمون أوفدت ، تحت إمرة « نه- سي » ، بعثتها التجارية إلى بلاد « بونت » ، وعادت بأشجار العطر والبخور وكثير غير ذلك من منتجات الجنوب : « وهذه هى المرة الأولى تقدم فيها تلك الأعطار الثقيلة لآمون ، ومعها عجائب البونت وغرائبها . وأعدت جلالتها بنفسها عطراً شديداً ، ضمخت به جسد الرب ، فتضوع كما يتضوع الندى الإلهى . . . وانتشر أريجها فى الأقطار والآفاق حتى بلاد « البونت » ، وتوهجت بشرة الإله ، وكأنها عجنت بالنضار ، وتألفت طلعتة كأنها النجوم النيرات . »

ولا تفتأ حتشبسوت تؤيد حقوقها الملكية على جدران معبدها الكبير بالدير البحرى ، وفى لهجتها تحد لا يخفى . فهى تؤكد أن أباه ، تحوتمس الأول ، هو الذى اختارها وأعددها لتتولى العرش ، وأن الآلهة أمنت على اختياره .

ثم تذهب إلى أبعد من كل هذا ، فتدعى بأن أباه الحقيقى كان آمون بنفسه ! وترسم على جدران « بهو الميلاد » قصة حمل أمها بها وولادتها ، فتعلن على رموس الأشهاد أسرار ميلادها الإلهى ، الذى يثبت حقاً لها لا ينزع . وإعلانها هذا ليس فيه من جديد على الملكية المصرية ، مذ تولى الملك ، قبل عهد الأسرات ، آلهة

وأنصاف آلهة استخلفوا على عرش مصر ملوكاً في صورة الآدميين ، كانوا أبناء رع ، وأبناء أوزيريس ، وكل منهم في ذاته هوروس المتجسد . بيد أن قصة ميلاد حتشبسوت تتخذ هنا صيغة مادية ، تصور لأول مرة على جدران « رائعة الروائع » ، معبد الدير البحري .

كانت حتشبسوت قبل ذاك تدعى فقط « السيدة الملكية العظيمة » : هورت [صيغة المؤنث لهورس] ورعت [صيغة المؤنث] لرع ، ولكنها ، فيما بعد ، بدأت تمثل نفسها في هيئة الرجل ، بالمتزر القصير واللحية القصيرة ، ويتحول اسمها المؤنث ، حتشبسوت ، إلى المذكر حتشبسو ، ومعناه « أول النبلاء » وكان قبلاً « أولى النبيلات » . ثم تصور بالحفر البارز سلسلة من النقوش تمثل ميلادها الإلهي وسلسلة أخرى تمثل تنويرها .

فأبوها الفعلي ، آمون - رع ، يجتمع في الصور بأماها الإنسانية أحماسي يجلس الإله آمون - رع في مواجهة الملكة أحماسي على سرير له رأس أسد ، وأرجله مخالب أسد . وتلتف الساق بالساق في حماية إلهة السماء « نيت » ، وإلهة أخرى : « سلجت » . ويحف بالرسم نص شعري لا يدع مجالاً للشك في طبيعة الاتصال بين الرب والملكة أحماسي :

« هذا ما يقوله رب الأرباب آمون - رع ، عندما تمثل لها بشراً سوياً ، وتقمص صورة ملك الجنوب وملك الشمال : تحوتمس الأول . دخل على الملكة وهي تضطجع في خدرها بالقصر الجميل ، فأفاقت لنفسها على أريج الإله ، وعقدت الدهشة لسانها لمراى جلالته يتجه إليها ، ويجتمع بها ، ويضع قلبه على قلبها . ثم يعود الرب إلى صورته السماوية ، وهي تتملى من جماله ، وأعطاها ترجف بحبه ، وعير الإله ، وعطر فمه ، يتوضعان بروائح أفاويه الجنوب .

« وهذا ما تقوله الزوجة الملكية أحماسي في حضرة آمون : ما أعظم نفسك ، وأشرف محضرك ، وأنت تجتمع بجلالتي في رقة ، ونذاك يسرى في كل أعضائي ! » وبعد ما ينال ذو الجلال وطره منها ، يقول لها : « سيكون اسم الابنة التي تلدين : " سيدة النبلاء التي من صلب آمون " ؛ وستستوى على العرش ، تنىء بالخير والإسعاد على طول البلاد وعرضها ، فهي من روحي وقلبي ؛ إنها بنت مشيئتي ،

وتاجها هو تاجى ، حتى تحكم الأرضين ، وتقود " كا " وات الناس أجمعين .
 وصور أخرى تمثل « خنوم » ، الرب الفخرفانى ، وهو يسوى على دولابه الصورة
 الدنيوية للطفلة الملكية ولعفريتها — وهو القرين « كا » — وعند ما تحل اللحظة
 المرصودة ، يحىء الملكة أحماسى المخاض ، فإذا الطفلة ، وعفريتها « كا » ،
 يخرجان من تحتها ، فيقبل آمون « الكا » والطفلة ، ويهددهما ، ويعمدهما عماد
 التطهير الأول ، ويعدهما بتولى عرش هوروس ، وذلك بحضرة الآلهة .

وصور ثالثة تمثل ما حدث لحتشبسوت ؛ « البتول الزهراء » ، عندما توجهها
 أبوها الإنسانى ، بمعبد « إيون » ، فى هليوبوليس ، وحشد لها الفرعون الشيخ
 أشراف بلاطه ، وكبار رجال دولته ، وقدم لهم ابنته ، وهو يحملها بين يديه فى
 الحركة التقليدية للحماية :

« هذه هى الطفلة خنوم — آمون — حتشبسوت ، التى تخلفنى ، التى تجلس
 على عرشى ، التى تصدر الأوامر فى كل مكان بالقصر الكبير — فرعاو — إنها
 وايم الحق ، هى التى تسير أقداركم ، وهى التى تسمعون كلامها ، وتصعدون جميعاً
 بأوامرها . من أخلص لها طال بقاؤه ، ومن تقول عليها بسوء فالمنون لا محالة مدركه .
 أقبلاوا سراعاً لتبايعوها أمام الملك ، وقد سمعتم اسم جلالتها ، كما فعلتم باسمى .
 لأن هذه الإلهة ابنة الرب ؛ فالأرباب حراسها على كر الأيام ، الذائدون عنها
 على مر العشى . بهذا قضى سيد الآلهة .

« وسمع الأشراف الملكيون ، فخروا سجداً لكل الآلهة ، ودعوا للملك تحوتمس
 الأول ، وخرجوا مهالين يرقصون فرحاً ويطيرون هناء . ثم سجل التوقيع الملكى
 « نخب » ، الأسماء الملكية لحتشبسوت هكذا : الإله آمون — رع أوصى كتاب
 التوقيع بتأليف الأسماء حسب ما جاء فى النطق الإلهى . »

ثم تقدم الملكة بواسطة الكاهن « أنموتيف » فى « الفرعاو » ، حيث أقيم
 جوسقا العرشين الملكيين ، حتى ترقى عرش مصر العليا ، ثم عرش مصر الدنيا ،
 رمز اتحاد الوجهين . ويدور « الموكب حول السور » ، ذلك الطقس المعروف
 فى أعياد التتويج ، منذ عهد « مينا » ، والكهنة مقنعون برأس الصقر « هوروس » ،
 ورأس الكلب « ست » ، يضعون على جبين الملكة تاج الوجه القبلى المخروطى
 الأبيض ، وتاج الوجه البحرى الأحمر المستدير . وتظهر فى مقدمة الموكب الشعارات

الطوطمية التي نراها في آثار ملك الأسرة الأولى « نعر - مر » .
وتختم الاحتفالات - أو سلسلة التصاوير - بتقديم تحوتمس الأول طفله
الملكية حتشبسوت إلى الثالث الطيبائي المعظم : « آمون - موت - خونسو » ،
فيستقبلها كل منهم ، ويباركها ، بينما يسجل « توت » ، في لوحه المحفوظ ،
اليوبيلات الثلاثينية الكبيرة أي « أعياد سد » في حياة الملكة مستقبلا . ويحرر
صيغة البلاغ الذي يعلن به للتاسوع الأكبر خبر تنويع حتشبسوت . فيغطيها
كل منهم إعلاما بارتقائها إلى المقام الفرعوني ، وهو مرتبة من مراتب الألوهية .
وبهذه النعوت والصور المنقوشة على الدير البحري وغيره ، نعرف أن حتشبسوت
حذقت فنّا اشتهر به فراعنة الدولة الحديثة ، فكانوا أول من عرف الطبل والزمير
والدعاية ، ومارسوها كما لم يمارسها الدكتور يوسف جوبلز ، بعدهم بحوالى أربعة
آلاف سنة !

ولاذ تتولى حتشبسوت العرش المصري - بالقوة أو بالحيلة أو بالطعننة ، لا يهم
- تكرر حياتها لصناعات السلام والحضارة ، وتأمّر بوقف الغزوات والفتوح ،
التي بدأها أسلافها بعد طرد الهكسوس ؛ وتعمّر الدروب إلى المحاجر ، وتوجه
البعثات التجارية إلى البلاد المصاوبة والبعيدة ، على غرار بعثتها إلى بلاد « البونت » ،
وهي المسجلة على حوائط الدير البحري ، تسجيلا رائعا ، ما أحسبه إلا في طريقه
إلى أن تمحوه الحدثان ، كما أخذت تمحو تصاوير مقابر بني حسن ، تقاعسا منا
وإهمالا . وإن إحساس حتشبسوت بوطنها الغالي يظهر من نقش لها تتحدث فيه
بما قامت به من إصلاح وترويم للمعابد التي خربت « منذ قام حكم الأسويين في
أواريس بالدلتا ، وحين قام أولئك الغرباء الرحل بتدمير كل ما بناه السالفون .
لأنهم كانوا في جهالتهم يعمهون ، كفروا بالرب رع ، والإله آمون . ولم يحى لتنفيذ
ما رسم به الآلهة إلا جلالتها . »

قليل غير هذا ما نعرفه عن الملكة حتشبسوت ؛ والأقوال تضاربت في تفسير
ما تركت لنا من « نشرات دعائية » ؛ ولكن لا تضارب ثمة في أن معبد الدير البحري
عمل فني له حساب كبير في تاريخ العمارة ، يدل على فهم من أنشأوه لخصائص
الطبيعة المصرية ، وإحساسهم العجيب بخطوط الربوة العالية المطلة على وادي آمني ،

فى طيبة الغربية ، وانتفاعهم بتضاريسها فى إقامة الطوابق الثلاثة ، بأبهاثها ذات العماد .

والقليل الذى نعرفه عن ابنة آمون البكر ، يكفيننا ، فيما أظن ، لتؤلف لها فى أذهاننا شخصية « المرأة الذكر » ، يعلو قدرها ، وهى المصرية الأصيلة ، على المقدونية ابنة الزمار ، والمملوكة الصالحة ، والدة المرحوم خليل !

القيراط الخامس والعشرون

آخر ما كنت أفكر فيه ، هو أن أعقد فصلاً خاصاً بالملوك في كتاب ألفته ملحمة للشعب المصري : شعب — نامه ، لا شاه — نامه ، وملحمة السلام لا الحرب ، ملحمة شعب صناعته الحضارة ، وديدنه المسالمة . أرد فيها الفضل لذويه ، بحق العذابات والحن والرزايا التي تحملها كل تلك الأجيال .

وقد يغتفر لى أن اخترت من الشاهنامة المصرية « ملوكاً » من جنس الأنثى ، ولعل ما دعاني إلى كتابة الفصل السابق هو إعجابي بعمارة الدير البحرى ، وسيدة الدير البحرى . أحببت تلك الملكة المقدام ، منذ زيارتي لها أول مرة ، فى بطن الجبل ، بطيبة المقدسة ، ودراستي المتمهلة لتصاوير البعثة البحرية إلى بلاد « الپونت » ، تزين جدران « رائعة الروائع » ، وذلك أيام كنت أعنى بالبحر وأحيائه وآذيه ، فوجدت فى تلك الصور المثل الفرد ، فى كل الآثار المصرية — بقدر ما وصل إليه علمى — يصور أحياء البحر ، لا أحياء النيل ، ولا أحياء بطائح الدلتا .

أعجبت بتلك السيدة المسترجلة تمثل نفسها على آثارها رجلاً بلحية مستعارة — ولحى الفراعنة كانت كلها مصطنعة ! — وصدر منبسط مفلطح . وعرفتها أيام سلكت المرأة فى أوروبا طريقها الوعر نحو مزاحمة الرجل ، فجزت شعرها « آلا جارسون » ، وفلطححت صدرها ، وكشفت عن ركبتيها ، ودخنت السجائر فى المحال العامة ، لعلها تدخن يوماً الغليون والسيجار . ومع أن جداتنا كن يدخن الشبك والشيشة ، إلا أنهن التزمن خدورهن . أما حفيداتهن فقد خرجن إلى الدنيا يسعين فى مناكبها ، مهندسات وزراعات وجيولوجيات وخبيرات فى الدم والذرة وعاملات شريفات . وإنى لأستغرب أن لا تعنى سيداتنا المتحررات بأمر أول سيدة فى العالم زاحمت الرجل ، وغلبته ، وذلك منذ نحو ثلاثة آلاف عام . تلك كانت سيدة الدير البحرى ، وصاحبة أعظم مسلات الكرنك ، وأجمل حجراته .

وقد يغتفر لى أيضاً أن توحى كتابتى عن الملكات ، من طرف خفى ، بسخرية من الملوك وصناعة الملك . إذ يبدو لى أن السيدات كنّ ، فى الأغلب ،

أعظم نجاحاً في حرقه الملوكية من كثير من الرجال . وسيداتي الثلاث ، إذا جمعنا شملهن على بلقيس ، وزينوبيا - التي استولت على مصر بعض الوقت أيام حكم الرومان ! - واليزابث الأولى ، وكاترين الثانية ، وماريا تيريزا ، يؤلفن باقة من الإناث حكمت وتملكت وساست الرعايا أحسن سياسة ، حتى أولئك اللاتي كانت مغامراتهن الغرامية سلسلة من الفضائح ، كبرت وتضاعفت بحكم المركز السامي لصاحبياتها ، ونخت أو تضاعلت أهميتها ، عندما لم يكن لتلك المغامرات أثر في توجيه السياسة ، ولا في شئون الحكم .

تندر الخليفة العباسي بالمصريين إذ ولوا عليهم امرأة ، وأبدى استعدادده لإيفاد رجال من بغداد ، إذا كانت الرجال قد عزت في الديار المصرية . ويشاء القدر أن يرد سخرية هذا الخليفة إلى نحره ، بعد مضي سنوات قلائل ، عندما انقض على دولته ملك المغول هولاجو ، يدمر ملكه وحاضرة ملكه ، فلا يجد رجالاً يدفعون عنها الكارثة . . وإذا مصر تجد في رجالها ، وفي المماليك الذين ولوا عليهم السيدة أم خليل ، جيشاً قديراً على صد المغول وضربهم في عين جالوت ، بعد أن كسروا من شوكة فرسان الصليب ، وكنسوهم من الأرض المقدسة ؛ وبعد ما اقتحم مدينة دمياط عليهم لويس التاسع وفرسان الداوية وتقدم إلى المنصورة أزاحوهم عنها ، وكسروهم في فارسكور ، وأسروا الملك وأمراء جنده ، من لم يرد منهم مورد الردى . ولعلها فرصتي الوحيدة هنا ، أكفر فيها عن سيثي في التحدث عن الملوك ، حتى ولو كانوا ملكات ، أن أحدد حظ الشعب المصري من أحداث تاريخه . وعجب كله عجب أن يحرص التاريخ على أن يحصى علينا العشرين والثلاثين ألف جنازة التي كانت تخرج كل يوم من باب القرافة إبان الوباء ، بل أن يسجل اسم الطاعون المعروف بقارب شيحه ، الذي أخذ المليح والمليحة ، ويتحفنا هنا أبو المكارم ابن إياس بمحفوظاته من الشعر السخيف ، فيروي : قيل مات في هذه السنة [مجاعة سنة ٦٩٥ هـ] من الناس نحو الثلث :

يا طالبا للموت قم واغتم هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتا

وأن يتمطي التاريخ في وصف أكل الناس للكلاب والقطط والفيران والحمير

والبغال ، حتى ليبلغ الجوع بهم أن يخطف الناس بعضهم بعضاً ، ليتبلغوا بهم في سنى المجاعة .

يحرص التاريخ على وصف خروج المئات والآلاف من ديارهم هرباً من السخرة والعونة ومقاوم الضرائب . ويذكرنا بضرب الكرباج ، وسوق المجندين كالأنعام تحت سياط الباشبوزق ، وتوسيط الناس وتكليبهم وشنقهم وقطع رؤوسهم ورؤيهم للحيوانات الضارية ، سواء حدث هذا أيام الاضطهادات الدينية في عهد المسيحية الأولى ، أو على طوال حكم المماليك والعثمانيين . ثم لا يكاد التاريخ يذكر إلا القليل عن حياة هذا الشعب اليومية ، في أوقات الرخاء أو في الأوقات العادية ، إلا أن نطالع ذلك في « ألف ليلة وليلة » ، أو نشاهده منقوشاً على حيطان المقابر المصرية القديمة . ولولا الشيخ تقي الدين المقرئى وابن تغرى بردى ، وابن إياس ، والجبرتي ، لما تصورنا هذا الشعب المصرى إلا في بؤسه وذله وشقائه .

لأتصور الشعب المصرى على طول تاريخه الإسلامى - والفضل لمن ذكرت من أصحاب الحوليات العظماء ، وللمقرئى بنوع خاص - عندما أقف بحى الأزهر ، أو تحت الربع ، أو أجلس بباب حلاق بالحسينية أو بالحنفى ، أشاهد بيع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى فى سيدى البيومى ، أو فى جامع الأشرف برسباى ، ويعود الرجل بعد هنيهة مهلل الوجه ، نظيفه ، وزبيبة الصلاة ، وقد زادت سماراً . أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور ، وفى المدن : بائع الحلوى والحراط والسروجى والبزاز والطار وصانع الخيام . وعندما أستمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية ، أستعيد أيام طفولتى بينهم ، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمتة المهذبة ، من أمثال : « يفتح الله » ومعناها : السعر الذى تعرضه غير مقبول . و « صل عالنبى » ، أى فلنبداً فى الفصال . و « على الطلاق » ، أى لا تصدق كلمة مما سأقول ! و « يا فتاح يا عليم » ، أى أول القصيدة كفر ، وبعدها ويّاك ، وربنا يكفيننا شرك . و « باسم الله » ، أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى ؛ ثم يتشجع عندما ترفض دعوته ، فيقول « حلفت عليك » ، ومعناها : أيها الأريب لقد فهمتنى ! و « اتوكل على الله » ، يعنى أغرب عن وجهى من غير مطرود ؛ و « دستور إيه يا عم الله

يخليك » ، يعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله .

هذه لغة شعب فيلسوف مسلم يتكلم « بالكناية » ، وينادى على سلعته بصور شعرية : « يا لى طاب ، وطلب الأكثال ، يا بيض اليمام ، يا ناعم ! » . وبعض هذه النداءات قديم ، وقد اكتشفت المناداة المعروفة على الكناكيت : « ملاح الملاح » ، فى القرن التاسع الهجرى (عام ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م) . فابن إياس يذكر وفاة بدر الدين الدميرى ، المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية : وكان فاضلاً عارفاً بصناعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة ، طلق اللسان فى حق الناس ، فكانت الشعراء تهجوه كثيراً :

قد عيل صبرى من خطب ألم به عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فإن غدا الديك سلطاناً فلاعجب فقد غدا قاضياً فى الناس كتكوت

فيرد الأديب على بن برد بك ، مدافعاً عن القاضى كتكوت :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح

شعب علمه ظالموه الحذروصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة . فما عرفت ، والله ، شعباً فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى حذقه التلاعب بالألفاظ ! ولكن الكيل قد يطفح أحياناً ، فإذا بالشعب المصرى يرفع صوته بالهجاء الصريح :

باشا يا باشا يا وش القملة
من قال لك تعمل دى العملة

أو « إيش حيا يجميلك من تفليسى ، يا برديسى ! » أو « يا رب يا متجلى ، اهلك العثماني ! » .

وإذا أردت أن تعرف المصرى فى صراحته ، وشباب تاريخه ، قبل أن تنقله قرون الظلم من التصريح إلى التلميح ، فاقرأ قصة « الفلاح الفصيح » فى الأدب الفرعونى ، لتسمعه يرفع عقيرته بالشكوى من كبار موظفى الدولة ؛ وأنا أقدم خلاصة وافية لها فى فصل من فصول هذا الكتاب .

وأتصور الشعب المصرى فى الريف كما هو اليوم وكما سيكون غداً وبعد غد :
 ينظر إلى المدينة كأنها مالكته ، وصاحبة الحق الأول فيه ، لا ينازعها حقها ،
 وكأنه لم يخلق إلا ليغذى المدينة بقمحه وفوله وعدسه وعسله وبصله وسمكه ولبنه .
 وإلا فإذا يصنع بكل هذا الخير أغدقته عليه السماء ؟ وكما أن الشعب المصرى القديم
 اعتقد بأن ملوكه من صلب الأرباب ، فقد رضى بأهل المدينة كأبناء عمومة ، ولو من
 بعيد ، للآلهة ! وقد تبادلته المدينة اليوم بشئ مما تصنع الحضارة . ولكن ماذا كانت
 تقدم له المدينة فى الزمان القديم ؟ حتى ولا هدمته البيضاء والسمراء والزرقاء فيما أظن .
 لذلك تقول الاشتراكية بأن تطور المجتمع الزراعى لا يحدث إلا فى بطء شديد ،
 وأن العمال هم قوات الاشتراكية الزاحفة . فالعامل فى المدن سريع الإدراك لحظه
 من الحياة ، حاضر الثورة على حاله . أما الفلاح ، فما حاجته إلى النظريات وهو
 القائل : هذه الأرض ، وما تنبت ، رزق الخالق لمخلوقاته من ناطق وصامت ،
 ليس لى أن أدعى فيها حقاً أكثر مما قدر لى رب الرزق والعطاء . أما العامل فما
 أسرع إلى التذمر والشكوى ، ولسان حاله يقول : وماذا قدم صاحب المصنع غير
 المال لشراء الآلات ؟ ومن أين حصل هذا المال إلا من عرق أمثالى ؟

أخشى أن أكون تعديت حدودى فى هذا التعقيب على حديث الملكات ،
 إنما أردت أن نعرف ، ولو مرة ، ماذا كان حظ الشعب المصرى من ثروة بلاده
 على طول تاريخه ؛ وبلوغ هذا يعد من أصعب الدراسات ، لحاجتنا إلى الوثائق .
 وهذه ، إذا زاد عددها عن حد معقول — كما هو الحاصل فى دراسات التاريخ
 الحديث — استعصى فحصها ؛ وإذا كانت قليلة ، كان الاعتماد عليها فيه الكثير
 من الخدس . وعندما يحدثك المؤرخون عن اقتصاديات بيزنطة ، أو جمهورية
 البندقية أو بيت المديتشى ، فكل ما أرجوه لك هو التوفيق فى استيعاب ما يزعمون ؛
 ونصيحته أن لا تحسن الظن كثيراً بتقديرات أولئك الجهابذة ، وخير لك أن
 تتحصن بالشك والريبة فيما يقولون .

أما إذا حاول مؤرخ أن يحدثك عن اقتصاديات مصر القديمة ، فشله مثل
 ذلك العلامة الموسيقى الذى راح ينفخ فى مزامير الفراعنة ، ويقيس أطوال أوتار
 قيثاراتهم ، ويعد خروق ناياتهم وشباباتهم ، ويفحص نقوش مقابرهم ، ليحدثك

حديث الواثق عن أسلوب تأليفهم الموسيقية في الدولة الحديثة ، ويقارنها بموسيقى الدولة القديمة ، أو بمؤلفات فاجنر وديبوسى !

إنما عثرت لك على حسبة بسيطة من صدر الدولة المملوكية ، في عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين ، في أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧ هـ) ؛ وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، أربعة للسلطان ، وعشرة للأمراء والإطلاقات ، وعشرة للجند .

هل تحسن الجمع ؟ أظن أننا لانخطئ في الحاصل هنا ، فهو أربعة وعشرون قيراطاً . أين منه نصيب الشعب المصرى ؟

احفظ هذه الحسبة البسيطة ، فإنها لم تجئ من برما ، وإنما نقلتها عن ابن إياس ويمكن الاطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى ، من عهد مينا حتى ... فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية في أواخر القرن الماضى .

وقد تتغير أرقام المعادلة ، يعدلها الولاة والملوك والسلاطين ؛ وقد يدخل في الحسبة الباشا العثمانى ، والباب العالى ، والاستراتيجوس الرومانى ، والخواجات ، وصرة الأراضى المقدسة وغلاها ، وديون الخديو إسماعيل ؛ ولكنها تظل معادلة صحيحة ، طرفها الثانى لا يتغير ، فهو : هو أربعة وعشرون قيراطاً . وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على ممر الدهور : البساطة والدقة . معادلة الاقتصاد المصرى ، والمالية المصرية ، تدخل في حكم قوانين الطبيعة : كالنظرية الذرية ، وقانون تمدد الغازات ، والجاذبية الأرضية ؛ هى شىء يعادل ، في دقته وثباته ، حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد .

ولكن أين نصيب الشعب المصرى من هذه المعادلة ؟ لا عليك إذا أضفت إليها س . وما دام المصرى يأكل ، ولو من نخشاش الأرض ، ويلبس ، ولو هدمه زرقاء ، ويشرب الماء ، ولو بطينه ، من نهر قال له المستكشف الكبير حايد ابن عمران إنه رآه بالعينين التى فى رأسه ينبع من الجنة ، فلا بد أن يكون للمصرى نصيب فى خير بلاده ، خارجاً عن الأربعة وعشرين قيراطاً ، رمزنا إليه بحرف السين . ثم توصلنا بعد جهد جهيد ، واستعانة بآلة الكثرونية حاسبة ، إلى معرفة مقدار س هذه ، وإليك البيان :

كان أهلنا ، أيام الاحتلال البريطاني والاستغلال الأوروبي والليثاني ،
يجيبوننا على سؤالنا : لماذا اختص الله الحاجات بكل هذا الخير ؟ تقول الجدة ،
أحكم الحكماء : « لهم الدنيا يا بني ، ولنا الآخرة » .

هل عرفت نصيب الشعب المصري من خيرات أرضه ونيله وشمسه ؟
إنه القيراط الخامس والعشرون ، ومكانه . . . مملكة السماء !

III

الضياء

قفطاريم بن قبطيم

يرفع الستار

مرمودة بنى سلامة

أنوبيس يرقص

الفلاح الفصيح

وقفه الحائر

ثلاثة آلاف عام

الصفحات الأخيرة

الحضارة المصرية

قفطارييم بن قبطييم

عرفنا حال مصر بعد اندحار جيشها المملوكى فى موقعة الريدانية وسبيل علان ،
والعوادى التى جرت عليها ، ورأينا إلى أى درك انحطت البلاد ، وسامها العثمانيون
والمماليك والدلاة والأرنؤد العذاب والحسف والهوان .

ونحب أن نسأل : ماذا كان يذكر أجدادنا ، الذين عاشوا هذه الضبعة ،
بل ماذا كان يحفظ أجدادنا كلهم من تاريخنا منذ دخول المسيحية مصر ، وبماذا
كانت توحى إليهم أطلال ذلك التاريخ القديم ؟

هل طالعوا أو سمعوا بما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، ويوسيفوس
اليهودى ، عن مصر القديمة ، ديانتها وآثارها؟ لم يطالعوا شيئا من ذلك فى الأغلب .
أى أن أوربا كانت تعرف عن مصر القديمة أكثر كثيرا مما كان يعرف أجدادنا
الأبعدون والأقربون . . بل ما تزال أوربا تسبقنا فى كل شىء ، حتى فى دراسة
تاريخنا القديم والحديث .

أى أن المصريين ، منذ العهد المسيحى ، نسوا تاريخهم ، أمجد صفحات من
أيامهم ! ولا نعلم متى فقدوا الصلة بحضارتهم الفرعونية ، ومتى عجزوا عن قراءة اللغة
القديمة . وإن كان الغالب أن مقاومتهم للهليينية ، علومها ومعارفها ولغتها ،
واستعمالهم مع ذلك الحروف اليونانية فى كتابة لغتهم القديمة ، ثم اعتناقهم المسيحية ،
وتغاليهم فى تطبيق مرسوم تيودوسيوس بإيقاف العبادات الوثنية ، كل هذا انتهى
بهم إلى الانفصال عن التاريخ القديم . ومن السهل أن نتصور سر قراءة الهيروغليفية
والهيراظيقية والديموطيقية ، وقد دفن مع آخر الكهان والكتاب والعرافين ، الذين
احتفظوا بديانتهم العتيقة ، وماتوا عليها ، وعفت بانقراضهم .

ومعنى هذا ، من باب أول ، أن ينسى المصريون المسلمون تاريخهم القديم .

وبذلك يجمع سكان وادى النيل على الاكتفاء من ذلك التاريخ بما ورد فى كتبهم المقدسة . قال المستشرق فون هامر ، فى كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« أما من جهة عجائب مصر ، فإن أكثر الناس تمدنا ، من الأتراك والفرس والعرب ، لم ينظروا إليها بالعين التى يراها الأوروبيون وقدماء اليونان والرومان . فبينما يعتبر الأوروبي مصر المنبع الأول للعلوم والفنون ، ومهدا للهندسة وتخطيط البلدان والعمارة والزراعة والكتابة والملاحة ، وبينما هو يحترمها ويقدرها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظم السياسية والكهنوتية والرهوز الدينية ، وبينما هو يعجب بآثار عمارتها وبهياكلها وبمدافنها وأهرامها ومسلاتها وتماثيلها ، وبينما حب العلوم يحمله على مطالعة نصوصها السرية المنقوشة على ذلك الكتاب الحجرى ، الذى فتحت صفحاته منذ آلاف من السنين ، وأقيمت عند أعلى شلالات النيل ، منحدره إلى الوادى الخصيب ، نجد أن الشرق لا يرى فى تلك الهياكل والقصور الملكية القديمة ، ولا فى تلك التماثيل الفخمة ولا فى أبى الهول ، سوى مخابئ سحرية لكنوز مدفونة ، تقوم التماثيل والصور على خفارتها . ولا يجد فى تلك الكتابة الرمزية إلا طلاس مخفى على الناس طرق استخراج الذهب ، واستكشاف المطالب الخبأة فيها . ولقد شاركت أوربا أهل الشرق فى الاعتقاد بتلك الأوهام زمنا طويلا ، وسألت تلك الأحجار عن سر حجر الفلاسفة ، وأنكرت المعانى المستترة وراء سر الكيمياء التى نقلتها العصور الوسطى من مصر .

« على أن تعاليم الزراعة التى تحيل ماء النيل ذهابا قد حلت تلك القضية حلا طبيعيا ؛ فإذا لم يرالشرقيون فى الفراعنة والبطالسة إلا أبطال رموز وأسرار ، ولم يمكنهم أن يفقهوا عقائد مصر القديمة ، وإذا استغلقت عليهم الكتابات المطوية فى ملفات البردى ، فإن شرائع الأنبياء قد نزلت فجلت لأعينهم أرض مصر مجللة بأكاليل من النور ، غاب إشعاعه عن أهل أوربا فلم تشاهده عيونهم إلا قليلا .

« فمصر مقدسة عند أهل الشرق ، لا بد كرى يعقوب وأولاده فحسب ، ولكن بما ورد عن صلاحها فى كتاب الله ، وأحاديث الرسول . فالمسلم لا يعرف سيزوستريس ولا أوزيماندياس ، ولا فراعنة عنده إلا فرعون الذى ملأ يوسف أهراءه ، وفرعون الذى ابتلعه مياه البحر الأحمر . ومع ذلك فقد سمع ببناء الأهرام . وهو فى الحقيقة

يسميههم بأسماء تختلف تمام الاختلاف عن الأسماء التي يعرفهم اليونان بها ، وهو يحل منهم ذكرى هرمس بصفته مبدعا للكتابة والهندسة والعمارة ، ومنظما لطقوس الكهنة وشرائع الأسرار ، وترجمانا بين الأرض والسماء .

ولو قد توفر المصريون الأقباط والمسلمون على مطالعة ما جاء عن أجدادهم في كتب هيرودوتس وديودورس الصقلي وجرجس سنسيلوس واسترابون وبلوتارك وپولبيوس ويوسيفوس ، لعرفوا بعض هذا التاريخ ، وإن اختلط بالخرافات والأساطير ؛ ولفهموا على الأقل ما فهمه اليونان والرومان ، ومن جاء بعدهم ، من آثار مصر . ولكن سوء الطالع قضى بأن لا يتعدى الأقباط إلى أبعد من تاريخ المسيحية بمصر ، وأن لا يعنى العرب في عهد الحضارة الإسلامية الكبرى بغير ما جاء في كتب اليونان خاصا بالفلسفة والطب والعلوم . وأن يبقى التاريخ والأدب بأنواعه شيئا مجهولا عندهم إلا في أقله . وبذلك قصرت معارف المصريين جميعا عن أن تبلغ من تاريخهم مبلغ ما عرفه الإغريق والرومان .

ولقد حاولت أن أعرف من كتب المسيحيين ما تذكر عن تاريخ مصر القديم فلم أجد إلا النذر اليسير فهذا العلامة غريغوريوس أبو الفرج هرون المعروف بابن العبري لا يتحدث عن تاريخ مصر البتة ، مع أنه يعنى بتاريخ العالم منذ الخليقة ، ويكتب تاريخ الدول اليونانية والفارسية والمغولية والإسلامية ، ويترجم لعلماء المسلمين والنصارى ، ويختص بعنايته تراجم الأطباء . وكل ما تعلمته من ابن العبري هو أن هرمس طرسميجسطس — أى المثلث الحكمة — هو إدريس العرب ، وربما كان أيضا أخنوخ بن متوشالحو ، وأن معلم هرمس كان أغاثاديمون المصرى ، وأن أسقليبادس الملك واحد ممن أخذ الحكمة عن هرمس . كما عرفت أن مايندروس استنبط نوعا من الشعر يسمى « قوموديا » (كوميديا) ونوعا آخر يسمى « طراغوديا » ، وأن الملكة البطليموسية المشهورة ينطق باسمها « قلاوفطرا » ، ومعناه « الباكية على على الصخرة » .

ولم ألك أكثر توفيقا في قراءة كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » تأليف البطريك أفثيشيوس المكنى بسعيد بن بطريق [باتريك] ، وقد كتبه لأخيه عيسى يرد على مذهب الطبيعة الواحدة ، بعد أن يسرد التواريخ الكلية من عهد آدم

حتى سنى الهجرة الإسلامية .

وكل هذا غير مفهوم ولا معقول ، فإن تاريخ مصر القديمة لا يمكن أن يكون فص ملح ذاب بين أيدي المسلمين والأقباط . والحقيقة أنه موجود معروف متداول عند غالبية من أرخوا لمصر من الكتاب العرب . وما عليك إلا أن تتابع ما يقوله أولئك المؤرخون بعد الحليقة بقليل ، قبل الطوفان وعقب الطوفان ، لتكتشف لمصر تاريخاً هو العجب العجائب ، أقدم لك خلاصته ، لتكون على علم تام بالصورة التي كانت في أذهان آبائنا منذ العهد المسيحي حتى الأمس القريب عن أجدادنا العظماء .

فمصر الفرعونية عند مؤرخي العرب كانت بلاد السحر والعرافة والكهانة . وقد سمع أولئك المؤرخون أن اليونان يعترفون بما للمصريين عليهم من فضل ، فيقولون بأننا عرفنا هذا عن طريق حكماء مصر ، وتعلمنا ذلك على أيديهم . وأن كهنة المصريين أسسوا علومهم على النجوم ، وأن النجوم علمتهم الأسرار ، وكشفت لهم عن الحجب ، وأن الكهنة أقاموا الشرائع العادلة ، وصنعوا الطلاسم المشهورة ، ورسموا الصور التي تبرجم ، ونحتوا التماثيل التي تتحرك ، وتخرج الأصوات ، وأنشأوا البرابي والأهرام ، ونقشوا على جدرانها أسرار الطب والعلوم .

وكانت مصر مقسمة في أيامهم إلى خمسة وثمانين كورة ، خمسة وأربعين بالوجه البحرى ، وأربعين بالصعيد ، ويرأس كل كورة كبير الكهنة .

وكان اسم مصر « إمسوس » [إجبِتوس ؟] ، ويتولى عرشها ملك كاهن اسمه عنقام من نسل عرباق بن آدم . وعاش عنقام هذا قبل الطوفان وتنبا به . وتنسب إليه كتب الأقباط ، التي تحكى سير ملوكهم . وفي أوراق الأقباط هذه ، حديث قونية ، الكاهنة التي تجلس على عرش من نار ، إذا جاءها طالب الحق يسعى ، وكان صادقاً ، اخترق إليها النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً .

وأول من حكم مصر ، قبل الطوفان ، مصرإيم بن مراكيل بن داويل بن عرباق ابن آدم . خرج مع بضعة سبعين من نسل عرباق يبحثون عن مكان يقيمون فيه بعيداً عن الناس ، فبلغوا نهر النيل وساروا بمحاذاته ، حتى وصلوا إلى بلاد الحرث والزرع ، فاستقروا بها ، وهم الذين شادوا القصور ، وأقاموا الآثار العجيبة .

وأطلق مصرايم اسمه على حاضرة البلاد ، وبني غيرها مدناً كثيرة ، أسكن فيها الناس . وأخذ هؤلاء يحنرون الترع ليحلبوا ماء النيل إلى محلاتهم . أما قبل ذلك فكان النهر يجري على غير نظام ، في بطائح وسيالات وأخاديد .

وفي السنة العشرين بعد المائة من حكم مصرايم ، أمر فأقيمت الأبراج وكتبت على أسوارها أسرار الحكمة ، وقسم الملك بين بنيه ، فأعطى الغرب لنقراوس ، والشرق لسوريد ، وولى ابنه الأصغر المسمى باسمه ، مصرايم ، على مدينة اسمها يربيان .

وحكم مصرايم الكبير مائة وثمانين عاماً ، ولما مات حنط جثمانه بدهان المسك ، ووضع في تابوت من ذهب ، ومعه كنوزه وتماثيل من ذهب . وكتب تاريخ موته على القبر ، ثم صنعت الطلاسم لإبعاد الزواحف والأوباء ، وكل من حاول نبش قبره ، من إنسان أو حيوان .

ومن ملوك مصر خصليم ، وكان أول من بنى مقياساً للنيل ، وجمع لبنائه العلماء والمهندسين ، فأقاموا بيتاً من زجاج على الشاطئ ، وفي وسطه حوض ماء من صفر ، وعلى حافة الحوض وضعوا عقابين من نحاس ذكراً وأنثى . ففي بدء الفيضان كانوا يجتمعون أمام تلك الدار ، ويدخل الكهنة بحضور الملك ويتلون التعاويذ ، حتى يصفر أحد الطائرين . فإن صفر الذكر جاء النيل عالياً ذلك العام ، وإن صفرت الأنثى فقل يا رحمن يا رحيم !

ومن ملوك مصر سوريد بن سهلوق ، وهو الذي بنى الأهرام التي تنسب إلى شداد بن عاد . والأقباط ينكرون أن أهل عاد دخلوا بلادهم ، بل وينكرون دخول العمالقة ! وبناها سوريد توكيا من الطوفان الذي تنبأ به الحكيم فليمون — ولعله نقل ذلك عن الملك عنقاص من نسل عرباق بن آدم ؟ — وكذلك أنشأ البرابي والآثار الأخرى ليحفظ فيها جثمانه وجثمان أهله ، وجميع ما تحتوى خزائنه . وأمر فنقشت على الحيطان والعمدان أسرار العلوم وأسماء النجوم والنباتات وخواصها ، وطريقة صنع الطلاسم . وبني الأهرامات من الصوان الذي جيء به من أسوان ، وكانت أبوابها في سراديب تحت الأرض ، وأقام عليها الطلاسم ، وأودع بها تاريخ الملوك وحكمهم ، وما هو مكتوب لمصر في لوح القدر حتى آخر الزمان .

ويقول الأقباط الذين قرءوا ما كتبه على الأهرام إنه يتحدى الأجيال بقوله :
« أنا الملك سوريد ، قد بنيت هذه الأهرام في ستين سنة ، فمن أتى بعدى ، ويزعم
أنه مثلى ، فليهدمها في ستمائة عام ، علما بأن الهدم أهون من البناء » وقيل بأن
سوريد هو الذى بنى البرابى فى قفط وإخميم .

وعندما جاء المأمون إلى مصر ورأى الأهرامات ، أراد أن يهدمها ليرى ما بداخلها
فعجز . ثم حاول فتحها ، وأجرى بها الفتحة الموجودة إلى الآن ، واكتشف أن عرض
الحائط عشرون ذراعاً ، ودخل رجاله إلى الهرم فانحدروا فى سرداب ، وعاد بعضهم
ولم يعد الآخرون ، وقال من نجا منهم بأنهم رأوا بالداخل وطاويط فى حجم النسور
والعقبان .

وأغرق الطوفان مصر فى زمن الملك فرعان بن ميسور ، وبلغ ارتفاعه ربع الهرم ،
وما زال أثر الماء يرى عليه إلى اليوم .

ومع أن الفرس والهنود ينكرون بأن الطوفان شمل الأرض كلها ، إلا أن المؤرخين
أجمعوا على أنه أغرق الدنيا بما فيها .

وأول من حكم مصر بعد الطوفان كان مصرايم بن بيسر بن حام بن نوح .
وتزوج بنت الحكيم فليمون ، فأنجب منها قبطيم . وأكمل قبطيم دينه فى شرح شبابه
— وما يكاد يبلغ التسعين عاماً ! — فرزق بقفطاريم وأشمون وأتريب وصا . وبنى
مصرايم مدينة مافة ، وهى منف . وكشف فليمون للملك عن كنوز مصر الخبوءة
قبل الطوفان ، وعلمه قراءة الكتابات التى بالبرابى . وأنشأ فليمون على البحر المالح
مدينة رقودة [راكوتيس] ، التى قامت الإسكندرية إلى جانبها فيما بعد .

وقسم مصرايم الملك بين بنيه : من أسوان إلى قفط لابنه قبطيم ، ومن قفط إلى
منف لابنه أشمون ، وولى أتريب على الحوف ، وأقام صا ملكاً على الغرب حتى
إفريقية .

وحكم قفطاريم بعد قبطيم ، وبنى أهرام دهشور ، وأسس مدينة دندرة .
وكانت مدة حكمه أربعمائة عام . وهو الذى أقام حياى قفط منارة يرى من أعلاها
البحر الشرقى كله . وفى عهده اكتشف إبليس اللعين أغلب الأوثان التى أغرقها
الطوفان ، وأعادها إلى أمكنتها فى الهياكل . وبنى قفطاريم لنفسه قبراً فى الجبل

الغربي ، على مقربة من مدينة إرم ذات العماد ، حفرة في بطن الجبل قاعات كبيرة امتلأت بالكنوز ، وتحيط بهو وسطها ، كسى سقفه بالجواهر . وأجلس الملك محنطاً وسط البهو على عرش يتلأأ ، وحوله آلاف من أواني الكافور . ووضع أمام باب القبر صنيان عظيمان من النحاس ، يحمل كل منهما سيفاً ، وأمامهما مصطبة يطؤها الداخل إلى القبر ، فتتحرك ذراعاً التمثالين ، وتقطع الداخلين بالسيوف .

وبنى مدينة بمصر على اسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنماً من صفر ، فكان إذا بلغ تلك الأبواب غريب ، ألقى عليه النوم ، فلا يفيق إلا أن يأتيه واحد من أهل المدينة ينفخ في دبره . وإن لم يفعلوا ذلك ، ظل الغريب نائماً حتى يموت .

ويولى البودشير بعد قفطاريم ، وكان عالماً فاضلاً في الطلسمات والكهانة والسحر ، وله أعمال عجيبة ، منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، وأقامها في الفضاء ، فكان لا يمر بها وحش ولا طير إلا وتسمر في مكانه ، لا يستطيع حراكاً حتى يؤخذ باليد ؛ فشبت الناس في أيامه من لحوم الوحش والطيور .

وفي زمانه قام هرميس على خدمته ، فأرسله للكشف عن منابع النيل ، وصنع الطلاس هناك .

وفي أواخر حكمه ، اختفى البودشير عن الناس ، وأقام في السحاب ؛ ثم ظهر لقومه عند طلوع الشمس وهي في برج الحمل ، ونادى على الجند ، وأمرهم بتولية ابنه عديم ، وكان عديم جباراً عنيداً ، لم يحكم إلا مائة وأربعين عاماً ؛ وهلك في العام الثلاثين بعد التسعمائة من عمره . وخلفه شداد وهو غير شداد بن عاد . وشداد هذا هو باني معبد أرمنت ، كما أنشأ معبداً مماثلاً بمدينة أنصنا . وهو أول من خرج إلى الصيد ، فاستألف الكلاب السلوقية من الذئاب ، ومات في سن الزهور ، وعمره أربعون وأربعمئة عام . وكانت مدة حكمه قصيرة ، لم تزد على التسعين عاماً .

وخلفه منقاوس الذي قسم مغل مصر إلى أربعة أنصبه : ربع للملك ، وربع للجيش ، وربع لاستصلاح الأرض وإقامة الجسور والقناطر ، وحفر الترع ، وربع للطوارئ . وكان إيراد مصر في زمانه ثلاثة ومائة مليون دينار ، وكانت البلاد

مقسمة إلى ثلاثة ومائة كورة . ولكن كور مصر الآن خمسة وثمانون فقط .

وورثه ابنه متاوس ، وهو أول من عبد العجل في مصر .

ومن ملوك مصر أشمون بن قبطيم ، وكان من أعظم ملوك مصر ، على قول القبط ، وحكم ثمانمائة عام ، وكان ملكه قد وقع في أيدي أبناء عاد في السنة السمائية ، ولكنهم غادروا البلاد ، بعد أن أقاموا فيها تسعين عاما . وفي عهد أشمون أنشئت مدينة البهنسا .

وتولى بعده ابنه مناقيوس ، وكان أول من صنع الميزان ؛ ثم مرقورة وهو في كتب القبط أول من استألف الأوابد ، وروض السباع ، وركبها ذلولا . وتولى ابنه بلاطس وكان طفلا ، فأدارت المملكة أمه مرهبة ، وكانت امرأة حازمة عاقلة . وانتقل الملك إلى عم بلاطس ، وهو أنريب .

ومن ملوك مصر طوطيس . ويقول القبط إنه أول الفراعنة بمصر ، وهو الذي حاول اغتصاب سارة زوجة إبراهيم ، وكان إبراهيم ، حين وفد على مصر ، ادعى أنها أخته . وكلما هم بها الفرعون وقفت ذراعه وتيبست ، فيطلب إلى سارة أن تدعو ربها فيبراً ، ويعود إلى مراودتها عن نفسها ، فتجف ذراعه ، وهكذا دواليك حتى يتوب ، فيقدم سارة إلى ابنته حورية ، فتتعلق حورية بها ، وتهدي إليها جارية قبطية اسمها هاجر ، هي أم اسماعيل .

وبعد طوطيس حكمت حورية ، وهي التي وجه إليها ملك سورية العمالقي جيشاً بقيادة جيرون . ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن الذي غزا مصر حينذاك هو الوليد بن دومع ، وأن الوليد هو الذي أعاد بناء الإسكندرية بعد أن دمرها أهل عاد . وتجيء هنا حكاية الراعي والبحنية البحرية التي أوردت نصها في كتابي : « حديث السندباد القديم » .

وبالوليد بن دومع تبدأ أسرة العمالقة بمصر ، ويخلفه في الحكم الريان بن الوليد ، أسلادس ، وتسميه القبط نهراوس ، وكان طويل القامة جميل الحلقة ، عالماً بالطلسمات ، بدأ حكمه بالعدل والتسطاس ، ثم خضع لروح الشر ، وانغمس في الفجور ؛ وترك الحكم لواحد من رجاله اسمه قطفير ، وهو الذي يعرف بالعزير ، وكان حاكماً عادلاً نزيهاً . قال الواقدي إن الريان بن الوليد هو الذي بنى

قصر الشمع [حصن بابليون] ولم يزل القصر عامراً ، حتى خربه بختنصر ، عندما دخل مصر . وأقام القصر خراباً نحو خمسمائة سنة ، لم يبق منه إلا الرسوم . فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس ، وجعله بيتاً لعبادة النيران . قال وهب بن منبه إن الريان كان مؤمناً على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ، وكان يكتُم إيمانه خوفاً من فساد ملكه . وفي أيام الريان ، بنى يوسف مدينة الفيوم ، وقيل إنها بنيت بالوحي إلى يوسف على لسان جبريل عليه السلام . وعمرها يوسف في مدة يسيرة ، فلما نظر إليها الملك الريان ، صار يتعجب من سرعة بنائها ، وقال هذا كان يعمل في « ألف يوم » فسميت الفيوم .

واستمر الريان حتى هلك ، فاستقر يوسف مكانه .

وبعد ذلك تولى على مصر ملك يقال له داروم ، وهو الفرعون الثالث . أما الفرعون الرابع عند القبط فهو دريموس ، وكانت له أعمال وصنائع عجيبة ؛ منها أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار — كالفرن الكهربائي في أيامنا — وعمل سكيناً منصوباً تأتى إليه البهائم فتذبح فيه نفسها من غير يد — الذبح الأتوماتيكي ! — وكل هذا من باب علم النارنجيات .

أما الفرعون الخامس فهو الذي يقال له ميلاطس بن دريموس ، وقد غرق في النيل ، وطفئت جثته أمام شطنوف .

والفرعون السادس هو فرعون موسى ، واسمه عند القبط طلما بن قوس . قال وهب بن منبه : كان اسمه الوليد بن مصعب ، وكان أصله من مدينة بلخ ، وقيل بل من أرض حوران من نواحي الشام ؛ وكان عطاراً فتجمد عليه دين ، فخرج على وجهه حتى دخل مصر . وكانت صفته أعور ، وطول لحيته سبعة أشبار ، مع قصر قامته وعرج ؛ ولم يزل قائماً بملك مصر حتى هلك في أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق . فعند ذلك طغى وتجبر ، وقال أنا ربكم الأعلى . قال وهب ابن منبه : عاش فرعون موسى أربعمائة سنة ، وهو منفرد بملك مصر ، ولم يزل في النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، غرقاً في البحر . قال إبراهيم بن وصيف شاه إن خراج مصر كان يجبي في كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار .

ولم يزل فرعون قائماً بمصر حتى هلك وأغرقه الله تعالى ، لما خرج في طلب موسى وبني إسرائيل ؛ وقيل غرق في بركة الغرنديل المعروفة في التوراة باسم بحر سوف ؛ قال القضاعى : لما أغرق الله فرعون وقومه ، صارت مصر ليس بها أحد من أشرف أهلها سوى العبيد والأجراء والنساء ، فكانت المرأة تعتق عبيدها وتتزوج به ، والأخرى تتزوج بأجيرها . كنّ يشرطن عليهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ؛ وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط إلى اليوم ، لا يبيع أحدهم ولا يشتري حتى يستأذن زوجته — والواقع أن أمر هذا معروف في القانون المدنى أيام الفراعنة — ثم إن النساء اجتمع رأيهن على تولية امرأة منهن ، يقال لها دلوكة ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة ، فملكوها . وأنشأت دلوكة على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحفظت قرى مصرى وضياعها بذلك الحائط ، وجعلت له حراساً ، وجعلت عليه أجراساً من نحاس ، يحركها الموكلون بها إذا أتاهم طارق يخافونه ، فيسمعها من بالمدينة فيستعدون لقتالهم . وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن بأعلى بلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : إن دلوكة لما تولت على مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدورة [تيودورة] وكانت ساحرة عظيمة ، فعملت بربا من الحجارة في وسط منف ، وجعلت لها أربعة أبواب بالجهات الأربع ، وصورت بها في كل جهة صور الخيل والبغال والإبل والحمير والسفن والرجال . وقالت لدلوكة قد عملت لكم عملاً يهلك به من أرادكم بسوء من بر أو بحر . فكان إذا قصد إليهم أحد من الملوك الجبابرة ، وعجزوا عن قتاله ، يدخلون في تلك البربا ويقطعون رءوس تلك الصور ، أو يفقثون أعينهم ، فهما فعلوا في تلك الصور ، يؤثر ذلك الفعل في عسكر الملك الذى يقصدهم . فامتنعت عنهم الملوك ، ولم يقدرُوا على بلادهم في أيام دلوكة . وأقامت دلوكة في ملك مصر نحو ثلاثين ومائة سنة ؛ ولم تزل مصر ممتنعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت ، فلم يقدر أحد على إصلاح ما يفسد من تلك الصور .

قال المسعودى : لما هلكت دلوكة انتشأ من بعدها شخص من أولاد أشرف القبط يقال له دركون بن نكوطس ، فوقع الاتفاق من ابلىند على توليته ، فأقام في

الملك مدة طويلة وهلك ، فتولى من بعده شخص يقال له مرنئوش ، فأقام في الملك مدة ، وفي أيامه قدم بختنصر إلى مصر ، وجرى منه ما جرى من إخراج مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبي نساؤها ، ولم يترك بها شيئاً من الطلسمات والحكم ، وأخرب غالب البرابي التي كانت مودعة بها تلك الحكم . فلما خرب بختنصر مصر ورحل عنها ، أقامت بعد ذلك أربعين سنة خراباً ليس بها ساكن ولا متحرك ، فكان نيلها إذا زاد ينفرش على الأرض ثم يهبط ولا يجد من يزرع عليه وينتفع . ثم بعد ذلك عمر مصر أخلاط من الأمم ما بين قبلى ويوناني وعمليقي ، ولكن أكثرهم كانوا قبلاً ، وأكثر من ملك مصر الغرباء . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد ، إلى آخر من تولى منهم وهو . . . المقوقس . وبذلك يسلمنا هذا التاريخ الأسطوري إلى ما نعرفه من وقائع الفتح العربى .

* * *

ولقد عجز المؤرخون فيما يبدو عن تقصى مصدر كل هذه الأساطير ، وقال البارون كارا دى فو ، وهو الذى ترجم إلى الفرنسية مخطوطة « مختصر العجائب » ، التى نقلنا عنها الكثير مما أوردناه ، بأن الغالب أنها كل ما بقى لدى الأقباط من تاريخ بلادهم .

وللمسعودى قصة فى « مروج الذهب » تؤيد كلام دى فو كل التأييد . قال إنه سمعها وهو فى مصر أيام الإخشيديين :

« وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه ، فى سنة نيف وستين ومائتين ، أن رجلاً بأعلى مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة ، من الأقباط ممن يشار إليه بالعلم من لدى حدائته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها . . . برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه ، فحمله فى النيل إليه مكرماً ، وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر إلى رجل دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن نفسه . فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل إليه للذيذ المأكول والمشرب ، فأبى أن لا يتوطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء حملة معه من كعك وغيره وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء وهذا الملبس ، فإن أنتم ستمتموها النقلة عن هذه العادة ، وتناول ما أوردتموه عليها من المأكول والمشرب والملابس ، كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة . فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته . وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الديار ، وصرف همته عليه ، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراداته ، وجواباته فيما سئل عنه . فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط . . . قيل له فما منتهى النيل في أعاليه ، قال : البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها ، وهي نحو الأرض التي الليل والنهار فيها يتساويان طول الدهر ، وهي تحت الموضع الذي يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » ، وما ذكرت فمعروف غير منكر .

« وسئل عن بناء الأهرام فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم ، إذا مات ، وضع في حوض حجارة يسمى بمصر والشام ، الجرن ، وأطبق عليه ؛ ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ؛ ثم يحفر له طريق في الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر ؛ ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت . ففيل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة ، وعلى أي شيء كانوا يصعدون ويبنون ؟ وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ، إن قدروا ؟ فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج ، فإذا فرغوا منه ، نحتوه من فوق إلى أسفل ؛ فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة للملوكهم وديانة .

« فقل له : ما بال هذه الكتابة التى على الأهرام والبرابى لا تقرأ ؟ فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومى ، كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها ، على حسب ما ولدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى ، فذهب عنهم كتابة آبائهم .

« فقل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض ، مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهر فى أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الأرض .

« فقل له : أتعرف فى مصر مقاطع رخام ؟ قال : نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمدة وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر ، فمنها العمدة والقواعد والرؤوس التى تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمدة التى بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير ، لا يعلم بالعالم عمود مثله ؛ وقد رأيت فى جبل أسوان أنما لهذا العمود ، قد هندس ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحك ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم . . .

« وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية .. وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه ، فأبى قبول شىء من ذلك ، فردّه إلى بلده مكرماً ؛ وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك . وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرناه عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك » .

هذه قصة لا شك فى صحتها . وليست متأكداً إن كان الشيخ القبطى يقصد عمود السوارى بالإسكندرية أم المسلة التى كانت قائمة قرب محطة الرمل ، والتى كانت تعرف بمسلة كليوباترة . لأنه رأى فى أسوان أنما هذا العمود ، وكلنا نعرف المسلة التى لم تفصل من صخرها بقرب أسوان ، والتى ما نزال نرى بها كسراً ، يظن بأنه كان السبب فى العدول عن استخراج تلك المسلة .

وقول المسعودى بأن للعجوز « مصنفات » معناه أن كانت لدى الأقباط كتب تحوى صفحات من التاريخ القديم ، يختلط فيها الواقع بالأساطير .

والواضح أن ما بقى لنا من واقعها نذر يسير . أما الأساطير فهي التي طالعنا بعضها في هذا الفصل . وإن ثقتى بأبي الحسن المسعودى ، وإعجابى بتفكيره المنطقى السليم ، وبأسلوبه العلمى ، بقدر ما وعاه زمانه ، تغرينى بأن أزعج أنى وضعت إصبعى فى هذه القصة على مصدر من مصادر التاريخ الأسطورى لمصر . ولست أدعى أن يكون هذا الشيخ القبطى وحده هو مصدر ذلك التاريخ ، وإنما هو واحد من أسلافنا المسيحيين الذين احتفظوا أباً عن جد ، بأصداء تاريخنا القديم . عندى أن ما جاء فى الكتب العربية تاريخاً لمصر الفرعونية – وقد درج أصحابها على أن ينقل بعضهم عن بعض دون تحرج – منقول عن الأحاديث التى كان يدلى بها أمثال ذلك الرجل .

قال المسعودى : « وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخيمى الزاهد ، وكان حكيماً ، وكان له طريقة يأتيا ونحلة يعصدها . وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى ، وزارها وامتحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته ، فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة ، وتبينها فى ذلك القلم الأول ، فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعل ما يريد

« وكانت هذه الأمة ، التى اتخذت هذه البرابى ، لهجة بالنظر فى أحكام النجوم ، مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها أن طوفاناً سيكون على الأرض . . . فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابى ، واحداً برها ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وجعلت بنيانها نوعين : طيناً وحجراً ، وفرزت ما يبنى بالطين ، مما يبنى بالحجر ، وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما يبنى بالطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم . وإن كان الطوفان الوارد ماء ، أذهب ما يبنى بالطين ، ويبقى ما يبنى بالحجارة . وإن كان الطوفان سيفاً ، بقى كلا النوعين ، ما هو بالطين وما هو بالحجر ، وهذا ما قيل ، والله أعلم ، كان قبل الطوفان . وإن الطوفان الذى كانوا يرقبونه لم يعينوه

أنار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها ،
وملك نزل عليها ، فأباد أهلها ؛ ومصادق ذلك . . . ما يوجد ببلاد مصر وصعيداها
من الناس المنكسين بعضهم على بعض في كهوف وغيران ونواويس ، ومواضع كثيرة
من الأرض ، لا يدري من أى الأمم هم ، فلا النصراني تخبر عنهم أنهم من
أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ،
ولا تاريخ ينبي عن حالهم . عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد في تلك الجبال والروابي
من حلبيهم . والبرابي ببلاد مصر بنيان قائم عجيب ، كالبربا الموجودة بأنصنا ،
والبربا التي ببلاد إخميم ، والبربا التي ببلاد سمنود . . . والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها
عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الدائرة ،
لا يدري ما تلك الكتابة ، والا المراد بها . . . وأن ذلك علوم وخواص ، وسحر
وأسرار للطبيعة . »

قال المسعودي : « سألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد ، وغيره من بلاد
مصر ، من أهل الخبرة ، عن تفسير فرعون ، فلم يخبروني عن معنى ذلك ، ولا
تحصل في لغتهم ، فيمكن - والله أعلم - أن هذا الاسم كان سمة للملك تلك
الأعصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية . »

وعندما يسرد المسعودي التاريخ الأسطوري لمصر يبدأه بقوله : « ثم يحكي
المسعودي ، عن جماعة من الشرعيين ، أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن
أرض بابل بولده ، وكثير من أهل بيته ، غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة :
مصر بن بيصر ، وتوف بن بيصر ، وساح ، وباح . فتزل بموضع يقال له منف ،
وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا . . . » ثم واصل قصة الملوك القدماء الذين حكموا مصر ،
من أمثال الريان بن الوليد ، وطلما ، والملكة دلوكة صاحبة حائط العجوز ،
بما لا يختلف كثيراً عما نقلناه عن كتاب « مختصر العجائب » ، الذي ينسب إلى
إبراهيم بن وصيف شاه ، ويظن البعض أنه منقول عن كتاب المسعودي المفقود ،
الذي يشير إليه كثيراً في « مروج الذهب » ، باسم « أخبار الزمان » .

يرفع الستار

سنة ١٨٥٢ ، في عهد عباس الأول ، إرادة لمدير الخيصة :
حيث إنه يوجد آثار قديمة في نقط مختلفة ببلدة سقارة التابعة لمديريتكم كان قد أعطيت رخصة
حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط أن لا ينقلوا منها شيئاً
للخارج . . . ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لهم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية
يحفونها وينقلونها للخارج سراً ، وحيث إن نقل الآثار والمومياء للخارج أمر ممنوع جداً ، فيجب بعد
الآن الاهتمام بها ، ومنع إخراجها كلما ظهرت . ولأجل منع الأهالي من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها ،
يلزم أن تعينوا شخصاً مؤثماً بواسطةكم . . . وتقييموه في محل الاستكشاف ، ليراقب الحفر بدقة عظيمة ،
ويمنع تسرب الآثار المكتشفة للخارج ، ويعتني بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس . . . لتحفظ هناك
وتبقى سليمة من التلف والضياع ، حسب رغبتنا . ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالي
والأجانب استحوذ على شيء من هذه الآثار . . . تأكد أني لا أنظر في وجهك مرة ثانية ، وسأصدر أمري
حالا بمزلك ، وفصلك من المديرية . (مترجم عن التركية)

صبح النوم يا أفندينا !

وفي هذه السنة اكتشف أوجست مارييت في سقارة مقبرة العجل أبيس المعروفة
بالسرايوم .

* * *

سنة ١٨٥٧ ، في عهد سعيد ، إرادة لعبد القادر بك مدير القليوبية :
كما ورد في كتاب الموسيو أوغسطس مارييت الذي قدم لطرفنا كشف الجهات المأمول وجود آثار قديمة
فيها ، لإخراجها ووضعها في دار الآثار المزمع تأسيسها وإنشاؤها ، تنفيذاً لرغبتنا . . . وحيث إن
الآثار المملوكة كشفها وإخراجها ليست لغيرنا بل لذاتنا فبناء عليه . . . (مترجم عن التركية)

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال للداخلية منطوقه :
إنه قد عرض لدينا من موسيو مارييت عن بعض طلبات مختصة بأشغال عملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد
إصدار أوامرها عنها ، ومن الحملة ما هو موضحاً بيانه بأعلا أمرنا عنه ، واقتضت إرادتنا تأديته بمعرفة
الداخلية ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لإجري ذلك ، والثلاثة أود أن يعطوا له في المحل الذي تستنسبه
الداخلية ببولاك . والموسيو وسالى تصرف له ماهيته من الميرى في المدة المذكورة ، وبمقتضاها يرفت
كما اقتضته إرادتنا . (نص أصلي)

سنة ١٨٥٨ ، في عهد سعيد ، أمر عال لمديرية قنا وإسنا ، منطوقه :
إن موسيو مارييت قد أنهى إلينا عن بعض أشياء تختص بعملية الأنتيكة مأموريته ، ويريد إصدار
أوامر عنها ، من ضمنها مادة العشش الكائنة على هيكل إدفو اللازم تخليتهم ، وإن كان رأى مع موسى
بك أنه يمكن استعواضهم على أربابهم بمبلغ أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف غرش ، ثم لزوم قدر أربعين

حمار لأجل أشغال الفحت ، كذا يريد إعطا الريسا اللازمة على الأنفار الشغالة من كل مديرية ، الذى يعين أسماءهم ، ممكن يكون لهم دراية كافية بالمحلات الموافقة ، ليكونوا مأنوطين بإدارة الفحت ، باعتبار كل خمسين نفر واحد نفر ريس تقريباً ، ويحسب لكل واحد منهم يومى أربعة أو خمسة غروش مدة أيام الشغل فقط ، وحيث من وافق إرادتنا إجابات الموصى إليه فى طلباته هذه ، فقد أصدرنا أمراً لباقي المديرىات فى خصوص الريسا المقتضى طلوعهم من مديرياتهم ، وأصدرنا أمراً هذا إليكم لأجل هو مادة العشب ، ومشترى الحمير ، وإعطى الريسا المختصة بمديريتكم على الوجه المشروح ، كما اقتضت إرادتنا . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٣ ، فى عهد إسماعيل ، إرادة لمصطفى الكريدلى باشا ، محافظ مصر :
حيث إن ماريت بك عرض علينا لزوم تخصيص الشونة الموجودة أمام دار الأنتيقة خانة الكائنة ببولاق لوضع الآثار ، لأن دار الأنتيقة خانة الحاضرة غير موافية للغرض ، فبناء عليه وافق إرادتنا تخصيص وإعطاء الشونة المذكورة لوضع الأنتيقة ، فيجب أن تبادروا بالإجرى بمقتضاه .
تحشية : الشونة الموصى إليها ليست شونة الميرى الكبيرة المعدة لوضع الغلال ، بل هى العربخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانفجارية ، لذلك وضحنا لكم بهذه التحشية .
(مترجم عن التركية)

سنة ١٨٦٣ ، فى عهد إسماعيل ، أمر عال لديوان المالية ، منطوقه :
قد عرض علينا الإنهى الوارد من مدير الآثار التاريخية . . . بناء على أمرنا الشفاهى السابق إليه عن تنظيم الأنتيقة خانة تكون جاهزة للتفرج عليها وأن تعمل المصاريف اللازمة وتتقدم قايمتها ، وأوضح بأنه أجرى العمل ، ومن أول شهر نوفمبر صار فتحها ، وكثير من المتفرجين يحضروا للتفرج عليها ، ولكون المصاريف التى صرفت على ذلك تبلغ خمسة وخمسين ألف فرنك وأربعين فرنك وخمسة وخمسين ستم يرام صدور الأمر بصرفه ، وبترجمة القوائم التى وردت مع الإنهى المذكور . . . وحيث وافق إرادتنا صرف ذلك المبلغ إلى أربابه ، بعد المراجعة وأخذ السندات اللازمة ، فقد أصدرنا أمراً إليكم ، والقوائم المذكورة والجدول المحرر عنهم ، وإفادة أمين الأنتيقة خانة ، مرسولين لطرفكم معه عدد ٥٢ لإجرى صرف المبلغ . . . الذى توضح عنه على وجه ما ذكر ويخصم بالأبعادية . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٩ ، فى عهد إسماعيل ، أمر كريم صادر للمالية منطوقه .
ماريت بك مدير الأنتيقخانة أعرض لطرفنا بأن ولو أنه نتج من عملية الفحر على الآثار القديمة بمقتضى أوامرنا استكشاف جملة آثار تكون منبعاً لعلم التاريخ مدة طويلة ، غير أنه لا يتم هذا المقصد إلا بنشرها وتعميمها ، وحيث لا يكتفى الحال بجمع وتخزين هذه الأدوات والمهمات فقط ، ويلزم للوصول لإتمام هذا المقصد ، لإعمال مؤلف يتركب من ستة مجلدات ، فى الكامل ، تحتوى ثلثماية صورة ، ولأجل إعمال مائة نسخة من هذا المؤلف ، يتكلف جميع ذلك ثمانين ألف فرنك كالبیان الموضح بأعلاه ، وبما أن نشر وتعميم ذلك فيه منافع عمومية وخدمة مفتخرة لعلم التاريخ ، قد وافق إرادتنا قبول ذلك وتأدية المبلغ المرقوم إلى البليك الموى إليه فى باريس بالإحالة على بيت مسيو براويه ، بشرط يصرف له كل سنة ربع المبلغ فقط ، حتى يتم على أربعة سنوات حسب إنهاء ، ولاعتماد الإجرى على الوجه المشروح ، أصدرنا أمراً هذا إليكم . (نص أصلى)

لم يكن حديثي في الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر الخرافى لمجرد الفكاهة والتندر ، إنما هو منطق الكتاب دفعنى إلى محاولة تحديد الحالة الفكرية التى كان عليها آباؤنا وأسلافنا منذ انهارت الحضارة المصرية القديمة ، وتحولنا عن الوثنية إلى المسيحية ، وقضينا على آخر صلة لنا بماضيينا عندما كتبنا لغتنا بأحرف يونانية ، فضاع مفتاح الكتابة المصرية مع آخر العارفين بها من الكتاب والكهان . وآن لنا أن نصعد فى التاريخ ونهبط ، نتابع أدوار التحول من أساطير التاريخ المصرى القديم ، إلى بعض وقائعه ، بفضل الكشف عما بقى من آثاره .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » :

« ولصر أخبار عجيبة من الدقائق ، وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض ، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب ، إلى هذه الغاية (أى إلى زماننا هذا سنة ٣٣٢ هجرية) .

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز و ذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة فى بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام [أى الكتابات] السابقة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلباً عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم فى حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه ؛ فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخر ، منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور المختلفة . منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال ، أعينهم من أنواع الجواهر ، كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوها من ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها ربما بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى [جمع برنية] ، وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء . والطلاء دواء مسحوق ، وأخلط معموله لا رائحة لها ، فجعل منها على النار ، ففاح منها روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف فى نوع من الأنواع

التي للطيب ؛ وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر ، أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملك [الإخشيد محمد بن طغج] . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض — أعنى أرض مصر — أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه (انظر الفصل السابق) دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، [٩٣٩ م] .

« وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر ، إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة — أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيبت في هذه المطالب من القبور والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق . »

* * *

أما ترى في هذه الفقرة وصفاً بديعاً للكشف عن مقبرة مصرية قديمة : « حجارة مجوفة في صخر » ، أى نواويس ، « منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب » ، أى توابيت أغطيتها على شكل الميت . « فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فيها رمماً بالية وأجساماً فانية » ، أى مومياء « وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات من المرمر والرخام » ، وهى الأواني المعروفة بالكانوب . « وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل » ، أى التوابيت الخشبية ، « تمثال من حجر المرمر أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور » ، أى تماثيل القرين « كا » ، أو ما أسميه « عفريت الميت » ، إلى آخره !

وقد تنبّهت إلى فقرة وردت في تاريخ حياة أحمد بن طولون بكتاب « مصر في العصور الوسطى » للدكتور على إبراهيم حسن ، حيث يقول (صفحة ٨٢ من الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٥٤) :

« وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالاً قد لا تتمشى مع موارد البلاد في هذا العصر ، فإن خراج مصر في عهده لم يزد عن ٤,١٠٠,٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن ابن طولون قد عثر على كتزين كبيرين ، أحدهما في الصحراء ، والآخر في الجبل ؛ ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكتزين . » هل يقوم لديك شك في صحة ما ذهب إليه أولئك المؤرخون ، بعد مطالعة ما يقوله أبو الحسن المسعودي عن البحث عن الدفائن والمطالب : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاية مصر إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت ، أخبار عجيبة فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر . . . » إلى آخر الفقرة ؟

* * *

والعجيب أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، وقد زار دار البعثة العلمية الفرنسية ، وترك لنا وصفاً طريفاً لهذه الزيارة ، لم يشر إلى عملها الكبير في وصف وتسجيل الآثار المصرية .

ولكنه أشار في سلخ عام ١٢٣٢ هـ (أى عام ١٨١٧ م) يصف سائحين إنجليز يزورون الأهرام ، وينهبون الآثار ؛ وإليك الفقرة كلها كما وردت في الجزء الرابع من « عجائب الآثار » :

« ومنها أن طائفة الأفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة ، الكائنة ببر البحيزة ، غربي القسطة ، لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات ، والفحص عن الجزئيات ، وخصوصاً الآثار القديمة وعجائب البلدان ، والتصاوير والتماثيل التي في المغارات والبرابي ، بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص في مطلق الأقاليم ، بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك حملاً من المال في نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم ؛ حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية ، بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلى ؛ ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التي كان عليها في حال حياته ؛ وتماثيل آدمية من الحجر السماقي الأسود المنقط الذي لا يعمل فيه الحديد ، جالسين

على كراسى ، واضعين أيديهم على الركب ، ويبد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسیه قطعة واحدة ، مفرغ معه ، أطول قامة من الرجل الطويل ؛ وعلى رأسه نصف دائرة منه في علو الشبر ، وهم شبه العبيد المشوهى الصورة ، وهم ستة على مثال واحد ، كأنما أفرغوا في قالب واحد ؛ يحمل الواحد منهم الحملة من العتالين ، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضا رأس صنم كبير ، دفعوا أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيسا (نحو ثمانين جنيا) ، وأرسلوها إلى بلادهم ، لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ؛ وذلك عندهم من جملة المتاجرة فى الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى ، وسيدى إبراهيم المهدي الإنجليزى ، إلى بيت قنصل بدرب البرابرة ، بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية ، وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم ، وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون ، التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

« وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة ، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان ، وعبروا إلى داخلها ، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره ؛ ونزلوا إلى الزلاقة ، ونقلوا منها تراباً كثيراً وزبلا ، فأنتموا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوک . هذا ما بلغنا عنهم . » وحفروا حول الرأس العظيمة التى بالقرب من الأهرام ، التى يسميها الناس رأس أبى الهول ، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ، ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهى التى يراها الناس ، وباقى جسمه مغيب بما أنهال عليه من الرمال ؛ وساعده ، من مرفقيه ، ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر ، عليه نقوش شبه قلم الطير ، فى داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ؛ رفعوه أيضا إلى بيت القنصل ، ورأيت يوم ذاك .

« وقيس المرتفع من جسم أبى الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعاً ، وهى نحو الربع من باقى جسمه . وأقاموا فى هذا العمل نحواً

من أربعة أشهر . . .

« . . . ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الإفرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضى الصعيد ، والفحص وفجر الأراضى والكهوف والبرابى ، واستخراج الآثار القديمة ، والأهم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى . »

وبعد ذلك لا نجد فى تراثنا غير الإرادات والأوامر العالية التى نقلنا طرفا منها فى صدر هذا الفصل ، والتى ندرك منها أن الولاة بدءوا يتنبهون ، تحت تأثير الأجانب ، إلى أهمية « الأنتيقة » . ويغلب على ظنى أنهم كانوا يطمعون ، كأسلافهم ، فيما يمكن أن تؤدى إليه « مادة الفحت » من كنوز مخبوءة . ولكنهم على كل حال اعتنوا بأمر الرجل الذى تدين له مصر والعلوم الإنسانية بدين كبير ، وهو أوجست مارييت ، وسلموا إليه « الشونة المومى إليها ، وليست شونة الميرى الكبيرة لوضع الغلال ، بل هى العربخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية » ، كما جاء فى « التحشية » ، لتضم إلى « دار الأنتيقة خانة ، الغير موافية للغرض . »

والحق أن قائمة الشرف — التى يثلج صدورنا أن تنتظم أخيراً أسماء مواطنينا ، تحت اسم أحمد كمال — تبدأ بالبعثة العلمية الفرنسية ، فشامبوليون ، فارييت ، فليسيوس . أولئك هم مؤسسو علم العاديات المصرية ، أو المصروولوجيا كما أحب سلامة موسى أن يسمى الإيجيتولوجيا .

وضياع كنوزنا الأثرية ، وانتقال الكثير منها إلى متاحف العالم كله — حتى ذلك المتحف البسيط ، الذى زرته ببلدة صغيرة من بلاد الحجر ، يحتوى على موميائه المصرية بتابوتها ! — وإلى أيدي الأفراد ، بدأ منذ عهد الأسرات بسرقة المقابر . وهناك قضية مشهورة فى التاريخ القديم عن عصابة من لصوص المقابر ، حدثت فى عهد رمسيس التاسع ، حين اتهم عمدة طيبة زميله ، رئيس حرس المدافن الملكية ، بالتستر على اللصوص ، وبأن مقبرة أمنحوتب الأول قد نهبت . وأجرى تحقيق على يد لجنة عليا اعترف أمامها أحد أفراد العصابة بسرقة هرم شبسكاف ، وأقر على شركائه .

ولعل أهون الخطب أن تسرق الآثار ، وتنتهى إلى مكان أمين ، سواء بمصر أو بالخارج . إنما الطامة الكبرى هى فيما انهار منها تحت معاول الهدم ، أو ذاب فى بوتقة الصائغ ، أو احترق فى شبشة الساحر . ولو استطاع الرهبان المصريون أن يسووا بالأرض كل ما كان قائماً من آثار الوثنية المصرية ، لفعلوا ، ولكنهم عجزوا فى كثير من الأحوال ، أو هم فضلوا بناء بيعهم مستندة إلى صروح المعابد ، وتعميد كنائسهم فى قاعاتها الداخلية . هذا إلى أنهم حولوا المدافن المنهوبة إلى « قلايات » لإقامتهم وتعبدهم . وكانوا يطمسون على نقوشها وصورها بالملاط أو الطين مخلوطا بالتب ، حتى لا يوسوس الشيطان لهم . وكان فى هذا الطين والملاط ، الذى طمسوا به حوائط المعابد والمقابر ، ما حفظ صورها على طول الزمان . ولم يكن المصريون المسلمون أكثر رحمة بآثارهم من إخوانهم المسيحيين . وقد طالعنا ، فیم اخترناه من كلام المسعودى ، صورة مما حدث على مدى آباء التاريخ المصرى ، من تدمير وتحطيم ، بحثا عن الدفائن والمطالب .

وكان أهلنا ، إلى عهد قريب منا ، يضعون أيديهم على كل ما تصل إليها من قطاعات الأعمدة ، ليستعملوها حجارة رحي ، ومن لوحات تذكارية « ستىلا » ، ليبسطوها عتبات بيوت ، وعقود أبواب . وكانت بعض المعابد تتحول إلى محاجر . . . وقمائن جبر . هذا إلى ما نقل من أعمدة المعابد ، لإقامة الكنائس والمساجد . ثم تلك المدن الكبرى التى هجرها الناس ليسكنوا قراهم الحقيمة ، لم تترك لينهاى عليها تراب الزمان ورماله ، بل ساعد الأهليون على دفنها ، إذ كانوا يحياونها إلى مقابل لقماماتهم ، وكأنهم يعبرون بذلك عن كرههم لتلك « الكفريات » ، وخوفهم من العفاريت وفعل الطلاس . وإنهم لعائدون إلى تلال القمامة فى الغد القريب ، سباخين يستخرجون منها سماداً كفرياً لزراعتهم .

وقد حرصت على وضع نصوص الأوامر العالية فى صدر هذا الفصل بسبب قرب أولها من عهد محمد على ، وكان من أشد العهود نكيراً على آثار أجدادنا . وكأنه لم تكف هذه الآثار أن تنال منها القرون والأجيال ما نالته ، بل جاء نشاط محمد على فى بناء المصانع — التى أفلست كلها — وقضى فى أقل من ربع قرن على أكثر مما محاه الفرس واليونان والمسيحيون والمسلمون والمغامرون الأجانب مجتمعين .

ويقدر إرنست رينان أن تلك المصانع ، وبناء القصور ، أزال من على وجه البسيطة ما لا يقل عن عشرة معابد كبيرة .

والآثار التي نراها الآن قائمة فوق الأرض ، ونجوس في رحابها وأبهاؤها ، لم تكن حتى القرن الماضي غير حجارة مبعثرة في الفلاة ، أو أعمدة مدفونة إلى أكثر من نصفها في الرمال ، وتحت تلال من القمامة ؛ وكانت بعض المعابد قد تحولت إلى كفور وعزب وساحات موالد وأسواق . ويكفي أن نقلب صفحات الكتب التي سجلت صور هذه الأطلال ، منذ البعثة الفرنسية ، لنتحسر على ما صنعت الأيام والآباد ، والسلف الصالح والطالح ، بآثار آبائنا وأجدادنا الأولين .

الموقف إذن هو : أطلال مدمرة مهدامة مشوهة ، مدفونة في الحماة والرمل السافية ، وكلام يختلط فيه الوصف الصادق بالخرافات والأساطير ، يرد في كتب الرحالة والجغرافيين القدماء ، وعلى رأسهم ذلك الصحفي الأول هيرودوتس الهاليكارناسي . وتهريف لا رأس له ولا ذنب ، تقدمه الكتب العربية على أنه تاريخ مصر . و « قلم » مات وضاعت مفاتيح قراءته . وقوائم بأسماء ملوك مصريين انتظموا في أسرات ، نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس ، ويوليوس الأفريقي ، ويوسابيوس ، فيما يعرف « بالمختصرات » عن كتاب ألفه الكاهن السمنودي مانيتون بأمر بطليموس الثاني . . . ودمتم !

ومنطق هذا الكتاب يطالبني بأن أصعد في التاريخ على ضوء ما بذل العلماء الأعلام من جهود المؤمنين ، للكشف عن وجه أم الحضارات وقد تغطى بنقاب إيزيس ، وعليه أحوال وأدران . . . وسباخ كفرى . وتصعيدى في التاريخ ، عن طريق أولئك الجهابذة ليس من السهولة كما يبدو لأول وهلة . فهناك أسباب تجعل فهمنا للتاريخ المصري عسيراً ؛ وما أعنيه من فهم ، ليس مجرد الإدراك العقلي لتاريخ بلادى ، وإنما هو الإحساس بذلك التاريخ ، ووصل ما انقطع من الروح المصري . فإن بين حاضرننا وماضيها البعيد ، هوة فكرية عميقة ، لم يحدشها الفتح العربي كما يظن بعض الناس ، وإنما غار الطريق المنبسط بعد غزو الإسكندر ، وربما قبل ذلك . فإن القرون الأخيرة للأسرات كانت في صميمها قرون انحلال ، نشأ عن اختلاط المصريين بالشعوب الأجنبية اختلاطاً كبيراً ، منذ غزا الهكسوس

مصر ، فقامت قومة رجل واحد تتخلص من نير أولئك البرابرة الآسيويين ، وتكتسحهم حتى حدود بلادهم ، وإلى أبعد من حدود بلادهم ، وتؤسس إمبراطورية واسعة الأرجاء . وقد أحست بأن اطمئنانها إلى حدودها المائية والصحراوية لم يكن إلا خيالا . وهي في حاجة ، للاحتفاظ بإمبراطوريتها ، إلى جيش محترف ، لا مجرد زراع وصناع يجندون لأداء مهمة بوليسية محدودة في النوبة أو سينا ، ثم يعودون إلى زراعتهم وحرفهم . وما حدث في مصر حدث في روما ، وهي تتحول من جمهورية مزارعين إلى إمبراطورية يساندها جيش محترف كبير . وملوك مصر يصاهرون الأسر الأجنبية ، ويستقبلون أمراءها غلمانا وفتيانا ، ويشرفون على تربيتهن تربية مصرية ، لينشأوا أغوانا لهم في بلادهم ، يحكمونها باسم مصر . ولقد انتهت إمبراطورية الرعامسة إلى ما انتهت إليه الإمبراطوريات : رخاء واسع وثراء عريض ، أجناد أجنبية ، ومعابد كبرى ، أغدقوا الخيرات على آلهتها الذين ناصرهم في فتوحاتهم ؛ فإذا الكهنة يسيطرون على الحياة العامة ، وعلى الأسرة الملكية ، وإذا الكاهن الأكبر ، هريهور ، يغتصب العرش في مطلع الأسرة الأولى بعد العشرين . وتجيء أسرات مصرية أخرى ، وأسرات إثيوبية وليبية ، تعيد إلى مصر بعض مجدها الغابر ، فتتوهج شعلة الحضارة زماناً ، ثم تخبو نهائياً تحت أقدام الغزاة الفرس والمقدونيين . ولا يفيدنا شيئاً أن تتمسك الأسرة اللاجيدية بمظاهر العبادة المصرية ، فلم يكن هذا إلا نوعاً من النصب والاحتيال السياسي ، مارسه غير قليل من الفاتحين ؛ ولا سيما أن البطالسة لم يترددوا في استنباط عبادات إله بزرميط ، اسمه يجمع بين اسمي أوزيريس وأبيس ، فهو سيرابيس [أوزير - أبيس] ، وتماثله ، الباقية لنا في متحف الإسكندرية ، تظهره على صورة أقرب إلى زفس كبير البانتيون اليوناني . وزاد الاختلاط ، بل التخليط ، في العهد الروماني ، فلم يبق حيّاً في نفوس الشعب المصري سوى أسطورة الثالث الأوزيريسي ، وهي الأسطورة التي ألف فيها بلوتارك كتاباً جميلاً ، واضح المعالم ، لولاه لظللنا نتخبط في فهم هذا الثالث تخبطنا ، إلى اليوم ، في فهم البانتيون المصري كله ، برغم ما كتبه ويكتبه المؤرخون المحدثون من مؤلفات عظيمة ، تقرأها بعناية ، فتحسب أنك فهمت شيئاً ، وتعاود قراءتها فإذا بنا . . . يا بدر !

وعندما تحول أسلافنا إلى المسيحية ، وحظر مرسوم الإمبراطور المسيحي
ثيودوسيوس عبادة الأوثان في أنحاء الإمبراطورية ، أخذ الشعب المصري ، بقيادة
قساوسته ورهبانه ، يهدم الأوثان ، ويلطخ صور المعابد والمقابر ، وينزل بمحاولة
على كل ما يستطيع تبطيطة منها ، وتسويته بسطح الأرض ، أو هو يحولها إلى
كنائس وصوامع . فهل تنتظر من أجدادنا المسلمين خيراً من هذا ؟ لم يترددوا ،
هم أيضاً ، في الزحف على المعابد ، وإقامة أضرحة الأولياء في وسطها ، أو نقل
أعمدتها ، وأعمدة الكنائس ، لإعادة استعمالها في المساجد والجوامع والمنازل .

ودخول المصريين في المسيحية لم ينته فقط إلى فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية
والهيروغليفية والديموطيقية ، بل إلى فقد معالم التاريخ المصري . ومن أهم معالم تلك
الديانة القديمة التي كانت عماد الحياة الفرعونية ومصدر قوتها . . . وضعفها .
فإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المخاطبة بين المصريين ، حتى بعد الفتح العربي
بزمان طويل ، فإن كتابتها بحروف يونانية ، وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ
اليونانية ، وبخاصة ما يستعمل منها في طقوس الكنيسة ، وفي القضاء والإدارة ،
قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية . والعجيب أنه أصبح من الخطر على
المصريين ، وطلاب العلم على وجه خاص ، أن يضبطوا وفي حياتهم برديات
قديمة ، على زعم أن كل هذه الكتابات المصرية إنما تنطوي على أسرار السحر .
ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلاً مصرياً لهم ، يدرس في بيروت ، ومن
مواليد طيبة ، يمارس الشبشية . فذهبوا إلى منزله ، في غيبته ، وقرروا خادمه ، حتى
عرفوا أن زميلهم يخفي لفافات بردية في قاع صندوق يستعمله كمقعد . ولما عاد
الصعيدى إلى منزله ، وتحقق من اكتشاف أمره ، خر على وجهه ، وبكى وابتهل
إلى زملائه أن لا يسلموه للسلطات . ويقول ساويرس ، الذى يحكى هذه الحكاية :
« ولقد أشفقنا عليه ، لأننا مسيحيون نخاف الرب » . ولم يتركوا زميلهم الشاب
المصرى ، حتى أحرق أمامهم بردياته . ويورد يوحنا « فم الذهب » قصة مماثلة ،
شهد وقائعها في شبابه : كبس فيها الشرطة رجلاً يخفي برديات تحتوى على أسرار
السحر . ومع أنه تمكن من إلقائها في النهر ، فقد قبض عليه ، وحوكم وأعدم .
التحول إلى المسيحية هو الذى قضى على مصر القديمة عقيدة ، وقلماً ، وتاريخاً

وآثاراً ؛ ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز على الوثنية ومعالمها ، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة ، حتى يجئ زمان لا يكاد رجال الإكليروس يعرفون من هذه اللغة إلا القليل ، يرددونه في بيوت عبادتهم . وإذا كان أجدادنا الأقباط ، في القرون الوسطى ، حاولوا الإبقاء عليها ، فلم يكن ذلك ليعيدوها لغة تخاطب ، وإنما حرصاً على الطقوس ، وحفاظاً للكتاب المقدس في ترجمته القبطية القديمة . فهي حركة علمية ، اتخذت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية ، كما يظهر من الكتب التي ألفها الأقباط لهذا الغرض من القرن السادس عشر وما بعده .

والإحساس بالتاريخ إحساساً يحرك المشاعر ، ويوقظ القومية ، لا يكون إلا على أساس استمرار التقاليد . وقد انقطعت الصلة انقطاعاً تاماً بين المصريين ، مسيحيين ومسلمين ، وبين أسلافهم الوثنيين ، ولم تعد آثار هذا السلف تتحدث إلى نفوسهم بأكثر من الإيحاء بأنها رموز كفرية ، وكنوز مخبوءة ، تقوم على حراسها طلاس عمل بقوى خفية . والمصريون المسيحيون الأثلي ، يسألون عن حكاية السحر والطلاسم هذه ، بل ويسأل عنها أجدادهم الوثنيون ، عندما لم تبق من عقائدهم القديمة سوى روزها السحرية ، وطبها الروحاني ، وطقوسها في عبادة الحيوانات ؛ ولم تكن إيزيس في قرارة أنفسهم سوى سيدة السحر ، ومستودع أسرار الآلهة . والعجيب أننا ما زلنا إلى اليوم ، لا في مصر وحدها ، بل في العالم أجمع ، نعتقد ، إن قليلاً أو كثيراً ، بهذا السحر ؛ وما زالت شعوزة المشعوذين من أمثال « مغربي كداب ، يفتح الكتاب » تتحكك بالدين . فالساحر الأفاق ، وأدعياء الطب الروحاني ، ما زالوا يعتمدون أولاً على مظاهر « الولاية » ، سواء في هذا المسلمون والمسيحيون ، وهم يخلطون خلطاً خبيثاً بين ما يسمونه « اللغة السريانية » ، وهي لغة الجح في عرفهم ، وبين بعض الكلمات القدسية ، ويعتمدون على ذلك في تعاويذهم وتماثيمهم وتخليطهم . ولقد اكتشفت أخيراً أن اعتقادنا بقدرة المغاربة على السحر ، يقابله ما كان يدعيه مشعوذو الشمال الإفريقي ، وسحرة الأندلس الإسلامية ، من أنهم تعلموا السحر في ظلال الأهرام ، ونحت آراج البرابي والمدافن . هذا وعلامة السحرة في أوربا كانت ، وما برحت ، بومة — لعلها ترمز إلى الصقر ! — ومومياء ، أو بعض مومياء مصرية ! ثم تأمل الاعتقاد بلعنة الفراعنة ،

تلك الحرافقة الشائعة بين الأنجلوسكسونيين ، ألا ترى فيها أثراً مما لابس الديانة المصرية القديمة من ضروب السحر ؟

ولا أنسى ، في أول عهد إقامتي بأوروبا ، أننى دعيت إلى جلسة بين قوم مثقفين — وإن كانت غالبيتهم من السيدات ذوات اللثة والتخليط — فإذا المحاضر يرقى المنصة ، فتطفأ الأنوار ، إلا ضوء مسرحية زرقاء . . . ويدلى إلينا الحبر الفهامة بأسرار . . . الكوتشينة « التارو » ، وعلاقتها بأبعاد الهرم الأكبر ، واتجاهات زواياه ! وإلى عهد قريب منا ، كانت تعيش في الأقصر جماعة من المشعوذين الأجانب ، يقيسون أبعاد معبد الأقصر ، ثم يفصلونها على جسم الإنسان ، جنيناً ، فطفلاً ، فرجلاً ! وقد أهدانى أحدهم مقالا له في هذا الهذيان ، فأنعمت به على ضيف أجنبي « مهفوف » ، وإذا بالرجل يطير بالمقال ، حقيقة ومجازاً ، بعد أن دار أمامى دورة ، وقفز في الهواء كما تقفز الهررة ، فقد كان حضرته أستاذاً كبيراً من أساتذة البالية !

وإذا فتحنا كتابا من كتب السحر — وقد عنيت مصلحة الآثار المصرية بنشر أحدها في سلسلة بحوثها — وجدنا فصوله تجمع بين الوصفات و « الأعمال » ، التي تشفى العلل ، وتذيب القلوب صباية ، وتنفع لمقابلة الحكام . وكانت النسوة ، في الربع الأول من هذا القرن ، يقمن بطقوس مخصوصة حول موميات الفراعنة بالمتحف المصري ، علاجاً للعقم ، وتسمين ذلك : « راحت يا ختى تشق » . ناهيك بما في تلك الكتب من التعازيم والخطط المعقدة ، والبحث عن قلب هدهد يتيم ، ودفن بيضة دجاجة سوداء ، أربعين يوما ، بين أربعة مفارق . . . وذبح الكتكوت الذى يخرج منها ، قبل أن يصيح . . . والكتابة بدمه في كاغد ، ودخول القبور المهجورة بظهورك وأنت تبرجم باللاوندى ، حتى تنهى إلى الرصد ، الذى يفتح لك مغاليق المطالب والدقائق !

هذه هى مصر القديمة التى نبحث عبثاً عن روحها ، ونحاول أن نتصل بحقائقها الحية ، فيقصينا عنها شىء غير مفهوم ، ربما كان سببه أن التاريخ الذى يكتبه علماء المصريين ما زال ، فى أركان كثيرة منه ، شذرياً مفككاً . ولم يكن الأوروبيون ، الذين وفدوا على مصر فى القرون الوسطى ، خيراً من

الزائرين العرب أو أقرب فهماً للتاريخ المصرى . هذا إلى أن مرورهم بمصر لم يكن إلا استكمالاً لارتياح الأراضى المقدسة ، فكانوا يعنون ، أول ما يعنون ، بآثار يسوع الطفل مع أمه وخطيبها يوسف النجار ، عندما لجأوا إلى مصر هارين من أرض الجليل ، إنقاذاً للطفل من مذبحه الملك هيرودىوس . فيتبركون بشجرة العذراء فى المطرية ، ويشربون من نبع البلسان ، وينتقلون إلى قصر الشمع ، حيث يقودهم شماس كنيسة أبى سرجة إلى كهف تحت أرض الكنيسة ، يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيه بعض الوقت . وحتى الأهرام لم تكن عند أولئك الرحالة سوى أهراء الغلال ، ومخازن التموين ، التى أقامها يوسف الصديق لمواجهة السنين العجاف .

ومدينة طيبة العظمى ، ذات المائة باب فى قول هوميروس ، لم يكن أحد يعرف لها جرة ! حتى لقد حسب الرحالة الأوربيون الأوائل موضعها مدينة أنصنا [أنطنوس = الشيخ عبادة حالاً] ، وذلك لأن دقلديانوس كان قد جعل من هذه المدينة عاصمة الطيبائيدة . وأول من بلغ مكان طيبة الحقيقى اثنان من الرهبان الكابوشين ، وصفا ما كان يظهر من الكرنك فى منتصف القرن السابع عشر ، دون أن يدركا أنهما أمام أعظم المعابد المصرية ، فى أكبر عواصم العالم القديم . ولم يتحقق من ذلك سوى الأب سيكار ، فى أواخر ذلك القرن .

ثم يزور مصر الرحالة بوكوك ونوردن ونيبور ، فسافارى وقولنيه ؛ ويبدأ عهد لصوص الآثار من الأوربيين ، وهواة الموميات والتحف ؛ وكانت مصدر رزق كبير لهم ، لحرص ملوك ذلك الزمان وأمرائه على اقتناء « أنتيكات » ، تضم إلى مجموعاتهم الخاصة التى كانت تعرف بـ « غرف التحف والعجائب » ، وكانت الأصل لكثير من المتاحف الأوربية الكبرى .

تلك كانت مصر القديمة عند المصريين ، والرحالة الشرقيين والغربيين ؛ حتى جاءت الحملة الفرنسية ، وفى ركبها مجموعة ممتازة من العلماء والفنانين ، جاءوا ليستكشفوا ويدرسوا ويسجلوا . ومع أن « المعهد العلمى المصرى » كان قد أنشئ بمجرد بلوغ الفرنسيين القاهرة ، فإن لجنته الآثار المصرية لم تؤلف إلا بعد أن عاد البارون فيفان دينون من رحلة الصعيد ، وكان قد صحب تجريدة الجنرال ديزيه ، التى أتمت الاستيلاء على مصر ببلوغها أسوان . ودينون رسام بارع بريشته وقلمه ،

يرسم كل ما يمر به من أطلال ، ويدون مذكرات رحلته . وبعد عودته إلى القاهرة ، وحديثه مع الجنرال بونابرت ، وإطلاعه إياه على رسوماته ، أمر كبير الحملة بإنشاء لختين بالمعهد العلمى المصرى ، مهمتهما « قياس جميع آثار الصعيد ، ورسمها رسماً موضوعياً صحيحاً ؛ تراعى فيه الدقة العلمية » . وطبع دينون مذكرات رحلته مع رسوماتها بباريس سنة ١٨٠٢ ، فذاعت شهرتها عاجلاً ، وتعددت طبعاتها وترجماتها . ومن هنا تبدأ « الإيجتولوجيا » ؛ تبدأ علماً موضوعياً ، يقيس ويسجل ويقيّد ويرسم ، دون أن يحاول تفسيراً . وأنى له التفسير ، وذلك القلم البربائى — كما يسميه أحمد كمال فى كتاب « العقد الثمين » — لا سبيل إلى فض أغلاقه ؟

ولن نقفز هنا إلى خبر العثور على حجر رشيد ، فإن الهيروغليفية لم تنتظر هذه اللقيا لتجد من يبحث عن أسرارها . بل إن موضوعها قائم منذ عهد الرينسانس فى إيطاليا ، وقد وجد الناس فى روما بعض مسلات أعادوا إقامتها . والمسلة أثر غاية فى التحدى ، فهى لوح محفوظ ، عليه كتابات تستثير فيك رغبة ملحة نحو تفسيرها . وكان المؤرخ أميانوس مارسلينوس ، فى القرن الرابع الميلادى ، قد دون فى تاريخه ترجمة لاتينية لنص منقوش على إحدى تلك المسلات ، نقلها عن واحد من الكهنة المصريين . ولكن الباحثين أيام الرينسانس ضلوا بين نصوص المسلات ، فأى نص ذاك الذى دون ترجمته أميانوس ؟ ثم وقع لهم كتاب باللغة اليونانية ، لمصرى اسمه هورابولون ، عن الكتابة الهيروغليفية ، يتضح منه أن أسرارها استغلقت عليه . ونشر هذا الكتاب إبان القرن السادس عشر فى طبعات كثيرة . وحاول الأب اليسوعى أثناسيوس كيرخر ، فى القرن السابع عشر ، حل اللغز البربائى ، وحسب أنه توصل إلى الحل عندما قال بأن الهيروغليفية كتابة دينية غيب فيها المصريون أسرار حكمتهم . وقد بلغ القس العلامة من فهمه لهذه الحكمة ، وفكه لتلك الأحاجى ، أن جاءت ترجمته لكلمة « أپرييس » — وهو اسم علم لأحد ملوك الأسرات المتأخرة — على الوجه الآتى : « نعماء الإله أوزيريس ، تفيئها على البشر طقوس مقدسة ، يقوم بها نفر من الجن فتحل بركة النيل » . . . أقل من هذا وتفق الحمار !

وحاول من بعده القس الإنجليزى واربرتون ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، محاولات فاشلة . وظن دى جين ، والأب نيدام ، أن الهيروغليفية ضرب من الكتابة

الصينية ، كما ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من السريانية أو العبرانية . واستطاع الدانياركي زويجا - وكان عارفاً باللغة القبطية - التحقق من أن الخانات البيضاوية المعروفة بالخراطيش ، تحتوى على أسماء ملوك ، وأن للعلامات الهيروغليفية مقابلاً لفظياً ، أى أنها حروف صوتية (فونيتيك) . ونقل كارستن نقوشاً بربائية نقشا أقرب إلى الصحة من نقل سابقه .

وفي آخر القرن الثامن عشر ، وبينما جنود بونابرت يقيمون تحصينات على بقايا قلعة مصرية من قلاع القرون الوسطى ، إلى الشمال الغربى من رشيد ، عند قرية البرج ، على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة برج مغيزل على الضفة الشرقية ، عثروا على حجر أسود ، عليه كتابات بلغات ثلاث ، إحداها الهيروغليفية ، وآخرها اليونانية ، وفى وسطهما كتابة عرفت فيما بعد أنها ديموطيقية . وأبلغ الضابط المهندس بيير بوشار ، المشرف على الأعمال ، خبر العثور على الحجر إلى البعثة العلمية بالقاهرة . وبقية القصة معروفة ، ولكنها جديرة بأن تنشر تفصيلاً فى كتاب عربى يترجم حياة الرجل الفذ فرانسوا شامبوليون .

وكنتم أحسب - كما يحسب الناس فيما أظن - أن مجرد العثور على نص هيروغليفي وديموطيقي ، يقابلان ترجمة إغريقية لمرسوم بطليموس إبيفانوس ، كاف لفتح مغاليق الكتابة المصرية القديمة ! والواقع أن النص الإغريقي ، على حجر رشيد ، يحتوى على أربعة وخمسين سطراً ، والنص الديموطيقي على اثنين وثلاثين سطراً ، أما النص الهيروغليفي فلم يبق منه سوى أربعة عشر سطراً ، لشطف هام فى الحجر . واللغة ليست مجرد ألفاظ متراسة ، بل هى كلمات وقواعد وأجرومية . ثم إن الكلمات ، فى لغاتنا ، مركبة من حروف ، فهل كانت الهيروغليفية حروفاً منطوقة - فونيتيك - أم أنها رموز ذات معان ، أى إيديوجرامات ؟

كان على شامبوليون أن يكتشف أولاً أن الهيروغليفية فى أساسها كانت رموزاً ، وتحولت فى تطورها إلى الانتفاع ببعض منطوق هذه الرموز ، لتستعمل حروفاً أو مجموعة حروف . كأن نرسم صورة رجل يرمى بالجللة ، فنفهم منطوقها ومعناها : « رمى » ؛ ثم نرسم إلى جانب ذلك صورة خروف مذبوح ، ومعلق ، فنفهم منطوقه ومعناه « ضأن » ، ونخرج من هذين الرمزتين ، بعد لآى ، إلى أن المعنى كلمة

لا علاقة لها بالضأن ولا بالرمي ، فماذا تكون ؟ رمى - ضأن = رمى ضان = رمضان ، مثلاً . ثم تطورت الهيروغليفية بعد هذا إلى حروف صوتية بعينها . ولكن الكتابة احتفظت مع ذلك بكل أدوار تطورها ، من الرموز إلى الانتفاع بمخارج أصوات الكلمات كمقاطع لكلمات أخرى [رمى - ضان = رمضان] إلى حروف بعينها . وقبل شامبوليون ، كان السويدي « آ كربلاذ » وقد وفق إلى تبين بعض حروف الديموطيقية ، كما كان الإنجليزى ، يونج ، ركز همه في تفسير الحروف أو الرموز المكتوبة داخل الخانات [الحراطيش] الملكية . وبما أن نص حجر رشيد هو مرسوم لأحد البطالسة ، فقد تابع يونج بحثه أربع سنوات ، يتخبط بين أسماء الأسرة اللاجيدية ، حتى أصاب في قراءة بعض اسم « بطليموس » ، وبعض اسم « برنيقة » ، وبذلك استطاع الكشف عن عدد من الحروف .

ولم يكن شامبوليون مجرد هاو لحل المسابقات الصحفية من نوع الكلمات المتعارضة وما إليها ، بل كان منذ حداثة كلفا بدراسة اللغات القديمة شرقية وغربية ، وقد حذق اللغة القبطية ، كما توصل إلى إدراك أن القلم المصرى القديم يكتب على ثلاثة أشكال : الخط الهيروغليفى والهيراطيقى والديموطيقى ؛ والأخيران يختصران الخط الهيروغليفى ، كما يختصر خط الثلث أو النسخ ، بخط الرقعة ، وكما تختصر الحروف الكيرلوسية الروسية ، والغوطية الألمانية ، عندما تكتب باليد سريعاً .

استغرق شامبوليون فى دراسة نص حجر رشيد ، وغيره من النصوص ، نحو عشرين سنة ، باحثاً منقّباً ، على أساس من معرفته باللغة القبطية أولاً ، وفى قدرة عجيبة على التركيز الذهنى . وما أكثر ما تردد وتراجع . فهو يؤكد فى عام ١٨١٣ أن الهيروغليفية ليست رموزاً تعبر عن فكرة ، بل حروفاً هجائية ؛ ثم يتنكر لهذه الفكرة سنة ١٨١٨ ، ليعود إليها مرة أخرى ، فيما بعد . إنه يبدأ بدراسة نص ديموطيقى ، فى بردية عليها اسم « كليوباترة » ، ويحاول أن يركب هذا الاسم - من عندياته - بحروف هيروغليفية . ثم يهمل ذلك حتى يجيء عام ١٨٢٢ ، حين يعثر على صورة لنص هيروغليفى منقوش على مسلة من جزيرة فيلى ، يطالع فيه اسم كليوباترة . . . كما كان قد كتبه من قبل ، ومن عندياته !

محاولات مرهقة ، استغرقت الأيام والليالى ، والأشهر والأعوام ، حتى يجيء

صباح ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، وهو يطالع نقوشاً هيروغليفيه ، نسخها ، وأرسلها إليه من مصر ، مهندس معمارى من معارفه . وكانت تلك النقوش تتميز بخانات [خرطوشات] عدة . فتأهب شامبوليون لقراءتها ، وقد جمع أمامه خمسة وعشرين حرفاً هيروغليفاً ، كان قد توصل إليها بعد قراءة أسماء بطليموس ، وكليوباترة ، وإسكندر ، وغيرها من أسماء البطالسة ، وأمباطرة الرومان :

ففى إحدى خانات النص الذى وصله حديثاً ، لاحظ علامة الشمس ، وتحتها ثلاث علامات ، اثنتان منهما مكررتان ، هما حرف س والأولى حرف م فقرأها « مسس » ، وبقيت علامة الشمس . وإذا به يدرك فجأة أن « رع » هو اسم الشمس — كما عرف من كتابات الأغارقة والرومان — فتنفجر فى ذهنه انفجاراً كلمة « رع — مسس » ! وفى خانة أخرى ، يرى نصفها الأسفل مشابها لنصف خانة « رع — مسس » ، وفى نصفها الأول صورة طائر ، يقف على قاعدة ، هو الطائر المصرى أبو منجل ، وهو عند المصريين رمز لإلههم «توت» أو «تحتوت»، فيقرأ الاسم الجديد : « تحتوت — مسس » أى تحوتمس !

يجمع شامبوليون أوراقه ، ويجرى إلى أخيه الأكبر ، وكان يعمل فى الأكاديمية الفرنسية ، سكرتيراً خاصاً للعلامة « داسييه » . يدخل على أخيه منفعلاً ، ويلقى على مكتبه مجموعة أوراقه ، وهو يصيح « أدركتها » ، وكأنه يردد كلمة أرشميدس : « أوريكا » ، ثم يقع مغشياً عليه ، لفرط حماسه وإجتهاده ، وعناء السنوات التى عاناها فى البحث والتنقيب والمقارنات ، بالرغم من تضعضع صحته .

وفى يوم ١٩ سبتمبر ، بعد خمسة أيام قضائها مستغرقاً فى سبات عميق ، يفتح عينيه ، وما يكاد يقوم من فراشه ، حتى يشرع فى تحضير مذكرته المشهورة ، التى بدأ طبعها بعد ذلك بأيام ، وقدمها إلى المجمع الفرنسى ، بعنوان « خطاب إلى السيد داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب ، خاصاً بأحرف الهجاء الهيروغليفيه ، ذات المخارج الصوتية ، التى استعملها المصريون لينقشوا على آثارهم أسماء الملوك اليونانيين والرومانيين ، وألقابهم . »

وفى آخر عام ١٨٢٢ ، ينتهى شامبوليون إلى التعرف على أسماء عدة ملوك من الأسر الفرعونية : أخوريس ، ونفيريتس ، وإسماتيك ، وشيشونق ، وغيرهم .

وقد أدرك أخيراً أن الكتابة المصرية تتألف من أحرف ، ومن رموز ؛ وعرف أن قواعد النحو القبطي ، هي قواعد نحو اللغة المصرية القديمة ، وشرع في ترجمة نصوص كاملة ، ظهرت سنة ١٨٢٤ في كتابه المسمى : « الطريقة الهيروغليفية عند قدماء المصريين . »

ويسافر إلى إيطاليا ، ليدرس نصوص متحف تورينو ، ثم يتاح له أن يزور مصر ، حيث قضى سنتي ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، على رأس بعثة توسكانية يقص علينا طبيها كيف عثر به ذات مرة مغمى عليه ، في مقبرة من مدافن طيبة ، وحوله اللوحات التي كان ينسخ عليها النصوص .

ويعود إلى فرنسا ، فينتخب عضواً في أكاديمية النقوش والآداب ، وينشأ له بالكوليج دي فرانس أول كرسي لعلم المصريات . ولكن حاجته إلى الراحة التامة تضطره إلى الاعتزال في بلدته فيچاك ، وهناك يضع آخر كتبه في قواعد اللغة المصرية القديمة ، ويقول عنه بحق : « إنه بطاقة زيارتي ، أتركها للأجيال القادمة » .

ثم يعود إلى باريس ، محطم القوى ، ليشرع في دراسة مواد بعثته إلى مصر ، ويصاب بالفالج صباح ١٣ يناير سنة ١٨٣٢ ، ويقبض في ٤ مارس من العام نفسه .

فالأمر ، كما ترى ، ليس باليسر الذي كنت تتصوره . وقد نسيت أن أحيطك علماً بأن الكتابة المصرية ، كالكتابات السامية ، لا تعني كثيراً بحروف الحركة ، وهي صعوبة تضاف إلى سائر الصعوبات التي يعانيها كل من يحاولون مطالعة هذه اللغة .

يقول العلامة إدوارد ماير ، مؤبناً شامبوليون :
 « كان عبقرية موهوباً ، ما في ذلك من شك ، ولكن عبقريته كانت تسندها معرفة عميقة ، وتنظيم لمادة دراساته . ولذلك استطاع شامبوليون الغوص على معاني نصوص البرديات والنقوش ، في صميمها على أقل تقدير . ويندر أن نجد في تاريخ العلوم أمثلة كهذه . فما إن يدرك الموت ، في شرح عمره ، حتى يكون قد كشف ، في وضوح وصحة ، لا عن أسس اللغة فحسب ، بل عن تاريخ مصر القديمة » .
 ولم تنشر أجروميته للغة المصرية القديمة إلا عام ١٨٣٦ . أما قاموسه فقد خرج سنة ١٨٤١ . وبعد ذلك بوقت نشر كتابه عن « آثار مصر والنوبة » .

وبهذا يرتفع بناء ثان على ذلك الطريق الطويل الموصل إلى اكتشاف مصر القديمة . أما البناء الأول فكان مجلدات البعثة العلمية المصرية . وسيعمر الطريق بأعمال الألمان ريشارد ليسيوس وبروكش ودوميخن وإرمان وماير وزيته ، والفرنسيين مارييت وإيمانويل دي روجيه وشاباس وماسبيرو ، والإيطالي روزاليني ، والأميركي برستيد ، والروسي جولينشيف . ويمكن أن تضيف إلى القائمة أسماء من أغلب البلاد الحية . لأن الأمم المتحضرة تفخر أن يسجل اسم ابن من أبنائها في لوحة الشرف لمن عملوا ويعملون على اكتشاف « أمنا الكبرى مصر . »

ومن بشائر النهضة المصرية — وهي عندى من أهمها وأعماقها معنى — أن تظهر أسماء مصرية ، ما زالت قلة ، ولكنها تصل حاضرتنا بماضيها القريب جداً حين ظهر اسم الرائد الأثرى أحمد كمال ، وبماضيها البعيد جداً ، حتى عهود ما قبل الأسرات . فلنحفظ في قلوبنا ، ولنكرم بألستنا ، أسماء مصطفى عامر وسليم حسن وأحمد فخرى وبدوى (أحمد واسكندر) وجرجس متى وعباس بيوى وعبد المنعم أبى بكر ومكرم الله وأنور شكرى وليب حبشى وزكريا غنيم وزكى سعد وسامى جبرة وبا هور لبىب وشارل بشاتلى وغيرهم . والتاريخ كفيل بأن يوسع لوحة الشرف المصرية هذه ، ويصحح أخطاءها ، ويغفر لى قصورى .

مرمدة بنى سلامة

إن من البيان لسحراً . وقد استطاع أساتذتى فى المدرسة الابتدائية أن يجمعوا فى جملة واحدة : تاريخ مصر الأسطورى ، وتاريخ مصر فيما قبل التاريخ ، وتاريخ الأسرات ، قالوا : « أول ملوك مصر كان مينا أو مصرام ، وهو الذى حول مجرى النيل ، ووجد الوجه البحرى والوجه القبلى » . وهكذا عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أن مصر من مصرام — التاريخ الأسطورى — وأن النيل تحول عن مجراه — تاريخ ما قبل التاريخ — وأن مينا وحد الإقليمين — العصر التاريخى .

أما أن النيل غير مجراه ، فهى الحقيقة الجيولوجية ، لا يأتىها الباطل من أى مكان تريد . وكان النيل قبل أن يستقر فى مجراه الحالى نهراً كبقية الأنهار ؛ لا يحيا الناس بفيضانه ، ولا يموتون بتحاريقه . لأن شمال أفريقيا كله ، والصحراء الكبرى ، كانت مناطق أمطار غزيرة ، أشبه بالأحراج الاستوائية ، ترتع فيها الطباء ، والزراف يأكل من أعالي الأشجار ، وحمير تبرطع ، وفيلة تهش بأذانها وتلوى بخراطيمها ، وثيران ترعى الكلاً وتخور ؛ وتفترس هذه وتلك آساد وذئاب وضباع . وكان النيل يجرى هنا وهناك حسب التساهيل ، ويغضى جميع منخفضات الوادى ؛ فكانت كل الفيوم ، ومناطق الواحات ، بحيرات واسعة ، وكان العشب يغطى سطح الأرض ، وأشجار سامقة معرشة تلقى ظلالها الوارفة على العشب ، والماء يفيض من الأرض ، وينهمر من السماء مدراراً . والإنسان القديم الذى كان يعيش فى تلك الآجام لم يكن نحن ، بل كان مخلوقاً بدائياً يعرف بالإنسان النياندرتالى ، ولم نأت نحن — « هومو ساپينس » ، الإنسان المدرك العارف — إلا فيما بعد ، فى أواخر العصر الحجري القديم ، أو ما يعرف بالعصر الحجري الأعلى .

ثم حل عهد الجفاف ، فكفكت السموات مدرارها ، وقلنا يا سماء غيضى ، ويا أرض أقلعى ، وهبط مستوى النيل ، ووقف جريان الماء فى الوديان ، فتحولت أنحاديده فى الصحراء ؛ ونقصت مساحات البحيرات ، واختفى أكثرها . وهبوط مستوى النيل ، أخذ يهدأ ويرزن ، ويعنى بحفر مجرى دائم فى أرض مصر الحيرية ،

لا دخل في هذا لدينا ولا لمصرنا .

والناس الهمج ، والأوابد آكلات اللحوم ، والمواشى آكلات العشب ، أخذت تتجمع حيث الماء والزرع . وعرف الإنسان الصياد القناص كيف يبتغى على بعض صيده حياً ، لأن القنص لم يعد سهلاً ميسراً كذى قبل ؛ وكان هذا أول باعث له على التفكير باستثلاف الحيوان ، ولعله أدرك معنى هذا ، فيما يختص بالنبات ، فأنهى إلى محاكاة الطبيعة برى الأرض وبذر البذور . وأصبحت حياة السكان الأفريقيين الرحل الذين نزحوا إلى ضفاف النهر المهذب مرتبطة بحركة المياه في النهر ، ارتفاعاً وهبوطاً .

وما أرجوه لك — إذا حرصت يوماً على مطالعة التاريخ المصرى على طوله — هو أن لا تكرر خطأى فهمل ما أهمله التاريخ ، فسمى ما قبل التاريخ . على أن لا ترهق ذهنك بأرقام الآلاف ومئات الآلاف من السنين التى يذكرها أهل التخصص تقديرًا لبدء الإنسان على وجه الأرض ، وليس مهماً أن تعرف — إذا كنت تجهل — أن الإنسان ظهر فى الحقبة الجيولوجية الرباعية .

ولا تحاول أن تتعرف على تاريخ ما قبل التاريخ فى المتاحف ، كما حاولت أنا ، لأنك ستقف أمام حصباء متراصة ، من الصوان أو الطران والشيست ، وغير ذلك من أنواع الزلط ، تراه مقلوظاً مشظياً ، يقول لك العلماء بأنه أسلحة الإنسان الأول والإنسان الثانى ؛ وستمر بأصناف من الأوانى لم تسوها يد الفخرانى على دولاب ، مزينة برسوم هندسية ساذجة ، ورسوم بعض حيوانات تبدو وكأنها تبرطع فى الهواء بقوائم كخيوط غزل البنات .

أقول لا تحاول ، لأن صناعة الإنسان فى بداية مغامراته العجيبة تحتاج إلى مران طويل ، وحس تاريخى خاص ، وخیال كريم ، حتى يمكنك أن تطالع ما وراءها من معان ، أو تشعر بما تحتويه من فن .

وكلما رأيت أرقام السنين ، مر عليها عاجلاً ، فليس ثمة من يؤكد لك صحتها أو يحلف لك على دقتها ؛ إن هى إلا ركيزات ، أشبه بعلامات الطريق ، لا غنى عنها لأهل الاختصاص ، وهم يحاولون رسم التطور صورة إثر صورة ، كما فى الفيلم السينماتوغرافى .

إنما يجدر بك أن تعرف أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب واديك ، لها أهميتها في تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه أسلاف أسلافنا منذ فجر الإنسان . وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة عليك ، ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها ، وبغير قليل من آثارها . ستسمع بحضارة البدارى وديمة وكوم أوشيم والفيوم ونقادة والعمرة وجرزة ووادى حوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة .

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن حضارة العمرة وجرزة ظهرت فيما بين منتصف الألف الخامسة حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .

حضارات حديثة العهد بالنسبة لما يعرف بالعصر الحجري القديم ، وهو سابق عليها ببضع مئات من آلاف السنين ، حضارات متأخرة حتى بالنسبة للمراحل الأخيرة من ذلك العصر الحجري القديم التى كانت ، منذ نحو مائة ألف سنة قبل الميلاد ، متأخرة بالنسبة للعصر الحجري الوسيط ، وكان فيما بين الألف العاشرة والألف الثامنة .

وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى ، من أول العصر الحجري الوسيط ، يتجه اتجاهًا حضاريًا مميزًا تختص به مصر ، لا يشبه فى شيء حضارة فلسطين أقرب جيرانه . فتطور الحضارة المصرية ، منذ العصر الحجري الوسيط ، استقل بوسائله نتيجة لعزلة مصر ، الجزيرة الخضراء ، أو الخط الطويل الزمردى وسط أقيانوس من الصحارى ، وبحرين من المياه الزرقاء ، وجبال إلى الشرق ، وهضاب إلى الغرب . وذلك بعد ما أصاب المنطقة من تغير فى مناخها ، وكانت من قبل متصلة بالشمال الأفريقى كله ، تشبه فى طبيعتها أعلى السودان كما هى حالا . انعزلت مصر عن جيرانها ، وإن بقى لها ، عن طريق النيل ، اتصال ببلاد النوبة وما فوق أرض النوبة .

وأحسبك تعرف أن الجنس المصرى ما يزال مصدر نقاش لا ينتهى ، وليس فيه عند العلماء قولان ، بل أربعة أقوال . فالمصريون جاءوا من الشمال والجنوب ، وجاءوا من الشرق والغرب ، وهم خليط سامى حامى قارى لىبى حبشى عربى ، يشاركون

في أصولهم شعوب جنوبى البحر الأبيض ، وشعوب السودان والحبشة ، وشعوب غربى آسيا . ويتألف ، من كل تلك الأصول ، ذلك الجنس الواحد الباقى على صفحات الدهر حتى اليوم . وإذا كان أمر هذا الجنس المصرى استعصى على العلماء ، فإنهم على الأقل يؤكدون لنا شيئاً أهم لدينا من كل تخليطاتهم ، وهو أن المصرى الذى انعزل في واديه الحصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار ، احتفظ بطابعه الإثنوغرافى ، غير مشوب في أغلبه ، إلى يومنا هذا . فإن بضع مئات الآلاف من أهل الشعوب التى اعتدت على مصر ، أو استقرت فيها وعاشت أهلها واختلطت بهم ، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء في بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة . لعلك تعبت الآن من كل هذا السرد . لا عليك إلا أن تنسى أمره ، بشرط أن تعيرنى انتباهك إلى ما يحدث فيما تلى ذلك من عصور ، وأولها العصر الحجرى الحديث « النيوليتيكى » ، والعصر الذى يليه ويعرف باسم « الإنيوليتيكى » ، وآخره يعرف بعهد ما قبل الأسرات . لأن فهم هذين العصرين أساسى لإدراك نشأة الحضارة الفرعونية ، ولا سيما أن هناك رأياً يزعم بأن حضارة الأسرات لم تخرج عن كونها تفاعلاً وتطوراً نهائياً للنيوليتيكى ، لم يبلغه ناس آخرون في مكان آخر ، أو كما قال كورت لانجه : « مصر القديمة ، حتى نهاية حياتها الفرعونية ، ظلت بنت العصر الحجرى . وبقاؤها في داخل هذه التخوم الحضارية مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . وإذا فهمنا ذلك وجدنا حلولاً لكل تلك الأحاجى التى تطرحها علينا مصر بلسان أبى هوولها ، وهى الألغاز التى أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، بل ما فتئت تبعث على التأمل إلى يومنا هذا . »

كان مؤرخو الحضارات ، إلى عهد قريب ، يلوكون خرافة اسمها « معجزة الحضارة » ، فيحدثونك عن المعجزة الإغريقية ، وبالتالي عن المعجزة الفرعونية . ولكن العلم لا يميل إلى إدراج المعجزات ضمن عناصر تفكيره ؛ فلما انحاز المؤرخون إلى مذهب التطور ، لم يعودوا يصدقون أن يقفز المصرى من مرحلة الأسلحة الظران ، والأوانى الفخار من غير دولاب ، وصنع السلال « البقوطى » ، ودفن موتاه في حفرة سطحية ، أن يقفز من هذه البداوة إلى حضارة الأسرات الأولى .

استقرت الحياة في وادى النيل محدودة محصورة فيما يحققه هذا الوادى من

ممكّنات . وكان النيل قد غطى مجاريه القديمة بطبقات من الطمي ، ولم يعد المصري يكتفى بصيد أكله وقنصه ، والتبلىح بما تنبت الأرض ؛ بل علم نفسه كيف يزرع ويقلع ، وكيف يحنى ويخزن ، وأستألف من حيوان القنص ما استطاع أن يحافظ عليه حيّاً ، ليتغذى به عند الحاجة ، وما رأى فيه قوة على الشد والحمل ، أو معونة على الصيد والقنص في طاعة وألفة . وحياة الاستقرار اقتضت بناء المساكن ؛ وادخار الغذاء قضى بصنع السلال والأواني . واستعاض عن جلد الحيوان في لباسه بما فضله عليه من ألياف النبات ينسج منها كساء وغطاء ؛ والاستقرار جعله يعنى بتنظيم معاشه ومعاش أسرته ، وزينة نفسه وأهله ، ثم التفكير بيوم يفارق فيه هذه الدنيا إلى عالم آخر .

كان العصر الحجري الحديث في مصر سابقاً بزمان سحيق على حضارة العصر الحجري الحديث في أوروبا ؛ ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالباً في وادى النيل الأدنى قبل أى مكان آخر . ولا يمكن الكشف عن أدوار هذا التطور ، لأنها اختفت تحت رواسب النيل ، إلا ما بقى منها عند أطراف الوادى ، وفوق الهضاب المشرفة على مجرى النيل .

وأهم أثر لتلك الحقبة الحضارية ، كشف عنه يونكر إلى الشمال الغربى من القاهرة ، على بعد بضعة كيلومترات ، فيما يعرف اليوم باسم مرمدة بنى سلامة ؛ وكشف عنه أمين العمري عند رأس وادى حوف إلى الشمال من حلوان ، عند موضع مصب النيل فى البحر الأبيض المتوسط ، قبل أن تتكون الدلتا ؛ وكشف عنه آخرون فى ديرتاسا بالصعيد ، ووادى الشيخ قرب مغاغة ، وفى إقليم الفيوم والواحات الخارجة والبحرية .

مرمدة بنى سلامة توضح مسكن المصرى الأول وطريقة بنائه ، وكيف حرص على تنظيم منازلهم على جانبي طريق مستقيم يخرق المحلة . والآلات المشظاة التى وجدت بالفيوم بديع صنعها ، تحرص متاحف العالم المختصة على اقتناء نماذج منها . ولا يعرف على وجه اليقين أية حضارة سبقت غيرها فى البقاع التى أشرنا إليها ، وقد تكون حضارة العمرى بوادى حوف أقدم من حضارة مرمدة بنى سلامة والفيوم ، وإنما الغالب أن الوجه البحرى سابق فى حضارته على الوجه القبلى ، لأن حضارة

ديرتاسا وادى الشيخ تعتبر خاتمة لمرحلة الحقبة النيوليتيكية وتقدم لحضارة العصر الإنيوليتيكي ، أى حضارة ما قبل الأسرات .

وكلما اقتربنا عبر آلاف السنين من عهد الأسرات تجلت آيات التطور . فالنحاس يظهر بعد نهاية العصر الحجري الحديث ، والقرى والمدن تنشأ على جانبي الوادى ، ويبدأ اتصال مصر بجيرانها . وأهم من كل هذا ظهور الحادث الجلل فى تاريخ البشر : وهو توصل الإنسان إلى رسم رموز يعبر بها عما يحول بخاطره ، أو ينطق به لسانه . وما يعنى به فى تلك الخطوات الحضارية الأولى ، هو أن يسجل ويرصد ويحصى ظواهر ذات خطر فى حياته الزراعية . وإذا حدثك المؤرخون عن أول تقويم عرفه العالم ، والغالب أن يكون التقويم المصرى ، فلا تحسبن أنه جاء نتيجة حساب فلسفى ورياضة عقلية — والمصرى لم تكن له عناية بالبحث العلمى البحت ، ولا بالتأملات الفلسفية لذاتها — إنما وضع التقويم بناء على ملاحظات للأفلاك والفصول وعلاقتها بالدورة الزراعية ، وصلة هذه بمواقيت الفيضان ، وهى على درجة عظيمة من الانتظام . وتلك ملاحظات لا بد أن تكون استمرت مئات السنين تسجل وترصد ، حتى اطمأن المصرى إلى إمكانه تحديد سنته بعدد من الأيام جمعها فى أشهر ، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وإذا السنة لا تنتظم مع حركة الفصول والأفلاك ، على حساب اثنى عشر شهراً ، وإلا جاءت سنة شبه قمرية ، يتقلقل فيها ميعاد البذر والرى والحصاد . لذلك كان المصرى فى تلك العصور السحيقة يضيف خمسة أيام — أيام النسيء — إلى سنته ذات الستين والثلاثمائة يوماً . ولم يتعدل هذا التقويم ، ويصحح خطأ ربع اليوم ، إلا فى زمان يوليوس قيصر ، فيما يعرف بالتقويم اليولياني .

وظاهرة تختص بها حضارة مصر ، فيما قبل التاريخ وبعده ، وهى أن عصر النحاس يستمر طوال عهد الأسرات ، ويتأخر استعمال الحديد فى مصر ، ولا يستقر إلا حوالى العهد اليونانى . كما أن الآلات الحجرية تظل شائعة الاستعمال فى العصر التاريخى ، بينما يتحول عصر الحجر فى أوروبا إلى عصر النحاس ثم إلى عصر الحديد ، فى الحقبات السابقة على التاريخ . ولعل هذا هو ما حدا بكورت لانجه إلى حسابان الحضارة الفرعونية منصوية كلها تحت العصر الحجري الحديث « النيوليتيكي . »

وحضارة ما قبل الأسرات تظهر لنا جلية في العمرة وفي جرزة ، وفي حلوان ووادى دجلة والمعادى وهليوبوليس ، وفي نقادة والسماينة والبدارى . ولقد نشأت أجمل الصناعات الحجرية بالبدارى في الآنية المصنوعة من البازالت ، وتتقدم هذه الصناعة في العمرة ؛ وتصنع الأواني من المرمر والبازالت في مرحلة جرزة .

ونظام العشائر واختيار كل عشيرة لشارة طوطمية ، أو شعار خاص ، يتقدم في نهاية عصر جرزة : ثم تندمج الإمارات المحلية — أى الكور — في مملكتى الشمال والجنوب : وعاصمة الشمال فى « پى » أو « بوطو » ، وبواقي أطلالها موجودة عند تل الفراعين ، إلى الشمال الشرقى من دسوق . وعاصمة الجنوب فى « نخن » — عند الكوم الأحمر — وهى التى عرفت فيما بعد باسم « هيرانكوبوليس » ، أى مدينة الصقر ، وكان الصقر معبودها . وعلى مقربة منها قامت مدينة « نخب » — عند الكاب الحالية — وكانت من أهم المواقع فى عصر ما قبل الأسرات .

أما موقع المعادى — واكتشافه يرجع الفضل فيه إلى مصطفى عامر ومنجى — فقد قاسى الكثير من الاشتباكات بين أهل الشمال والجنوب ، مما كان سبباً راجحاً فى أن يتخلى عنه سكانه .

ولكن بعد أن تم اتحاد الوجهين البحرى والقبلى ، اتجهت سياسة الوحدة إلى قرب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى قامت فيه وحوله عواصم مصر الكبرى : منف وبابلون والفسطاط والعسكر والقطايح والقاهرة .

وكان البداريون على صلة بالأقاليم المجاورة ، عن طريق الوادى الممتد من وادى النيل إلى شواطئ البحر الأحمر حيث معدن النحاس والأحجار الكريمة والأصداف . فقد اكتشفت بواى الحمامات — على هذا الطريق — آثار ترجع إلى مرحلتى البدارى والعمرة . أما الذهب فكان يجلب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سينا ، والقار من البحر الميت . والأبسيديان واللازورد والفضة والسبذج ، من غربى آسيا ومن الأرخبيل اليونانى .

وهناك دلائل على اتصال مصر بسورية فى تلك الأوانى من الفخار ذات المقابض المموجة — وهى خاصة بجرزة — وقد وجدت فى سورية ، وكان المظنون أنها وردت على مصر من سورية تحمل الزيت ، ولكن الكشف عنها ، فى مرحلة

المعادي السابقة على جرزة ، قطع بأنها صناعة مصرية نشأت نشأة محلية .
 أما ديانة هؤلاء الألى فقد استدل عليها المؤرخون من مصدر متأخر ، وهو
 النصوص المنقوشة داخل هرم أوناس وما يجاوره من أهرامات الأسرة الخامسة ،
 وتعرف بمتون الأهرام . فالثابت من لغتها ، ومن طرائق التفكير فيها ، أنها ترتد إلى
 زمان سابق على الأسرات ؛ فهي إذن تسجل العقائد القديمة والأساطير الإلهية لأولئك
 الذين أسسوا حضارة البدارى وممرمة بنى سلامة وجرزة والعمرى والمعادي . ويستخلص
 منها أن المصريين ، في عصر ما قبل الأسرات ، عبدوا أوزيريس في الدلتا ، وعبدوا
 هوروس — الصقر — في الدلتا وفي الكوم الأحمر ، « نخن » بالصعيد .

على أن آثار جرزة ، أو ما يعرف بحضارة نقادة الثانية ، وقد كشفت لنا عن
 قبور أهل العصر السابق على الأسرات مباشرة ، تؤيد حرص المصريين منذ ذلك
 الزمان الواغل في القدم على امتداد الحياة الدنيا في حياة الآخرة . فالمتوفى مسجى
 على جانبه الأيسر في الغالب ، وفي وضع أشبه بوضع الجنين في بطن أمه ، مغطى
 بحصير أو نطع ، ويغلب أن يكون اتجاه رأسه نحو الجنوب ؛ وفي يديه ، وهي
 مقربة من وجهه ، توجد لوحة من الشيست على شكل سمكة أو طائر . وعثر في
 تلك المقابر البدائية على قطع من العاج ، على شكل أمشاط وعلاقات وأسلحة وعقود
 من حبات مكورة ، وتماثم على هيئة ثور أو طائر أو حشرة . والأسلحة مصنوعة
 إما من الظران أو من النحاس . كما وجدت الأواني وعليها رسوم تمثل سفناً تحمل
 شعارات تذكرنا بشعارات « كور » الدلتا في العصر التاريخي .

والمعنى الذى يمكن إدراكه من هذه الرسوم ، هو أن التكوين السياسى لمصر ،
 فيما قبل الأسرات ، قام على أساس المراكز أو المديریات الصغيرة التى يسميها
 اليونان « نوميس » أى الكور . فالشعارات التى تمثل كل كورة ظلت قائمة خلال
 التاريخ المصرى زمناً طويلاً . ولقد فسر العلماء تعدد آلهة المصريين ، على أساس
 أن شمل آلهة الكور قد التأم في محاذاة التوحيد السياسى . ولم يتم ذلك في بعض
 الأحيان دون مشاحنات حادة ، كما حدث ذلك بين عباد هوروس وعباد سيت .
 ويبدو أن انتصار هوروس على سيت كان ماحقاً ، فقد توطدت عبادة هوروس
 في كلا الوجهين : شمالاً ، في « بوطو » وجنوباً في « نخن » — هيرانكوبوليس —
 عند الكوم الأحمر . وانتهى اضطهاد سيت وزحزحته إلى اعتباره إله الصحراء والمحل

والشر ، ولم يكن كذلك عندما كان المعبود الأكبر في كورته .
ولعل ما انتهى إليه مؤرخو ما قبل التاريخ هو الأقرب إلى الصواب حين يزعمون
أن حضارة مصر ، فيما قبل الأسرات ، قد تكونت ذاتياً في الدلتا ، واستعارت الكثير
من مرمدة بنى سلامة ، ثم انتقلت إلى الصعيد ، وحملت معها إلهها الأكبر هوروس ،
ويستدلون على ذلك من نقوش حجر باليرمو ، وعليه سجل مؤرخو الأسرة الخامسة
قائمة الملوك ، لا من أول مينا رأس الأسرة الأولى ، بل من قبله . وقد وجدوا في قائمة
الملوك ، قبل مينا ، ملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأحمر — أى بتاج الدلتا — وملوكاً يرمز
إليهم بالتاج الأبيض — تاج الصعيد — كما وجدوا بعضهم يحمل الـ « بشنت » ،
وهو التاج المزدوج ، رمزاً إلى توحيد الإقليمين . وفهموا من ذلك أن وحدة الإقليمين
تمت قبل بدء التاريخ تحت زعامة الدلتا ، ثم انفصم الاتحاد ، ليعود في أول
العصر التاريخي تحت زعامة ملوك الصعيد . وهذا الاتحاد الثانى مسجل على اللوحة
المشهورة باسم لوحة الملك « نعر — مر » — مينا ؟ — وهذه اللوحة تكمل صورة
انتقال حضارة جرزة إلى حضارة الأسرة الأولى ، ومظهر هذا الانتقال نقوش على
رعوس دبابيس القتال ، وعلى اللوحات الأردوازية . ففي رأس دبوس منها ، نرى
صورة ملك غير معروف الاسم ، وإنما سماه المؤرخون الملك « العقرب » ، لابساً
تاج الوجه القبلى ، ومحتفلاً بذكرى انتصاره على الوجه البحرى .

فهل يمكن قبول الاستنتاج الأخير كحقيقة واقعة ، وهى أن حضارة جرزة تمثل آخر
مرحلة حضارية لعهد ما قبل الأسرات ، وأن فجر الحضارة التاريخية انبثق من هناك ؟
إن القول الفصل فى هذا تحققة حضارة المعادى ، وهى التى أثبتت أن حضارة
جرزة جاءت من الدلتا . وبذلك ينتهى عهد المعجزات فى تاريخ الحضارات ،
ويكون الأثريون والمؤرخون قد وفقوا إلى تتبع الحضارة المصرية من بواكيرها فى آخر
العصر الجيولوجى الرباعى ، خلال العصور الحجرية القديمة والحديثة . والعصر
« الإنيوليتيكى » ، حتى عصر الأسرات الأولى .

ويصعب على كاتب هذه السطور أن يقاوم إحساس الاعتزاز والفخر بأن
بعض الفضل فى وصل هذه الحلقات يعود إلى مصرى صميم ، هو مصطفى عامر ،
أول من سجل اسماً مصرياً فى قائمة المشتغلين بحضارات ما قبل التاريخ .

أنوبيس يرقص

الست المندورة ما يزال يذكرها عجائز الروضة والمنيل ومصر العتيقة وفم الخليج ، لأنها كانت تقيم حتى العشرينات عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة ، شامخة على أشجار أم الشعور [البانيان] التي ما زالت تقف كآثار القديمة على ضفة النيل عند كوبري الملك الصالح . ولم تكن مثلهن « أم شعور » ، بل كانت جميزة معمرة ، وربما كانت شجرة لبخ ، فقد رأيتها طفلاً غريباً ، وكانت هلاهيل المرضى وأضراسهم ونخصلات من شعورهم معلقة بفروعها ، أو بمسامير دقت في جذعها ، وهي التي كانت تلفت نظري أكثر من أوراقها ، وسألت خولي قصر المناستري عنها إذا ما التقيت به .

المندورة شجرة كان الناس يتبركون بها ، ويقصدونها في الحاجات . فهي من بواق خرافات العهود البائدة ، مثل رتبة الباشوية ، وسيدى المتولى ساكن باب زويلة ، والست المزيرة وبغلة العشر . ولو اندفعنا في طريق الأثر بولوجيين لما ترددنا في القول بأنها من بقايا عبادة أوزيريس الذي استقر داخل شجرة في ببلوس ، نبتت حوله وفرعت وأورقت على ساحل فينيقيا القديمة عند جبيل . وقد علمت من سكان طرف الروضة الجنوبي ، بعد غيابي الطويل عن مصر ، أن شجرة المندورة قطعت ، ويؤكد بعض من حضر قطعها أنه سمع أنيناً ينبعث من داخلها والمنشار يحز في جذعها ، وأن سائلاً نزع منها ، قد يكون عصارتها ، ولو أن محدثي يعتقد أنه شيء آخر .

ويزعم من شاهدوا المولد الكبير بالأقصر بأن حمل سفينة على عربة ، وفوقها أعلام أبي الحجاج الأقصري في الاحتفال بمولده ، يشبه أن يكون من بقايا طقوس آمون — رع ، والسير بسفينته المقدسة في أعياده الكبرى . ويظن آخرون بأن عادة تلقين الأموات ، فيها ما يوحى بنصوص كتاب الموتى وتقاليد الدفن في مصر القديمة ، إلى آخر ما نقرأ عنه في كتاب مس بلا كمان الممتع ، وفي رسالة تقدم بها أحد مواطنينا — الدكتور غلاب — إلى السوربون .

وكان أهلنا يحذروننا من الهرة السوداء في الليل ، إذ يغلب أن يكون بعض

« إخواننا » تقمصها ، كما كانوا ، إذا رأوا واحدة من هوام الليل تحوم حولنا في ليالي الجمعة ، يلقون في روعنا أنها روح ميت من أهلنا . وقد ارتفعت من أعماق ذكرياتي هذه الخرافات عندما رأيت صورة « با » ، في شكل طائر أو حشرة ، تقف فوق تابوت ميت من القدماء ، أو تطير في بئر السرداب ، وعندما عرفت أن الهرة « بسطيظ » كانت إلهة بوباسطيس .

واليوم وأنا أتمشى على شاطئ البحر ، في نزهتي الطويلة مع طلوع الشمس ، تذكرت فجأة أنني رأيت في طفولتي الإله « أنوبيس » يرقص . ولم أكن في ذلك الزمن البعيد أعرف أنه « أنوبيس » ، ولا كان الملاعب الإسكندراني الذي يحرك دميته فترقص يعنى بذلك تقديم صورة لأنوبيس . ولكنني لم أكن أفهم لماذا اختار الرجل حيواناً مخططاً يشبه الكلب الكبير ، قيل لي إنه « ديبة بو » ، ومعنى هذا في لغتنا الحديثة أنه جلد ابن آوى حشى بالتبن والقش . وأوقف الرجل « ديبته » في إطار يشبه مشايات الأطفال ، وألبسها ملابس الغوازي بشرائط القصب ، وركب في وسطها لولبا يحركه بذراع خشبي أو بذراعين ، فيتخلع خصر دميته ويتكسر على إيقاع غنائه وهو يقول « يا بيلي به . . . يا رقاصة » . فإذا كانت « بيلي به » راقصة ، فلماذا اختارها الرجل جلد ثعلب محشو ؟ أما كان الأفضل أن يصنع عروساً ولو من قماش ؟

أسائل الآن نفسي : أيعنى الرجل عرض صورة من صور المساخر التي يلبسها الإفرنج في أعياد المرافع قبل الصوم الكبير ؟ أو أنه يقصد جماعات السائحين ليتفرجوا على « أنوبيس » يرقص ؟ ولكن ذكرى هذا الملاعب وأنوبيسه تكاد تمحى تماماً ، ولن أستطيع اليوم أن أعرف شيئاً عن تلك الدمية العجيبة أكثر مما ذكرت . ومن غير المعقول أن يكون الملاعب عارفاً بأمر « التماثيل المتكلمة » ، وبرأس أنوبيس في متحف اللوفر التي كان الكهنة يحركون فكها الأسفل بشد خيط مخفي في قاع حلقها ، ردّاً على « استخارات » الطالبين .

ولم يبق إلا أن أضحك في نفسي وأنا أردد : لقد رأيت أنوبيس ، حامل الميزان في قاعة العدالة بمحكمة أوزيريس ، يرقص رقصة البطن في حوارى القاهرة ! وابن آوى لم يكن سوى واحد من عدة الحيوانات التي اتخذها المصريون

أرباباً . فقد عبد أجدادنا الهر والأسد والصل والسقنقور والتمساح وسمك اللقش [اللاطس] والباشق والعقاب وأبا منجل والعجل والبقر والكبش والجعل ؛ واستطاع فهم العجيب أن يوائم بين هذه الحيوانات وبين الجسم الإنسانى . فقد ترى آلهتهم فى شكل إنسان كامل ، أو حيوان كامل ، أو برأس إنسان وجسم حيوان ، أو برأس حيوان وجسم إنسان . ويحار الأثريون فى تفسير هذه العبادات الطوطمية التى استمرت حتى نهاية الأسرات ، بل وأصبحت المظهر البارز لديانة المصريين أيام البطالسة والحكم الرومانى والبيزنطى . وكانت موضوع سخرية يوفينال فى قصيدته المشهورة ، التى يقص فيها قصة مشاحنة قامت بين أهل دندرة وأهل كوم أمبو ، ذكرتنى بما كان يحدث فى الهند البريطانية بين المسلمين والهندوس ، كلما عن المسلمين أن يذبخوا بقرة ، وهى أقدس الحيوانات عند الهندوس . والفتنة التى تندر بها يوفينال نشبت حول تمساح أكله سكان إحدى المدينتين ، مع أنه معبود المدينة الأخرى . تعددت آلهة المصريين ، وتشعبت تفسيرات الأثريين والمؤرخين ، وراح هؤلاء وأولئك يضربون فى كل واد . ولك أن تفهم من كلامهم ما فهموا هم ، أو ما تريد أن تفهم أنت . ما أهمية ذلك ؟ فالمصرى عبد ، كما تعبد الشعوب فى بداوتها ، مظاهر الطبيعة حوله : الشمس والسماء والأرض والماء والزرع .

ولكنه قدس أيضاً آلهة محلية تختلف فى كل كورة عن غيرها ؛ وقد تكون هذه مجرد رموز وشعارات للقومية المحلية . فالمصرى لا يحب وطنه الكبير وحده ، بل يحرص على وطنه الصغير ، إقليمه فعاصمة إقليمه ، ثم قريته . والآلهة العظام كانت هى أيضاً شعارات سياسية وأجدادا للملوك وأنصارا ، ومصدر رزق واسع للكهان ، يحكمون باسمها على الملك والوزراء والموظفين والشعب ، بعد ما انتقاد الملك لهم ، وكان ذلك إبان الدولة الحديثة .

لا قيمة تذكر لتلك الآلهة إلا فيما أقيم لها من معابد وهياكل ، ورسم لها من صور ، ونحت لها من تماثيل . ولقد كشفت لنا ثورة أمينوفيس الرابع « أخن - آتون » عن ألاعيب السياسة التى تستر وراء الآلهة العظام . وكان أخناتون ثائراً غريباً ، يمكن أن نعتبره أبا الثوار فى التاريخ ، ندر أن نعرف له فى حويلات الشعوب مثيلاً . فالثورة تقوم ضد الحاكم وضد الحكم ، يقوم بها واحد من الشعب ، أو من العظماء

يقود الشعب . أما ثورة أخناتون ، فكانت ثورة ملك على كهنته وشعبه ، وخروج ملك عن طاعة آلهته العظام . هنرى الثامن لم ينتقض على ربه ، بل ثار على شاغل الكرسي الرسولى فى روما ، وربما لأسباب عائلية ، ومسائل زواج وطلاق . والإمبراطور يوليانوس ارتد عن المسيحية التى اعتنقها أسلافه ، وعاد إلى الوثنية . والحقيقة أن يوليانوس لم يرتد ، بل أعدته تربيته الهلينية لينشأ وثنيًا . أما أخناتون فقد خرج على عبادة آمون الكبير ، ذلك الإله الغول ، الذى حاول ابتلاع آلهة المصريين كلهم ، فجاء الشاب أمينوفيس يتحداه ، كما تحدى داود غالوت ، ويعود إلى عبادة الشمس فى مظهرها الواحد الخالق ، وفى صورتها المادية ، « آتون » ، أى قرص الشمس . ولو كان أخناتون من الرجال العمليين لصدقت أن ثورته سياسية ، ولكن طبيعة الشاب توحى بحركة روحية انبعثت من خلجات نفسه ، وربما من الجحوى الذى تربى فيه — وقد يشبه فى هذا الإمبراطور يوليانوس المارق — ومن أثر الدم الأسوى يجرى فى عروقه . ولقد اهتدى الملك الشاعر إلى أقدم آلهة المصريين دون منازع ، فأفرد له عبادة قلبية ، ثم عبادة رسمية حين هجر طيبة إلى الشمال ، لينشئ عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا .

وإذا كادت تلك الثورة أن تكلف مصر إمبراطوريتها ، فقد أهدت التاريخ المصرى فنا ثوريا أصيلا يتوخى الصدق ، وأدباً رومانتيكياً تحس فيه بنفحات الإخلاص والأمانة تهب على الناس ، وإن كان فى كل من الفن والأدب عرق من المرض الملازم لكل رومانتيكية ، وهو المرض الذى تطالع آثاره على سماء أخناتون وتكوين جسمه : ذلك الوجه المستطيل ، والشفة السفلى الغليظة المرتخية ، والخصر النحيل والبطن الثقيل . ولو لم يكن أخناتون صاحب ثورة هائلة ، ولولم يجدد فى الحياة المصرية ، لاستحق أن ينعت ، من صوره ، بنوع من انحلال الشخصية ، يعرف فى اللغات الحديثة بالـ fin-de-siècle .

ولم يكن آتون خلقاً ذاتياً خرج من لا شئ ex nihilo ، أو من رأس أمينوفيس الرابع . بل كان إلهاً شمسياً ، أو صورة من صور الشمس الإلهة ، فإن كلمة آتون نكرة تعنى « قرص الشمس » . ويبدو أن محاولات فاشلة جرت أيام أمينوفيس الثالث لتخليص رع من شركة آمون — رع ، وأفردت للشمس عبادة

خاصة ، حتى قبل أن يشرك أمينوفيس الثالث ابنه أخناتون في الحكم حوالى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . ونستطيع أن نعثر على سوابق لتلك المحاولات ، ولكن الفضل الأكبر لوضعها موضع التنفيذ الجدى ، يعود إلى الملك الثائر أخناتون . فهو لم يكتف بالصفات الأصلية للشمس التى عرفتها مدرسة « إيون » - هليوبوليس - وإنما انتهى الرجل إلى مقاومة كل ما يتصل بطقوس الديانة المصرية المعروفة فى زمانه . ونكاد نجزم بأن عبادة الشمس فى مظهرها الجديد كانت أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد . فالمعبد الكبير بعاصمة أخناتون لم يكن يحتوى على تمثال يعبد ، وإنما على صورة لقرص الشمس رمز الحياة . وكان للديانة الجديدة مظهر شخصى عجيب . فهى ديانته يبشر بها رجلها الأوحده ، الملك أخناتون ، ويرسم لها طقوسها ؛ ولم تكن كالوثنيات القديمة مجهولة المؤلف . فالملك فيها هو صاحب الديانة ، وهو كاهن الإله ، وقد قارب فى ذلك مركز الملك فى الدولة القديمة ، عندما كان هوروس نفسه ، ثم ابن رع كاهنه الأكبر . وقبل أن تتحول مهنة الكهانة إلى التخصص الذى عرفته بعد نهاية الدولة القديمة ، والذى ستعرفه بعد ردة توت - عنخ - آمون ، وينتهى أمرها إلى سيطرة الكاهن الأكبر على الدولة ، ثم تولى الكاهن هريهور الملك ، فى بدء الأسرة الأولى بعد العشرين .

وإذا كان المؤرخون يتشككون فى أن يكون أخناتون هو مؤلف اللحن الجميل والصلاة الرائعة الموجهة إلى آتون ، فهذا من حقهم ما لم يثبت ذلك بالدليل والبينة . ولكنى كلما تأملت صور ذلك الشاب المريض وأعضاء أسرته ، كنت أقرب إلى التصديق بأنه لم يكن رسول ديانته ولا كاهنها الأول فحسب ، بل كان شاعرها المفلق ، ومؤلف ألحانها . وإذا كانت الفنون المصرية قد تخلصت من ربة التقليد فى عصر من عصورها ، فبفضل ذلك الملك الشاعر الفنان ، الذى أضفى شخصيته على عاصمته وفن عاصمته . فلم يعد التعبير الفنى فى زمانه مجرد الاحتفاظ بالقواعد والأصول ، بل انطلق شخصياً بلحمه ودمه ، فردياً فى كل مظهره .

والملك ، رسول الرب ، يتلقى عنه الوحي دون وسيط من جن وإنس : « أنت فى قلبى ، لا يفهمك غيرى ، لا يدركك غير ولدك أنا » . فذلك الملك ، ضعيف البنية غير السليم عقلياً كما يبدو من صورته وتمثيله ، أصبح شغلة من الشعور بذلك

الإله الحديد أو المتجدد ، ولنقل إنه تحول شعاعة من تلك الأشعة التي يرسلها آتون إليه ، في صورة أذرع ممدودة ، وأيد منبسطة .

لم يعد الإله يصور لعبيده في صورة منحولة من حيوان أو إنسان ، إنما هو قرص الشمس ، وأشعة الشمس تبسط أيديها المتعددة نحو الأرض ، تنىء بالخير ، وتتقبل العبادة والقرايين ، وتختص رسولها على الأرض بعلامة الأزل : عنخ . ولم يعد الإله يقبع في ظلام قدس الأقداس ، داخل ناووسه ، مثل آمون « الخفي — المتخفي » ، بل هو إله يعبد في وضوح النهار ، لا سقف يغطيه ، ولا جدران تحبسه ، يبدو للعيان وسط باحة المعبد الكبير في تل العمارنة . ثم هو إله واحد ، لا شريك له ، ولا زوج ولا ولد ، خالق نفسه كل يوم ، والخليقة كلها تشارك ربها في أفراحه الخلاقية .

إنما أعجب ما في هذه الديانة ، هو حرص صاحبها على إلهة من البانثيون القديم ، لم تكن إلهة عظيمة إلا بمعناها الخلقية . لقد احتفظ أخناتون بإلهة الحق والعدالة والصواب : معات ، بنت رع ، والمحبوبة من رع . وهي إلهة صاحبت المصريين على طول تاريخهم ، تهديهم إلى فعل الخير ، وأداء الواجب ، وإقامة شرعة العدالة .

وبعد أن نبذ الملك أمينوفيس اسمه — ومعناه « آمون الراضى » — وتسمى باسم جديد هو « عبد قرص الشمس » ، أخن-آتون ، وتغيرت أسماء أهل بيته وكبار رجال دولته ، واستتب الأمر لمدينته الجديدة في تل العمارنة " آخت-آتون " — أى أفق الشمس — وهجرت المعابد القديمة في طيبة ، وطورد كهنتها وسدنتها ، وأوصدت أبوابها بعد أن محيت أسماء آمون وحطمت أصنامهم ، أقامت الرجعية رأسها مرة أخرى ، لأسباب سياسية ، وتحت ضغط المصالح التي أضيرت ، ولم تك كلها صوالح الكهنة ، بل لحق الضرر بالمصالح العليا للدولة ؛ لأن الملك — النبي ، والملك — الشاعر ، لم يكن يعنى بشئون الإمبراطورية الكبرى التي أسسها كبير الأسرة الثامنة عشرة . وأرشيف الدولة ، الذى عثر عليه كاملا في تل العمارنة ، شاهد على إهماله حتى الإجابة على رسائل مندوبيه السامين في الإيالات الآسيوية . ولقد شعر الآسيويون بالحبال أرخيت لهم ، فشرعوا في الانتفاض على الحكم المصرى ،

فلم يكن بد من أن ينهار نظام أخناتون كله ، ديانة وحضارة وعاصمة ، بعد موته مباشرة . وقد تولى العرش بعده أزواج بناته ، ومنهم ذلك الشاب اليافع المترف الضعيف ، ألعوبة البلاط والكهنة ، الذى غير اسمه إلى توت - عنخ - آمون . وكان الكهنة بحاجة إلى قوة تسند الملك ، وقوة عسكرية قبل كل شئ ، فتدخلوا وآزروا رجل السياسة والحرب ، « هورمحب » ، لارتقاء العرش . واذن هذا بانتهاء أعظم أسرات مصر القديمة ، وبدء آخر الأسرات الكبرى فى التاريخ الفرعونى ، وهى الأسرة التاسعة عشرة ، يتزعمها ويؤثل مجدها سبتى الأول وكبار الرعامسة . وخلف أولئك كان الكهنة يعملون ويؤيدون ، وستظل الكلمة العليا لهم حتى سقوط الحكم الفرعونى تحت أقدام الغزاة الأجانب .

إنما الإله الذى سيطر على عقول المصريين ، ونفذ إلى قلوبهم لأطول زمن ممكن ، الإله الشعبى الذى حكم على عالم الأحياء والأموات ، وأقام ميزان العدالة فوق الأرض وتحت الأرض ، الإله الذى عرفته الشعوب التى اتصلت بمصر ، وانتهت بالتغلب على مصر : الإغريق والرومان ، الإله الذى أفرد له بلوتارك دراسة ممتعة فى القرن الأول للميلاد ، كان أوزيريس .

أوزيريس كان إله الخير ، فى مواجهة أخيه « سيت » إله الشر ؛ كان إله الوادى الخصيب ، ضد إله المحل والصحراء . أوزيريس وزوجته - أخته إيزيس نظما شئون البلاد كلها . هى تكفلت بأمور البيت والأسرة ، وعنيت بعلوم الطب والسحر ، وهو المنظم لطقوس العبادة ، الواضع أسس السلوك والأخلاق . ولئن ظل السابقون عليه أرباباً فى علامهم ، فقد كان أوزيريس أول إله ينزل إلى الأرض ، ويتحمل عذاب البشر ، ويجرى عليه الموت ، ثم ينشر حيّاً ، ويرفع إلى السماء ليلحق بالآلهة فى عالم الخلود . وحق له ، بعد تجربة الحياة والموت ، أن يتولى الحكم فى العالم الآخر حتى آخر عهد الوثنية المصرية ، أى حتى القرن الخامس الميلادى .

وأهمية أوزيريس وأسرته الصغيرة تبدو لنا فى ضوء التاريخ الوثنى ، وما جاء بعده ، لأن الثالوث المصرى القديم : أوزيريس - إيزيس - هوروس ، كان له أكبر الأثر فى تحول المصريين إلى الثالوث المسيحى .

وإن حب العالم القديم لإيزيس ، الزوجة العاقلة الأمينة ، وانتشار عبادتها فى

أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وتحول عبادة أوزيريس ، وأبيس المؤلثة ، إلى عبادة
مصرية يونانية في عهد البطالسة ، تركزت حول الإله سيرابيس (أوزير -
أبيس) ، لظاهرة جديدة بالاعتبار ، لما كان لها من أثر في تطور الديانات القديمة ،
وتدخل في العبادة الرومانية مهد الطريق لتسرب المسيحية وانتشارها في العالم القديم .
قيل إن أوزيريس كان ابن إله الأرض « جب » ، وإلهة السماء « نوط » ،
وإن حياته وموته ونشوره ، رمز أبدي للطبيعة المتجددة : موات الأرض وعودتها إلى
الحياة . أوزيريس إله زراعي ، ينحضر عوده وينمو ويورق ويشمر ، ثم يجنى
ويحصد ، وتذر أشلائه في الأرض ، لتعود الحياة إلى الأرض نباتاً جديداً .

وأوزيريس إله الماء أيضاً ، تلك القوة الخلاقة . والماء في مصر هو « حابي »
رمز النيل الذي يفيض ويغيض ، يرمز ثديه الواحد إلى الفيضان والخير ، ونصف
صدره المفلطح إلى الجفاف والتحريق . ولا يبعد أن يكون « حابي » هذا مجرد رمز
مصور للنيل ، وأن يكون معبود المصريين الثاني ، بعد الشمس ، هو أوزيريس ،
الإله - الماء . فالآلهة الدينية تتجه إلى أوزيريس بقولها : « النيل ينبع من عرق
أياديك . . . أنت النيل ، والآلهة والناس إنما يحيون بفضل جريانك . »

وفي أخريات التاريخ الفرعوني ، كان الغرق يكتبون في الشهداء . أتعرف أن
هذه الفكرة ما تزال حية بين أفراد الشعب المصري إلى اليوم ؟

والأسطورة تجعل من أوزيريس أول ملك لمصر الموحدة ، أيام كان يتولى
الأرباب عرش مصر . وصراعه مع أخيه « سيت » صورة من جهاد مصر في
سبيل الوحدة . وكانت بوزيريس عاصمة أوزيريس في الدلتا . وربما كان
أوزيريس حقاً أول ملك من البشر رفعه المصريون إلى مرتبة الآلهة . فالملوك من أول
التاريخ المصري ، وقبل أن يكونوا أبناء رع ، كانوا كلهم هوروسات ، وكان
العامود « جد » يقف منتصباً في جميع الأعياد الثلاثينية الملكية ، كشعار لقيام
أوزيريس من بين الموتى . وكان أوزيريس يمثل حاملاً كافة الشعارات الملكية :
التاج المزدوج - البشت - والصولجان والسوط ذي اللسانين .

وأوزيريس كان إله العالم الآخر ، لأن الطقوس التي أجريت على أشلائه
جمعتها إيزيس من شرق الأرض وغربها ، هي التي أعادته بقوة السحر إلى الحياة

الأبدية . فالناس يحرصون أن تجرى على بقاياهم الزائلة طقوس مماثلة ، حتى ينعموا بالحياة المقيمة في مملكة أوزيريس .

أوزيريس إذن هو إله الزرع والضرع والنيل والخلود ، بل هو أكثر من هذا : إنه إله الأسرة الفاضلة مجتمعة ، إنه الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن أخته وزوجته إيزيس ، ومن ابنه هوروس ؛ هو وهم مثال العائلة المتناسكة المناضلة . أى أن أوزيريس اجتمعت فيه صفات الألوهية ، مادية وروحية ، إله نافع في الحياة وفي الممات ، إله خلق أيضاً : فقصة صراعه مع أخيه ، رب الحيل « والمقالب » سيت ، وإخلاص إيزيس لذكراه ، وتجوالها في العالم القديم تجمع بقاياها ، ثم إعادته إلى الحياة ، كل هذه القصة الإنسانية العظيمة كانت عناصر نجاحه على طول التاريخ المصرى العتيق ، بل وخارج مصر في عبادة إيزيس وسيرابيس .

انتهت الديانة المصرية إلى أوزيريس ، وقد بدأت من قديم بالشمس في مدينة « إيون » . والشمس منذ الأسر الأولى كان خالق كل شيء ، وخالق نفسه ، عندما خرج من ماء الحياة ، نون ، باسم آتوم . خلق نفسه ، وسمى هاراختى ، وسمى هوروس ، وغير ذلك من الأسماء . وهو « آتون » قرص الشمس ، وهو الجعل يدحرج كرة الخلق الدائم ، وهو الصقر يخلق في السماء . بيد أن اسمه الأكبر ، الذى اشتهر وذاع في طول البلاد وعرضها ، الاسم الذى انتسبت إليه الملوك ، منذ اعترف له ملوك الأسرة الرابعة والخامسة بالسبق ، كان « رع » .

ولكن أى شيء كان قبل « رع » هذا ، وكيف تصور أجدادنا أصل الخليقة ؟ قيل كان العالم ماء وظلاماً ، أو كان فيضاناً وطوفاناً ، وكما أن النيل ، إذا عاد إلى مجراه وانحسر عن الأرضى العالية ، ترك وراءه هضاباً مغطاة بالطمى ، هى مصدر الحياة ، فإن طوفان العالم بدأ يغيب ، وظهرت على سطحه أعالي الأرض كالجزر . وفوق جزيرة منها وقف مخلوق نفسه ، « آتوم » ، وحيداً ، وشرع في الخليقة ، فخرج الآلهة والمخلوقات من نطفته ، استمناها بنفسه في رواية ، أو أنه أخذ يتلفظ باسم كل عضو من أعضاء جسده ، وإذا الكلمات تتجسد آلهة وبشرا وكل المخلوقات .

ولكن كهنة منف ، وقد أصبحت عاصمة الوجهين ، أرادوا لإلههم الأكبر

« فتاح » أن يحتل الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق آتوم نفسه . وقد تحايلا على ذلك بقولهم إن « آتوم بأصغريه ، قلبه ولسانه ، وفتاح هو هذا القلب واللسان » . والقلب ، في لغة المصريين ، يعنى العقل . فهاذا كان آتوم بغير العقل واللسان ؟ إذن ففتاح - الفتحاح - هو خالق آتوم ، وخالق الآلهة ، وخالق الكل ؛ تدبر بعقله ، ثم نطق بلسانه ، فكانت الخليقة : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » ، كما جاء في مطلع الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وفي نص مصرى قديم يقول كهنة منف :

« إنه الفؤاد يختلج بالفكر ، واللسان ينطق بما اختلج به الفؤاد . وهكذا خلق الآلهة جميعاً والحق أن الكون الشامل خرج من صميم القلب عندما نطق اللسان بكل ما فى الكون ، ونزل معه قسطاس العدل يشيب المحسن ويعاقب المسيء وهكذا خلق العمل والحرف والصناعات ، كما نظمت حركة الأذرع ، وحركات السيقان ، وكل ما تنبض به حياة الإنسان ، انصياعاً لما اختلج به القلب ، وتحرك به اللسان ؛ فتاح مبدع الكون ومسوى الآلهة . »

* * *

وكان لمصر الوسطى ، بمنطقة الأشمونين ، إله اسمه « توت » ، اندمجت فيه آلهة كور عدة : آلهة على شكل حيات وضفادع وقردة وآباء منجل . وعزوا إليه كل ما ينشئه العقل وتنطق به الحكمة ، كالكتابة والحساب والعلوم والسحر . وكان يمثله ، فى الغالب ، الطائر « إبيس » أبو منجل ، أو إنسان لرأس ذلك الطائر . ويظهر أن توت هو الذى تقمص بشراً فيما بعد ، وعرف فى عالم السحر باسم هرمس ترسميجسطس ، أى مثلث الحكمة .

ومحاولات مصر الوسطى ، وكهنتها ، لم تكن لتستطيع أن ترتقى بإلهها توت الحكيم إلى أكثر من درجة رئيس ديوان أوزيريس فى العالم الآخر ، لأنه لم يكن من السهل التغلب على سيد أبيدوس العظيم .

وخرج من بلاط توت إله قمىء إمعة ، لم يكن يتصور أحد أن يرتفع فى البانثيون المصرى إلى أعلى عليين . ولكن أراد له طالع أن تختاره قرية حقيرة ، اسمها طيبة ، رباً لها ؛ ثم علا شأنها حين انتقل إليها الحكم منذ مطالع الدولة الوسطى ، حتى عهد الإمبراطورية الحديثة . وكان اسم هذا الإله « آمون » ،

ومعناه الخفى أو المختفى ، مستودع الأسرار . خرج آمون الخفى من بلاط توت الحكيم ، ليعيش مجهلاً أول الأمر فى زاوية من زوايا طيبة ، حتى أخذ بيده الملك آمون — إم — حمت ، وترجمة اسمه « آمون أولا » ، ورفعته إلى المرتبة العليا فى عاصمة الأسرة الثانية عشرة ، التى أسسها ذلك البناء العظيم .

وثبتت أقدام آمون منذ ذلك الحين إلهاً للملوك وأتباعهم من الطبقات الحاكمة ، ينتسب إليه ملوك الدولتين الوسطى والحديثة ؛ فكان الفرعون ابن آمون روحياً وجثمانياً ، كما تمثله نقوش معبد الأقصر ، أبا فعلياً لأمينوفيس الثالث ، وكما تصوره أسرار ولادة حتشبسوت من صلبه ، عاشقاً لأمها أحموزى الحساء .

لم يكن من الصعب على كهنة آمون أن يستولوا على الإله الشمسى القديم ، ويربطوه قسراً بعجلة إلههم الحديث ، فيصبح إله طيبة الكبير ، بل رب العالم القديم ، هو آمون — رع ، وهو الإله الذى يعم الإسكندر شطر معبده بواحة سيوة ، على اعتبار أنه معبد زفس ، أو جوبتر — آمون ، يسأله عن سر مولده ، فإذا آمون يشير فى لغة كهنته إلى صلات وثيقة كانت بينه وبين أم الإسكندر ، أولمبياس زوجة فيليب ، فى بلاد مقدونيا . وقد يفسر هذا الادعاء الصورة المشهورة للإسكندر وقد نبت له قرنا الكبش آمون ، ولو أن الأولى بالقرنين كان ، دون شك ، الملك فيليب المقدونى .

وقصارى القول إن الإله الرسمى الكبير الذى تحكم فى أقدار الملوك منذ الأسرة الثانية عشرة ، كان آمون — رع ، والإله الشعبى الذى استولى على أفئدة المصريين منذ أقدم العصور ، كان أوزيريس ، أو الثالث الأوزيريسى : أوزيريس — إيزيس — هوروس .

وكانت أطول الآلهة حياة هى إيزيس ؛ فحينما أصدر الإمبراطور المسيحى ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥ م) مرسومه يحظر إجراء الطقوس الوثنية فى أية جهة من جهات الإمبراطورية ، توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علناً ، وانهاه بطريرك الإسكندرية تافيلوس على معبد سراييس الأعظم بالإسكندرية يهدمه ، وينكس الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما يستطيع من المعابد المصرية فى طول البلاد وعرضها . وتفرق الكهنة المصريون فى الأرض ، وقد هجروا ما بقى من معابدهم تنعى من بناها ،

إلا في جزيرة فيلى بأسوان ؛ وفي هذا يقول ماسيرو :

« عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظاهرة الاضطهاد نفسه الذى ذاقتة المسيحية على أيدي الوثنية ، إلا معبد إيزيس بجزيرة فيلى ، الذى تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . ومرد ذلك إلى تمسك الإثيوبيين بهذه الإلهة ، وتمسك جميع الشعوب القاطنة بأعلى النيل ، المتخلفة عن مملكة مروي . فعندما استولى البليميون [أسلاف البجاويين والبشارين والعبادة ومن إليهم] على النوبة ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، خضعوا لسحر إيزيس فعبدوها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها في جزيرة فيلى ، على الرغم من مرسوم ثيودوسيوس القاضى بإقفال المعابد . ولم يكن مسيحيو فيلى ، بتشجيع من مطارنة أسوان ، ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد إيزيس ، لولا خوفهم من بطش البليميين . لذلك بقى تمثال إيزيس مرفوع الرأس فى مواجهة المسيح الظافر . وبعدما قضى النوبيون على البليميين فى حكم يوستينيانوس (٥٢٧ - ٥٦٥ م) تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، أخيراً ، من أن ينكس صنم الإلهة ، ويدك مذبحها ، ثم يحول معبدها إلى كنيسة .

« ونستطيع أن نتخيل فى هذا القرن الأخير للوثنية المصرية [القرن السادس] ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعايتهم إلى النصرانية ، ولم يبق حافظاً للديانة العتيقة سوى بعض بواقي الأسر الكهنوتية العريقة . يمكن تصور هؤلاء الكهنة قابعين فى حرم معبدهم ، خلف أبواب موصدة ، يتوقعون فى كل آونة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة . ولكنهم عرفوا بعض فترات من الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسول لملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببرر الجزيرة فى احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرايين . وكان الكهنة حينئذ يرفلون فى أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تمثال الإلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعها ، ويقفون فى جوسق نكتانيبوس الملك ، فى انتظار حجاجهم البليميين . ويتقدم أولئك فى موكب حافل وخشوع عظيم . كان منظرًا يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت إيزيس حقًا سيدة العالم . »

الفلاح الفصيح

يتعلل العلماء ، تفسيراً لـهزال الأدب المصرى ، بأن أجدادنا كانوا أكثر عناية بالنصوص الدينية ؛ وهنا أيضاً تنحرف نظرهم العامة تحت تأثير حضارة لم يبق من وجهها الدنيوى إلا القليل ، بالنسبة لما احتفظت به المعابد والقبور . ولكن الأطلاع على القليل من الأدب المصرى الدنيوى ، وهو الذى احتواه كتاب إرمان ، يقنعنا بضياغ أكثر ذلك الأدب ضياغاً ربما كان نهائياً .

وهناك نظرية أدبية مقبولة فى بعض الدوائر تقول بأن أدب المواعظ والحكم والشعر الوجدانى ، فى أسفار التوراة — والتوراة هى تاريخ بنى إسرائيل ، أخبارهم وآدابهم وفلسفتهم — متأثر بالأدب المصرى ، ويظهر ذلك بشكل محسوس فى شعر المزمائر ومراثى إرميا ، وسفر أيوب ، ونشيد الإنشاد .

ولا أصدق أن يبلغ الكاتب — الاسكريب — مكانته الاجتماعية فى مصر لمجرد أنه كان باشكاتب ديوان الفرعون ، أو ناظر شفالك أمراء الكور . بل كان فناً كزملائه الرسام والحفار والنحات ، وكان مفكراً اجتماعياً ، وحافظاً لتراث الآباء والأجداد ، من علم ومعرفة .

ومن آثار الدولة الحديثة صفحة يصور فيها مؤلفها مشاق حياة الزارع والصانع وغيرهما ويشيد بمقام الكاتب :

« لاتكن مزارعاً ، وجانب صنعة الجندية ، واحذر مهنة الكاهن ، فليس فى كل هذه المهن ما يعدل صناعة الإنشاء . »

وجاء فى كتاب المدعو « أخطوى » إلى ابنه « پيى » : « لا شىء يفوق الكتب ، وليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك ، وأن أنبه فيك الإحساس بجمالها . »

وفى بردية من مجموعة تشستر بيتى المشهورة ، تعاليم للشباب عن مقام أساتذة الماضى ، وما يجب أن تحفظه لهم الأجيال الطالعة :

« أما عن أولئك الكتاب الأعلام ، فإن اسمهم منقوش على صفحات الأزل ،

مع أنهم ذهبوا مع الذاهبين ، وعفت ذكرى معاصريهم . لأنهم لم يشيدوا أهرامات ، ولا أقاموا لوحات لذكراهم ، ولم يخلفوا عقبا يتغنى بأسمائهم . إنما هي كتبهم ، وما أودعوها من حكمة أورثوها لنا ، تتحدث عنهم بمقدار ما لهذه الكتب من معنى وقيمة ، وتخلد ذكراهم إلى أبد الآبدين . . . والكتاب أبقي من قصر مشيد ، أو معبد جنازى فى أرض آمنى ، أو شاهد من الصوان فى معبد .

« فهل نجد بين ظهرانينا كاتباً مثل هارديديف ؟ أو عبقرية كالمحوتب ؟ من نضع الآن فى صف بنووفرى وأخطوى ؟ أو نقارنه بفتاح — حوتب أو بقائروس ؟ أو بفتاح — أم — جيهورى ، وحახب — إراسونب ؟ »

وكلمة أخطوى لابنه بيبي : « ليتنى كنت قادراً أن أحب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك » ، لا نبلى عمق معناها إلا أن نطالع فى نصائح الوزير فتاح — حوتب هذا الكلام الذى كتبه فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد : « ضاعف جراية أمك . تحملها كما حملتك ، ولاقت فىك المشقة والنصب . حملتك أشهرا فى بطنها ، ثم ولدتك ، فلم ينته عذابها ، بل أرضعتك ثلاث سنين ، وكفلتك وأدخلتك المدرسة ، لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك كل يوم بباب المدرسة ، تحمل إليك الطعام والشراب . فعندما تشب عن الطوق ، وتتخذ لنفسك زوجاً ، ثم تصبح رب أسرة بدورك ، اذكر أمك التى حملتك وكفلتك ! وكل ما أتمناه لك ، أن لاتنحى عليك أمك باللائمة ، وأن لا تدعو عليك دعوة يستجيب لها سبحانه وتعالى . »

ومن الثابت أن كانت للمصريين مكتبات تحتوى على الكثير من المراجع ، وتحمىها إلهة نرى صورتها على جدران معبد سهورا ، من ملوك الأسرة الخامسة ، هى « سيشات » ، ربة التاريخ ، التى تسجل حوليات الدولة ، شريكة توت فى حماية فن الكتابة والعلوم الرياضية ، سيدة « بيت الحياة » أى معاهد العلم ، وهى التى تنقش الاسم الرسمى للملك فى هليوبوليس ، على أوراق شجرة المنهى .

ويسأل الملك زوسر ، رأس الأسرة الثالثة ، مستشاره المحوتب الحكيم ، عن منابع النيل ، وعن الإله الموكل بها ، فلا يجيبه أعلم علماء العصر القديم قبل أن يراجع مكتبته .

والملك نفر - حوتب ، من الأسرة الثالثة عشرة ، ينعى ما أصاب الفن في زمانه ، ويقول : « ألا كم أحب أن أرى الكتب القديمة التى تتحدث عن الإله آتوم » ، فيشير عليه رجال حاشيته بأن يدخل إلى بيت الكتب ليطالع الكلم المقدس : « وفتح جلالته لفافات البردى ، وحوله رجال بلاطه . . . ثم قال : نحن الملك ، نعلن إرادتنا فى أن يصور أوزيريس مع التاسوع كما نراه فى هذه الكتب . »

أما إن المصرى قصاص بالفطرة ، فأمر هذا قد لا يحتاج إلى دليل ، وقد عرفنا ، أبناء الحضرمنا وأبناء الريف ، مكانة القصص فى حياة الأسرة والمجتمع ، وقدرة أهلنا على الحكاية المرتبة المشوقة . وأنا واحد من الناس أعتقد بأن كتاب « ألف ليلة وليلة » أدب مصرى فى الكثير من قصصه ، وقد عنيت يوماً بالقصص البحرى فى العربية ، وبقصة السندباد بخاصة ، فوجدت لغة هذه القصص ، وعقلية المتحدثين فيها ، وسماتها ، مصرية بلدية . أما مصادرها فقد تحدثت عنها طويلا فى كتابى « حديث السندباد القديم » ، وأرجعت ما يكاد يكون كل ما فيها من وقائع إلى كتب الرحلات والعجائب والكوزموغرافيا العربية .

أين إذن القصص المصرية فى العصور القديمة ؟ فيما عدا قصة الرحالة ، أو النوتى الذى توغل فى البحر الأحمر وانكسرت سفينته ، وألقى به الموج إلى جزيرة فى جنوبى البحر ، رأى فيها الزوبعة البحرية المسماة « نافورة الماء » ، والتى تعرف عند العرب بالتنين ، لاعتقادهم أنها حيوان بحرى ضخم ، التقى فيها بطل القصة المصرية القديمة بهذا التنين يجاذبه أطراف الحديث . وفيما عدا قصة « سنوهى » ، وقصة « أونامون » ، وقصة « خوفو والسحرة » ، وقصة الأخوين ؟ أين أصول القصص التى سمعها هيرودوتس ، وسردها علينا فى صور مشوهة ، غير مقبولة عقلا ، فى كتابه عن مصر ؟

ولقد اخترت لك من الأدب المصرى كله ، وهو قليل ، صفحة واحدة من روح كتابى هذا . فإن كان كتابى - كما أردت له - صفحات مختارة من ملحمة الشعب المصرى ، فقد حرصت على أن يتضمن قصة « شكايه الفلاح » ، كما يسميها أدولف إرمان ، أو قصة « القروى الفصيح » ، كما يسميها برستيد ، لأنها

تمثل عندي قصة فلاحى مصر على مدى الأجيال والآباد .
ولنأما أحب قبل ذلك أن أشير إلى حادثة بسيطة جداً وردت فى قصة « خوفو
والسحرة » ، أترك للقارئ أن يستشف منها ما يراه ، وأرجو أن يوافق رأيه ،
ما رأيته فيها :

« ومثل ديدى الساحر بحضرة الملك خوفو ، فقال جلالته : يا ديدى ، كيف
لم أر وجهك من قبل ؟. أجاب ديدى : إنما نتوجه إلى من يدعونا ، وقد دعانى الملك
فلبست . قال جلالته : أضحك ما تقولون من أنك قدير على أن تلتصق رأساً فصل
عن الجسد ؟ . أجاب ديدى : أى نعم ، يا مولاي الملك ، فى مقدورى ذلك .
قال جلالته : على بسجين ننفذ فيه العقوبة تَوَّأ . فاستدرك ديدى وهو يقول :
« حاشا يا مولاي ! أنا لا أجرب سحرى فى الإنسان . أليس الأخلق بنا أن نجرب
مثل هذا العمل فى العجماوات ؟ وأحضروا له إوزة يجرى عليها سحره . »

* * *

فلنقص عليك الآن قصة الفلاح الشاكي الفصيح . حدثت وقائعها إبان الدولة
الوسطى ، عندما كانت عاصمة البلاد فى هرقلوبوليس ، فيما بين لشت ودهشور
بمصر الوسطى ، وفى عهد ملك اسمه نب - كاو - زع ، يظن أنه حكم قرب نهاية
الألف الثالثة قبل الميلاد . ويبدو أن بطل القصة كان من أهل وادى النطرون ،
يتوجه إلى العاصمة ومعه حميره محماة بالنطرون ، يبادل به غلالاً .

« كان يا ما كان ، رجل اسمه نخنوم - آتوب ، وهو قروى من وادى الملح ،
له زوجة اسمها مريا واتجه القروى جنوباً إلى هرقلوبوليس ،
واتفق له أن التقى برجل واقف على قارعة الطريق اسمه توتى - نخت بن أزيرى ،
من رجال رينسى بن ميرو ، رئيس ديوان الملك . »

ما إن رأى توتى حمير القروى حتى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها . فجاء إلى
مستدق فى طريق القروى « لا يزيد عن عرض متر » ، يحده من يمينه غيط شعير ،
ومن يساره مجرى ماء . ففرش عليه ثوباً من قماش ، سد به الطريق ، فيما بين غيط
الشعير وشاطئ الترع ، جراً للشكل . ورأى القروى الطريق مسدوداً ، مع أنه ،
كما يقول ، « طريق ملك للجميع » ، أى طريق عام ، فجانبه حرصاً على القماش

المفروش ، ودفع بحميره إلى ناحية الحقل ، لير من طرفه ، فقمضم أحدها قضمه شعير ، فكانت الفرصة التي يغتتمها توتى - ناخت ، صاحب الحقل ، قال : « سأخذ حمارك هذا ، لأنه يرعى شعيرى ! »

« قال القروى : إننى أسير فى طريقى ، وأنت الذى اعترضته ، فحملتنى على الانحراف إلى طرف حقلك ، فهل تأخذ حمارى لأنه قضم قضمه شعير من شعيرك ؟ اسمع أما أجول لك : إننى أعرف صاحب هذه الأبعادية ، إنه رينسى ابن ميرو ، رئيس ديوان الملك ، وهو الذى يطارد كل لص فى البلاد ، فهل أسرق فى أملاكه ؟ »

« توتى : أنا الذى أتكلم ، فما الداعى لذكر السيد رينسى ؟ »
« وشوَّح توتى بهراوته ، ثم انهال بها على الفلاح ضرباً ، وساق حميره كلها إلى دار العزبة . وأخذ الفلاح يصيح مستغيثاً ، فقال له توتى :

« لا ترفع صوتك هكذا يا ولد ، وإلا شيعتك إلى عالم رب الصمت [أى أوزيريس ، وكأنه يقول له : اخرس يا وله ، لاحسن أطلع روحك !] . »
« الفلاح : تضربنى ، وتستولى على مالى ، ثم تريدنى أن أسكت ؟ يا إله الصمت ، أستجير بك أن تعيد إلى مالى ! »

لبث القروى عشرة أيام بباب توتى ، يستعطفه فلا يلتقى منه إلا عنتاً وإعراضاً ، فيذهب المسكين إلى العاصمة ، يرفع شكواه إلى السيد رينسى . وهذا يحيله على موظفيه ، فلا يلاقى منهم سوى إهمال أمره ، والميل إلى الغرض ، تحيزاً لزميلهم ، ناظر الضيعة . ويعودون إلى الرئيس ليقولوا له : « إنما القروى مدين لابن أوزيرى ، فلم يصنع هذا أكثر من استرداد حقه عنده . وعلى أية حال ، هل يعاقب توتى - ناخت على قليل من النظرون ، وشوية ملح ؟ فليرد عليه قليل ملح ونظرونه إذاما لزم الأمر . » ويتغافلون قصداً عن الحمير التي استولى عليها ، وهى مصدر رزق القروى .

يقول برستيد : « يستمع القروى إلى هذا الحكم الجائر ، بينما يجلس رئيس ديوان الملك سارحاً صامتاً . إنها لصورة تجمع فى بساطتها قروناً وأجيالاً من التاريخ الاجتماعى للشرق : فى ناحية : شرذمة من الدهاة المداهين ، رجال رينسى ، ويمثلون

فئة الموظفين ، وفي مواجهتهم الفلاح المغبون ، يمثل صيحة أجيال المحرومين يطالبون بالعدالة الاجتماعية . »

ولم يثن الفلاح حكم الموظفين ، ولا سطوة المحسوبية ، عن أن يعيد بث شكواه إلى رئيسى فى بلاغة وفصاحة ، لا يجد بعدها رئيس الديوان مندوحة عن الذهاب إلى ولى النعم ، نب-كاو-رع ، ليقول له : « لقد وقعت يا مولاي بقروى ذرب اللسان ، فياض البيان ، وقد استولى واحد من رجالى على أموال له » . فيأمر الملك بأن يستمع رئيس ديوانه إلى الشاكى ، دون أن يظهر استجابة إلى شكواه ، حتى يفرغ ما فى جعبته ، على أن تدون أقواله فى محضر ، وبأن يرسل الرئيس إلى أهله وأطفاله رزقاً ، وأن يوصى حاكم الإقليم بهم بخيراً .

وهنا تنهى تلك المقدمة التى أراد بها كاتبها أن تكون إطاراً لتسعة أحاديث ، يضمها حكمه على العهد ، ونقده للرجال المسئولين ، وهى صفحات كانت تدرس للأولاد كمحفوظات ، وتتل على عليهم كإملاء ، وينقشونها فى ألواحهم تحسناً لخطهم : « جعلت يا سيدى أبا لليتامى ، وعائلاً للأيتامى ، وأخاً للمحرومين . اسمك على رأس شرعة العدل ، ونفسك عالية تكبح جماح الظالم ، وتقيم ميزان الحق . أنصت إلى شكواى ، واستجب إلى دعائى ، ليعود الحق إلى نصابه ، أغنى وارفع عني ما ألم بي من جور .

» يا سيدى الرئيس ، أنت الصالح المؤمن ، البار بأرزاق الناس ، كأنك النيل تخضر به الحقول ، ويحيا به موات الأرض . فى حماك يأمن الناس غائلة المعتدين ، ولا يمنع السائل عن بابك . لا تستخف بأمرى ، فى رقبك شكاية الضعفاء . أنزل بالمسئء عقابك ، حتى لا يختل ميزان العدالة فى يدك ، فهبط كفة ذنوبك يوم الحساب . » واجبك أن تصغى إلى الشاكى ، وتفصل بين المحتكمين إليك . وظيفتك حمايتى من المعتدى ، لا أن تقف إلى جانبه . أقم من نفسك للفقير سداً يحميه من الفيضان ، ولا تكن كالسيل الذى يجرفه .

» يا سيدى الرئيس ، أزح عنا الجور ، وامنحنا عدالتك . هبنا من لدنك الخير ، تقطع دابر الشر . كن طعاماً للجوعان ، ورياً للظمان ، ولباساً للعريان ، ودفناً لمن عضه القر بنابه .

« لقد علمك أهلك ، وأحسنوا تربيتك ، لا لتسرق ، ولا لتساعد السارق ، لا لتميل مع المعتدى ، فتكون على رأس المعتدين . حذار أن تصبح البستاني الضال ، فتروى أرضك بالظلم ، وينبت زرعك البهتان ، ويروج الشر في سوقك . »
« أنت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وهوذا يتدفق من فى أنيناً وشكوى .

« أنت مغيث الملهوف ، وموقظ النائم ، وملهج لسان الصامت . ليس من شيمك أن تحكم مغاليق قلبك ، وأن تضع أصابعك فى أذنيك حتى لا تسمع إلى من يتهم رجالك الذين أقمتهم لإنصاف الناس ، فكانوا عوناً على من لا خلاق لهم . »
« أنصفنى بحق العدالة ، وربة الحق ، يا حامل الطرس والقلم ، كأنك توت الحكيم . فالحق بالحق أولى ، و « معات » إلهة الحق والعدل قائمة إلى يوم الدين ، تؤازر المنصف ، ومن عمل صالحاً ، وهو يوارى التراب مسجى فى ناووسه ولحده ، وتخلد اسمه لأنه رفع شرعة العدالة ، وأصاخ إلى كلماتها إليه : ” لا تنبس شفتاك بغير كلمة الحق ، ولا تقدم يدك إلا الصالحات ، فالحق عظيم ، قوى ، سرمدى ، وثوابه معك حيث تكون “ .

« أما الخديعة فلا تورث إلا الندامة ، وريحها الخبيث يدفع بسفينة صاحبها إلى حيث لا مرفأ . ومن نكث عهد العدالة ، فقد الصاحب والولد ، وكانت سوداً أيامه .

« إيه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فلا تسمع ؟ لم يبق لى إلا أن أستجير منك بأنويس فى العالم الآخر . »

* * *

ومع أن نهاية هذه البردية الجميلة ، التى يحتفظ بها متحف برلين ، مشوهة غير واضحة الكتابة ، فإننا نتصور أن الوزير رينسى ، وقد سجل شكوى الفلاح ، حمل المحضر إلى ولى النعم ، فوجد فيه « ما تطيب له نفسه ، ويفرح به قلبه » . ويتبين ، مما تمكن قراءته ، أن الملك أمر بفحص حالة الفلاح الفصيح ؛ ثم ترد بضع كلمات غير واضحة ، نرجو أن تكون سجلت قرار الملك بإعادة الحق إلى نصابه ، والأخذ من الظالم للمظلوم .

وقفه الحائر

اللهم قد بلغت الذرى ، وتسمنت قنوات المجد ، وكان طريق الطويل فى الليل
المدمم وعراً عسيراً ، يدمى القلب والقدم . بدأت فى جحيم التاريخ المصرى ، ظلامه
وحميمه ، جوعه وزقومه ، جوره ومظالمه ، زبانيته الغرباء يعتدون على وطنى ، وأهل
وطنى يعتدى بعضهم على بعض .

أقف أملاً رثى من هواء الأعالى المخلخل ، وأرجع البصر حائراً ... متردداً ... وأنا
من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف عام ، هى التى جعلت اسم بلادى على
كل لسان ، منذ قدماء الإغريق إلى اليوم . الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم
المتمدن ، قديمه وجديده ، هى التى نزلت بى إلى الحضيض عندما اشتبه العالم فى
أننى غير جدير بأجدادى الأولين ، بل تشكك فى شرعية مولدى ، عندما عرفنى
أقل الناس علماً بمجدى الغابر ، وأشدّهم إنكاراً لأرومتى .

لست مستحقاً رفعا ولا خفضاً ، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب ،
وصدق الناس أخيراً أن المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه . لا تحكم لى أو على ، لأن
ماضى البعيد كان مجداً مؤثلاً ، وماضى القريب كان ذلة وهواناً . أنظرنى حتى
تتبين حاضرى ، وستعرف أن حرفاً واحداً لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى ، والمسيحى
والإسلامى . فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه ، تالده وطريفه ، كراكيبه
وتحفه الغالية ، عظيمه وحقيقه .

فى قلبى الفسيح مكان لكل أسلافى ، عاقلهم وأحمقهم ، غنيهم وفقيرهم .
« بهو الأجداد » فى بيتى لا يعنى بأسماء يتردد صداها فى رحاب التاريخ وقاعاته ،
بقدر ما يعنى بالمجهولين المغمورين منهم ، ذلك الجبار المصرى الذى رعى وراءه
ستين قرناً من الزمان ، مكلل الجبين بكل ذلك المجد ، مثقل الكاهل بكل ذلك
العذاب والقهر .

أقف فوق قمة الجبل الشامخ الأشم ، لأملأ رثى من هذا الهواء المخلخل ،
يعتربنى دوار ، وينعقد لسانى ويتعطل بيانى ، فما هو هذا التاريخ المصرى الذى

طال السرى بحثاً عنه ، وطلع الفجر علينا ، فإذا به ماثل أمامى من أوله ؟

* * *

عندما سأل هيرودوتس الكهنة المصريين عن عدد الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد ميناء ، أجابوه بأنهم ثلاثون وثلاثمائة ، وادعى أنهم فتحوا له بهواً عظيماً ، اصطفت فيه تماثيل أولئك الملوك الثلاثمائة والثلاثين .

ويقول ديودورس الصقلى بأن المصريين يعتبرونه مقياساً على حكمهم ، وسلامة شرائعهم ، أن يتولى الحكم فيهم قافلة من الملوك تتوالى على مدى سبعمائة وأربعة آلاف عام ، وكان جلهم من أهل البلاد .

وكان سولون يردد قول الكهنة المصريين له : أنتم يا علماء اليونان أبناء يومكم فيما تعرفون ، ويضيف أحمد كمال فى ترجمته المسجعة : ليس فيكم كهول فى الفضل ولا شيوخ ، ولا من له فى المعارف قدم ثابت ولا رسوخ .

* * *

التوغل فى العتاقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى . ومن المشكوك فيه جداً أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضرة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية .

ويتراوح التقدير الحديث لتاريخ مصر بين ما يعرف بالتقدير الطويل ، وهو ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وبين التقدير القصير وهو مئتان وثلاثة آلاف عام . وهذا يتناول تاريخ الأسرات وحدها ، أما ما قبل الأسرات فتاريخ يمتد إلى آلاف مؤلفة لا نعرف لها عدداً ولا حصراً .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : هل توصل العلماء إلى الكشف عن تاريخ مصر كله ؟ والإجابة على هذا نفي بات ، فما أبعدنا اليوم عن معرفة هذا التاريخ كاملاً . ولا يظن أن نبلغ منه يوماً مبلغ ما اجتمع للأوربيين عن تاريخهم اليونانى والرومانى . وأمامى الآن كتاب أحمد كمال ، المؤلف منذ نحو ثمانين عاماً ، وكتاب جاستون ماسبرو من أواخر القرن الماضى ، وكتاب أحمد فخرى الصادر عام ١٩٥٦ ، ثم الطبعة الأخيرة من كتاب دريوتون وقاندييه ، المنشورة سنة ١٩٥٢ ، وتحتوى على تصويبات ومناقشات تحاول وضع الأمور فى نصابها ، حتى تاريخ تأليف الكتاب ، أو إعادة طبعه .

ولا أتصور أن أدعى بأن هذه الأعوام لم تضيف شيئاً ، بل أضافت الكثير مما يشهد للآثرين والمؤرخين من كل الشعوب بالمشاهدة ، والكدح العظيم . ولكن الصفة المميزة للتاريخ المصري القديم ، سواء طالعت في كتابي ماسبرو وأحمد كمال أو في طبقات كتاب برستيد ، أو في أحدث الكتب ، هي إشعارك بأنك تطالع مجلداً قديماً أكلت القرصة صفحاته ، واخترقت الكثير من كلماته ، بالإضافة إلى ما تشعث وتفرك من أوراقه ، فضاعت فيها فصول بأكملها .

ثم أين الأدب المصري في أربعة آلاف عام ؟ أهذا هو كله ، بعصوره الثلاثة ، يجمعه كتاب متوسط الحجم وضعه أدولف إرمان ؟ حقا إن الأدب بكيفية لا يكفه ، ولكن ما بقي لنا من الأدب الفرعوني لا يشتمل على صفحات تراعى من جمالها كما يروعك هوميروس ، أو قصائد الريجثيدا . إنما هو أدب فيه فن ، وشعر صادق الرنين ، مصري إلى نخاعه ، كما أحس به وأنا أطلعه في ترجمات باهتة ، دون أن أستطيع تفسير هذه المصرية القح لشخص أجنبي .

وما هي تلك الآثار الباقية بالنسبة لما ضاع ودال واختفى ؟ أربعمائة أو خمسمائة قبر اكتشفت في وادي طيبة وسفوح تلالها ، هي كل رصيد ألني عام على الأقل من تاريخ الأسرات ؟

بل ما هي تلك المعابد المتهمة ، والأصنام المشوهة ، التي أخرجها العلماء من وسط القمامة والرمال والتراب ، والعشش . وما هي تلك الأهرامات والمصاطب ، والقبور المحفورة في بطن تلال بني حسن والبرشة وأسيوط ، وما عددها بالنسبة لما كان موجوداً في أخريات التاريخ القديم ؟ هل يمكن أن نتصور مصر القديمة كاملة بمبانيها وأهلها ، وحكوماتها المحلية والمركزية ، ونظمها القضائية والإدارية ، ولاكليروسها وجيشها وبوليسها ومهندسيها وأطبائها ؟

وما أضحك له كثيراً سعة خيال زوار الكرنك ، أعظم الآثار القديمة في العالم أجمع دون شك . ولست أنوى الانتقاص مما يبعثه في النفس من أثر عميق جداً ، ساحق ، يكاد يصرع كل حساس بالفن ، مدرك لمعنى التاريخ . ولكن أين هو معبد الكرنك ؟ وأين الصروح العشرة التي يحدثونك عنها ، ويشتون موضعها في رسوماتهم القطاعية ؟ إنني لم أعرف للمعبد المصري رأساً من ذنب ، إلا قليلاً بعد زيارة معبد الأقصر ، وكثيراً جداً بعد رؤية معبد سيتي بأبيدوس ، أمثلة لجمال

العمارة بمعناه الكامل ؛ وعندما تشاهد معابد دندرة ، وإسنا ، وإدفو ، ترى أبنية أقيمت في عهود متأخرة ، تحمل في كيائها جرثومة التدهور الفني ، ولكنها احتفظت على الأقل بوضعها وشكلها ، فلا تطالب مخيلتك بأكثر من تصور الألوان ، وإضافة بعض السجف هنا وهناك ، ورفع الأعلام ، واستحضار حياة ذلك العالم القديم الذى احتفظ بالكثير من تقاليده ، وطقوسه ، ومثله الفنية والفكرية ، حتى انهار تحت معاول الهدم ، وسفت عليه رمال الحدثان ، وعوادي الزمان .

يجب أن ندرك ذلك وغيره لنفهم صعوبة الإحاطة بالتاريخ المصرى ، وربما استحالتها ؛ ولا أظن أننا واصفون إلى كتابة هذا التاريخ القديم بطريقة متصلة متناسقة . ومن أحسن الكتب حقاً ، فى هذا الصدد ، كتاب جيمس هنرى برستيد ، لأن الرجل ، مع استناده الطيب إلى النصوص التى نشرها فى أربعة مجلدات كبيرة ، وإلى غيرها ، لا يفتأ يحدثك حديث الحكاية ، عن ذلك التاريخ ، ويسحرك بأسلوب عفا الآن أمره ، هو أسلوب أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ذلك الأسلوب الأزهر الأنيق . ولكى تعرف ما يضطر إليه ذلك المؤرخ العلامة من التخيل والفروض فى كتابه ، أضرب لك مثلاً اخترته عفواً ، مما كنت أطالعه ليلة أمس ، فى أول الفصل الثامن ، عن « تدهور الشمال ، وارتفاع نجم طيبة » : « وتحول الكفاح الداخلى ، الذى أطاح بالدولة القديمة ، إلى نوبة من الصرع ، كانت فيها يد الدمار هى العليا . أما متى ، وعلى أيدي من نزل ذلك الخراب ، فليس فى مقدورنا حتى الآن أن نعرفه . بيد أن المدافن الفخمة ، التى أنشأها أعظم ملوك الدولة القديمة ، خرت تحت معاول الهدم ، حتى لم يبق للكثير منها أثر يدل عليها . والمعابد لم تنهب فحسب ، بل إن ذخائرها الفنية ، كتماثيل الملوك من الصوان ، وحجر الديوريت ، كانت تدك دكا ، وتتطاير شظاياها شذر مذر ، وتلقى فى برّ ببوابة طريق الأهرام . . . »

أو

« وكان النصر حليف أمينمحت فى تلك المشاحنات ، ولكنه واجه موقفاً ممعناً فى الصعوبة . فى كل مكان وقف النبلاء المحليون ، حكام الكور الذين شاهدنا ارتقاءهم فى الدولة القديمة ، موقف أمراء مستقلين بإقطاعاتهم ، وكأئهم ملوكها .

وكانوا يتأملون قائمة أجدادهم القدامى ، وقد انتهوا إلى جيل آبائهم ، أولئك الذين قضى سلطانهم على الدولة القديمة. فيعملون على ترميم مدافن مؤسسى أسراتهم . «

* * *

وفى أول الفصل التاسع : « وكان طبيعياً أن يسكن ملوك الأسرة الحادية عشرة فى طيبة حيث عاش مؤسسو الأسرة أيام الحرب الطويلة للتغلب على أهل الشمال . ولكن أمينمحت لم يكن فى إمكانه السير على هذا التقليد. ويسهل تصور الأسباب التى حدثت به إلى تقدير ضرورة انتقاله شمالاً حتى يحتفظ بمقامه بين حكام الشمال ، ممن لم ينفكوا عن الميل إلى البيت المالك فى هرقلوبوليس . هذا إلى أن جميع ملوك مصر — فيما عدا الأسرة الحادية عشرة ، التى أزاحها أمينمحت — منذ انتهاء دولة طينة [طينيس] ، أى منذ ألف عام ، استقروا هناك . فاختار موضعاً قريباً من النهر ، لبضع أميال إلى الجنوب من منف. وهو موضع لم نوفق بعد إلى تحديده ، والغالب أنه كان قريباً من الموقع المعروف الآن باسم لشت ، حيث اكتشفت أنقاض هرم يحمل اسم أمينمحت . . . وكانت الأمة مؤلفة من مجموعة دويلات ، أو إمارات صغيرة يدين رؤساؤها بالإخلاص للفرعون ، ولكنهم لا يعتبرون موظفين عنده ، أو خداماً له . كان بعضهم من « اللوردات » الكبار ، أى حكام الكور ، والبعض الآخر كانوا مجرد « كونتات » يحكمون على أبعادية ، يتوسطها مركز العزبة الحصين . كانت دولة إقطاعية ، لا تختلف كثيراً عما عرفت أوربا فى عصورها الوسطى ، تلك هى الدولة التى ساس أمينمحت أمورها . . . »

* * *

ستجد الكثير من هذا فى كتاب برستيد ، وغيره ، وسأنقل إليك فى فصل تال صفحة طويلة من كتاب « موريه » عن « النيل والحضارة المصرية » ، تعرف منها وسيلة مؤرخى مصر القديمة فى إنشاء تاريخ يقرأ . فالمؤرخ إما أن يلزم حدود النصوص ، فلا يخرج عن مجرد آلة تسجيل وترجم ، وإما أن يعمل بعقله وقرينته وأسأوبه ، فيستنتج ويعلل ويحلل . ولو لم يفعل ذلك لظل تاريخ مصر « أرشيف » ميتاً . وأصدق ما طالعت فى هذا الصدد قول ولسون فى مقدمة كتابه عن الحضارة المصرية الذى نشره فى طبعته الأولى تحت عنوان « عبء مصر » ، قال :

« والكتاب التاريخى بمعناه يحاول الاحتفاظ بأكبر قسط من الطريقة العلمية ،

والتزام الموضوعية ، ويكون الكتاب مرجعاً للمشاهدات التي سجلت وروجعت ، في أحقاب التاريخ المختلفة . وهذه المشاهدات والملاحظات يجب أن تعرض بحيث يمكن التحقق منها ، وتحليلها واختبارها بواسطة الآخرين . أما تفسير المشاهدات والوقائع ، أى محاولات المؤرخ أن يصفى عليها رواء التسلسل ، ويجعل لها قيمة ، فيجب أن يحدد ويوضح ، حتى لا يأخذ به القارئ إذا أراد أن يستنتج بنفسه من واقع الحقائق المعروضة . والطريقة المثالية لعرض التاريخ المصرى هى فى تقديم مكتبة تحتوى على الكتب التى تعالج مصر القديمة ، وإلى جانبها المصادر ، والمجلدات والدراسات المختصة ، التى تؤدى إلى تاريخ الحضارة . أى أن تعرض للقارئ : مجلدات تشتمل على ترجمات لجميع أنواع النصوص والمتون المصرية ، يضاف إليها الحديد أولاً بأول ، وأن ترفق هذه الترجمات بتعليق كاف يقنع القارئ بقيمتها كترجمة ؛ ومجلدات تصف وتحلل البقايا المادية للحضارة المصرية ، ومن ضمنها الأعمال الفنية ، مع صور واضحة لها ، ومع تحديد تواريخها ، حتى تمكن للقارئ من الحكم عليها كمستندات ؛ ومجلدات تتناول الدراسات الخاصة بالديانة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنظام الاجتماعى ، والصناعات ، والعلوم ، والفن والأدب إلخ ، والتطورات التى مرت بها كل هذه . ثم تلخيص كل تلك المواد فى تاريخ للحضارة لا يخرج عن حدود الاعتدال ، يتاح فيه للمواد الأصيلة أن تتحدث بقدر الإمكان عن نفسها . وهذا هو الأساس الذى يمكن للمؤرخ من أن يتقدم بتعليقاته التى تستهدف ، أو تزعم ، تفسير قصة التاريخ ، وإبراز قيمتها . »

ويعترف ولسون ، وهو يقدم لكتاب من أحسن وأعمق ما كتب دراسة للحضارة المصرية ، بأنه وضع فيه « العربى قبل الحصان . فالدراسة الحالية فى أغلبها هى عربى التعليقات ، والحكم الشخصى للمؤلف ، التى كان يجب أن تسبقها خيول من المصادر الأصيلة ، وتاريخ فى حدود الاعتدال . »

ثم يقول بأنه وضع العربى قبل الحصان لأن « أغلب خيولنا . . . لا وجود لها أو أنها بلغت من الكبر عتياً » ، مشيراً بهذا إلى نقص كبير فى النصوص ، وحاجة ملحة إلى إعادة النظر فى ترجمة ما سبق أن ترجم منها .

ويتساءل ولسون عما هى « الحقيقة » فى التاريخ المصرى القديم ، وعما هو

السجل التاريخي ؟ يعنى بذلك أن من الخطأ الاعتماد على ما كان المصريون يقولونه عن أنفسهم ، تبريراً لأعمالهم ، عندما يقفون أمام الديان ، أو ليرسموا لأنفسهم صورة تاريخية معينة . وقد ثبت مثلاً أن حكاية رمسيس الثانى التى تمدح بها الشعراء ، ورسمها الرسامون ، وسجلها المؤرخون : حكاية وقوفه بعربة الحرب وحده ، يصد جحافل الخيتا ، ليس لها ظل من الحقيقة ! ولم نكن بحاجة إلى إثبات علمي للزيف فيها . فقد كنت ، وأنا غلام يعلمونه التاريخ ، لا أرى فيها إلا ما يشبه وصف بشر بن عوانة للقائه مع الأسد ، فى قصيدته المشهورة ، وإلا ما يذكرنى بأشعار عنزة العيسى بصور نفسه لحبيته وهو فى نقيع المعامع ، والسيوف تلمع « كبارق ثغرها المتبسم » . لم أكن أصدق البتة أن بشر بن عوانة كان « هزبراً أغلباً لاقى هزبراً » ، ولم آخذ العيسى مأخذ الجدل لحظه واحدة . وما كان أقسانى تشفىاً فى المتنبي عندما عرفت أنه كان أى شىء إلا ذلك الفارس المقدام ، والأسد الضرغام ، الذى صور به نفسه فى شعره الجزل الرائع !

إننى أحيل القارئ على مقدمة الدكتور ولسون ، فهى من أصدق وأعظم ما طالعت تعليقا على كتب تاريخ مصر القديمة ، والرجل معترف بأن كتابه واقع فى المحذور الذى يتحدث عنه .

لقد حاولت مثلاً أن أفهم ولو قليلاً من الديانة المصرية خلال تفسيرات وتخريجات ، ولف ودوران ، فأحسست إحساساً مؤلماً بأن أصحاب هذه التعليقات غير واثقين مما يكتبون ، وأن حقائق الديانة ليست واضحة لهم ، وإلا لما صعب عليهم أن يوضحوها لنا . ولست أظن بحال أن تلك الديانة كانت على شىء من التعقيد الذى نعرفه فى الديانة الهندوكية – وهى وثنية متعددة الأرباب كالديانة المصرية – ولكنهم أهل التخصص ، مؤرخو مصر القديمة ، هم الذين صوروا الديانة المصرية على شكل ذنب الضب ، أو أعقد .

وليس من عملى فى هذا المجال ، ولا فى غيره ، أن أوضح معالم التاريخ المصرى ، أو أصف الحضارة المصرية ، إنما هى انفعالات يجرى بها القلم هنا وهناك ، ورحلات فكرية فى رحاب ذلك التاريخ .

لا أعرف للتاريخ المصرى غير حقيقتين لا مرد لهما : الحقيقة الأولى هى النصوص المنقوشة على الجدران ، والمكتوبة فى البرديات ، أو فوق الشقفات والشظايا ،

مترجمة ترجمة أقرب إلى الصحة . وفي التاريخ المصرى نصوص ذات أهمية كبرى ، كنصوص برديات هاريس عن عصر رمسيس الثالث ، وكتون أهرام أوناس وأسرته ، ونصوص كتاب الموتى ، وبرديات إدوين سميث الطبية ، وكل ما يدخل فى عداد الأدب من آثار . ولكن هذه النصوص وأمثالها ، إن ألقت ضوءاً على بعض حقائق الحضارة المصرية والتاريخ ، فهى لا تمثل إلا قسماً يسيراً من الحياة المصرية ، وهو القسط الممتاز الذى يخرج فى الغالب عن حدود الاعتقاد .

فهل صورة مصر الموتى هى صورة مصر الأحياء ؟ وهل كانت فكرة الموت مستحوذة على المصرى ذلك الاستحواذ الذى يبدو فيما بقى لنا من آثاره ؟ هل من المحتوم أن أصدق كلام ديودورس وهو يقول : « أولئك الناس كانوا ينظرون إلى الحياة كأنها فترة قصيرة لا أهمية لها ، بينما هم يعنون عناية كبرى بحسن الأحذوثة التى تتخلف عن فضائل الإنسان بعد موته . لذلك هم يعتبرون بيوت الأحياء نزلاً يقضى فيها المرء بعض الوقت ، ثم يمضى ليقم إقامة دائمة فيما كانوا يسمونه "بيوت الأزل" . فلم يعن الملوك بناء قصورهم ، إنما بذلوا كل مرتخص وغال لإعداد مدافنهم . »

وماذا نقول نحن المسلمين غير ذلك ؟ وهل يقول إخواننا المسيحيون شيئاً آخر ؟ ألسنا نحيا فى هذه الدنيا بكل معانى الحياة وكأننا نعيش أبداً ؟ وما أقل ما نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً . ولكن إذا جاء بعدنا من يطالع أمثال هذه الأحاديث القدسية ، وروائع ما يؤثر عنا من كلم ، وما تأمر به الديانات وماتمهى عنه ، هل يستطيع — إذا لم يكن عرف حقيقتنا — أن يتصورنا إلا قوماً . . . نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟ !

يصف العلامة أميلينو الجنس المصرى بأنه من أعظم الأجناس بشراً وحباً للحياة ، ويدعى بأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم — أى حتى أوائل القرن الحالى — أطفال كبار ، يحبون البحبحة ، ويقبلون على المسرات ، أهل اجتماع وألفة ، ينزعون إلى كل مباحج الحياة الدنيا ومتاعها . وما علينا إلا أن نلقى نظرة — ولو عابرة — على الرسومات والتماثيل التى تزين المقابر منذ أقدم العصور لتأكد من صدق ما يقول . والمصرى — على حد قول أميلينو — لا يكتفى بحقائق

الحياة وحدها ، مهما كانت مفرحة بهجة ، فهو ما فتئ هائماً في خياله بحثاً عن الخوارق ، وجرياً وراء المغالاة . . . وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم القديمة وبين دينهم الجديد ، ولم ينبذوا أساطيرهم العتيقة ، بل كسوها لباساً مسيحياً ، فتحوّلت آلهتهم القديمة وجنتهم ، إلى ملائكة وقديسين ، وإلى أبالسة وشياطين .

* * *

لقد حسب كبار عدد مقابر طيبة ، فكانت في حدود الأربعمائة ؛ وقدرها بالنسبة للقرون التي دفن أصحابها في خلالها ، وعلى أساس خمسة وعشرين عاماً للجيل الواحد في الزمن القديم ، فإذا لكل جيل عشرة قبور لا غير . أى أن حسبته أوصلته إلى أربعين ميّاً في كل مائة عام ! ثم قال بأن محاولة استخراج الطقوس الجنزية من هذه القبور تشبه أن يحاول الناس ، بعد بضعة آلاف السنين من اليوم ، التوصل إلى طقوس الفرنسيين والإنجليز في الجنازات . . . من مدافن البانتيون ودير وستمنستر .

ما أصدق قول ماسبرو لسائليه ، عما إذا كان تاريخ مصر القديمة تم ظهوره للعيان : « إننا لم نفعل حتى الآن شيئاً أكثر من خدش أحدثناه في ذلك التاريخ ! » ماسبرو الذي فارقنا منذ أربعين عاماً وبعض الأعوام ، وكان من أعمق رجال عصره ، وأوسعهم علماً بتاريخ مصر والشرق القديم !

ثم هل فهمنا النصوص المصرية ، التي تفرش على أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، على وجهها الصحيح ؟ أما نلاحظ تطور اللغة على مر القرون ؟ ونحن نعرف ما يصيب لغاتنا الحية من تحول في مئات السنين ، حتى مع بقاء ألفاظها دون تغيير : تأمل على سبيل المثال كلمة « نكتة » عند الجبرتي منذ أقل من قرن ونصف ومعناها « واقعة » أو « كائنة » أو « اختراع » ؛ وقارن ذلك بمعناها المتداول اليوم : تحولت من « واقعة مهولة » إلى « قافية » ، كما انتقلت كلمة « قافية » ، هي أيضاً ، من مكانها في النظم ، لتعني شيئاً آخر ، مع احتفاظها بمعناها الأصلي . وكلمة « كائنة » ، وهي أيضاً « الواقعة المهولة » ، كانت إلى عهد قريب تستعمل فيما لا يخرج عن معناها الأصلي ، في قولك : « دا كائنة » أى « مصيبة » أو

« داهية » . وتأمل كلمة « داهية » في معناها المزدوج من الدهاء ، ومن دهنه داهية !

فلنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لتعجب من كلمة مصرية ما زال كل معناها عند جهابذة اللسان البربائي هو : « فعل يعنى حركة أو عملاً عنيفاً » ! ؟ فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة من الكلمات ، إذا به يضيف في ذيل شرحه ؟ « أو ما أشبه ذلك ! » ، كأن تقول : عجلة ، دائرة ، خاتم ، طوق ، حجر رحي . . . أو ما أشبه ! !

وتذكرنى « ما أشبه » هذه بنخاتمة الشروح والمباحث والهوامش في كتب العرب ، وهى تختم بقولهم « والله أعلم » .

كلا ، إن مصر لم تكشف بعد عن كل مخبوءاتها ، وما برحت نصوص كثيرة تنتظر أن تترجم أو أن تعاد ترجمتها . ومتاحف العالم ما فتئت ملأى بالبرديات والشقفات والشظايا والألواح والشواهد من الحجر ، لم تفحص بعد ولم تترجم . هل تصدق أن البرديات العظيمة المعروفة باسم برديات إدوين سميث ، منذ سنة ١٨٦٢ ، وهى البرديات التى كشفت عن عبقرية — وأقول عبقرية ! — مصر فى الطب ، لم يترجم نصها وينشر بترجمته إلا عام ١٩٣٠ ، على يد جيمس هنرى برستيد ، ثم ألقى عليه محمد كامل حسين ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، ضوءاً باهراً من علمه وألمعيته الجراحية ؟

وكيف نأمل أن نتوصل إلى صورة أقرب إلى الكمال للتاريخ المصرى ، والعواصم المصرية الكبرى فى الدلتا — فيما عدا تانيس ! — لا عين ولا أثر . أين بوطو ، وبوباسطيس ، وعاصمة رمسيس الثانى فى شرق الدلتا ، وسبينيتوس (سمنود) ، وزويس (سخا) ، بل أين منف ، وايون (عين شمس) ؟

والحقيقة الثانية فى التاريخ المصرى ، والأخيرة ، وهذه لا يمكن أن يأتىها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هى الفن : فن العمارة ، والرسم ، والتصوير ، والحفر بالبارز — المنخفض [بارليف] ، والنحت المستدير . الفن هو العنصر الحى الخالد فى تاريخ مصر ، يعيش بين ظهرانينا ، يتحدث إلينا بلغة العقل والشعور . قد نفهم لغته وقد لا نفهمها ، ولكننا فى هذا كمن يفهم لغة الموسيقى أولاً يفهمها ، ويتفاوت

تقدير الناس للفنون وتختلف آراؤهم . ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الفن الماثل لعيوننا . حقيقة خرجت من تحت يد الفنان المصري ، كأنه انتهى منها تَوًّا . ولست أعنى أن التصاوير احتفظت بألوانها وخطوطها كما تركها أصحابها ، إنما أشير هنا إلى صفة تختص بها الفنون التشكيلية عامة ، وهى أنك تشاهد العمل الفنى — إذا قدر له البقاء — بعد ساعة أو بعد ألف عام ، فكأنك تراه وقد انتهى منه الفنان على التو ، وانزوى عنك ليسمح لك بمشاهدته ، دون أن يسمع تعليقك عليه .

وضحت معالم طريقى ، وثبت لرشدى ، بعد ذلك الدوار الذى أصابنى ، وقد بلغت الذرى ، وارتقيت فى رحلتى عبر التاريخ إلى القمم العليا . فلا تحدث قليلا عما حققته لنا النصوص من تاريخ عام ، قاعاً للصورة وإطاراً لها ، أقدم فيه الفن المصرى .

ثلاثة آلاف عام

سأحدثك عن تاريخ مصر القديمة في صفحات قليلة ، وهى كل ما أحب أن أتذكره من تاريخ بلادى فى العهد القديم . وقد لا يكفىك هذا القليل ، وإنما الذى يجب أن نتفق على إدراكه والإحساس به ، هو الحضارة المصرية ، وأهم ما بقى لنا منها ، وهو الفن .

وادی النيل الأدنى ، وقد درجت فيه حياة ما قبل الأسرات ، يحكمه نظام مركزى يقتضيه رخاء البلاد ، واشتراك سكان ضفتى النيل فى حراسة فيضانه ، والاستعداد لتحاريقه . ما إن يوحد مينا شطريه البحرى والقبلى ، حتى تنتهى العصبيات الإقليمية ، ومشاحنات أمراء الكور ، وكانت فى الغالب اشتباكات مصدرها أنانية الأمراء ، مما لم يكن يرضى عنه الشعب ، وهو يحس فى قرارة إلهامه بأن حياته ، المرهونة بالشمس والهواء والأرض والنيل ، لا تتحمل التفرق والتناحر . وعندى أن سلطان الملك على الجميع ، والأساطير التى تتحدث عن الأصل الإلهى للفرعون ، وعن عهود كان ملوك مصر هم الآلهة ، تؤدي معنى واحداً : ذلك أن الشعب هو الذى أله الملك ، ووطد سلطانه .

والخرافة التى أطلقها هيرودتس ، وتصور المصريين عبيداً للفرعون ، قضى عليها المؤرخون المحدثون . فأهرام الملوك ، ومصاطب العظماء ، كما نعرفها ، وما تدل عليه من براعة فى التصميم ، ودقة فى التنفيذ ، وما تحتويه من فن رفيع ، لا يمكن تصور تحقيقها على شعب من الأذلاء . لأن جو الاستعباد الخائق يقضى على الملكات ، ويمنع قيام العبقریات . وإمحتوب العظيم ، الذى ألهه المصريون فى الدولة الحديثة — وهو من رجال الدولة القديمة — لم يكن ملكاً ولا أميراً ، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى ، ارتفع بنبوغه ، وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ . وغير إمحتوب العظيم ، أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة ، ونحتوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع — حوتب والأميرة نفرت ، ورسوموا إوز ميدوم ، لا أتصور تيقظهم الفنى ، وحریتهم فى التعبير ، فى جو عبودية

وكبت . تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة تى وفتح — حوتب وميريروكا ، وتجول فى حرم الهرم المدرج ، وقف بأعمدة البهو القديم ، تحس بحب الحياة ، حياة شعب مطمئن هانى ، لا شعب يعيش كما صوره هيرودوتس فى زمان رأى الشعب ذليلاً مستعبداً تحت أقسى حكم عاناه فى تاريخه القديم ، لم يعرف الشعب له شبيهاً إلا تحت الحكم العثمانى : وهو سيطرة الفرس .

هذه الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة ، هى قمة الحضارة المصرية الأصيلة الخالصة ، النابعة من روح الشعب المصرى ، دون ضغط أجنبي ، أو تأثر بالغرباء . ولا تحسب الأهرامات غروراً ودعاية ، بل طالع فيها ما طالعه ذلك الرومانتيكى المرفف الحس شاتوبريان حين قال : « لم يشيد المصرى الأهرام لشعوره بالفناء ، بل لإيمانه بالبقاء . هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم أو بعض يوم ، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية ، إنها أبواب الخلود ، أقيمت على حدود الأزل . »

لا تصدق من يتحدثون عن الصلف والغرور والدعاية فى الدولة القديمة ، فلم يعمل ملك أو أمير ، ولم يشيد مهندس ولم يرسم فنان ، ليعرضوا بضاعة ، ولكنهم استجابوا إلى نوازعهم النفسية نحو حياة باقية ، لا تقطعها لحظة الموت . تحس أمام آثار الدولة القديمة برخاء البلاد ورغد عيشها ، وإقبالها على الحياة بنفس رضية . تأمل أبا الهول ذات صباح عند شروق الشمس ، وطالع على سياه صورة صادقة للحياة المصرية فى الدولة القديمة : سماحة الوجه ، وابتسامة الحيوكوندا ، رأس إنسان بكل معانى الإنسانية ، على جسم حيوان رابض ، رمز للهدوء والاطمئنان ، لا تحفز فيه لعدوان ، ولا توقع لعدو طارئ . تلك هى مصر الدولة القديمة ، آمنة داخل حدودها الطبيعية . فليست مواقع حربية تلك التى تجرى فى شبه جزيرة سيناء ، إنها حملات بوليسية تأديبية ، لتمنع عبث العابثين هناك ، ولتؤمن الطريق إلى المناجم . وحينما نام الأمير تحوتمس ، من أمراء الأسرة الثامنة عشرة ، بين ذراعى أبى الهول رأى فى منامه ما تراه أنت فى صحوك إذا طالعت وجه هارمانخيس ، يستقبل شمس الصباح : آتوم — رع — هاراختى . ويفاجئك المؤرخون بقولهم إنهم لا يفهمون تماماً ما حدث بعد الأسرة السادسة .

ومن حقهم أن يحسبوا البلاد تفرقت شيعاً وأحزاباً ؛ فكل هذا جائز ، والغالب أن يكون قد حدث كما يظنون . ولا تنس أنها مئات السنين ، لا عشراتها ، انقضت بين بناء الأهرام والأسرة الثانية عشرة . والملك بيبي الثانى ، آخر ملوك الدولة القديمة ، حكم نحو مائة عام حكماً صالحاً ؛ ولكن استطالة ملكه انتهت إلى نهاية محتومة ، من نزوع أمراء الكور إلى الاستقلال ، كما يحدث فى الأسرة الواحدة ، حينما يطول عمر كبيرها ، ويمتدّ عهد خدمه معه . ومتى انفرط عقد مصر ، انهار كيانها السياسى والاقتصادى والفنى ، ويمكنك أن تتوقع حدوث أى شىء للبلاد . ففى أوقاتها المضطربة ، يكفى أن يتأخر الفيضان ويتراخى ، حتى تنزل بالناس المجاعة ، وتشوطلهم فى إثرها الأوبئة . كل ذلك نعرفه عن يقين فى مصر العصور الوسطى ، والتاريخ لا شك يكرر نفسه فى المكان الواحد والظروف الواحدة ، بل هو يحاكي نفسه فى أمكنة متباعدة ، إذا كانت ظروفها متشابهة .

وإذا كانت القوة المركزية ستعود إلى الدلتا فى أكثر من حقبة من أحقاب التاريخ المصرى القديم ، فإنه يمكن القول من الآن بأن عهد منف العظمى قد انتهى ، وبدأ الصعيد يرفع رأسه ، على أيدي أمراء مصر الوسطى ، وسيكونون سلماً لهيمنة أمراء الصعيد الأعلى فى الطيبائيدة . وسيبدأ فى الدولة الوسطى عصر التوسع والفتوح نحو الجنوب فى بلاد النوبة . ولكن هذه الدولة الوسطى ستكون عهد حضارة أقرب إلى عصر الدولة القديمة منه إلى الدولة الحديثة ، عهد تنظيم الري والزراعة ، وإقامة المنشآت العظيمة ذات الأهداف العمرانية ؛ وستعود الملكية إلى سلطان ليس كالقديم فى إطلاقه ، ولكنه شبيه له فى إحكامه وبسطه وعدالته .

ثم يختفى تاريخ مصر فى غياهب عثمانية ، عندما ينزل بأرضها كالجراد شعب جائع بربرى ، جاء من الشرق ، من آسيا ، يظن أنا أنه فخذ من أفخاذ إسرائيل ، وأنا آخر أنه ينتمى إلى جنس هندو - أوربى ، وينتهى بعض المحدثين إلى أنهم كنعانيون . وسواء أكان هذا البلاء إسرائيلياً أو قحطانياً أو هندو - أوربياً ، فقد حل معه الخراب والدمار ، ونزلت مصر إلى حضيض لن تعرفه فى تاريخها الحديث إلا تحت حكم باشوات آل عثمان . إلا أن الصعيد المصرى يظل كما هو - وكما سيظل دائماً - مهد الخلاص ومأوى الأحرار . فليهيمن الهكسوس فى الدلتا ما شاء لهم

جوعهم وعريهم وتبربرهم ، وليقيموا معسكرهم الكبير في أواريس في شرق الدلتا .
أما أمراء الوجه القبلى ، فلم تخب حميتهم ، ولا بردت نخوتهم ، وما فتثوا يعملون
حتى نظفوا البلاد من أولئك الهمج الدخلاء .

ويبدأ عهد الأسرة الحجيذة ، الثامنة عشرة في حساب الأسرات ، عهد أحمس
وتحتمس وحتشبسوت وأمينوفيس وأخناتون . تلك هى الإمبراطورية المصرية التى
رفع عمادها ابن من أبناء الصعيد ، يروق لبعض المؤرخين أن يشبهوه بنابليون ،
وللبعض الآخر أن يقرنوه بيوليوس قيصر : هو تحتمس الثالث . فإذا كانت الدولة
القديمة هى عهد الأمن والرخاء والاطمئنان ، فقد كان الأمن خداعاً ، ولم تعد
الحدود المصرية أرصاداً سحرية تمنع الأعداء ، وأصبح لزماً على ملوك الصعيد ،
وهم يطاردون الهكسوس إلى ما وراء الحدود ، أن يتعقبوهم شمالاً حتى جبال طوروس ،
وأن يبسطوا سلطانهم جنوباً حتى فوق الشلال الرابع ، وغرباً إلى بلاد برقة . فالدولة
الحديثة ، اضطرتها ظروف الغزو الهكسوسى ، وقيام القوى الخارجية ، إلى أن تدخل
في مغامرات هائلة ، مغامرات في الحرب والسلام على السواء ، وفي العقائد والأدب
والفن . وستدفع مصر غالياً ثمن هذه المغامرات ، وهى أتاوة الشعوب التى تنزع إلى
التوسع والسيطرة البعيدة ، أيا كانت أسباب هذا التوسع . لن تعود مصر ، بعد طرد
الهكسوس ، إلى أمنها وطمأنيتها ؛ فقد عرفت قيمة الاعتماد على الحدود الطبيعية ،
عندما تقوم وراء تلك الحدود دول تطمع في خيراتها . وسيكون طريق الشرق هذا هو
سبيل الغزو على مدى التاريخ المصرى حتى العصور الحديثة ؛ ولن يجىء الغزو من
الغرب إلا أيام المعز لدين الله الفاطمى ، وإلا في محاولات الأتراك والألمان الفاشلة ،
في الحربين العالميتين الأخيرتين .

حق لمصر أن تتمثل بالحكمة القائلة : إذا أردت السلام ، فعن طريق الحرب .
وستحارب إبان الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . وستضطر إلى
إنشاء جيوش مدربة ، تمارس فنون القتال الحديثة ؛ فلم يعد يكفي تجنيد المواطنين
لشدة أو لعملية تأديب البدو ، يعودون بعدها إلى زراعتهم وصناعاتهم . وإذا
ما أنشئ جيش عامل محترف ، فهو يبدأ بالمصريين ، ثم يضم إلى صفوفه كل من تقع
عليه اليد من أمم العالم القديم المحاربة ، من أمثال الليبيين والنوبيين والإثيوبيين واليونان .

وظاهرة من ظواهر الحرب في كل الأزمان ، أن يعتمد مثيروها على آلهتهم ، يسألونهم العون اعتماداً على عدالة قضايائهم في تلك الحروب . وملوك الصعيد برة بآلهتهم ، وبكبير هؤلاء الآلهة ، آمون . ولن يعزو الملوك انتصاراتهم إلى أسلحتهم . وأذرعهم وحدها ، بل إلى مؤازرة آمون هذا ، فهم يصدقون عليه الخيرات ، ويقدمون له الأسرى والغنائم . وبذلك طغى سلطان آمون وكهنته ، في الدولة الحديثة ، على كل سلطان ؛ وجاءت ثورة أخناتون ، وإخفاؤها بعد موته ، سنداً جديداً لآمون ، وسبيلاً لتضاعف سطوته وبطشه ، ومن ورائه كهنته . ولن يجدى مصر نفعاً فتوحات رمسيس ومغامراته ، ما دام كهنة آمون من ناحية ، والأجناد الأجنبية من ناحية أخرى ، يشعرون بسلطانهم . أى أن مصادر تضعضع الإمبراطورية الحديثة كانت داخلية وخارجية : داخلية بسبب هذا الصراع بين كهنة طيبة وبين الملكية ، وخارجية في تلك الدول الأجنبية التي عرفت أن مصر يمكن أن تغزى كما غزاها وحكمها الهكسوس ، وتخضع للقوة كما خضعت لأجناد أورائس .

وإذا خشعت الشعوب المغاوبة بعض الوقت ، واستكانت للحكم الفرعوني ، فما لها أن تنتفض على السيادة المصرية ؛ وما عليها إلا أن تربص بالدولة المستعمرة ، وتلمس تبليل أحوالها ، وضعف حكامها ، لتثور عليهم ، وتنتزع منهم استقلالها .

سيحكم مصر كهنة آمون ، وستحكمها أسر ليبية وإثيوبية ، ولن يرتقى هؤلاء وأولئك عرش مصر كغزاة جاءوا من الغرب أو من الجنوب ، بل كرؤساء جنود بالبحر المصري ، أو كحكام محليين من قبل فرعون . كل هذه الأسماء ، من أمثال شيشونق وطهارقة ، أسماء ليبيين وإثيوبيين ، اقتحموا مرتقى العرش بسواعدهم من بين قواد الإمبراطورية المصرية ، كما سيفعل المماليك فيما يجيء من الزمان . وقد تراود مصر المجد في العهد الصاوي ، فتتخذ مثلها في الفن والإدارة من الدولة القديمة ، وستوهج جذوة الحضارة زماناً غير طويل ، ولن يصون استقلال مصر إلا تخاذل الدول الحديثة حولها ؛ أما حينما تقوم من بينها دول قوية ، كالأشوريين والفرس ، فما أسرع أن تهاجم مصر وتحتلها . وكان الفرس ، بعد الهكسوس ، وقبل الأتراك العثمانيين ، من أسوأ من عرفتهم مصر ظلمة مفسدين . وسيجىء الإسكندر ليخلص مصر من حكم الفرس ، وتنتهى بذلك سلسلة الأسرات المصرية الثلاثين ،

والأسرة الفارسية التي يعدها بعض المؤرخين القدماء الأسرة الأولى بعد الثلاثين ،
وتدخل مصر في حومة الحضارة الهلينية .

* * *

أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرب حساب سنوات الاستقلال المصري ،
بالنسبة لسنوات الاستعباد . وفي هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد
استقلالها وإن قامت على حكمها أسر أجنبية ، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين
والفاطميين والأيوبيين والمماليك . إنما مصر تفقد استقلالها عندما تنزل إلى مرتبة
الولاية والإيالة والإقليم ، ويحكمها ملوك أو إمبراطرة أو خلفاء أو سلاطين ،
يعيشون في عواصم خارج مصر . ومع أن الهكسوس حكموا في أواريس قرب صا
الحجر ، إلا أنني سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال ، كما أسقط
حكم الفرس .

فلنبداً من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حسب التوقيت القصير ، حين يتوحد
الوجهان البحري والقبلي ، ويلبس أول ملوك الأسرة الأولى التاج الأحمر والتاج
الأبيض ، مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج « بشت » . وعندما ينتهي حكم
البطالسة ، وتضم مصر إلى أملاك أغسطس قيصر الخاصة ، عام ٣٠ قبل الميلاد ،
يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام ، كانت فيها دولة مستقلة ، دون نظر
إلى نوع الأسرات الحاكمة .

ومنذ الحكم الروماني حتى بدء الدولة الطولونية ، مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام
كانت فيه ولاية لروما ، ثم لبيزنطة ، فالعرب بالمدينة ودمشق وبغداد .
ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثماني ، عاشت مصر دولة مستقلة نحو
٦٠٠ سنة .

وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد علي استقلالاً عن الدولة العثمانية ، أو تبعية لها —
ولقد حرصت على أن أدقق في سنوات الاستقلال ، حتى أصل إلى نهايتها الصغرى ،
في سلسلة الاحتمالات ، حتى لا يتطرق شك إلى ما أنا بسبيله ؛ ولهذا راعيت أن مصر
إيالة تركية ، تابعة اسمياً لتركيا ، حتى زالت عنها تلك السيادة العثمانية عام ١٩١٤ ،
بإعلان الحماية البريطانية — فإنك واصلت معي إلى أن مصر ، في تاريخها الذي يقدر

بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة ، منها حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمها أسر مصرية ، ونحو ألف سنة حكمها أسر أجنبية .

أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رعوس الشباب ؟ أمة ألفية ، أطول الأمم تاريخاً ، تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تنتقل بين الحضارات : من حضارة مصرية صميمة ، إلى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية إسلامية .

وذلك بدلا من الادعاء — الذى مجته أسماعنا منذ الحداثة — بأن مصر فقدت استقلالها نهائياً فى القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيبوس الملك . وما زلت أذكر ، حتى هذه اللحظة ، الألم الذى كان يحز فى قلبي ، وأنا غلام بالمدرسة الابتدائية ، أردت كلمات أمازيى وبساماتيك ونكتانيبوس ؛ فقد انطبعت تلك الأسماء فى نفسى انطباعاً عجيباً ، لأن أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة : أوطم انهزم أمام جيش قمبيز ، والثالث ختم عهد الأسرة الثلاثين ، وهرب إلى إثيوبيا أمام الزحف الفارسى الأخير .

وعندما انتقلت إلى المدارس الثانوية ، كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ! وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سموتهم وبلغ شعرهم ، سادرين فى الزعم والتفاخر بأنهم من عائلات تركية . أقول هذا ليعلم شباب اليوم أن جيلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلا !

الصفحات الأخيرة

فكرة هذا الكتاب هي أن الحضارة المصرية ، أعنى مجموع الحضارات التي تداولت مصر في مدى خمسة آلاف عام ، تلقت ضربتها القاضية في الغزو العثماني ، وأن النهضة المصرية يجب أن تقوم روحيا على استيحاء التاريخ المصرى كله ، دون تفضيل عهد على عهد ؛ فكما أن أهل الغرب يخطئون إذ يختصون حضارة الفراعنة بتمجيدهم ، ويعتبرون غيرها دخيلا على مصر ، فإن فريقا من مواطنينا لا يعطف عطفاً خاصاً على حضارة مصر القديمة .

ولعل للمتخصصين بالتاريخ المصرى القديم العذر في حرصهم على الحقبة الكبرى ذات المقام الرفيع في التاريخ العام ، لقدمها ، وطولها ، وأثرها المباشر وغير المباشر في حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ولأنها أصيلة نبعت من صميم التربة المصرية ، وعلى أيدي أبناء هذه التربة وبناتها وحدهم . ثم أخذت الاتصالات الخارجية في الاتساع والازدياد بعد غزو الهكسوس ، وصحت مصر فجأة لتدرك أنها ليست كنانة آتوم وفتاح وآمون ، تحميها الصحارى والبحار والجنادل ؛ وأن عليها ، كى تعيش في عصرها الحديث ، أن تدفع غائلة هؤلاء الغزاة الآسيويين الذين أذاقوها علقم الاستعباد مائة وخمسين عاماً ، وأن توسع رقعتها بالفتوحات إلى ما وراء حدودها الطبيعية .

وبرغم هذه الصلات الأجنبية ، وتبادل السلع والخبرات ، فإن الحضارة المصرية ظلت محتفظة بخصائصها حتى آخر عهد الأسرات ، بل وبعد غزو الإسكندر ، وقيام البطالسة ، وبعد أن دخلت مصر في حوزة الرومان . ولم تنته هذه الحضارة إلا بنهاية العقائد القديمة ، وتحول السكان من الوثنية إلى ديانة الناصرى .

فكل ما يجيء عقب الحقبة الفرعونية ، لا يعتبره إخصائيو تلك الحقبة ، ولا غيرهم ، فناً ولا حضارة مصرية أصيلة . العهد اللاجيدى كان إغريقياً ؛ والعصر القبطى تأثر مكرهاً بما يجرى في بيزنطة وأنطاكية وسورية ، والعصر الإسلامى انقاد للحضارة الإسلامية ، فكان طاولونياً وإخشيدياً وفاطمياً وأيوبياً ومملوكياً وعثمانياً .

لذلك أردت أن أثبت هنا أقوال بعض مؤرخى مصر القديمة فى نهايات كتبهم .
وأبدأ بجيمس هنرى برستيد ، لأن للرجل فضلاً كبيراً علىّ ، فقد كان أول
من أشعرنى أننى حقاً من أحفاد ذلك الشعب العريق ، وصحح الأفكار الخاطئة
الطائشة التى خرجت بها من مدارس وزارة المعارف المصرية ، يسوقها المستشار
البريطانى دنلوب . كانت محاضرة ألقاها برستيد فى مكان بحى المنيرة ، أظنه كلية
من كليات الجامعة حالا ، وألقاها فى وقت هز مشاعر العالم نحو مصر الكشف
عن مقبرة توت عنخ - آمون . وقد نسيت اليوم ما قاله الأستاذ الأمريكى الكبير ،
ولا أذكر إلا طشاشاً شكل المحاضر ، وأظنه كان رجلاً طويل القامة منتصبها ،
يلبس نظارات تقربه كثيراً من هيئة القسس الأنجليكان . ولكنى أذكر ، كأنه
بالأمس ، أننى خرجت من المحاضرة شخصاً جديداً ، ويظهر أن الرجل - الذى
عاش « مجاوراً » للتاريخ المصرى القديم ، وقد وجد نفسه أمام مجموعة من شباب
المصريين ، فى وقت كانت ثورة ١٩١٩ أعلنت للعالم أجمع أن قد صدقت نية
مصر فى أن تنهض - لمح فى عيوننا بريق الأمل فى مستقبل هذه الأمة ، التى كانت
عظيمة جداً ، ورأى فى لون بشرتنا ، وعلى سيماها ، ما ذكره بصور المعابد
والمصاطب وتمائيل القدماء ، فراح يبعث روح التاريخ المصرى فى نفوسنا ، ويوقظ
فيها معنى المجد المؤثل ، الجاثم فيما بين صحراء الأهرام ووادى حلفا .

ولا أغلو إذا قلت إن كتابى اليوم - وأنا أولفه فيما بين السنوات ١٩٥٤
و ١٩٥٩ - هو ثمرة محاضرة جيمس هنرى برستيد عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ .

يقول الأمريكى الكبير ، فى نهاية كتابه « تاريخ مصر » ، الذى نشرت
أولى طبعاته سنة ١٩٠٥ :

« وبسقوط بساماتيك الثالث ، دخلت مصر فى عالم جديد ، كانت قد قامت
بعمل كبير فى سبيل تقدمه وتطوره ، ولم يعد لها فيه دور إيجابى ؛ لقد انتهى عملها
الخليل . ولما كانت لا تستطيع أن تختنى من الميدان ، مثلما فعلت نينوى وبابل ،
فقد واصلت حياتها المصطنعة بعض الوقت ، تحت حكم الفرس فالبطالسة ، وهى
تدهور إلى الوهدة ، حتى أمست أهراء غلال روما ، ومزاراً لأثرياء الرومان واليونان ،
يفدون عليها ليتفرجوا على عجائبها ، كما يفعل السواح فى أيامنا .

« أما شعبها الذى لا يحب الحرب ، الشعب الذى يواصل إعدادها لتكون متنترها للعالم ، فلا يبدو عليه أنه يفيق من غفوته ، وقد صدقت فيه نبوءة حزقيال ، وهو القائل : ” لن يقوم بعد ملك من أرض مصر “ . »

* * *

وأنا أدعو الله أن تصدق نبوءة حزقيال هذا فى الحاضر والمستقبل ، كما صدقت فى الماضى ، فقد شبعت مصر خلفاء وسلاطين وملوكاً وأمراء ، وشربتهم حتى كيعانها . ونرجو أن تكون حرفة الملوك فى مصر آلت نهائياً إلى البوار ، وأن يواصل أبناء البلاد حكمها ، والتطور بها ، إلى أحدث ما تنادى به مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية .

وألتمس العذر لخميس هنرى برستيد ؛ فقد ختم كتابه سنة ١٩٠٥ ، ومصر تهوى إلى قرارة يأسها ، إذ تتخلى عنها فرنسا ، نصيرتها ضد بريطانيا فى ذلك الوقت ، وتجرى اتفاقها الاستعماري مع بريطانيا على اقتسام مناطق النفوذ فى أفريقيا ! فلن أنسى برستيد ، الذى رأيت وسمعت ، فى أوائل العشرينات ، محباً لمصر ، معجباً بحضارتها القديمة ، والذى ترك لنا آثاره شاهدة على بعض ما صنعه لتنبية أذهان العالم إلى روحانية تلك الحضارة . وأكاد أوقن أن الرجل مات قرير العين ، مطمئناً إلى مستقبل أحفاد بناء الأهرام والبرابي !

وأذكر له بالخير فقرة وردت فى الفصل الختامى لكتابه الذى نشر عام ١٩٣٣ ، بعنوان « فجر الضمير » ؛ قال ، وهو فوق جبل الزيتون بفلسطين ، ينقل ناظريه بين وادى الأردن والبحر الميت ، وخلفهما جبال مؤاب ، ومدينة بيت المقدس : « وكان منظرًا طبيعيًا ، يحقق عمليًا وقائع الانتقال المعجب من عالم تعمل فيه قوى الطبيعة وحدها ، إلى عالم تشرق فيه القيم الإنسانية . فذلك حدث فعلاً فوق أرض الشرق الأدنى القديم . »

« وإذا كنا نجلس مطلين على قرية النبي إرميا ، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، واخترقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء ، إلى أرض وادى النيل ، منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية — تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى — فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكاً

لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس ، وذلك قبل أن يولد النبي إرميا
بألفى عام ! »

* * *

أما الأب دريوتون والسيد فاندييه ، فيختمان كتابهما عن مصر ، فى السلسلة
التاريخية المسماة « كليو » ، بقولهما :

« ويظهر أن مصر كانت قد استنفدت قدرتها على المقاومة ، لأن قبولها عن
رضى ، واستقبالها لسيدھا الجديد ، الإسكندر ، فيه البرهان على تدهورها .
ختام تاريخها لم يعد بالمستطاع أن يعالج وحده ، لأن مصر انضوت ، منذ ذلك
التاريخ ، فى مجموعة العالم الشرقى الذى سيخضع شيئاً فشيئاً للمؤثرات الإفريقية .
نعم إن الأفكار المصرية العتيقة ستعيش فترة تطول إلى مئات السنين ، ولكن فى
صين ممسوخة ، ينقل عنها الأغراب ويفسرونها ، فيبدو على لسانهم كأن دور مصر
لم ينته بعد ؛ والحقيقة أن ما بقى منها لن يكون إلا خيالاً وظلالاً تنشرها البلاد العريقة
فوق صفحة العالم . »

* * *

ويختم جاستون چكويه كتابه : « تاريخ الحضارة المصرية » ، متحدثاً عن
ظهور الكتابة الديموطيقية ، والاقتصار عليها دون الهيروغليفية ، إبان الحكم الفارسى ،
فى تسجيل العقود ، ونسخ المخطوطات المختلفة ، أى فيما لا يدخل فى عداد الأثر
القائم ؛ ويقول بأن هذا الانتقال من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، يمثل فى رأيه
خاتمة مصر المستقلة :

« فحين ينزل بمصر ملوك أغراب ، ليحتلوا نهائياً مكان الأسر الفرعونية فوق
عرش مصر ، نستطيع أن نقطع بنهاية الحضارة المصرية . ومع أنها سوف تعيش
بضعة قرون أخرى ، بل وستقدم فى بعض النواحي ، كالعمارة مثلاً ، أعمالاً مصرية
أصيلة ، فإن حياتها لن تزدهر ، بل سوف تتدهور سريعاً .

« فالحضارة التى أشرقت على العالم القديم آلاف السنين ، ووهبتة عن طيب
خاطر كل ما فيها من خير ، سوف تغمرها حضارات جديدة ؛ والدم الجديد الذى
ينقل إليها ، سوف يكون غزيراً إلى حد يوردها مورد قضائها ، بدل أن يجدد شبابها .

ومنذ الآن ، لن تكون مصر أكثر من إيالة من إيالات العالم الهليني ، وولاية من ولايات دنيا الرومان ، سواء من الناحية السياسية ، أو من وجهة نظر الحضارة . »

* * *

وإذا لم تكن الصفحات التالية خاتمة لكتاب جوتييه ، في مجموعة « مجمل تاريخ مصر » ، الذى نشر بالقاهرة في ثلاثينات هذا القرن ، فإنها ، في صدد كلامنا هذا ، ومعنى مختاراتنا ، تعتبر حكمه الأخير على نهاية الحضارة المصرية . قال في مقدمة الفصل العاشر وهو خاتمة فصوله :

« بقى لنا أن نلقى نظرة خاطفة على مختلف أشكال الحضارة المصرية في السبعة أو الثمانية القرون ، التى انقضت فيما بين سقوط دولة الرعامسة ، وظهور الإسكندر ، وهى الحقبة التى نطلق عليها اسم " العصر المتأخر " .

« فإذا دققنا النظر فى الملكية ، يفجأنا أن لم تعد سدة قومية . وإذا جانب بعض المؤرخين الصواب فى حكمهم على ملوك الأسرة التاسعة عشرة بأنهم لم يكونوا خلصاء الأرومة المصرية ، بحسبان اختلاطهم ببعض العناصر السامية ، فإن مما لا شك فيه أن الدم الأجنبي اختلط بدم الملوك ، منذ تبوأ العرش أسرة الملوك — الكهنة . ولقد رأينا ، منذ الأسرة الأولى بعد العشرين ، أن الليبيين يتسربون إلى الحياة المصرية ، وأن كبير كهنة آمون يحمل اسماً ليبياً ، وهو مصحرتا ؛ وهذا التسرب لم يتعد الفئة العسكرية . وعندما يتولى الملك زعيم من كبار زعماء « المشاوشة » ، وهو شيشونق ، فى بوباسطس ، تصبح الأسرة الثانية والعشرون ليبية لحماً ودماً . ثم يعقبهم الملوك الملقبون بالإثيوبيين ، وكانوا فى الحقيقة من أصل بوباسطى ، أى لىبي ، يحملون أسماء ليبية ، ولكنهم اقترنوا بأميرات إثيوبيات ، بحكم إقامتهم فى بلاد النوبة ؛ وكانت ملكات الأسرة الخامسة والعشرين نوبيات خلصا ، وسوداوات فى بعض الأحيان . وكان ملوك الأسرات الصاوية — الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين — من أصل لىبي أيضاً ، وآية ذلك أسماءهم ، من أمثال اسم بساماتيك ، احتفظوا بأرومتهم اللبية خالصة ، لأنهم لم يقرنوا بأميرات من النوبة . ويبدو أخيراً أن فراعنة منديس وسمنود ، وهم ملوك الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين ، لم ينحدروا من صلب مصرى غير مهجن .

« واستمر هذا الدم الأجنبي ، وهو ليبي في أغلبه ، ينساب في عروق أبناء البلاد ، وهو قبل أن يجرى في أوعية الفراعنة ، كان قد جدد قوى الطبقة العسكرية المعروفة بالمشاوشة ، وهي الطبقة التي تحمل أكبر عبء في الحكم بعد الملك . ولقد رأينا المرتزقة الليبيين يؤلفون ، على مدى أجيال عدة ، العنصر الأكثر نشاطاً وحيوية في الجيش المصرى القديم ، الذى دب فيه الوهن . ولم يتقهقر أثرهم إلا رويداً أمام سيل المرتزقة من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى اختفى تماماً بعد الغزو الفارسى . » والحق أن هذا التسرب لم ينفذ إلا قليلاً جداً في دم الشعب المصرى ، سواء في ذلك صناع المدن أو الفلاحون . إنما الطبقات الحاكمة هي التي تلقت العvisارة الأجنبية ، الليبية في غالبيتها ، واليونانية والأناضولية والسامية في بعضها ، فاستطاعت ، بدمها المتجدد ، أن تحفظ على مصر حياتها المستقلة لبضع مئات أخرى من الأعوام .

« والطبقات العليا هي التي كانت في ميسس الحاجة إلى تجديد قواها . أما الطبقات الوسطى ، والدنيا بخاصة ، فلم يعثرها الانحلال الذى دب في الارستقراطية المصرية . وظلت تلك الطبقات العاملة محتفظة بدمها المصرى الخالص ، وبخاصة في الريف ، لم تهجن أرومتها الناشطة ، ولم يتبدل عنصرها الموسوم بالاعتدال وذلك على الرغم من حالة الحرب المستمرة ، والثورات الداخلية ، التي كانت تعيش خلالها حياتها المتواضعة القميئة . »

* * *

ويتختم ولسون كتابه عن « الحضارة المصرية » ، أو ما سماه في الطبعة الأولى « عبء مصر » ، بهذه الكلمات :

« وإن انهيار أسلوب الحياة المصرية العميقة في أيامها الأخيرة كان مأساة . ولكن من حق مصر علينا أن نقول بأن هذا الأسلوب عاش نحو ألفى عام ، وصمد كل ذلك الزمن ، لأن مصر حببها الطبيعة مزايا العزلة ، مما حقق لها التطور الداخلى ، والإبقاء على وسائلها في هذا التطور . فكان المصرى مستطيعاً أن ينهج نهجه في الحياة في ظل الطمأنينة الجغرافية والروحية ، وهو نهج له من المرونة ما يفسح المجال للتطور التاريخى ؛ وآية هذه المرونة كانت سلسلة من الموازنات والتوافقات ، سمحت

للقوى المتعارضة أن تعمل دون أن يفنى بعضها بعضاً . . . فمرونة الأسلوب المصرى ،
والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام ، على أساس التوازن بين القوى المتطاحنة ،
تظهرنا على عبقرية شعب عظيم .

« ولا يصح أن نزعّم بأنهم كانوا أعظم الشعوب ، ما دامت سماحتهم قد حالت
بينهم وبين بحث المشاكل والوصول إلى حلول لها تطبق تطبيقاً عملياً كاملاً . فالمرونة ،
التي حققت لهم الهناء كل تلك الأحقاب ، كانت رخاوة في تكوينهم ، تقابلها
حدة العبرانيين التي لا تلين ، أو الصفاء المتأصل في قرارة النفس اليونانية . هذا إلى
أن المصريين لم يستمسكوا بصفاتهم العالية ، ففقدوا في النهاية تسامحهم العملي الموفق ،
وأمسوا صلاب العود في تمسكهم بظواهر الأمور . ولكن حكمنا عليهم يجب أن
يتناولهم في أحسن أحوالهم ، وقد عاشوا أحقاباً طويلة من التاريخ البشرى وهم على
خير حال ، يحققون حضارة رفيعة من النواحي المادية والفكرية والروحية .

« ولقد جاءت كلمات النبي إشعيا ، في مأساة الأيام الأخيرة للتاريخ الفرعونى ،
دليلاً على أصالة الحكمة القديمة ، ورفعة الشأن ؛ قال إشعيا : « إن رؤساء تانيس
أغبياء ، حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية » ؛ وذلك مقابل القول القديم :
« أنا ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء . »

* * *

وختام كتاب موريه ، « النيل والحضارة المصرية » ، صورة من العقل الفرنسى ،
وحرصه على التجميع في وحدة فكرية ، مع براعة في التلخيص . ولهذا نقدم فصله
الختامى بأجمعه ، لأنه سيعيننا على فهم الحضارة المصرية القديمة ، يحللها رجل من
خير من درسها وفهمها ، وعاش لها ودافع عنها :

« ماضى المصريين هو أطول الأحقاب التي يسجلها تاريخ البشرية . وإذا كان
تاريخ ما بين النهرين يوازن في قدمه التاريخ المصرى ، فإن حقبة السابقة على
التاريخ ، ما زالت تستعصى على الباحث . إنما مصر وحدها هي التي تعرض لمن
يدرسها تاريخاً يمتد من العصر الحجري القديم حتى العهد المسيحى . فإذا لم ندخل
في حسابنا سوى الحقبة التي تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة آلاف سنة
من حضارة خلقت آثارها المدونة . ولكن من يستطيع حساب آلاف السنين التي

عاشها المصري في الانتقال من عصر الحجر المشطى ، حتى بلغ عصر التنظيم الاجتماعى والسياسى ، إبان حكم المملكة الطينية ؟
فلنلخص ، فى إجمال ، الحقبة التى عالجها هذا المجلد ، والمجلد الذى سبقه ، مع بيان أوجه النقص فى معارفنا :

١ - عهد أول ، ينقلنا من أبعد الأصول حتى الآثار التاريخية الأولى ؛ وهنا يعد الحساب كله تقريبياً ، فنقول مثلاً : الحقبة السابقة على الألف الخامسة ، حين كان الإنسان يستعمل أدوات من الطران . ولكننا نجهل كل شئ عن تقدمه فى العصر الحجري الوسيط ، لا ندرى كيف حقق أولئك الناس ما ظهر من جديدهم فى عصر ما قبل الأسرات : الحجر المصقول ، والفخار ، واستخدام المعادن [النحاس والذهب] ، وصناعة النسيج ، واستئلاف الحيوان والزراعة . إنما نعرف أن المصريين فى ذلك العهد كانوا مبدعين ، دون منازع ، فى فنون الحجر والمعادن ، وأنهم يعيشون فى مجتمع مؤلف من عشائر ، تقودها الطواطم والأرصاد السحرية .
٢ - وباستقرار العشائر ، يبدأ عهد ثان ، تظهر فيه الكور ، وآلهتها المحلية ، وزعمائها وارثو الطواطم . ولكن أنى جاء فيما بعد المحاربون المؤسسون للممالكتين المركزيتين فى الصعيد والوجه البحرى ، عباد هوروس ، وآلهتهم العالميون ، وملوكهم ، وكتاباتهم المصورة ، وفهم ذو الأسلوب الواضح ؟

تقول أساطير العهد التالى بأن هذا النظام نشأ فى الدلتا ، وأن آلهة الطبيعة ، هوروس وسيت وأوزيريس ، لقنوه للناس . إلا أن مناخ الدلتا - بعكس مناخ الصعيد ، حيث الآثار غير قليلة - محى بقايا ذلك العهد ؛ ومن ثمة لا نملك أثراً مباشراً من تلك المنطقة ، حيث نشأت الأفكار والمذاهب التى ازدهرت فى العصور التالية . وإن " متون الأهرام " هى التى مكنت لنا من محاولة رسم صورة عامة لتلك المذاهب ، وذلك عن طريق الاستدلال بها عما حققته الأزمان السالفة . وما زال أمامنا مجال واسع للبحث فى هذا الموضوع . وقد أعلن القارئ ، فى حينه ، بأن تلك الحقبة كانت حقبة الإعداد ، وأنها كانت طويلة ، وذات أهمية عظيمة ، وفيها بدأ العمل بالتقويم [عام ٤٢٤١ قبل الميلاد] ، وأنها تنهى بتولى الملك مينا [حوالى عام ٣٣١٥] .

٣ - والآثار العديدة التي تخلفت عن الأسرة الطينيسية ، وما تلاها حتى نهاية الدولة القديمة [٣٣١٥ - ٢٣٦٠ ق . م] ، تصور لنا طبيعة المجتمع المصرى وتقاليده ونظمه ؛ وتتوحد مصر تحت سلطان ملكية مركزة مطلقة مستبدة ، ذات حق إلهى ، وتصبح الأهمية الاجتماعية مقصورة على شخص الملك حياً وميتاً ، فصر ملك خاص للأسرة المالكة . وتنتهى دولة بناء الأهرام بنهاية الأسرة السادسة . وإلى عهد قريب ، كان المؤرخ يتخبط فى ظلام المجهول حيال انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٣٦٠ ، دون أن يجد لاختفائها تفسيراً . فقد عفت الآثار الملكية ، وتراجعت مصر إلى أسلوب حوشى فى الفن ، وعمت فيها الحروب الأهلية ، وحلت بها الضيقة الاجتماعية ؛ ولكن كيف ، ولماذا ؟

لقد كشفت الحفائر الحديثة عن مراسيم أصدرها آخر ملوك منف ، جعلتنا نتابع تهجم الكهنة والموظفين والشعب على سلطة الملك ، يهدمون حصن الملكية شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهى إلى الخراب التام . وحاولنا ، من واقع نصوص منشورة منذ أمد بعيد - لم يتضح معناها التاريخى حتى الآن - أن نعزو الأمر إلى ثورة شعبية تحت حكم الأسرات الهرقليوبوليتية ، فيما بين عام ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ، حدثت إبانها وقائع دموية وحوادث غريبة ، أوضحنا أثرها ، وهو حصول الشعب على حقوقه الدينية والسياسية ؛ وما زالت بعض نقاط تنتظر التفسير ، ولكن الثابت ، على ما يبدو ، هو أن استبداد الملوك قد زال بزوال دولة منف القديمة .

٤ - ويظهر مجتمع مصرى جديد ، بظهور الدولة الطيبية [٢١٦٠ - ١١٠٠] ، وسوف تحتفظ هذه الدولة بكل سماتها الأساسية حتى زوال الاستقلال القومى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وذلك خلال تطورات وأحداث سياسية . ولا غرو أن تظهر لنا فجوات وفراغات فى دنيا الآثار ، خلال هذه الحقبة الطويلة التى دامت خمسة عشر قرناً . فجوة فيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة الطيبية ، إبان الاحتلال الهكسوسى ، وفجوة انهيار الإمبراطورية المصرية فى آسيا انهياراً سريعاً بعد مرفتاح ، وفجوة انحلال الرعامسة ، وفجوة تشتت شئون الحكم وانفراط عقده ، إبان دولة بوباسطة ؛ وبعدها يجىء عهد الإحياء الإثيوبى والصاوى . كل تلك فترات دقيقة ، وحقبات غير معروفة تماماً ، نقر فيها بنقص معلوماتنا نقصاً بالغاً . ولكن الاضطرابات

التي وقعت في مصر كانت من نتائج قارعات السياسة الخارجية وأحداثها ، أى أنها تناولت الأسرار الملكية ، لا المجتمع المصرى ، الذى ظل حياً برغم الغزوات ، يتابع حضارته المتناسقة ، ويتطور داخل إطار مبادئه الثابتة .

وتحولت فكرة السيطرة الملكية المطلقة إلى ناحية إنسانية ، بفعل إصلاحات ملوك مشرعين ، حكموا بعد الملوك المستبدين . كان سلطان الملك في الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، نفذها الفراعنة في دقة وصرامة ، ورضى بها المحكومون دون تردد ولكن هذه العقيدة تتحول تحت حكم الأسرة الثانية عشرة إلى مبدأ ومذهب في الحكم ، أى إلى تعاليم تحاول أن تكون إنسانية ، تقوم على حكم العقل ، ويصبح دار الملك مثابة القانون ، ولم يكن مجرد قانون تعاقدى ، يطبق في العلاقات السياسية والتجارية [فإن بابل شرعت في هذا تشريعاً أكثر أصالة من التشريع المصرى] ، وإنما هو قانون اجتماعى ، ينشئ العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الإلهية في العالم الآخر . فلا يحسب الملك أنه مضعف من سلطانه إذا أشرك الشعب في إدارة أملاكه . وبذلك يتطور نظام الحكم إلى شيء قريب من نظام اشتراكى في الدولة . نعم إن الفرعون يظل مالكا للأرض وما عليها ، ولكن بشرط أن يكون للجميع هدف واحد ، هو « خير المجتمع » . فالملك يؤدي خدماته في الدولة ، كما أن الشعب ، خاصته وعامته ، رفيعه ووضيعه ، يعمل من أجل المجموع ، في الأرض ، وفي الحرف ، وفي وظائف الدولة . بل إن القوى الإلهية ، والطبيعة ذاتها ، تدرج هي أيضاً وتحشد في عداد الآخرين .

ودليلنا على قولنا هذا نتلمسه في برديات من أواخر الدولة الطيبة ، يعدد نصها قائلاً : « هذا بلاغ للناس ، جاهلهم وعالمهم ، بما خلق فتاح وأبدع ، وما سجل توت وأثبت ، من كل ما يوجد تحت قبة السماء ، أو على ظهر الأرض » : أولا العوالم : السماء وقرص الشمس والقمر والنجوم . . . والعواصف والرعد والفجر والظلمات والنار والماء والفيضان والبحر والبحيرة والأرض والرمال والزرع ، ثم الأحياء : الرب والربة ، والروح « آخ » [الميت المؤله] ، والملك القائم ، والزوجة الملكية ، والملكة الأم ، وأولاد الملك ، والأمراء ، والوزير وأمير الصحبة . . . إلخ . ويتبع ذلك موظفو الدولة المركزيون ، وموظفو الأقاليم [الشؤون المالية والعدل والجيش

والمعابد] ، وتنهى القائمة بالكتابة وأصحاب الحرف الفنية ، والطهاة والنجارين والحفارين وعمال المعادن وصانعي أحذية الملك . . . [والبردية ناقصة] .

وهكذا يبدو لنا المجتمع المصرى مجتمعاً مجتهداً للخدمة العامة ، يضم ما حوله من العناصر إلى المخلوقات : الكل مسجل مدوّن ، كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى معاهدة الصلح بين رمسيس الثانى وملك الحيثا ، حيث يستشهد على توقيعها بالسماء والأرض والرياح والسحاب :

* * *

تلك إذن كانت الأدوار التى مرت بها نظم الحكم : مجتمع على الشيوخ أيام العشائر ؛ وحكم مطلق مؤسس على الحق الإلهى أيام الدولة القديمة ؛ واشتراكية ملوكية بعد الثورة .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها ، فإن النظام الذى ظل المصريون مخلصين له — وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم — أظهر بحيويته ، وطول بقائه ورخائه ، قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستنداً إلى محكومين جبلوا على النظام . فالحضارة المصرية ، بأوضاعها المتعاقبة ، توحى إلينا بصورة شعب متماسك متناسق فى أصله ومنبته وروحه ، شعب ، وإن قل عدده ، ينبئ بالقوة فيما أبدعته عبقريته الخارقة المدبرة ، وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وإيمانه بالبعث ، ومثله فى العدالة .

ومرد هذا النظام إلى ظروف المعيشة التى فرضتها عليه القوى المسيطرة على البلاد : النيل والشمس . وإلى أنه — من ناحية أخرى — وريث مباشر للمجتمعات البدائية . أى أنه فى حالته الراهنة ، كما كان فى عصور البداوة ، يخضع الفرد للجماعة ، ويعيش على اتصال دائم بالأرواح ، واحترام بنوى للتقاليد .

والمجتمع المصرى ، فى نظام الحكم ، وفى طباعه وأخلاقه وعاداته ، يظل حتى النهاية فى صف المجتمعات الخاضعة للمقدسات ، وهو فى هذا متخلف عن المجتمع الإغريقى الرومانى . تأمل المعابد المصرية يرعاها أمباطرة روما ، ويتوج الكهنة فى داخلها ملوكهم الأجانب ، ليدعموا ويطيّلوا سلطانهم وحياتهم بممارسة الطقوس . ويدفع هؤلاء الكهنة عن الآلهة والناس غائلة الموت ، وذلك بتلاوة التعاويذ وإجراء

الطقوس التي وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، من أجل الفراعنة القدماء ، عباد هوروس . فلا غرو أن نقرأ ، في مؤلف مكتوب في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس ، هذا القول :

« مصر ظل الإله على الأرض ، وهي قدس أقدس العالم ، وحاضرة الأديان . »
فالعقلية القديمة ، على الرغم من الجهود الموائمة ، ظلت تتحكم في مصر المتطورة ، والمصري لا ينجح إلى الحرية ، ولا إلى تكوين الشخصية الفردية ، إلا في فترات نادرة من أزماته الاجتماعية . وإنما هو استعداد للكمال ، دفع به إلى التجديد في فنونه وصناعاته . أما التحرر ، الذي يضمن للفرد حقوقه في مواجهة مطالب المجتمع ، ويطلق المرء من عقال العقيدة الدينية ، والفنان من قيود الأساليب المرسومة ، والمؤمن من حدود الطقوس الجامدة ، والمفكر من التقاليد ، ذلك التحرر لم يظهر في مصر بوجه عام ، بل إن فلاسفة اليونان ومشرعهم هم الذين سوف يحررون الفرد من ربة هذه القيود كلها .

وعندما يفتح ملوك العهد الصاوي أبواب البلاد للغرباء ، يجيء أول من يجيء الأغارقة الذين تربوا في بحبوحة الديمقراطية المعروفة بالمدن اليونانية ، أولئك المتشككون ، أبناء دولة العقل ، الفنانون الذين أبدعوا أسلوباً إنسانياً ، يجيئون إلى مصر ، فتثير دهشتهم تلك الآثار الهائلة ذات الطراز الثابت ، وتلك الحيوانات تؤله ، والملوك — الآلهة يحكمون دولة عظمى دون منازع ، وتلك الإدارة المركزية تتغلغل في كل شيء ، والشعب المستكين لآلهته وملوكه وأمرائه ! ما أشبه بها دهشتنا ونحن نشاهد حفريات الحيوانات الضخمة ، المنقرضة منذ عهود سحيقة ! فلا هيرودوتس ، ولا الآخرون ، فهموا عقلية المصريين . ولكنهم ، مع هذا ، أدركوا أنهم حيال مشهد كله روعة ، فريد فذ في دنيا العالم المعروف إذ ذاك ، يستوجب منهم أن يفهموه ويتمثلوه جيداً ، قبل أن يضيع في عباب التطور والتقدم . ظهرت لهم مصر وكأنها الكثر الحافظ لحضارة الإنسان منذ مهاتها وأصولها . فهي عندهم أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، تحيا حياتها وقد آذنت بالأفول ، وتحتفظ بآثارها منذ عصور واغلة في القدم ، تحت سمعهم وبصرهم ، عبرة وأمثلة للمجتمعات « الجديدة » . وهنا أقبل الأغارقة ، أهل الشك ، في رجعية فكرية غريبة على العقل

البشرى ، يسائلون كهنة هليوبوليس ، لعلهم يتعرفون على أقدم التقاليد وأعرقها .
 هنا يبدأ دور مضر ، معلمة الأجانب ، عندما يقبلون عليها أفواجاً : يجيئها
 المشرعون والفلاسفة يستوحون تجاربيها الاجتماعية ، وفلسفتها فيما وراء الطبيعة ،
 ويؤمنها من يتلمسون عقيدة تطمئن إليها النفس ، محاولين فهم أسرارها الروحية .
 ويدخلها الفاتحون يتلقون عليها مبدأ من مبادئ السلطان ، ويأخذون عنها أساليب
 الإدارة . فأى مثل يفوق هذا المثل ، يضرب لمؤسسى الإمبراطوريات ، وهم يرون
 سلطة الملك ممثلة فى وظيفة مرصودة للخير والنفع العام ، قائمة على وحى الآلهة ،
 يرضى عنها الناس . لذلك يحترق الإسكندر سباسب ليبيا ، يطلب إلى آمون
 واحة سيوة أن يضفى عليه أبوته ، ويخرج المقدونى للناس فى صورة آمون وابن آمون ،
 ويتأثر البطالسة خطاه ، ويتلقى عنه قياصرة روما هذه الأمثلة ، فيتحولون وشيكاً ، فى
 إمبراطوريتهم ، إلى أرباب يعبدون .

أما عن تلك الأداة المتكاملة فى الإدارة المصرية ، وهى أس عمل المجموع من
 أجل الدولة ، فقد عرف البطالسة قدرها وميزاتها العملية ، فحولوا مصر إلى مصنع
 كبير للإنتاج ، واستغلوا ثروتها الزراعية وصناعاتها استغلالاً تاماً لفائدة المقيمين
 على ضفاف بحر الروم كلهم . وعندما تتحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية ،
 تسمى مصر لا مخزن غلال العالم اللاتينى فحسب ، وإنما الولاية النموذجية فى نظام
 الحكم الإمبراطورى ، يحتفظ بها قيصر ملكاً لشخصه .

ومع كل هذا ، فإن الرخاء والعمل المنظم والإدارة الحكيمة لا تكفى لإطالة
 عمر أمة ، لأن الشعوب بحاجة إلى عقيدة ومذهب . ولقد ابتدع الفراعنة مبدأ الحق
 الإلهى لسلطة الملك ، ومذهب التعاون الاجتماعى ، وسادنه الكهنة آلافاً من السنين ،
 وأزرتة قوى الشعب الروحية والمادية . ثم جاءت الأجناد المرتزقة والغرباء يستولون
 من المصرى على مثله الاجتماعية العليا ، ويسلبونه إيمانه بالسلطان ، وعقائده وعاداته
 وتقاليده وكتاباتة . فالحق أن الفكرة الفرعونية للمجتمع كان قد انتهى زمانها ، وقضى
 عليها بالعفاء ، وأمست مصر فى قول أحد نصوصها : « جسماً بلا روح ، ومعبدًا
 بلا إله » ، وانطوت أسرار كتابتها عندما طارد المسيحيون السلالة الباقية من كهانها ،
 وانزوى حتى اسم مصر وكلمها المقدس .

فلنستمع إلى المراثية التي تقطع نياط القلب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة الإسكندرية . وعند هذا الحكيم أن زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأ أسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها إلى اليوم ، يفيض بها الوداع الذي يودع به أسكليبيوس [في القرن الرابع الميلادي] حضارة كانت في زمانها خيرة مجيدة ، وهي تسير دون رجعة في طريقها المحتوم إلى الزوال :

« سيجيء زمان يظهر فيه كأن المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقوس الآلهة ، بروح العبادة البررة ، والصلاح المؤمنين . وما دام الصلاح والعبادة والإيمان لم تؤد إلى شيء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوت واليأس . سترتفع الآلهة عن أرض مصر ، وستهجرها إلى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات ، وتغدو يتيمة من آلهتها ، لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . ولن تهمل أركان الدين فحسب ، بل إن المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التي تجعل من إيمانهم وصلاحهم وعبادتهم أمراً محظوراً ؛ وهذا أقسى ما يرزؤها به القدر . وحينذاك ستتحول تلك الأرض القدسية ، مثوى المعابد ومعشر الآلهة ، إلى أجداث وأرماس .

يا مصر ، أى مصر ! لن يبق من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة إيمانك ، لا يأخذها الخلف مأخذ الجلد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى . »

* * *

فإذا كان هؤلاء الأقطاب من المؤرخين الأجانب يقفون بتاريخ مصر وحضارتها القديمة عند حدود تخصصهم ، ويعتبرون موت الحضارة الفرعونية نهاية لتاريخ مصر ، فإن تلاميذهم المصريين — وهى ظاهرة طبيعية ، ولكنها جديرة أن ينوه بها — كان من غير المعقول أن يقفوا منها هذا الموقف . لذلك أختتم هذا الفصل بما انتهى إليه مؤرخان مصريان ، أولهما أحمد بدوى ، صاحب كتاب « فى موكب الشمس » ، ولن ننقل آخر كلماته ، لأن كتابه فى حكم غير المنتهى ، فقد وقف منه عند آخر الرعامسة ، وإنما نقتبس الكلمة التى اختتم بها ما سماه « نظرة عابرة » ، فى آخر مقدمته ، قال :

« وبعد ، فهذه صورة عاجلة من تاريخ مصر ، ومن سيرة حظها العجيب ،
 ترينا كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل . كل
 عرض يفنى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى ، فخالدا لا يموت . »

* * *

وثانيهما أحمد فخرى ، فى كتابه « مصر الفرعونية » ، وهو يختمه بهذه الكلم:
 « لقد سكنت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى
 العازفين ، ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبنائها وحجراتها ، يهتف بمجد
 مصر ؛ وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطرأ أو صفحة فى ذلك الكتاب
 الكبير الضخم ، الذى سطره المصريون بأنفسهم .

« إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .
 « لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت
 الدول وزال الغزاة ، وبقيت مصر وبقي الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين ؛
 وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة ، طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه ، يفيض
 بالخير والبركات ؛ وهو باق بإذن الله إلى أبد الأبد . »

الحضارة المصرية

بالفصل السابق مختارات مما ختمت به بعض كتب التاريخ ، ونريد الآن أن نفهم لماذا يجمع المعجبون بمصر القديمة من المؤرخين الأجانب على القول بأن مصر انتهت بانتهاء الحضارة المصرية ، ويهملون أمر مصر كله بعد ذلك . ولا يمكن أن يتهموا بسوء القصد ، أو الخطأ في التعبير ، وجلهم يهتمون كتبهم بما يشبه ما جاء في أحدها ولم أسجله في الفصل السابق ، احتقاراً لشأن كتيب عن مصر القديمة ليس في العير ولا في النفير ، إذ يقول : « جاءت الساعة المرصودة في لوح القدر ، وأن لمصر أن تموت » ، كذا !

لا أظن هذا مجرد إجماع على الخط من شأن أمة عاشت في عين الدهر ، بعد نهاية الأسرات ، نيفاً وألنى عام ، وما تزال حية ، وفي عنفوان الشباب ، وكأنها خلقت خلقاً جديداً . وأذكر في شباني أول لجنة دولية جلست فيها مندوباً عن بلادى ، وكانت اللجنة تضم ممثلين لبلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان موضوع اجتماعها علمياً محضاً ، لا علاقة له بتاريخ حضارة قائمة أو بائدة ، وكنت أصغر الحاضرين سنّاً ، فجاءت في خطابي إشارة إلى مصر « الدولة الفتية » ، وإذا بأولئك الشيوخ الأعلام حولي يتبادلون النظرات ، ويعلق أكبرهم على كلامي قائلاً : كنا نظن قبل أن يتكلم المندوب المصرى أن مصر أقدم البلاد وأعرقها ! فأجبت على التو بأننى لم أقل الأمة ، أو البلاد ، وإنما قلت « الدولة الفتية » .

ولم يكن في تعليق المندوب الكبير ما يتعدى مداعبة شيخ لشاب ، وفي حدود الاحترام لبلادى القديمة والحديثة . هذا وأغلب العاملين في الدراسات المصرية القديمة من أصدقاء مصر . لذلك أحب أن أضع على لسانهم فيما يلى ما أحسبه منحنى تفكيرهم :

إننا نرى الحضارة المصرية القديمة شيئاً رائعاً حقاً ، وما حدث على ضفاف النيل من انتقال الإنسان من البداوة إلى تلك الحضارة الرفيعة ، وقبل كل الشعوب ، ودون

مساعدة من الآخرين ، هو ما أردنا أن نقص عليك أحسن قصصه ، بعد أن قضينا حياتنا ، وأساتذتنا من قبلنا ، ننقب عن آثار مصر ، وننقل وترجم ، ونسجل ونقارن . فإذا انحدرت شمس تلك الحضارة نحو المغيب ، شعرنا بالحزن يملأ قلوبنا ، وأحسنا بأن أروع صفحة من صفحات التاريخ البشرى تطوى نهائياً .

أى نعم ، ستعرف بلادك حضارات ، ولن تغرب شمس الفن والعرفان عن بلادك . فلسنا نحن الذين ننكر حضارة الإسكندرية ، ولا ما أدته مصر للمسيحية الأولى ، ولا أن مصر قلب الحضارة الإسلامية الخفاق منذ أكثر من ألف عام . ولماذا نذهب بعيداً ، وإليك ما قاله أستاذنا أوجست مارييت :

« مصر لا تشرق بضع لحظات ثم تغيب في ليل طويل ، كما حدث في بلاد أخرى ، بل العكس هو الصحيح ، فإن يمن طالعها العجيب أراد لها أن تواصل عملها سبعين قرناً . وأن تترك أثرها في ناحية من النواحي واضحاً جلياً ، فيما يكاد يشمل جميع حقبات هذا التاريخ الطويل . ففي العصر الفرعوني ظهرت مصر ، في غابر الزمان ومطالع الدهور ، جداً أعلى لجميع الأمم ، بملكها خوفو ينشئ بناء لا يتفوق عليه الفن الحديث ، وبملكها تحتمس ، وأمنحوتب ، ورمسيس ، يسحبون خلف عرباتهم الحربية أسرى من جميع الأجناس التي عرفها ذلك الزمان . وإبان الحكم اليوناني والروماني نرى مصر تتحكم في عالم الفكر ، كما تحكمت من ذي قبل بأسلحتها ، فهم فلاسفة الإسكندرية الذين تولوا الحركة الفكرية في غضون أزمة من أشد الأزمات الروحية ، وهي الحركة التي تمخضت عن العالم الحديث . وفي القرون الوسطى شاد الفن العربي بالقاهرة منشآت التي تعز على التقليد ، ووقفت مصر سداً منيعاً أمام الصليبيين ، وأسرت غاهلهم لويس بالمنصورة . وفي أيامنا تجيء الحضارة الحديثة لتعيش على ضفاف النيل ، فتستأنف مصر سيرها بخطوات واسعة في ركب التقدم ، وإذا العالم أجمع يتنبه إليها . »

ونحن نؤمن على ما يقول مؤرخ من مؤرخي مصر الحديثة ، إدوارد دريو : « ليست مصر طريقاً ، ولا معبراً ، ولا هي ورقة كوتشينة ، في الألاعيب المعقدة بين الدول ، ولا يمكن أن تكون مصر مستعمرة للاستغلال ، أو لاستيطان الغرباء . »

« مصر جذوة إنسانية ، من أقدم الجذوات اشتعالا ، وأروعها وأظهرها للعيان ،
في كل ما أوقد حول البحر الأبيض المتوسط من مشاعل الحضارة على مدى
الأجيال .

« مصر صنعتها رواسب حضارات لا يعادلها في الثراء إلا طمى نهرها الإلهي ،
وامتزجت في تربتها ملايين من الأجساد : أربعة آلاف عام من حكم الفراعنة :
منف ، طيبة ، الكرنك والأقصر . ضفاف النيل أجداث ألفية ، طابقاً فوق
طابق ، تنطوى على كنوز من الفكر والفلسفة .

« وألف عام من الحضارة العربية ، أضافت كنوزاً إلى العلوم والآداب ، إلى
جانب تلك الآثار الفنية من جوامع ومساجد ، بوحى القرآن ، تتخلق حول الجامع
الأزهر . »

ولكن ما حققتموه في عصوركم التالية لعصر الأسرات ، حققه غيركم في أصقاع
أخرى من العالم ، ولم تعد لكم ميزة التفرد والتفوق ، وهى الميزة التى كانت لكم في
فجر الإنسانية .

وهنا يضيف العلامة كورت لانجه :

« لتكفى برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيرة من الشعوب — منها مصر
وسومر والصين — استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة فى الأزمان السحيقة ،
وأن تنتهج لنفسها أسلوباً فى الحياة يعد من أغنى وأصح ما حققه الجهد البشرى فى
هذا السبيل ، وهو أسلوب لا تدين به لغير نفسها ، ورجاحة عقلها ، وصدق
شعورها ، وتتسم به ذروة رفيعة من ذرى التمدن ، وبهذا تمهد للبشرية طريقها إلى
الرقى . وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر فى الحضارات التالية لحضارتها —
وما أكثر من ينكرون عليها هذا الأثر — ولكن الرأى مجمع ، حتى عند هؤلاء
الجاحدين ، على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل إلى اليوم . »

فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة ، وإذا لم تنفعلوا بتاريخكم الأول مثلما
ننفل نحن الغرباء ، فلا تلومن إلا أنفسكم !

* * *

قال ولسون فى كتاب « قبل الفلسفة » :

« الميلاد اليومي للشمس ، والميلاد السنوي للنهر يشكلان قسماً الطبيعة المصرية . كانت مصر غنية ولكن في غير إسراف ، ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمراً جنيئاً ، ليغتنمه زراع كسالى . الشمس والنيل يشتركان في إعادة الوادى إلى الحياة ، ولكن بفضل جهاد الشعب المصرى ضد الموات ، فالشمس تدفئ ، ولكنها في حمارة القيظ تلوح وتلفح ، والنيل يحمل إلى مصر المياه والطمى والخصب ، ولكن فيضانه السنوى قلب ، لا تنفع فيه نبوءة ، فالفيضان العالى يغرق الأرض والحراث والنسل ، والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء ؛ عالياً كان أم واطئاً ، فهو يحيى دفعة واحدة ، وينتهى عاجلاً ، مما يلزم سكان الوادى بالعمل المضنى لحزن مياهه ، وتنظيم الري نوبة بعد نوبة . والصحراء عدو متحفز ، يقرض الأرض المزروعة ، ويحبل الخصب محلاً ؛ وهى إلى ذلك موطن الأفاعى والضواري والغيلان والسعالى . وبطائح الدلتا وقد تحولت أجسام ومستنقعات ، تتطلب الري الدائم حتى تعود حقولاً مزروعة . والبلاد تشرف على الفناء في ربع العام تلفحها الرمضاء ، وتلوحها الشمس ، وتهدها التحاريق ، حتى يعود الفيضان ، فيعتدل الجو ، ويبارك الله أرض الكنانة ، ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين . ولكن ذلك لم يكن ليغنى أهلها من الكفاح الدائم والحрман ، أوليحميها من الأخطار ، مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثراً وأصدق ، إذ لم يحيى نعمة سابغة ، وإنما حققه التعب والنصب .

« وثمة صفة أخرى لوادى النيل تنعكس في أخلاق أهلها : وحدة المناظر ، واتزان عناصرها : الشاطئ الشرقى يوازن الضفة الغربية ، وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا . وسواء أكان هذا التقابل فعالاً أم غير فعال ، فإن المصرى كان شديد الإحساس بالاتزان والنظام والهندسة ، يتجلى إحساسه ذاك في فنونه وآدابه ، وتسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع :

أصغ إلى أقوالى ، أعزنى سمعك ،
 إننى ألقى إليك بالكلم لتعرف أننى ابن رع ،
 خلقت من صلبه ، لأجلس هائئاً على عرشه ،
 مكن لى فى الأرض ، سيداً على الوادى ،

سديد رأيي ، يتحقق على الأيام تدبيرى ،
أنا حامى الحمى ، أنا المدافع عن مصرى »

* * *

لا شك أن وحدة الشعب المصرى أقدم وحدة تمت لأمة ظهرت على وجه البسيطة ، وأقواها . سواها النيل وطميه ، وأحييتها الشمس المشرقة . فالشعب المتحضر ، أى الشعب الذى يفلح الأرض ، اضطر إلى ترتيب معاشه حسب ارتفاع النيل وانخفاضه ، ونظم تقويمه على حركات الشمس والفصول ، وضم شمله ليستطيع أن يحقق أعظم النفع من طمى النيل وشمس مصر ، وليدفع عنه غوائل الفيضان ، أو خطر القحط والأوبئة إذا ما أصيب بفيضان منخفض . لذلك نفهم أن تتجمع العشائر المصرية الأولى حول وادى النيل فى مراكز أو مديريات عرفها الإغريق باسم « نومس » وهى الكورة ، ولكل كورة إلهها ، وربما مجموعة آلهتها ، وقد تكون مجرد طواطم ؛ ولكن تجمع الكور فى أقاليم ، ثم فى إقليمين كبيرين ، قضى بتجميع تلك الآلهة ، وتغلب بعضها على بعض . بيد أن أساس ديانة المصريين كان عبادة الشمس والنهر ، وكما تعود الحياة إلى الأرض الموات بعودة الفيضان وبقوة الشمس ، فإن المصرى الأول بنى عقائده على فكرة النشور ، أى الحياة بعد الموت ، وبذلك يمكن القول بأن الإله الأكبر الذى اشتركت فى عبادته الأقاليم كان رع - الشمس ؛ وكان أوزيريس ، الذى بدأ معبوداً للوجه البحرى ، إله النشور ، والعالم الآخر .

والهندوكية أيضاً - وهى وثنية متعددة الآلهة ، ما تزال قائمة إلى اليوم - تقول بعودة الميت إلى الحياة ، لا فى العالم الآخر - فليس للهندوكى عالم آخر - بل فى هذه الدنيا ، وفى صورة متناسخة ، صعوداً فى سلم المخلوقات - إن كان المتوفى من الصلاح - وانحداراً إن كان طالحاً ، ولكنه فى الحالين معذب ، فالحياة عذاب . وينتهى عذاب هذا التناسخ بعد سلسلة من العود إلى الحياة فى صور متشكلة من إنسان أو حيوان ، عندما يبلغ الهندوكى مرتبة القداسة القصوى ، فينتهى بموته إلى التلاشى التام فى البراهمان .

فالهندوكى ، سجين التناسخ ، شقى حزين ؛ كل ما يأمله أن يتخلص من

هذه الحياة ويفنى . . . فى الثرقانا !

أما المصريون القدماء فقد دفعهم حب الحياة إلى الحرص على امتدادها بعد الموت . ألا يكون تفسير هذا أن المصرى السعيد يعيشه الرغد ، كان لا يطلب إلا أن تطيل الآلهة عمره فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟

* * *

يتقدم البشر من الفطرة إلى البداوة ، ومن البداوة إلى الحضارة ، أو قل إنهم ينتقلون من التوحش إلى التبربر ، ومن التبربر إلى التحضر . والإنسان الأول صياد قناص ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يكون وحشاً ضارياً يضرب بمخالبه ، ويمزق بأنيابه وأظلافه كالأوبد . فهو حيوان ضعيف البنية بالنسبة لسكان الغاب والأحراج ، ثالم الأسنان ، مفرطح الأظافر ، يدرج فى زمرة أهل الحيلة والمكر من الحيوان . هيأته الطبيعة لياكل من خشاش الأرض ، وأوراق الشجر وفواكهها . . . ومن لحوم الحيوان والسملك . هدته حيلته إلى مخترعات هائلة فى بساطتها : اكتشف طريقة لإشعال النار ، وصنع البومرانج والنشاب والقوس والسهم ، واخترع الشص والجوبية لصيد الماء ، وحذق « المقلب » يحفرها لأخيه الحيوان . . . والإنسان ، دون أن يقع هو فيها ، وقد يقع . ثم حول قطاع جذع شجرة يتدحرج ، إلى عجلة تدور ، واستألف الحيوان يقتنيه لغذائه ، ويروضه لمعونه ، وعرف الزراعة ، مقلداً الطبيعة ، وصنع الأواني ليخزن فيها الحبوب . وكان قد ترك سكنى الكهوف وأعلى الأشجار ليحفر فى الأرض مأوى ، أو قبراً ، تعلم كيف يكسوه بأغصان الشجر ، ثم بجذوعها ، وكيف يجدل سوق النبات حصيراً ، ثم عرف كيف ينشئ من جذوع الأشجار وأغصانها كوخاً مستقوفاً : أى أنه انتقل من حياة الهائم يطارِد ويطارَد ، إلى نوع من الاستقرار انتهى إلى النجع والمحلة والقرية .

والمصرى مر بكل تلك الأدوار ، وقد عرفنا بعض آثاره فيها ؛ درس العلماء « حضارة » عصوره الحجرية ، وظهر أنه اتجه قبل الأسرات بزمان طويل اتجاهات اجتمعت فيها خصائصه الإنسانية كيفتها طبيعة بلاده . وفى آخر عهده الحجرى الحديث ، قبيل الأسرات ، ابتكر رموزاً مصورة يسجل بها بعض كلامه . وعرفناه

يواصل صناعة الطران طويلاً ، حتى في عهد الأسرات . وإذا كان يستعمل النحاس مبكراً ، فلن يصل إلى الحديد إلا متأخراً ، وربما في العهد اليوناني ، أو قبل ذلك بقليل .

بلغ الإنسان المصري قبل عهد الأسرات « حضارة » فيها النحاس ، وفيها الكتابة ، ولها نوع من التفكير الديني بالخلق ، وبالحياة قبل الميلاد ، وبعد الموت . وفيها فن بدائي استودعه انفعالاته بشيء سماه « نقر » ، ربما عني به « الجمال » وربما « الخير » ، وربما كل شيء طيب .

والمصري ، في الأسرات الأولى ، حقق ما أخطأ العالم الأوربي في وصفه بالمعجزة ، كما سبق له أن وصف حضارة الإغريق بهذا الوصف . وليست هناك معجزات في تكوين الحضارات ، مصرية أو سومرية أو يونانية .

ولسنا مرتبطين في هذا الكتاب بخطة جمع المعارف وحشدها ، إنما نحن رحالة في رحاب التاريخ نشاهد آثار الحضارة المصرية حولنا ، ونقرأ عنها ، ونقلب صفحات الكتب التي تسجل صورها ، لنتذكر ونتمعن فيما رأيناه منها بين الركام ، وفي هجير الحر ، تحت الأرض وفوقها ، نسف التراب والرمال ، ونهش الدباب والهوام . . . والأدلاء . وينادي علينا من باب المقبرة ونحن في أسفل سافليها بأن الأنوار ستطفأ ، و « الأسطى عاوز يروح الأقصر » ، و « ابور الكهربي حايقف ! » . فهي الكتب بصورها تجدد الانفعالات التي انطبعت في نفوسنا أمام الأصول . ثم نسجل ما وعته ذاكرتنا عندما نأوى إلى مخادعنا بعد يوم عناء للجسد ، وغذاء للروح . ونخطأ الرحالة أنه يريد أن يشاهد كل شيء ، فينتهي به الإجهاد إلى ثلم إحساسه . ولقد عرفت ، كرحالة قديم ، كيف أختار ، وكيف أقنع بالقليل من الكثير ، لأحتفظ برواء الأثر الفني وجدته .

وما زلت أتصور متحفاً للآثار المصرية تكفي ساعة أو ساعتان لارتياحه ، نتخير له القطع الفذة من فن المثال والحفار والرسام ، ونسقه بطريقة فنية تحيط كل تحفه بما يبرز محاسنها ، ويؤكد خطوطها وأقواسها ، وانبعاجاتها وتكورها . ينتقل الإنسان في ذلك المتحف الصغير وكأنه يترى في « نزهة الفن والروح » ناعماً بما يرى ، لا يستعجل الزمان خطاه ، ولا تشغله مئات المتحف يمتهن ويسر ،

تزوغ بينها عيناه ، وتتصلب رقبته ، فهو يتلفت كن يخشى مباغثة طارئ مهاجم ، يرفع الرأس ويخفضها ، ويميل بها ، يركع ويسجد ، يصبوب النور إلى عينه هنا فلا يرى شيئاً ، ويضايقه الظلام حيث يحب أن يشاهد ويتأمل .

المتحف الذى أتصور ، بناء مستقل عن دار الآثار المصرية ذات التاريخ المجيد ، ردهاته محدودة ، ويا حبذا لو استوحى المهندس فى بنائه ذلك المعبد الصغير الجميل الذى أعاد بناءه هنرى شقريبه فى ساحة الكرنك حديثاً ، وهو من آثار سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، كان يودع فيه تمثال الإله آمون الفحل ، وسفينته المقدسة .

ولست هنا متخيلاً أو حالماً ، فقد نشأت فكرتى هذه منذ ابتدع متحف اللوفر ، قبيل الحرب الكبرى الثانية ، بدعة الزيارات الليلية ، وخصص لها قاعات صغيرة فى بدرون القصر ، واختار لها قطعاً ممتازة من مجموعات الغنية التى انتهت هى الأخرى فى الطوابق العليا إلى ما يشبه « سوق الكانتو » المعروف عندنا قديماً باسم « الأنتكخانة المصرية » . هناك فى ذلك البدرن على ضفة السين اليمنى أحسست ، وربما لأول مرة ، بروعة جمال الفن المصرى . وبذلك رحم اللوفر زواره من الإرهاق ، بمثل ما نرهق به زوار متحف القاهرة .

والفنان المصرى لم يكن « أرتست » بالمعنى الذى نعرف . لم يصور ولم يحفر ولم ينحت تماثيله لتراها العين فى معرض ، أو ليقتنيها الأثرياء فى دورهم . إنه يعمل للأبدية ويشغل فى نطاق الطقوس الدينية ، فهو والمحنط والكاهن الذى يتلو التعاويذ والبناء والمبيض ، يعدون « للمرحوم » — باعتبار ما سيكون — مشواه فى الآخرة .

ونحت التماثيل نشأ فى أول أمره حلاً لمشكل بقاء الجثمان ، فإن المصرى لم يضمن مع التحنيط ، الاحتفاظ به ؛ وعفريت الميت ، أو قرينه « كا » فى الأصح ، بحاجة إلى جسد يتمثل فيه بشراً ، فإذا ما اختفت المومياء ، راحت على الميت حياته الأزلية . فتماثيل الأسرات الأولى بدأت غالباً كبديل للجثمان ، أو احتياطى لها .

ومجموعة التماثيل التى انحدرت إلينا من تلك الأسرات لا تمثل الفن المصرى فى ذروته فحسب ، بل إنها تضعه إلى جانب آثار الفنون العالمية التى عرفها التاريخ فى أجمل عصوره ، بعد قرون من انهيار الحضارة المصرية .

فلنؤم المتحف المصرى لنشاهد بعض هذه التماثيل ، ولنتصور تحقيق فكرتنا فى متحف « المختارات » فنقتصر على قلة منها . إنك ستعرفها كلها واحداً واحداً ، وتكاد تقرئ « شيخ البلد » ، السيد كا - آبر ، السلام فى شىء من الألفة ، وتحدج الأميرة نوفرت بنظراتك وأنت تحسد زوجها رع - حوتب على حسن ذوقه فى اختيار رفيقة حياته ، جمالا ودعة . وللعثور على هذين التمثالين الجالسين قصة أحب لك أن تذكرها وأنت ترى الوجوه المزججة ، والعيون البراقة ، والألوان المشرقة ، يكاد بهم صاحبها بالتحدث إليك . فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كان العمال القائمون بالعمل فى حفائر المدعو دانيوس باشا يفتحون مصلى مقبرة مكتشفة حديثاً لأمير من أمراء الأسرة الرابعة ، بوادى ميدوم ، وإذا بهم يتراجعون مذعورين ، وهم يؤكدون للعلامة المشرف على الحفر أنهم رأوا عيون الأرصاء السحرية التى تحرس الكثر ، تلمع غضباً ، وتهدهدهم بالويل والثبور !

هذه أعمال النحات المصرى تصور الإنسان أميراً ، أو كاتباً ، أو موظفاً عمومياً ، كلا على سجيته . ولكن فى تشخيصه للملوك استطاع أن يحقق أعجوبة بسيكولوجية . فلنلق نظرة على أعظم قطعة فنية فى التاريخ المصرى كله ، ومن أجمل وأقوى ما حققه فن المثال فى العالم أجمع : تمثال الملك خفرع ، من حجر الديوريت الأسود مجزعا ببياض . لن تما لك من الشعور بأن هذا الجالس أمامك إنسان رفيع المقام ، والألفة بينك وبينه ليست ميسرة ، تلك الألفة التى شعرب بها أمام الأميرة نوفرت ، والخنرال رع - حوتب ، والسيد كا - آبر . لم يصنع المثال شيئاً خارقاً يعلن أنك بحضرة ملك عظيم ، لأنك إذ تنظر إلى التمثال من أمام ، لن ترى علامة ملكية واحدة ، إذا لم تتبين رأس الصل فوق جبينه . إنما هى النظرة الجانبية تقدمك إلى الإله هوروس فى صورة باشق يحمى رأس الملك بجناحيه . وستطالع على جانبي المقعد رمز مصر العليا والسفلى . فأنت إذن فى حضرة ابن هوروس - رع - هاراختى ، صاحب الهرم الثانى ، أجمل الأهرامات فى عيني ، يزهو على جاره الأكبر بتاجه الهرمى الكامل . لم يصوره المثال فى جلال الملك ، وقوة السلطان ، جباراً عاتياً . ولكننا نواجهه ، من دون شك ، شخصية بارزة ، رافعة الرأس فى ثقة بنفسها ، واطمئنان إلى قوتها . ولست أدري من أين جاءتني فكرة قديمة فى شبابي

— عرفت تفسيرها فيما بعد — وهى أننى كلما رأيت وجه أبى الهول ملأت فراغاته ، وأكملت سياءه وتقاطيعه برأس خفرع هذا . كم أحب أن يوضع تمثاله الهائل فى مكان منفرد بمتحف المختارات فى صدر المكان ، يبلغه الزائر بعد أن يتم مشاهدة روائع الأسرات الخمس الأولى . ومن رأى أن الزائر الفنان ، إذا أحب أن يحتفظ فى نفسه برعدة الفن ، يجدر به أن يكتفى من يومه بزيارة مختارات فن الدولة القديمة ، وأن يعود إليها مثنى وثلاث ورباع ، لأنه سيكون حينئذ قد تشرب روح الفن المصرى فى أرقى وأخلص أعماله .

وليس فى نيتى ، بطبيعة حال هذا الكتاب ، أن أعدد الأعمال التى أقترحها لمتحف « المختارات » . فلن يعسر على حسننى الإرادة ، إذا ما استقر رأى على تنفيذ مقترحي ، أن يدلهم من هم أقدر منى على ما يختارون ، وكيف ينسقون مواضع مختاراتهم .

* * *

هل ساءلت نفسك إن كان المصريون عرفوا كلمة « فن » ؟ وما علامتها الهيروغليفيه ؟

يقول فقهاء اللغة البربائية إن الرمز الهيروغليفي الذى يمثل « مثقاباً للصخر » معناه هذه الكلمات : فن ، صنعة ، حرفة ، فنان ، صانع . فلم يكن لدى المصريين — ولا عند اليونان فى هذا الشأن — كلمات تميز الفنون عن الصناعات . والمثال الذى صنع تمثال « شيخ البلد » من خشب ، أو نحت تمثال « تى » من الحجر الجيرى ، لم يكن إلا صانعاً فى « شركات المقاولات المتحدة لبيوت الأبدية » ، أى أجيراً لنقابة الحانوتية . فمتى يتحول هذا الصانع إلى فنان ؟ لا شك أن عنايته أولاً وآخر — وهذا شىء يميز الصانع المصرى فى كل عصوره الفنية الزاهرة ، من عهد الأسرات وما قبلها ، حتى قضت على فنه حضارة القرن التاسع عشر الآلية ، والتفرنج الذى طمس على عيوننا ، وحى بقايا الذوق الفنى من نفوسنا — أقول إن عناية الصانع المصرى كانت فى إجادة عمله فحسب ، حتى يجىء تمثاله مطابقاً للأصل . لأن فى هذا ضماناً لنجاح التحول السحري عندما تنفخ « كا » فى التمثال حياة صاحبه ، أى عندما يلبسه عفريت المرحوم . ولكن الفنان ، فى محاولته

المطابقة ، تتداخل في نفسه تلك العوامل المجهولة التي تقود يده إلى اللمسة الروحية اللامحة ، فيجىء التمثال صورة للواقع ، وصورة لانفعالات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك ، كما بحثت أنا طويلا ، عن مركز هذا الصانع الفنان في المجتمع المصرى القديم ؟ لأننى حقاً غلوت في الدعابة عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفر بجواب ، لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك في الصعيد شيئاً غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق ، وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطنبول عنتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراهن مفتشو الآثار وخفراؤها ، أو من واتاهم الحظ والثراء فصعدوا النيل في ذهبية أو باخرة .

لو أننى في ذلك اليوم البعيد ذلت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت في أية فلاة أترك السيارة ، لتوصلت إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثالها الأكبر « توتموزى » ، ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتموزى الخاص ومرسمه ، وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبياناه . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه ، ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصبه وحده ، لأن بيت المثال توتموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التي فازت منها متاحف برلين بالنصيب الأوفر ، ومن هذا النصيب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التي صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صنع قالب من حمأة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء في أوربا على ما يعرف « بالقناع الجناثرى » . وفي متحف القاهرة رأس لنفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامك من هذا الرأس المصبوب ، حتى ذلك الرأس الجميل لزوجته أخناتون الموجود حالياً ببرلين . وقد زعمت ألمانيا قبل

الحرب أنها على استعداد لرده إلى أهله ، لولا أن المصور الفاشل ، مبيض الجدران ، المدعو أدولف هتلر ، زعيم ألمانيا في ذلك الوقت . . . وقع صريع هوى . . . نفرتيتي ! هذا ما أردتك أن تعرفه : الفنان المصري القديم ، مع ما تقيد به من محاولة نقل الطبيعة ، ومن التزام قواعد وتقاليد مرسومة منذ عهد الأسرات الأولى ، استطاع ، على الرغم من تلك القيود ، أن يفعل بوحيه الداخلي ، وهو يترجم عن الطبيعة . ولعلك أن تعود إلى تمثال خفرع لتحاول لهذه الأعجوبة الرائعة تفسيراً .

* * *

الحضارة المصرية ، إن لم تكن أثرت تأثيراً مباشراً على الأمم التي اتصلت بها ، كما لا يزال ينكر ذلك عليها بعض المؤرخين ، فإنها على الأقل عملت عمل الحماثر في العالم القديم والحديث ، بما قدمت من أمثلة على ما يبلغه جهد الإنسان العقلي والجمالي والاجتماعي . وهي حضارة يمكن أن تجد فيها العناصر التي تثير عجبك وإعجابك ، من أية زاوية نظرت إليها ، وأية ناحية طرقت دراستها ، بشرط أن تكون مدركاً لحالة البشر في العهود الأولى لتلك الحضارة : في العلوم التطبيقية ، لا سيما الهندسة والطب ؛ في المعاملات ، تنظيمها التقاليد والتشريعات ؛ في نظم الحكم ؛ في الري والزراعة وتربية الحيوان ؛ أو في تلك النواحي التي لا يكابر فيها مكابر ، وهي هندسة البناء ، وفي فنون العمارة والحفر والنحت والتصوير والصناعات الزخرفية ، وأخيراً ، وليس آخراً ، في تلك المغامرات الروحية للإنسان بحثاً عن الخالق ، وتحديداً لعلاقاته بما وراء الكون والطبيعة ، وما بعد الحياة الدنيا .

كما أن للطاعن في حضارة أجدادنا أن يكشف عن أوجه الضعف فيها ، سواء في نظره إلى روحانياتها أو إلى حياتها المادية : توقف الفردية وجمودها عند حلول لم تتغير مدى الثلاثين قرناً التي لبثتها تلك الحضارة ، وقصور في مجال الفكر المطلق والمغامرات الذهنية التي تميزت بها الحضارة اليونانية أو الهندية . والتغيرات التي حدثت لم تتجاوز حدوداً مرسومة أملتها العقائد الراسخة ، ووضعها المبتكرات الأصلية التي تفتقت عنها أذهان شعب الدولة القديمة .

والحضارة المصرية غريبة عنا — حتى نحن أحفادها الأصالي ! — إلى درجة أن حكمنا عليها يصح أن يكون موضوعاً بحثاً ، فنمتدحها أو نقدح فيها ، تبعاً

لحكم العقل وحده ، دون العاطفة . فلا تعجب أن ترى الناس بيننا فريقين أو ثلاثة :
 الجيل القديم المحافظ ، وما تزال نظرتة إليها موسومة باحتقار « تلك الكفريات » ،
 والجيل الحديث يشمل القادح والمادح ؛ والمدح والقدح يتسمان بالمبالغة والمغالاة .
 والواقع أن هذه الموضوعية تباعد بين الناس وبين إدراك معنى الحضارة المصرية ،
 لأنها ليست موضوعية منزهة ؛ فنحن نتأثر دون شك بظروفنا الحاضرة وبتفكيرنا
 الحديث ، كما نتأثر بما تلا الحضارة المصرية من حضارات ما بين النهرين واليونان
 والرومان والإسلام والرئيسانوس وما بعده . فلا تحسبن أنك واصل إلى قلب الحضارة
 المصرية بانتهاج موضوعية زائفة . إنما الموضوعية المثمرة أن تحاول الاندماج في الحياة
 المصرية القديمة ، وأن تحاول التفكير كما كان يفكر أسلافك في سنة ألفين أو سنة
 ثلاثة آلاف قبل الميلاد ، وأن تعمل ، في كل ناحية من نواحي الكشف عن هذه
 الحضارة ، بنصيحة ناقد فني كبير تخصص في فن الرسم عند المصريين القدماء
 قال : يجب أن نبدأ بنسيان معارفنا الحديثة في فن الرسم ، حتى نستطيع فهم الصور
 المصرية والحكم عليها .

* * *

قلت منذ لحظة إنك حين تلتقي بتمثال الدولة القديمة بالمتحف المصري ، ستقبل
 عليها في شيء من الألفة ، وستحس كأنك أمام أشخاص تعرفهم جيداً ، وكنت
 أود أن أضيف : حتى لو التقيت بأحد هذه التماثيل في بلاد الغرب ، مثل لقائي
 بتمثال « الكاتب المتربع » بمتحف اللوفر .

لقد حدثت في حياتي الطويلة ببلاد الغرب ظاهرة ربما لم أنتبه لها في وقتها .
 ولعل أغلب من سافر مثلي شاباً ليقضي سنوات في الخارج ، خبر إحساس الحنين إلى
 الوطن الذي يعرف في لغات الغرب بالنوستالجيا ، وهو شعور يستولي عليك بحدة
 في الأشهر الأولى من إقامتك ، ولكنه لا يفارقك طوال إقامتك بعيداً عن أرض
 « كيمي » .

ووع أنني سافرت إلى أوربا كلفاً بحضارتها - وما زلت ، مما جكيت بعضه
 في كتابي « سندباد إلى الغرب » - فإن انصرافي التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك
 الحضارة وأصولها ، لم يحمى من نوستالجيا أرض كيمي ، وكان الحنين إلى الوطن

يعاودنى فى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيداً عن بلادى . ويرى بعض المواطنين علاجاً له فى أن يجتمعوا للاستماع إلى أسطوانات المطربات والمطربين المصريين ، أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم .

وعرفت ، إلى مثل هذه العقاقير ، علاجاً كنت أمارسه دون قصد أو وعى ، إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى . كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة . وأذكر جيداً زيارتى « للكاتب المترجم » الذى يعتز به متحف اللوفر ، لأنه حقاً من أجمل أعمال الدولة القديمة . وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذة لا تتجه إلى محدثه ؛ خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى « لخط » ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى ، وأنى أسمع هذا اللفظ الموسيقى يتزل على قلب النازح عن وطنه برداً وسلاماً . كما لا أنسى زيارتى الأولى للمتحف البريطانى ، وكانت أول مرة أسمع فيها أن لنا تاريخاً وآثاراً سابقة على عهد الأسرات ، حين رأيت أميناً كهلاً من أمناء المتحف يشرح لمجموعة صغيرة من شباب البريطانيين حياة ما قبل الأسرات المصرية ، أمام قبر من قبور أهلها . لحظ الرجل ذلك الشاب الغريب الدخيل على محاضراته ، وكنت أعطى رأسى ببيريه من بلاد الباسكيين ، فبدأ حديثه قائلاً : « نحن هنا ندرس حياة أعرق الشعوب حضارة . . . (ثم يحدجنى بنظرة المتبرم بى) . . . لسنا مجرد عابرى سبيل . . . نحن هنا نتفحص ونعود إلى كتبنا لنذاكر . . . (نظرات كأنها تقول : سامع يا بارد ؟) . . . لسنا من أولئك الأشخاص السطحيين الذين يمرون بهذه الآثار العظيمة ، وكأنهم يشاهدون فترينات بوند ستريت . . . (فهل فهمت يا بنى آدم ؟) . . . »

ولما يش الرجل قطعاً من صرفى عن جماعة الدارسين ، بما كان يحسبه « صنعة لطافة » ، بدأ محاضراته التى استمعت إليها وكلى آذان ؛ ولولا البرود الإنجليزى ، وما أعرفه من طبع هؤلاء الناس ، ولومهم لمن لا يكبت عواطفه ، لقصدت الرجل بعد المحاضرة لأؤكد له بأنه لن يجد بين تلاميذه من كان أشد إجساساً ، وأعظم حماساً لكل كلمة قالها . . . من ذلك الشاب الدخيل الغريب !

فلنستأنف رحلتنا ، ونغادر المتحف المصرى لنذهب إلى سقارة ، أعجوبة التاريخ المصرى كله ، خرجت من رأس عبقرى واحد حفظ لنا التاريخ اسمه : إيمحوتب . ربما كان مهندساً أو كاتباً أو طبيباً أو فناناً . فالمصريون القدماء يذكرون اسمه محاطاً بهالة من الإكبار والإجلال ، حتى لقد رفعوه إلى مرتبة الآلهة فى عهد متأخر . هذا هو الرجل الذى يقرن اسمه بروائع سقارة التى تحيط بهرم زوسر ! فلندخل حرم المعبد ، ولنتأمل أعمدة ذلك البهو الأبيض . أتعرف أنها أول أعمدة أقيمت فى تاريخ العمارة ؟ ومنها العمود المضلعة ، وإن لم تستقل بعد عن حوائطها . تأمل نحت قطاعاتها الحجرية ، ودقة صنعها ، ورقة إحساس صانعها . لقد حسب الأثرى إنجلباك دقة نحت عمود من الصوان الأحمر من الأسرة الخامسة ، فوجد أن الخطأ فى كل قطاع سمكه ٢٦٠ سنتيمتراً ، يتدرج بين قطاعات قطرها من ٩٢,٢ سنتيمتراً إلى ٧٩,٨ سنتيمتراً ، لا يتعدى ثمانى مليمترا . وقدر فلندرز پترى الخطأ فى ناوس من الجرانيت لسيزوستريس (سنوسرت) الثانى ، فلم يكتشف أكثر من ثمن مليمترا فى أسطحه الجانبية ، وهى صقيلة كأنها لوح زجاج مصنفر .

ولنتزل إلى مقابر قى ، وفتاح - حوتب ، وميريروكا . وهناك ستعرف أن حياة أسلافك فى الأسرات القديمة هى حياتك الحاضرة . هنا ، لأول مرة وربما لآخر مرة ، ستحس بأنك حقاً حفيد أولئك الفلاحين والصيادين والصناع ، وستقاسمهم كفاحهم ، وتشاركهم فى مشاحناتهم ، وتتعرف على أسماك نيلك ، وتسمع خوار ثيرانك ، ووشوشة هيشك وقصبك . سيعيد فنان الحفر بالبارز - باريليف - أمام عينيك حياة الشعب فى الدولة القديمة . ويقول الأثريون إن مصري الأسرة الخامسة قد تنبهوا إلى نقش مقابرهم لا للزينة ، ولكن للغرض نفسه الذى عمل له المثال فى الأسرات السابقة ، أى لتتقمص « كاوات » الشعب صور نشاطه فى الحقل والمصنع ، وعلى ضفاف النهر ، وفوق صفحة مستنقعات الدلتا ؛ كى ينعم المتوفى بكل ما حوله من مباهج الحياة . فجاء الفنانون يحفرون على الجدران صوراً أمينة لحياة الشعب المصرى فى جده أكثر من لهوه . . . وسيجىء فنان الدولة الحديثة ليصور المصريين فى لهوهم وجدهم وعبادتهم . لا أعرف كيف أصف لك هذه المحفورات البارزة وتنسيقها فى صفوف متراصة - لأن الفنان المصرى لم يكتشف المنظور ولا غنى

بإثباته - والكتابات الهيروغليفية تملأ فراغات الصورة بطريقة الموازنة والمقابلة ، بحيث تحس وأنت ترى هذه الصفوف الرتيبة كأنك تسمع موسيقى بعينيك ، موسيقى ذات إيقاع هادئ ، وتكاد تسمع أصوات أولئك الصناع والزراع والمراكبية والصيادين في سكون صحراء منف .

ولست أنسى أنني دخلت هذه المصاطب آخر مرة مع بعثة ثقافية أجنبية ، من ضمن أعضائها موسيقى محترف . ما كان أشد عجبى إذ رأيت الشاب ينتحى منا مكاناً قصياً ، ويخرج من جيبه دفتره الموسيقى ، ليدون ألحانا أوحى بها إليه صور المقبرة . وكان الرجل من تلك الشعوب الجديدة التي لا تعنى بتعلم اللغات الأجنبية ، فاستحيت أن ألبأ إلى المترجم لأتبادل مع الموسيقى حديثاً يتصل بمصادر الوحي الفني . المهم أن الرجل سمع بعض الموسيقى التي كنت أسمعها بعيونى منذ فجر شبابى !

وما بنا حاجة إلى الانتقال من منف إلى طيبة لنظمئن إلى أن هناك تجوزاً كثيراً فيما يقال عن جمود الحياة الفنية في مصر القديمة . وإنما يغتر الناس بالشبه العام بين مظاهر الحضارة المصرية ، وهو الشبه الذى نراه بين نماذج كل مدرسة فنية : في الفن الكلاسيكى اليونانى ، أو في فن الرينسانس ، أو الفن الهندى أو الفارسى . إنها القرابة العائلية ليس غير . فما لم تتفحص تفاصيل فن من الفنون ، وتعرف مؤثراته ، وشيئاً مما وراءه من تاريخ ، تظل نظرتك إليه نظرة سطحية ، ترى فيها جميع الصينيين واليابانيين يشبه بعضهم بعضاً . . . كأنهم التوائم !

أما ترى الفارق العظيم بين معبد أبى الهول ومعبد زوسر ؟ ألا تلاحظ تطور بناء الأهرامات خطوة خطوة ؟ ألم يعمل المثال المصرى في الخشب والصوان والديوريت وحجر الجير ، وفي كل مرة تملى عليه المادة خطوط تطوره الفني ؟ إذا امتدت أمامه صفحة حجر نجيرى متماسك ، رسم عليها ، ثم أعمل فيها إزميله على طريقة الحفر البارز . وإذا لم تطاوعه مادة الجدار للحفر ، طالاها بطبقة من الجير ، أو من ملاط الطين المخلوط بالقش ، وصور عليها بريشته وألوانه ، كما فعل في صور لإوز ميدوم من أعمال الدولة القديمة ، وفي جميع مقابر وادى طيبة في الأسرات الأولى للدولة الحديثة .

ما هو الهرم بضخامته الشاحخة إلا تاج مسلة مكبر إلى أضعاف أضعافه . كما عرفت المسلات فيما بعد ، رمز عبادة آتوم - رع ؟ أو أنه مصطبة فوق مصطبة ، حتى يرتفع هرمًا مدرجًا ، ثم هرمًا هندسيًا ؟

إننا نتابع خطوط التطور حتى في ذلك القليل الباقي من آثار الدولة القديمة . أين آثار مدينة إيون بعين شمس ، بل أين مدينة منف ذاتها ومعبد فتاح بها ؟ وهل هذا الذي نرى هو كل ما بقي من آثار دهشور وأبو صير وميت رهينة وسقارة ؟ كلا ! لم يكن الفن المصرى جامدًا ذلك الجحود المزعوم .

جامدًا ؟ ألا ليته ثبت طوال هذه القرون ! فما إن تنتصف الألف الثانية بعد الأسرة السادسة ، حتى ينهار كل شيء ، وتتقلص الأهرامات ، وفي ظلالها المنكمشة تنحل أربطة الحكم المفرد المتناسك ، وتنهيار الملكية القديمة . فهل كانت ثورة هبت من أسفل لا تبقى ولا تذر ، حتى اختفت في أتونها ثلاث أسرات ملكية أو أربع ؟ أو أن هناك تسربًا أسوييًا ، أو غزوًا شبيهاً بغزو الهكسوس فيما بعد ؟ ما معنى أن تضمر أهرام الملوك ، وتنفسح جنبات مصاطب الوجهاء والأعيان ؟

جاء فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى عصر غامض يعرف بالفترة المتوسطة الأولى ، يعتقد المؤرخون أنه كان عهد ثورات واضطرابات عنفية وتسرب أجنبي . ولا تنس أن مصر مجموعة من الكور وحيدها إيمان أهلها بأن الفرعون ابن إله الخير والفيضان والشمس ، بل وحيدها آلهة عظام ، وأنصاف آلهة ، قبل أن يوحيدها أول ملوك الأسرة الأولى . فإذا اعتقد كبار الموظفين وحكام الأقاليم أن الأهرامات والمعابد أنشئت على أكتافهم ، وبفضل سلطانهم على الشعب ، وإذا استطال حكم الملك بيبى إلى نحو مائة عام ، ألا تتوقع أن يدرك أولئك الرؤساء بأن حقهم هضمه الفرعون فينتفضوا عليه ؟ تأمل حين عاد ملوك الأسرات الأولى في الدولة الحديثة من مغامراتهم الحربية ، وتوسعهم الإمبراطورى ، يغدقون على معبد آمون وكهنة آمون بطيبة أسلاب فتوحاتهم . أفلا تتوقع ، عندما تتقاعس همة الرعامسة ، أن يزحزحهم كهنة آمون عن عرشهم ؟ وهذا ما حدث فعلا عندما تولى كبير الكهنة ، هيريهور ، عرش مصر في نهاية الأسرة العشرين .

أما في المرة الأولى ، بعد استطالة حكم بيبى ، فإن الذين تولوا الحكم كانوا

مجموعة من الأشراف والأعيان ، كل يستقل بكورته أو مجموع كوره . ومصر لا تعيش هائلة دون التعاون الوثيق بين أجزائها ، ولذلك راحت البلاد تتمخبط أجيالاً في المجهول المظلم الذى كان يعرف فى وقت ما باسم عهد الإقطاع ، ويفضل المؤرخو الآن تسميته بالفترة المتوسطة الأولى ، تمييزاً لها عن الفترة المتوسطة الثانية ، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة ، والتى فيها نزل البلاء الهكسوسى بمصر .

والفترتان ستزيحان الغشاوة عن أعين المصريين المؤمنين إلى آخر حدود الإيمان بالبقاء والخلود ، المطمئنين إلى منعة حدودهم الصحراوية والبحرية . الفترة الأولى أطاحت بفكرة أن هناك وسائل مادية تحقق الخلود ؛ والغزو الهكسوسى أطاح بفكرة أمة لا تغزى ولا تغلب . استمع إلى أثر الفترة الأولى فى نفس الشاعر المغنى : « لقد ترمى إلى ما جرى على أسلافى عندما تخربت بيوتهم ، واهت أسواقهم ، وكأن لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئاً مذكوراً .

« لا تفكر بما بعد هذى الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك ، حيث تغرب الشمس .

« أى جدوى لما ينثره على الأرض كهان يلبسون جلد النمر ، أو لما يقدمون من قرايين ؟

« افرح بيومك المشرق ، وتمتع بما توحى به إليك نفسك ، فليس من دأب القدر أن يكرر أيامه .

« وكل ما هو آت آت ، ولم نر من الداهيين إلى هناك من عاد . »
لكأنى به قس بن ساعدة القائل :

فى الداهيين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قوى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقيين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

يقول هيرودوتس ، وقد زار مصر فى أواخر سنى حضارتها وهى ترزح تحت النير الفارسى ، بأن رجالاً يدورون فى المآدب على المدعوين يحثونهم على التمتع

بمباهج الحياة الدنيا ، ويعرضون لعيونهم دمي صغيرة تمثل ميتاً مدرجاً في أكفانه .
وقد نهى ذلك إلى عادة متبعة في الريف ، وهى ترك خشبة الميت مكشوفة في العراء
إلى جوار المسجد أو الزاوية من ناحية الميضة . أذلك لعدم وجود مكان خاص ،
أم ليعتبر الناس ويذكروا أنهم كلهم ، وبعد عمر طويل أو قصير ، راحلون إلى
هناك فوق تلك الآلة الحدياء ؟

أما الفترة الثانية ، فطالع ما تركته من أثر في نفس المؤرخ المصرى مانيتون
السمنودى ، الذى ألف تاريخ أسلافه باللغة اليونانية ، أيام بطليموس الثانى ،
وسماه « إچيسياكا أبومنماتا » ، أى « مذكرات مصرية » :

« وفى حكم الملك ديدوميس استشاطت الآلهة غضباً علينا لسبب لا أعرفه ،
فرزأتنا دون سابق إنذار ، بفئة من الناس لا نعرف لهم جنساً ، وتجراً على اقتحام
وطننا قوم جاءوا من الشرق ، فامتلكوا البلاد عنوة دون ممانعة منا أو قتال ، وقبضوا
على الزعماء ، وأحرقوا المدن دون رحمة ، وقوضوا معابد الآلهة ، وأذلوا أهل البلاد ،
وذبحوا الرجال وسبوا النساء والأطفال .

« ثم أقاموا على مصر ملكاً اسمه صاليتس ، سكن منف ، وفرض الجزية على إقليمى
الصعيد والوجه البحرى ، ووضع الحاميات العسكرية حيث راق له ، وحصن القطاع
الشرقى بخاصة ، توقعاً أن يتقوى الأشوريون يوماً فيطمعوا فى المملكة ويغيروا عليها . »
ومنف عاصمة الدولة القديمة لن يعود إليها مجدها ، وإن ظلت تحتفظ بمركزها
كمدينة المجد القديم ، حتى جارت عليها العوادي ، وتاه الخلف فى معرفة مكانها
زماناً طويلاً . ولو أن الطبيب البغدادى عبد اللطيف وقف بآثارها وتحدث عن
عزها ملياً ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى . وستظل مثل الدولة القديمة
نصب عين المصريين القدماء حتى آخر أيامهم .

وحان الوقت لقرية حقيرة بالصعيد أن يرتفع نجمها فى فلك التاريخ ، هى
طيبة . ولن يكون ذلك قبل أن يقوم أمراء الصعيد بالقضاء على فوضى الفترة الأولى ،
ويؤسس أحدهم : منتوحوب — نيه — نب — رع أسرة جديدة ، ويحجى سنوسرت
الأول ليكبح جماح الأمراء ، ثم يمهّد من جاء بعده من المنتوحوبيين الطريق للأسرة
الثانية عشرة ، أسرة أمينمحت ؛ وستختار تلك الأسرة عاصمة عند مدخل الفيوم فى

هرقليوبوليس ، غير المعروف مكانها الآن ، وإن قيل بأنها على مقربة من لشت ، أو بين لشت ودهشور .

والأسرة الثانية عشرة هي أمجد أسرات السلام بعد الدولة القديمة في التاريخ المصرى ؛ هي أسرة البناء والإنشاء ، وملوكها طاردوا الأسويين أمامهم حتى سورية ، وتوثقت العلاقات التجارية بين ملوك مصر وأمراء ببلوس [جبيل] كما يظهر ذلك فى قصة « سنوهى » ، ولو أننا لا نعرف على اليقين إن كانت هذه مجرد قصة ، أو أنها مذكرات من واقع حياة رجل البلاط سنوهى .

وفى أبيدوس لوحة تشير إلى حرب فى آسيا ، أيام الملك سنوسرت الثالث ، وهو البطل الذى يتحدث عنه هيرودوتس فيما يشبه الأساطير ، تحت اسم سيزوستريس إنما الواضح أن ملوك الأسرة الثانية عشرة أعادوا لمصر مقامها فى النوبة ، حيث يذكرنا نص لأمينمحت الأول بانتصاره فى كوروسكو على شعب « واوات » . وللأسرة آثار عند الشلال الثانى . وأعيد فتح طريق قفط — وادى الحمامات حيث مناجم الذهب ، وقد أمن سنوسرت البلاد ، وأقام التحصينات فى الجنوب ، وأوقف زحف السود على مصر ، إلا من دخل منهم بتجارة الجنوب .

ولكن أعظم ما تذكر به ملوك الأسرة هي مشروعات الرى الكبيرة ، وما قاموا به فى منخفض الفيوم ليكون ميزانا لمياه الفيضان ، تخزن فيه المياه العالية وتطلق منه لرى الشراقى ، تبعاً لحاجة البلاد ، وتمشياً مع حالة الفيضان .

ولقد اختلفت معظم أعمال جبابرة الدولة الوسطى ، لولا أن هيرودوتس وديودورس وإسطرابون وبلينيوس تحدثوا عنها فيما يكاد يدرجها فى عداد الأساطير . ولم يكن معقولا أن يجمع كل هؤلاء على خرافات ، وبعضهم رأى بعينه قصر اللابرانت عند مدخل الفيوم . وقد عثر الأثريون على بقايا منشآت خزان المياه الكبير فى منخفض الفيوم ، وتتبعوا أسماء ذلك الخزان فكان « هونت » ، أى « المياه التى تفيض » و « ميرى » أى البحيرة و « فلوم » أى البحر . ومن كل هذا خرجت أسماء الفيوم ، وموريس — وهو الاسم القديم لبحيرة قارون حسب طبوغرافيتها القديمة — أما القصر فكان معبدًا ، وبه مدفن لأمينمحت الثالث . وقد عرف فى اللغة المصرية باسم « لوبى — رو — هونت » أى « المعبد عند مدخل المياه التى تفيض » ، وهو

الاسم الذى حرفه اليونان إلى ما يقرب من قصر مينوس بجزيرة كريت المسمى « لايرانت » .

وكان « قصر » لايرانت يقع إلى الشرق من البحيرة ، على مرتفع من الأرض في مواجهة مدينة التمساح [الفيوم] . وقامت البعثة البروسية ، برئاسة ريشارد لپسيوس ، بقياس أبعاد ما تبقى من آثاره ، فكانت مائتى متر في عرض ١٦٠ مترا . وقد بقى قائماً ، رآه في القرن الخامس قبل الميلاد أولئك الزوار من الشمال ، وكان من أسباب إعجابهم بحضارة المصريين ، قال هيرودوتس :

« رأيت اللايرانت ، فكان مرآه يفوق كل ما سمعته عنه ؛ ولو أننا جمعنا كل ما بناه الإغريق لما تطاول ، عملاً وتكاليفاً ، إلى اللايرانت . هذا مع أن معبد إفسوس عظيم ، هو ومعبد ساموس . ولقد رأيت الأهرامات فكانت هى أيضاً أعظم من شهرتها ، وواحد منها يساوى أعظم منشآت اليونان ؛ فإذا باللايرانت يفوق في نظرى الأهرامات ذاتها . أما خزان مورييس فهو عجيبة تفوق اللايرانت نفسه . »

وبرغم تلك الشوامخ ، وما تحدث به المصريون عنها إلى الرحالة الإغريق ، فقد اختفى اسم أمينمحت . فن قائل إن منشئها هو بساماتيك أو مورييس — وقد عرفنا مصدر الاسم من « ميرى » أى البحيرة — ومن قائل إنه منيتس أو إمنديس أو غيرهم ، وكلها أسماء ملوك مجهولين لا أثر لها في قوائم مانيتون ، ولا في غيرها . ولم يكتشف اسم منشئها الحقيقي ، أمينمحت الثالث ، في خرابات آثاره إلا في القرن الماضى .

ولا تعليل لاختفاء أعظم آثار الدولة الوسطى ، بل أعظم آثار الشعب المصرى القديم ، إلا فيما نكبت به البلاد من أولئك البرابرة الآسيويين الذين نزلوا بمصر نقمة . ولما طهر ملوك الدولة الحديثة البلاد منهم ، أخذوا في حمل أطلال الدولة الوسطى ، ليستعينوا بها على إنشاء معابدهم . وقد اكتشف الأثريون في بقايا صرح للملك أمينوفيس الثالث بالكرنك ، حجارة معبد صغير من الحجر الجيري ، أنشأه الملك سنوسرت الأول مقاما لتمثال آمون وسفينه المقدس . واستطاع المعمارى النابغة هنرى شقريبه ، بعد جهود مضنية ، أن يعيد بناء ذلك المعبد في ساحة الكرنك . وكذلك ظهرت تحت أنقاض قرية مدامود بقايا من مبان للملك سنوسرت الثالث .

ومسلة المطرية من آثار سنوسرت الأول أو « أوسرت - سن » ، كما كان يكتب اسمه في القرن الماضي ، وهي أقدم المسلات المعروفة .

وكل هذا قليل بالنسبة لما اختفى من آثار دولة الأمينمحتيين والسنوسريتين في تانيس وهليوبوليس والفيوم وقفط وطيبة ، ولا تعوضنا إلا قليلا عن زوال معبد أمينمحت الثالث ، الذي عرفه اليونان باسم قصر اللابيرانت .

بل إن أسرة المنتوحوتيين كان من حقها على التاريخ أن يبقى معبد ملكها بالدير البحري ، لا لأن منتوحوت قد وحد الإقليمين ، وافتتح العهد الذهبي الثاني للحضارة المصرية فحسب ، بل لأن أسلوب بناء ذلك المعبد كان شيئا جديداً في العمارة ، تأثرته الملكة حتشبسوت عندما أقامت معبدها في بطن جبل طيبة ، إلى جوار معبد سلفها الكبير .

وكان هذه الدولة الوسطى محكوم على آثارها بالعفاء ! فقد حفظت الأجيال منها مجموعة قبور في سفح الجبل عند قرية بني حسن ، أمام المنيا ، وفي البرشة ومير وأسيوط ، وبالقرب من أسوان . وتفطر قلبي أسى وأنا أزور مقابر بني حسن ذات يوم في مطالع عام ١٩٥٥ ؛ فإذا هذه الروائع من فن الدولة الوسطى مهملة ، يسطو عليها ما هو أقوى من اللصوص يمحوها الزمن محوا من فوق جدران المغارات ذات العمد السابقة على الطراز الدوريكي ، والعمد ذات التيجان اللوتسية . وهي قبور أمراء الكور في الدولة الوسطى ، صورة من فن الريف المصري بعيدا عن العاصمة القديمة منف ، والعاصمة الجديدة هرقايوبوليس ؛ تصور ، كالعادة ، حياة الزرع والضرع ، ولكنها تصور أيضاً شيئا جديداً على الحياة المصرية . وهو إعداد الشباب بكل أنواع التمرينات الرياضية والعسكرية للقيام بواجب الدفاع عن الوطن . تفطر قلبي لأن تصاوير بني حسن ستختفي حتماً في بضع سنوات إن لم نتداركها . ولأن تصاوير مقابر سقارة مآلها هي أيضا إلى الزوال ، وبخاصة الواقع منها في ممرات المداخل ، ولأن تصاوير الدير البحري مآلها هي أيضا أن تمحى . ولا أعرف على من نلقى اللوم يوم يعلن في العالم محو صور بني حسن ، أو بعض صور سقارة أو الدير البحري ، كما لم أعرف إلى من وجهنا اللوم عندما انهار صرح من صروح الكرنك في أوائل عام ١٩٥٩ ، وتفركت صور مقبرة نفرتاري !

وماذا يفيد اللوم بعد أن خرج من مصر الكثير من تماثيل هذه الدولة الوسطى ،
وهى كنوز غالية تحتفظ بها متاحف العالم المشهورة . فن المسئول عن خروج رأس
للملك سنوسرت الثالث من زجاج الأبيديان الأسود ، وتمثاله فى شكل أسد رابض
من حجر الديوريت ، وتمثال الأميرة سنوى ، أميرة أسيوط ، وكان زوجها حاكماً
على النوبة من قبل سنوسرت الأول ؟

وبالمتحف المصرى مجموعة تماثيل وصور حائطية للملك الأسرة الثانية عشرة ، أرجو
أن يخرج بعضها إلى « متحف المختارات » يوماً ، حتى لا تضيع وسط المخزن العام
الذى ضاق بسكانه العظماء . فهى صور ناطقة بالتحول الذى انتقل بالمصرى من عهد
الطمأنينة والسلام والمنعة ، إلى عهد عرفوا فيه ثورات لا تبقى ولا تذر ، وذاقوا مرارة
تسرب الآسيويين البرابرة إلى وادى الحضارة .

وقاعة الحلى بالمتحف المصرى احتفظت لنا بأجمل ما أنتج صاغة الجواهر فى
الدولة الوسطى . تلك العقود والحواتم والغوايش والتيجان والصدريات الملكية لأمينمحت
الثالث وسنوسرت الثالث ، تلك النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور ، ليست
مجرد ذهب وزمرد وياقوت ولا زورد ، ليست مجرد صور للبذخ والثراء أغدقه المصريون
على موميات أميراتهم وملوكهم ، وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة ، تعنى بالجمال
فى الأثاث واللباس والصحاف والأوانى ، من أية مادة صنعت ، حتى لنعجب اليوم
بتلك العقود « الفالصو » التى يقتنىها السياح ، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز
وزجاج وقطع الميناء ، لا لشيء إلا لأنها تقلد ، وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى
العجيب .

* * *

وفى الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الأسرة العظيمة ، الذى دام أكثر
من قرنين ، أخذ يغشى مصر ظلام تاريخى وإبهام لم يكشف عنه بعد ، والغالب
أن يكون الهمج الآسيويون قد عادوا إلى التسرب فى شرق الدلتا ، أو تكون موجات
الهجرة قد تحركت من أواسط آسيا فاكتمسحت الشرق الأدنى ، ودفعت أمامها ذلك
الشعب المجهول الأصل والنسب ، فنزل بمصر ، وقضى على استقلالها وحضارتها .
هى فترة مجهولة ، لأن حكم الهكسوس فى المائة أو المائتى عام التى أناخ فيها بكلكله

على مصر ، لم يترك لنا من آثاره . . . إلا مجموعات من الجحارين !
وهذا الغزو المالحق أزاح عن عيون المصريين نهائياً غشاوة الاطمئنان داخل
الحدود ، فلم تفد بشى حصون الأسرة الثانية عشرة التى تذكرنا بمآل خط ماچينو
الفرنسى ، عندما تحول إلى مصيدة هائلة لحماته ، خرجوا منها إلى معسكرات الاعتقال
الألمانية مباشرة !

تعلم المصريون ، فى الألف الثانية قبل الميلاد ، أنه غير كاف أن تطرد الدخيل
إلى خارج بلادك ، وتقيم وراء حصون حدودك ؛ بل يجب أن تطاردهم إلى ما وراء
تلك الحدود ، حتى تطمئن إلى البلاد الواقعة وراء حدودك ، سواء باستعمارها أو
بضمها صداقتها وحيادها .

يفسر لك هذا الدولة الحديثة كلها ، أو الإمبراطورية المصرية العظمى ،
ضعفاً وقوة . فضعفها نشأ عن قوتها ؛ تعمدى على جيرانها لتؤمن حدودها ، فتضيف
إلى الخطر الذى يهدد نظامها فى الداخل ، كلما ضعفت أداة الحكم ، خطراً جديداً ،
وهو تحفز الدول المحكومة ، أو الدول التى تخضع بطريقة أو بأخرى ، وتربصها
بمصر ، وتحركها للانفصال عن الدولة المسيطرة ، بل والانقضاض عليها ، كلما
أحست بتدخل الضغط واضطراب الملك . سيحدث ذلك كلما قامت فى الشرق
الأدنى دولة جديدة ، حتى يقضى القضاء الأخير على استقلال مصر الفرعونية ،
تحت سنايك الجحافل الفارسية ، ثم تحت أقدام كتائب المقدونيين المتراسة ،
التي اقتحمت كل شىء أمامها منذ خرجت من بلادها ، بقيادة الإسكندر ،
حتى بلغت حدود الهند .

وما أكثر ما خلفت لنا الدولة الحديثة من آثار ، وآثار عظيمة ، ولكنها لا تقارن .
فى قيمتها الفنية ، ولا فى أصالتها ، بآثار الدولة الوسطى ، ومن أولى ، بآثار الأسرات
القديمة . إننى أستجمع فى خيالى كل ما تركته آثار الدولة الحديثة ، سواء ما رأيت
منها على طول الوادى ، أو ما تزدحم به قاعات المتحف المصرى ، ومتاحف العالم
الخارجى ، فأحس حياها بشىء من القلق ، لا تفسير له عندى إلا فى أن أصحاب
هذه الآثار يتكالبون على الدنيا ، ويحاولون إقناعك شخصياً بأنهم خير أمة أخرجت
للناس . وترتفع فى هذه الدولة جعجعة الملوك ، وتصطبغ دعاويهم الطويلة ،

ويسردون عليك حكايات هي إلى الفشر أقرب ، من أمثال حكاية رمسيس الثانى الذى وقف وحده أمام جيوش الحيثا كلها ، فى العام الخامس من حكمه ، إبان موقعة قادش ، وهى القصة التى تكررهما معابد الرمسيوم والأقصر وأبى سمبل ، وغيرها ، كأنها بلاغات رسمية ، ويترنم بها شاعر العهد ، المدعو بنتاؤور ، فإذا ببردية فى متحف تورينو تسرد الحكاية بتفاصيلها ، ووقفه الملك وحيداً أمام أعدائه يدعو إلهه آمون ، فيهب إلى نجدته ، ويرتد الأعداء فى هرج ومرج من عرباتهم الحربية تتحطم ، ويتساقطون غرقى فى نهر العاصى . . . ولكن هذه البردية تصف الحادث على أنه وقع للملك . . . تحوتمس الثالث ، وهو الملك الفاتح ، فى الأسيرة السابقة على أسرة الرعامسة ، ولا يبعد أن تكون أمثال هذه الحكايات أكليشيات شعرية تعارلمن يستعير .

ورمسيس الثانى ربما كان أصعب الشخصيات تحليلاً لدى المؤرخ ، ومؤرخ الفنون بالذات . لقد تولى العرش شاباً ، ومات بعد أن حكم سبعة وستين عاماً ، وحكم على إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأنشأ من المباني ما لا يكاد يدخل تحت حصر ، وبعضها من أعظم ما أبقى التاريخ عليه من آثار الأمم الماضية . ماذا دهى ذلك المتكالب على الدنيا والآخرة ، المسعور بالسوط على آثار غيره ، ومنها بعض آثار ملوك الدولة القديمة ؟

كنت أطلع ، بمحض الصدفة ، وأنا أكتب هذا الفصل ، «سفر يشوع» [يوشع] من أسفار «العهد القديم» — أتذكر قصيدة شوقى : أيا شمس يوشع خبرينا إلخ ؟ — وهو سفر من أكثر أسفار التوراة إثارة للملل والضجج ، فكله طنطنة وشنشة تشبه ما عرفته من أخازم الأسيرة التاسعة عشرة . وإذا كان رب الجيوش ، «الأدوناي» الذى وعد إسرائيل بامتلاك الأرض وما عليها ، هو الذى يأمر يوشع بأن ينفخ فى الصور فتندك حصون أريحا ، وهو الذى يستجيب ليوشع فيوقف له الشمس فى مسارها ، فإن رب الجيوش فى مصر ، المدعو آمون ، يتكفل بتحقيق الكثير مما يشبه تلك الأساطير العبرانية .

إنما الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هي أن الدولة الحديثة — بإهمال أمر الفتوة الفردية للملوكها التى تذكرنا بفزورة المشط : «قد الكف ، ويقتل مائة وألف !» — هي قمة من قنات الحضارة المصرية فى كل ما عرف عنها ، بل هي اجتماع تيارات

العصور السالفة في مجرى حضارى هائل — أفكر به دائماً كلما اقتربت من شاطئ النيل في عنفوان فيضانه — حتى ولو اتسمت أعمالها الفنية بالقلق ، كما في عهد التحوتمسيين ، أو بالمرض والعقد النفسية كما في عهد أخناتون ، أو بالعنجهية والطنطنة كما في عهد رمسيس الثانى . ولنا أن نعتز بالعاصمة المصرية في زمانها ، إذ كانت طيبة حاضرة العالم المعروف في عهد الدولة الحديثة ، كما كانت الإسكندرية في عهد البطالسة ، وكما كانت القاهرة ، كبرى العواصم الإسلامية في القرون الوسطى ، وفي العصر الحاضر .

كادت طيبة ، عاصمة آمون ، تجعل من إلهها رب العالم ، وإننا لنسمع صدى طيبة في أشعار هوميروس ، وهو يقول في الإلياذة : « طيبة حيث القصور المنيفة تنضم على الكنوز ، وأبوابها المائة يخرج من كل منها مائتا فارس مغوار مدجج بالسلاح » . طيبة أعادت مجد منف إلى مائة ضعف وأكثر ، وستصور قبورها حياة المصريين ، فإذا هي حياة متاع وبذخ ورقص ومآدب ، لم نعهد لها كثيراً في قبور الدولة القديمة ، فيريروكا ، من الأسرة السادسة ، الجالس إلى مائدته ، هو التقشف بعينه إذا قيس ذلك بالحفلات الراقصة في الدولة الحديثة ، والغوانى تتولى الوصيفات زينتهن ، وعازف الصنج الأعمى ينشد قصائده ، وفتيات يعزفن على آلات وترية ، أو ينفخن في مزامير رقيقة مثل قدودهن . وذلك إلى جانب صور الحياة الجادة للزراع والصانع والصيد كما في عهد الدولة القديمة . إنمسا الحديد حقاً هو تصوير حياة الملاحم والوقائع الحربية تتساقط فيها الرعوس ، وتتطاير الأكف ، وتلك المعازل ؛ وذلك في كل شبر على جدران المعابد وصروحها ، لا تحتله صور الأسرى الأسويين والجنوبيين ، أو تشغله لحي الأغراب وأنوفهم المعقوفة وشعرهم الأجعد . ولنتصور حياة طيبة عاصمة العالم القديم إذ ذاك ، وقد تراحمت في طرقاتها وساحاتها ومغانها ومعابدها أجناس وأخلاق من الشعوب ، تتدلى ألسنتها عجباً ، ويرتد منها البصر وهو حسير ، أمام صروح الكرنك والأقصر ، ومعبد سبتى بالقرنه ، والرمسيوم ، وقصر أمينوفيس الثالث ، ثم معبده الجنائزى ، وعلى أبوابه قام تمثالان هائلان ، عرفا فيما بعد باسم « جبارى ممنون » ، وكانت شمس الصباح وهى تدفئ صدورهما ، فيتبخر عنهما ندى الليل ، تحدث ذبذبات عجيبة ، ينبعث عنها من أحد

التمثالين صوت كالصفير أو الرنين .

ولكى تعرف ضالة ما بقى من تلك الآثار بالنسبة لما كانت عليه ، اذكر فى عودتك من مدينة هابو أن قصر أمينوفيس الثالث كان قائماً قرب معبد رمسيس الثالث ، إلى الجنوب الغربى منه ، وأن معبده الجنازى كان أمامه ، ممتدا إلى الشرق حتى تمثال أمينوفيس الثالث [جبارى ممنون] . ثم تأمل تمثالى الملك الآن ، مشوهين تشويهاً كاملاً ، وقائمين وحدهما وسط المزارع الواسعة كأنهما خيالاً مقائة أقامهما أبناء العملاق عوج بن عتق .

ويقابل صور هذه الحياة الصاخبة فى مقابر الأشراف والوجهاء ، بقرية الشيخ عبد القرنة ، عناية سكان ببيان الملوك بالحياة الآخرة ، وحرصهم على أن يقفوا بمحكمة أوزيريس وتوت وقفة البراء طاهرى الذيل . ألم يملأوا خزائن آلهتهم بخيرات الدنيا ؟ ألا تستحى عيون أولئك الأرباب وقد أطعمت أفواهها ذهباً وجواهر ، وأقيمت لها الهياكل والنصب والمعابد ، من ضفاف الفرات حتى ما فوق الشلال الرابع ؟

وكأن التمسك بالدين فى الدولة الحديثة لم يعد هو أيضاً ذلك الإحساس الصافى الصادق ، النابع من روح شعب متدين دائماً ، وكأنى به وقد أصيب بحمى الإعلان والدعاية ، والتوكيد بأن الملوك كانوا من الصلاح المتقين .

لست أنسى ذلك الصديق الكاتب المبدع محمود طاهر لاشين ، ونحن نزور المتحف المصرى ، أيام أرخى شبل إسماعيل لحيته ، وعرض على الأنظار سبحته ، وإذا بطاهر يشير إلى تمثال ملك لست أذكره الآن ، وقد تدلت من ذقنه لحية مستعارة ، ويقول : ما من جديد تحت الشمس ! ألا ترى أن هؤلاء أيضاً كانوا يضحكون بذقونهم على دقن شعبهم ؟

وتلفتنا حولنا . . . ولكن بعد أن أطلق صديقى دعابته الصادقة فردد صداها بهو المتحف الكبير ، وأتبعها بضحكاته المعهودة التى تمثل صراحة طاهر لاشين وصدقه أحسن تمثيل .

ومهما كان من أمر فتوحات تحوتمس ، وهى ضرورة قومية ، وكان الرجل يجمع إلى عبقرية السياسى قدرات رجل الحرب ، فإن طبيعته المصرية لا تميل إلى تلك

المغامرات البعيدة وراء الحدود ، إذ أنها ستأتى إلى بلاط فرعون بالأغراب من أمراء ينشأون على التقاليد المصرية ، وأميرات أجنبيات يثرن في حريم الفرعون ما المرأة أعرف به ، وستأتى بالأجناد المرتزقة من كل حوب ، يلتمسون العيش أينما كان ، وبالتجار والمغامرين يهربون إلى داخل البلاد سمومهم الخلقية . طبيعتى المصرية المحافظة تخشى ما سيحل بالشعب المصرى الأصيل عندما يختلط بالغرباء اختلاطا يتعدى المدى القديم ، وقد عاش تاريخه بمنأى عنهم ، وكأنه أقام « كردون » صحيا بينه وبينهم !

وعندى أن فن العمارة الجذاب يحمل جرثومة الانحلال من أثر هذا الاختلاط ، فقد يتوه أخناتون في بوادى فلسفته الدينية ، ويدور في أبهاء قصره يتغنى بأشعاره ، متغزلا في ربه القرص ، أو فوق درج معبده المفتوح إلى السماء . ألم يتح الفرصة لما يجيء به الغرباء من أفكار في الفن والأدب ، يدلسون بها على المصريين ، تحت ستار تمجيد الثورة وصاحبها ؟

يخيل إلى أننى تماديت حتى تورطت في الخطأ المعروف بالحكم الخزاف على هذه الدولة الحديثة . فكيف أنسى آثار سبتي الأول في أبيدوس وطيبة ، وبهو أمينوفيس الثالث بالأقصر ، وبعض آثار رمسيس الثانى في شبابه ، كيف نسيت كل ما نشاهده في ببيان الملوك والملكات ، ومقابر عبد القرنة ، ومعابد الرمسيوم وهابو والدير البحرى ، من قرائن على قوة الخلق في حياة هذا الشعب الفنان ، وتمسكه بمثله العليا في الجمال والخير ؟

ورمسيس الثانى هو اللغز الذى لا أفهمه ، وهو المسئول عن جموح رأى . فكلما قارنت بين البهو الخاص به في معبد أبيدوس — وأبيدوس عندى ، هو والأقصر ، أجمل المعابد المصرية كلها ، قديمها وحديثها — وبين البهو الخاص بأبيه سبتي الأول ، ظهر الفارق العظيم بين فن الأب وفن الابن . فن سبتي عريق رائع ، يرتفع إلى مقام فن الأسرات القديمة ، وتشغف به النفس شغفها بأجمل الآثار ؛ بينما فن رمسيس متعجل ، مكلفت ، يذكرك بما خرج في حكمه الطويل من أعمال تتميز بالضخامة والجمعجة ، وحب الدعاية والتفاخر . كيف حدث هذا بين عهدين يتلو أحدهما الآخر ؟ فمن غير المعقول أن يكون جيل الفنانين

الكبار في عهد سیتی الأول قد انقرض هكذا سريعاً ، ولا سيما أنك ترى في بعض آثار رمسيس جمالا ورقة وعمقا لا تعهدها في آثاره الأخرى : تمثاله الجاثي وهو يدفع قارباً ، وصور مقبرة زوجه نفرتاري ؛ جيل فناني سیتی لم ينقرض ، وإنما بواعث العهدين اختلفت ، كما أن تميز ملك عن آخر في حسن اختيار مهندسيه وفنانيه ، لا دخل فيه لقرب أو بعد في الزمان أو في المكان . وعندى أن سیتی الأول كانت تتغلب عليه نزعتان : النزعة الدينية العميقة ، وتتمثل في السبعة المحاريب التي أنشأها بمعبد أبيدوس لكل واحد من كبار آلهة المصريين : أوزيريس وإيزيس وهوروس وفتاح وهوروس — هاراختي ، ومحراب الملك المؤله ، ويتوسطها محراب آمون . وبها أجمل الصور بالحفر البارز في تاريخ الفن المصري كله . النزعة الثانية عند سیتی لإحساسه التاريخي بالماضي — في مقابل اهتمام ابنه السوقي باسمه ، ومستقبل اسمه فيما يجيء من الزمان — وهو الإحساس الذي أطالع أثره في القوائم الملكية التي أمر بنقشها على جدران « قاعة الأجداد » ، وقد صور فيها نفسه يحمل مبخرة ، وأمامه ولي عهده ، بشوشة الغلمان المصفورة ، يتلو من لفافة بردى ، وهما يمجدان ستة وسبعين ملكاً نقشت أسماؤهم على الجدران ، من أول مؤسسي الأسرات حتى سیتی ، الأمر بأن تكتب هذه الكلمات فوق القوائم الملكية :

« فروض الصلاة على أرواح الذاهبين ، يؤديها الملك سیتی ، ويقدم لأرواحهم القرايين : ألف رغيف ، وألف دن من البجعة ، وألف رأس من الماشية ، وألف كيلة أذرة ، وألف وزنة من البخور . . . فليضاعفها فتاح — سوكر — أوزيريس ، رب القبر الذي يسكن ، في معبد سیتی . »

ولم يأخذ الصبي ذو الضفيرة عن أبيه هذا الدرس الأخلاقي ، بل راح يعتدى على آثار الأجداد يدعيها لنفسه ، تغلب عليه نزعة التفاخر ، ويتملكه جنون العظمة . اندفع يذرع أرجاء الإمبراطورية طولا وعرضاً ، كمن به من ، يستحث المهندسين والبنائين ، كمن يتعجل تخليد ذكراه ، فإذا به يحكم سبعة وستين عاما ! لم يكن يعنى كثيراً باختيار مهندسيه وفنانيه ، وهو شبيه في ذلك بجميع الملوك والحكام الذين حذقوا فن الإعلان ، فما أسهل أن يدخل عليهم الفنانون السوقيون بالحنجل والمنجل ، فيزيحوا الفنانين الأصالي الصادقين ، كما يطرد النقد الرديء ، النقد

الجيد . ولعل رمسيس ، لتعجله ولهفته ، حشد الجميع حشداً دون تمييز فخرجت في عهده أعمال تتفاوت تفاوتاً كبيراً في تعبيرها الفني ، ويغلب عليها التعاضم والتضخم ، والضرب في العالى . وهذه جمالها ، وجلالها دون شك ، فإن بهو الأعمدة الكبير في الكرنك يأخذ عليك أنفاسك . وصدق شامبوليون وهو يقول عنه : « هؤلاء الناس كانوا يبنون لعمالة طولهم مائة قدم ! »

* * *

أما العهد المتأخر فقد كان موضع إشفاق المؤرخين والأثريين إلى عهد قريب ، حتى جاء رجال أكثر إحساساً بالفن ، وأقل تأثراً بوقائع التاريخ ، فأدركوا أن هذا العهد مرّ بحقبات فنية هامة ، تقف إلى جانب الأحقاب السالفة رأساً برأس . ومرد ذلك تياران : الأول تيار التطور ، ولم يكن تطوراً قاصراً . فقد اعتنى فيه بإجادة تمثيل الجسم الإنساني . أما التيار الثاني فهو التزام الفنان للقوالب والطرز المعهودة . ونشأ عن التيارين أسلوب فيه من الحيوية ما حدا باليونانيين إلى التأمل والدرس ، فاستطاعوا أن يتطوروا بفن المثال عندهم ، ويحققوا ما بدا لنقاد الفن كأنه « المعجزة الإغريقية » . عنى الفنان المصرى في العهد المتأخر بشيآت القمائن الرقيقة فوق الجسم العارى ، مما يحول كساءه عرياً ، نتيجة تأثر الفنان المصرى باللمسة الحسية ، سابقاً في ذلك زميله الإغريقى .

وفى متحف القاهرة تمثال من الصوان لكاهن من كهنة آمون فى العهد الإثيوبى ، ارتقى إلى منصب حاكم الإقليم ومحافظ طيبة . وبمتحف برلين تمثال صغير للكاهن فتاح - أمينوفيس جالساً القرفصاء ، وضاماً ذراعيه فوق ركبتيه ، ورأس تمثال يعرف بـ « الرأس الأخضر » من أواخر ما أنتج الفن المصرى . وبمتحف اللوفر رأس كاهن من الصوان فيه ثورة واضحة على فن النحت القديم ، توحى بالتساؤل عن مدى تأثر الفن المصرى بالفن الإغريقى ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نتساءل إلى أى حد تأثر فن المثال الرومانى فى آخر عهد الجمهورية بهذا الفن المصرى المتأخر ، النابض بالتعبير النفسانى .

وفى الوقت الذى كان فيه الإسكندر يستولى على مصر ، كان كاهن مصرى اسمه بتوزيريس يأمر بأن تنقش على مقبرته هذه الحكمة : « سعادة المرء فى مراعاة

العدالة . . . وإذا كنت قد بلغت إلى هنا ، حيث الحياة الباقية ، فبفضل ما قدمت يداى من خير على الأرض ، ولأن قلبي سلك طريق الهداية إليه تعالى . . . عملت هذه الصالحات حتى أبلغ ربي بعد موتى ، ولأننى لم أفتر عن ذكر أسياى العدالة ، فياصل الخير والشر . سعيد من أحب الرب ، وسيبلغ مثواه الأخير مبراً من كل ذنب . » ومقبرة هذا الكاهن ، القائمة فى منطقة تونة الجبل ، من الفن المصرى المتأخر ، وليست من الفن المتدهور . أعجب ما فيها صورها الحائطية : صميمة فى مصريتها عندما تصور الطقوس الدينية ، فالفنان يلتزم هنا الفن الكلاسيكى التزاماً ، ولكنك تحس فى التصوير بيقظة وحركة لا يفسرها إلا الصف الأخير من تلك الصور ، حيث ترى واضحاً جلياً تأثر الفنان المصرى بالفن الإغريقى .

والتأثر غير التهجين الذى نراه فى مقبرة كوم الشقافة ، وهى من آثار القرن الثانى بعد الميلاد ؛ تهجن الفن المصرى بالفن الغريقورىمانى ، فكان كالغراب الذى حاول أن يقلد الطاووس ففقد شخصيته الغرابية ، فلا هو ينظر كالطاووس ولا هو ينظر كالغراب .

مقبرة بتوزيريس هى الفن المصرى يتأثر فيتحرر ، لا يتحول .

* * *

ثلاثون قرناً من الفن المصرى تحيا برغم الاضطرابات والثورات والغزواهكسوسى والرزة الفارسى والحكم المقدونى والرومانى . أليست هذه هى الأعجوبة الحققة فى تاريخ الفنون الإنسانية كلها ؟

وإن احتفاظ المصرين بتقاليد مجتمعتهم وحكومتهم ، وأهم من ذلك : تمسكهم بعقائدهم ، هو الذى يفسر لنا ذلك الاستمرار ، بل تلك العودة إلى التفتح والازدهار ، لا فى العهد الصاوى وحده ، فى الأسرة السادسة والعشرين — وهو عهد معروف بالحرص على إنتاج الأعمال الممتازة ، واستيحاء فن الدولة القديمة — بل حتى الأسرة الثلاثين آخر الأسرات المصرية . فلا يمكن أن يعيش الفن طوال ثلاثة آلاف عام إلا إذا كانت نظرة المصرى تتجه دائماً إلى ماضيه ، يتمثل بتاريخ أجداده وأسلافه ، ويرى فى أعمالهم ، وأعمال الأسر الأولى بخاصة ، أن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . وحب المصرين لماضيهم ذلك الحب ، وتمسكهم به حتى آخر رمق من

حياة حضارتهم ، هو في الحق عجيبة الأعاجيب . فإلى ما حفظته لنا الآثار من قوائم الملوك وسلسلة الأسرات ، نجد قوائم ، أو شجرات نسب ، لآحاد من الناس ، مثل ذلك المهندس المعماري الذي نقش على صخور بوادي الحمامات شجرة نسبه ، من عهد رمسيس الثاني حتى أيام حكم داريوس الفارسي . وفي متحف برلين صور من الحفر البارز لستين تمثالا لأسرة خرج من بين أفرادها عشرون كاهناً من رؤساء كهنة فتاح ، وذكرت مع أسماء ستة وعشرين من أعضائها أسماء الفراعنة الذين عمل هؤلاء الأشخاص إبان حكمهم . فهذه وثيقة تبدأ في الأسرة الحادية عشرة ، وتختتم في حكم الأسرة التالية . ووجدت لوحة بمقبرة المدعو « توفروي » ، المعاصر لرمسيس الثاني ، وتبدأ باسم « آجب » وهو من يظن أنه منشئ مدينة منف . وفي مقبرة أوخ - حوتب ، بقرية مير ، جدار نقش عليه قائمة أجداد صاحب المقبرة ، وكانوا يتولون وظيفة حاكم كورة القوصية ، من الأسرة الخامسة حتى الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان أوخ - حوتب نفسه معاصراً للملك سنوسرت الأول : أي أنها شجرة نسب تسجل تسعة وخمسين جيلاً .

إن مجرد التفكير بالارتقاء في شجرة الأسرة كل تلك الآلاف من السنين ظاهرة بسيكولوجية تؤيد ما نحن بسبيله . وإذا تأملنا الحضارات العظيمة في التاريخ ، استوقفنا دائماً علامتها المميزة : الاستمساك بالأجداد وما صنعه الأجداد . استمع ما يقوله ، في مقدمة تاريخه ، شيخ من شيوخ التاريخ ، وأب من آبائه العظام : تيتوس ليفيوس ، مؤرخ روما الأكبر :

« موضوعي فسيح الرحاب انفساحاً هائلاً ، فهو يرقى إلى سبعمائة عام . بدأ بدايات متواضعة ، ثم أخذ يتسع على ، حتى لأخشى أن أضيع في رحابه ؛ هذا إلى أن الكثيرين من قرائي لن تهمهم في قليل أو كثير أصول روما ، ولا مطالع دورها في التاريخ ؛ وسيتعجلون تحدثي إليهم بتاريخهم المعاصر ، حيث نشهد بأعيننا كيف يسير قومنا إلى العفاء ، وهم يقضون بأنفسهم على مصادر ثروتهم . أما أنا ، فخير ثواب لي أن أريح بصرى ، طوال الوقت الذي أصرفه مسدداً غرضي نحو استحضار الماضي البعيد ، وأن أريح بصيرتي مما حل بأهل هذا الجيل من شقاء وهوان . »

يبقى بعد كل هذا السؤال المعلق ، والذي سيظل معلقاً زمنياً طويلاً : هل تعتبر مصر أم الحضارة الحديثة ؟

وسأجيب عليه بسؤال آخر : هل فهمنا الحضارة المصرية على وجهها الصحيح؟ إننى واحد من عامة قراء التاريخ أحس بضعف العلماء المفسرين لديانة مصر القديمة ؛ وما لم نوقن من فهمنا الصحيح لهذه الديانة ، ستظل روح الحضارة المصرية تحاورنا وتداورنا . وشعورى بضعف تفسير العلماء لديانة أجدادى مرجعة التعقيد الذى أصابوها به ، وهو تعقيد لا أحس بوجوده فى طبائعنا نحن المصريين . اعتنقنا الإسلام فى بساطة وسماحة ، لأن الإسلام عقيدة بسيطة سمحاء ؛ وعندما تقبل أجدادنا المسيحية ، حولوا أوزيريس إلى السيد المسيح فى يسر ، وإيزيس إلى سيدتنا مريم ، ورفضوا تعقيدات اللاهوتين القائلين بطبيعة ناسوتية وطبيعة إلهية لابن مريم ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة ، الإلهية ، كما نتمسك نحن المسلمين ، فى الناحية الأخرى ، بطبيعته الواحدة ، البشرية ، وبأن خالقه هو الله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

كنا فى تاريخنا القديم — وما برحنا فى ظنى — رجالاً عمليين . وإذا كان أسلافنا قد آمنوا بالتعاويد والتأتم والسحر ، فلأنهم وقفوا عاجزين عن تفسير ما وراء حسهم ، ولم يندفعوا فى تلك المغامرات الفلسفية التى عرفتها شعوب أخرى ، كالإغريق والهندوس .

ويعجب أطباء اليوم من طب المصريين القدماء ، إذ جمع بين الملاحظة الدقيقة والممارسة العميقة والمهارة العملية ، وبين الاعتماد على السحر والتأتم والتعاويد ، وهى تؤلف شطرا لا ينفصل عن الشطر العملى فى المؤلفات الطبية . فإلى جانب وصفاته من الأملاح والأشربة والعجينات والمراهم ، قوائم من الأحجية وما إليها من وصفات « الطب الروحاني » . ولكن اللورد دوسون ، فى فصله الموجز الوافى عن طب المصريين فى كتاب « تراث الحضارة المصرية » ، فهم مأزقهم أحسن الفهم حين قال : « وقد يحىء ، فى يوم واحد ، إلى طبيب فى منف أو طيبة ، شقيقان : أحدهما يشكو جرحاً قطعياً من ضربة خنجر فى صدره ، والآخر يلتمس العلاج لطفح منتشر فوق صدره . علة الأخ الأول واضحة ، أما الثانى فأمره سر مستغلق ، وبذلك يختلف علاج

الاثنين . ونفهم حينئذ كيف يسير العلاج الطبى والعلاج الروحانى - أو السحرى - جنباً إلى جنب . وكان دوسون قبل ذلك قد أتى على ذكر الأمراض غير الواضحة العلة ، ونسبها إلى سيطرة أرواح شريرة على الجسد ، ومحاولة المصرى القديم التغلب عليها ومطاردتها . « ونفهم إذن أن يبقى لنا من ذلك العصر بردية إدوين سميث ، وبردية جورج إبيرز ، على ما بينهما من اختلاف فى وسائل العلاج » . وهنا لا أرى خيراً من أن أحيل القارئ على فصل ممتع لمحمد كامل حسين ، فى كتابه « منوعات » ، يشرح فيه ممارسة الجراح المصرى لفنه ، تبعاً لنص بردية إدوين سميث ، ممارسة تكاد تكون من خصائص عصرنا الحديث . أما بردية إبيرز فهى الطب الروحانى يمارسه الطبيب القديم كلما تعثر حيال فهم أسباب المرض الخفية . ولقد بلغ من حرص المصرى على « طرق كل وسائل العلاج » ، أن لا يتخلى عن تعاويذه وتماثمه ، إلى جانب ما يصفه من علاج مادى ، ويقول دوسون فى هذا : « ومع ذلك فإن بردية إدوين سميث الجراحية ذاتها ، تحتوى على رقى وتعاويذ سحرية ، نسخها الناسخ على ظهر البردية ، فيما يشبه ما يملأ صفحات وصفحات من البرديات الطبية الأخرى » وكأنه طالب طب فى إحدى جامعاتنا الحديثة ، يضيف إلى المذكرات التى يدونها فى كليته ، فصولاً مختارة من طب الركة ، وكتاب أبى معشر !

الروحانية المصرية لم تكن من النوع الهندوكى المستغلق ، التائه فى بوادى الأسرار الفلسفية ، إنما هى روحانية الواقف بباب المجهول يحاول اقتحامه ، أو تفسيره ، عن طريق تصورات مادية . ولا نعرف شعباً صور كل شىء ، عرفه أو تخيله ، بالقدر الذى بلغه آباؤنا الألى . وكان المصرى منطقياً مع طبيعته ، وحسب منطق خاص به ، لا حسب المنطق الذى أورثنا إياه اليونان والعرب من بعدهم .

لذلك أرجح أن ديانة المصريين كانت أبسط بكثير مما يحاول أن يفسرها به العلماء المحدثون . وعندما أراد ذلك المؤرخ العظيم بلوتارك أن يفهم ناحية من نواحي تلك الديانة ، لم يجد صعوبة فى أن يصور لنا قصة « إيزيس وأوزيريس » ذلك التصوير اليونانى البلورى الشفاف ، على الأقل فى الفصول الأولى من كتابه . أما هيرودوتس فكان مثال المخبر الصحفي الكبير ، بعيوبه وفضائله ، يعنى بظواهر الأمور ، لا يحاول النفاذ إلى أعماق مما يراه ؛ جل همه أن يثير انتباه القارئ لكل عجيبة ، حتى ولو لم تكن

كذلك ! ولقد ذهب في هذا إلى حد أن يرى في المصريين عكس ما رآه في الشعوب الأخرى كافة . ولما كان المصريون قد وجدوا في جو يخالف الأجواء الأخرى ، ويعيشون على ضفاف نهر تخالف طبيعته طبائع الأنهار الأخرى - كأن يجري من الجنوب إلى الشمال ، وكأن يفيض في الصيف لا في الربيع - فإن طبائع المصريين وتقاليدهم وقوانينهم يجب أن تخالف طبائع الشعوب الأخرى وقوانينها ! . . ثم يذكر رحالة هاليكارناس تفاهات وترهات انساق إليها ليثبت ما ذكره في أول الكلام ، كأن يقول بأن المصريين يسعين إلى الأسواق بينما الرجال قعيدو البيوت ، يغلزون وينسجون ؛ وأن الرجال يحملون الأثقال على رؤوسهم ، بينما النساء يحملنها على أكتافهن ؛ ورجال الدين في البلاد الأخرى يرسلون شعورهم ، أما الكهنة المصريون فيحلقون شعر رؤوسهم زلطة ! أمثال هذه « اللفات » من هيرودوتس يمكن أن تفسر لك مقدار عجز الرجل عن فهم حقائق ذلك الشعب الذي شاخ وهرم ، سياسة حكم ، واجتماعاً ، وديانة ، وفناً .

ولعل كورت لانجه لم يخطئ كثيراً عندما ادعى أن مصر ، في واقع تاريخها القديم ، لم تخرج عن العصر الحجري حتى آخر أيامها . ويذكرني هذا بمن يزعم أن مصر المعاصرة لم تخرج بعد عن عصرها الوسيط ، لأن الجبل المتأصلة في قرارة هذا الشعب ، هي شدة تمسكه بالماضي ، وحرصه عليه ، برغم كل مظاهر التحول والتطور التي تلوح على سطح حياته .

يقول كورت لانجه بأن من خصائص ذلك العصر الحجري : اتصال الإنسان المصري روحياً بالحيوان ، إلى درجة أثارت إعجاب الإغريق وعجبهم ، واستنكار الرومان . وقد دعى أكتافيانوس قيصر ذات مرة في مصر إلى الاشتراك في عبادة العجل أبيس فقال ، من طرف أنفه : « لقد درجت على عبادة الآلهة لا الثيران ! » . من خصائص العصر الحجري قوة ملاحظة الطبيعة ، والاعتماد على الخبرة العملية ، دون الاندفاع في المغامرات الفلسفية ؛ ومن خصائص العصر الحجري تمسك المصريين بالسحر .

وسواء أكان ما يقوله لانجه صواباً ، أو مجرد رجم بالغيب ، فإن الخصائص التي يشير إليها حقائق لا شبهة فيها ، وقد برزت عيوب تلك الخصائص في العصر

المتأخر ، عندما أغرق المصريون في عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد ممن عاشوا في أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويبصره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أخفى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بنخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التي ارتضاها ، سواء قد من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الجدول الصغير قد يطمسه الطمي ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه . »

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التي عرفناها في عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا في صورة جامدة متصلبة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول ، تفضل أن تموت في جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الحمود في ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتمسك مصر بعقيدتها الحديدية حفاظاً لقوميته ، ولو تابعت الحركة الفكرية التي شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تسير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى في مسيحيتها ، أن تهج نهجها الخاص في عقيدتها ، خوفاً على قوميته أن تذوب في القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحي نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهبة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والحمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام ، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براءة خاصة في الفلسفة ولكنها — كما كان شأنها من قديم — حذقت فنون العمارة والزخرف ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وعينت بالدراسات الدينية

عناية كبرى ، وبالعلوم العربية كوسيلة فعالة ، لا ثانی لها ، لفهم الدین فهماً صحیحاً . وبذلك كانت مصر منارة للعلوم الإسلامية على طول تاریخها ؛ وبالرغم من تدهورها الاقتصادی والفکری تحت الحكم العثماني ، تمكنت من الاحتفاظ بمركز الصدارة الروحية للعالم الإسلامي إلى اليوم .

خير ما تقدمه مصر القديمة ليس شيئاً ملموساً محسوساً ، إنما كانت مصر أمثلة رائعة أمام كل من يعنى بأقدار الإنسانية . فذلك شعب حقق حياته في صميم داخلية ، مليئاً نوازع نفسه ، وظل متمسكاً بحضارته ، متعالياً في إباء ، لا يتكلم كثيراً ، وإنما يدعو ، في رزاة ، الوافدين عليه ، ليروا بأنفسهم آثار حضارته ، ويقول لفلاسفة اليونان في شمم : ما أنتم سوى أطفال بالنسبة لنا . ولا شك بأن موسى وصولون وطاليس وأفلاطون ، تأثروا بكل ما رأوه وعركوه في الحضارة المصرية . لم يرددوا إلى أوطانهم ليقلدوا شيئاً عز على التقليد ، وإنما آبوا إليها ، وقد عرفوا المدى الذي يبلغه الإنسان بكفاحه العقلي والمادی .

لعل هذا هو ما يراه الرجل الحكيم في العصور الحديثة ، ولعله يفسر إعجاب أولى الألباب في العالم كله بهذه الحضارة المصرية .

خاتمة

لا يعنينى كثيراً إن كانت مصر أثرت على حضارة أوربا ، أو أن أوربا هي بنت التوراة ويونان وروما والإنجيل فحسب . كما لا يجدى الادعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم ، فهي غير باقية ، وانتهى الأمر . إنما الذى يعنينى ، ويجب أن نهتم به كل الاهتمام ، هو أن نعيد تلك الحضارة إلى الحياة فى نفوسنا ، وذلك بأن نحاول فهمها ، وأن ندرس حكمتها وعلمها وفنها ، إلى جانب دراساتنا للحضارة العربية ، والحضارة الأوروبية ، حكمتها وعلمها وفنها . وليس معنى هذا الفهم وتلك الدراسة أن نعود إلى أساليب الفن القديم ، فتلك أفكار سطحية مشوشة ، ودعوة تنقصها أقل خبرة بالحياة الفكرية .

إنما الشعب الحى يجب أن يعيش دائماً على اتصال وجدانى بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء ؛ التاريخ مثل حية تضرب للناس ؛ فإذا كنا اليوم نعى بتاريخ الحضارات التى انتهت إلى العالم الحديث ، فلا أقل من أن نجعل من حضارتنا المصرية نموذجاً ، لا للاحتذاء ، وإنما للإلهام . والتاريخ رياضة فكرية عجيبة ، كما أن التاريخ القومى لأهله عصب أخلاقى ، يحرك فينا نشاطاً جديداً ، ونتعلم منه الشئ الكثير دون وعى . ولا أقصد أن يدرس تاريخنا على طريقة « تلك آثارنا » ، أو « نحن أول من . . . » ، أى لمجرد التفاخر والخطرة ، بل يدرس ونصب عين القائم على تدريسه السهر على بقاء خمسة آلاف عام من تاريخنا حية فى نفوسنا ، ماثلة لخيالنا . وبرامج تدريس التاريخ يجب أن تصاغ صياغة جديدة ، بحيث يتابع التلميذ دراستها أطول مدة ممكنة ، وتشرح له فى أطوارها كلها ، مبسطة سهلة فى المرحلة الأولى ، ثم يعود إليها فى المراحل التالية بشئ من التفصيل . ولا داعى لحشد ذاكرة التلاميذ فى المرحلة الأولى بأسماء ملوك لم يبق منهم غير اسمهم فى الأغلب ، ولا بأرقام سنوات يعترف المؤرخون أنهم يخطئون فى بعضها بالمائة وبالحسمائة سنة . ولماذا نضطر التلميذ إلى معرفة الثلاثين أسرة فرعونية ؟ أما يكفى لفهم الحضارة المصرية أن يعرف عصر بناء الأهرام والمصاطب : ثلاث أسرآت ؛

وأسرة أمينمحت ، والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ؟ ست أسرات في أول الأمر ؛ ثم تملأ بعض الخانات : أسرة أو اثنتين من العهد المتأخر ؛ ويمكن أن نعتبر سريعاً العهد البطليموسى والرومانى ، كى نغنى عناية خاصة بدراسة العهد المسيحى في مصر . وبعد الفتح العربى تتجه الدراسة اتجاهاً توسعياً ، لما لتاريخ مصر الإسلامية من صلة بحياتنا الحاضرة ، وبمركزنا في العالم العربى . ويراعى في تدريس كل تلك العهود أن يشاهد الطالب أمثلة من الفن المصرى كله ، من الدولة القديمة ، حتى الفن العثمانى ؛ وأن يطالع نماذج ومختارات من الأدب المصرى ، مترجماً من النصوص القديمة ، ومن اللغة القبطية . يجب أن توضع بين أيدي الطالب ترجمات عربية جزلة الأسلوب لذلك الأدب القديم ، في تصرف يخلصها مما يعتور النصوص من غموض أو نقص ، أو خروج على العرف العام .

أما اللغة العربية فهي دعامة صرحنا الثقافى كله ، وتعمقنا دراستها ، نحواً وصرفاً وأساليب ، يزيد من اطمئناننا إلى صدق حياتنا ، ورسوخ قواعدها . ولست ممن يطالبون بتدريس اللغة المصرية القديمة ، ولا اللغة القبطية ، إلا لمن يتخصصون في حقباتها التاريخية . وإذا كان الأدب العربى المصرى في بعض العصور يقصر عن البلاغة الكلاسيكية ، فليس معنى هذا النكوص عن دراسته ، ولا سيما أن أدبنا المصرى المعاصر تطور على أساس من كل عصور العربية في مصر ، وخارج مصر ، ومن المؤثرات الغربية .

وعنايتنا القويمة بالحضارة العربية لا تعفيينا من أن نحى في نفوسنا تاريخ حضارتنا السالفة ، في قالب عربى بليغ . إذ يجب أن يتكون المصرى عقلاً وشعوراً مما يوحى به تاريخه الحضارى كله ، فيتمثل حضارته جميعها في إطار من لغته العربية . يجب أن يدعم قوامه الفكرى والخلقى بكل ما هو مصرى ، حتى تكون له شخصية مصرية واضحة ، تعمل في الآداب والفنون والعلوم . ثم ليصور الرسام ، وينحت الحفار ، ويؤلف الموسيقى ، ويكتب الكاتب ، في كل ما يوحى به إليه عصره وبيئته وثقافته وجدانه . وليتأثر ما شاء له التأثير بمدرسة هنا ، ومدرسة هناك ، دون خوف ولا وجل . فإن وجدانه المصرى سوف يطبع تأليفه وتصاويره وتمثيله وموسيقاه بالروح المصرى المتأصل .

ولقد مسكنا أخيراً جداً بنحيط من خيوط « أريان » يهديننا إلى مصريتنا ، ألا وهو التراث الشعبي . ولكنه واحد من خيوط الهدى ، أسهلها رؤية وأبسطها وجوداً . إنما التاريخ الحضارى كله — وما الفلكلور إلا قطعة منه — فهمه ، وتمثيله ، هو مستودع خيوط « أريان » الأخرى ، الأصعب منالاً . وبمجموع هذه الخيوط ، يهتدى المصرى إلى أركان شخصيته وأغوارها ، فيتمكن من أن يقدم للإنسانية شيئاً جديداً ، وجديراً بالبلاد التى وهبت العالم مثلاً فى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفنون وفى العلوم ، ما تزال مصدر وحى ودرس وإعجاب لا حد له فى سائر العالم المتمدن .

* * *

أردت لهذا الكتاب أن يكون ملحة للشعب المصرى ، فإذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الأزمان ، وإذا بى ، وأنا أؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، وأشير إلى ما أداه من خدمات للحضارة ، أتوكأ على آلامه وهزائمه ..

أترى فى هذا معنى من المعانى المتأصلة فى النفس المصرية ، وهل كنت معبراً عن ذلك الروح الحزين ، روح المصرى يضحك بملء فيه وحنجرته ، ثم يقول فجأة « اللهم اجعله خير » ؟ لا أدرى ، وإنما أعرف أننى أعيش مثل مواطنى ، نظراً يحدق فى الماضى المجيد ، يستوحيه أملاً فى المستقبل ؛ وموقن بأن ما أبقى على المصرى خمسة أو ستة آلاف سنة من تاريخه المهول ، هو إيمانه بشمسه ونيله وأرضه السمراء ، وقوة الخير التى تدبر أموره من علٍ ، فهو مؤمن بأن المدبر الأعلى لا ينسى كنانته ، وأن من أرادها بسوء قصمه الله ، وأن بعد العسر يسراً . وهو يحب أن يردد « رب تم بالخير » . وإن أعرق الكلمات التى سمعتها تردد على لسان الناس فى أحياء القاهرة القديمة هى كلمة « الفرج » ؛ فالمصرى ، مهما نزلت به النوازل ، يأمل فى الفرج بعد الشدة . ولست متأكداً إن كنت هنا قد نفذت إلى سر قوة هذا الشعب العجيب ، أتكون حقاً فى إيمانه بكلمة « تفرج » ؟ أهى فى أنه لم ييأس يوماً واحداً فى ستة آلاف عام ، من رحمة مفرج الكروب ؟

هأنذا وقد بلغت ذروة المجد فى عصر الحدود الأوائل ، أختم كتابى بكلام لهم ، فيه

صورة من نفسياتهم ، ومن نفسيتنا نحن أحفاد الأحفاد . فقد عرفوا الشدة والآلام والاضطراب والحرب ، على الأقل في فترتين من تاريخهم الوضاء : الفترة الأولى بعد نهاية الأسرة السادسة ، وهي فترة طويلة ، في حياة أربع أو خمس أسر ، يخرجون منها منتصرين على أنفسهم ، في عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ والفترة الثانية عندما تقع مصر بين براثن شعب لا يرحم ، وهم الهكسوس ، أى ملوك الرعاة ، في ترجمة مانيتون ، والملوك اللصوص في ترجمة أخرى ، والغرباء حسب آخر النظريات في ترجمة الاسم . وسيدوق المصريون صاب الذل بعد ذلك أحقاباً فوق أحقاب ، بعد أن فتحوا بلادهم للغرباء ، فطمع هؤلاء في أرض الجود والعطاء ، وفي الموقع المتحكم المسيطر وسط العالم القديم . بين ثلاث قارات . سيخضعهم ، بعد الهكسوس ، الآشوريون واللوبيون والإثيوبيون والفرس والمقدونيون والرومان وعرب تدمر في ملك زنوبيا ، والروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة على الشرق الأدنى من أجناس الترك ، سيحكمهم العثمانيون والفرنسيين والأرنؤد والبريطانيون . أى أن مصر ذقت حكم الأجنبي على كل لون تراه فوق خريطة أوربا وآسيا ، لم ينقصها إلا حكم الهنود والصينيين واليابان ، حتى يمكن القول بأن مصر ليست بأقدم الأمم حضارة وأعرقها فحسب ، بل قد تكون الوحيدة من بلاد الله عانت خلق الله جميعاً .

أقول هذا دون تخرج ولا نخجل ، لأن بلادى خرجت من مخناتها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء ، مقبلة دائماً على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شيء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان .

* * *

آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة في الزمان ، إلى ركنى من هذه الأرض ، وزمانى من تاريخها ، فهل أقول بلغة الجذات : توتة توتة ، فرغت الحدوتة ، وادبنى كنت عندهم وجيت ، وإن ما كانشى طاقيتى مخروقة ، بلجت لكم معايا فتنة ومسلوقة ؟

ولكن الجدة كانت تعود من عندهم في عالم القصص والأساطير ، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسست بوجيبه كما أحس به في دمه ولحمه ساكن نحن

وبوطو ومنف وطيبة وتانيس والإسكندرية ومصر والقاهرة .

أنا الذى بدأت رحلتى بالسرى فى ظلام العبودية ، وانتهيت من رحلتى إلى ضياء العصور القديمة ، ونفسى تشرق بنور الأمل فى العصر الحديث . حاشا وكلا ، أن أعود من رحلتى خاوى الوفاض !

ولنما حملت لكم ، ممن كنت عندهم ، حديث رجلين عاشا منذ أربعة آلاف عام ، يندبان عصر الاضطرابات فى الفترة المتوسطة الأولى ، التى كانت تعرف بعصر الإقطاع . وهما مثلك أيها المصرى ، لا تنكس أعلامهما النكبات ، بل يحدوهما الأمل الواسع العريض . لأنك يجب أن تعرف نفسك على حقيقتك ، أنت المصرى البجوح الطرير ، السارح فى بوادى الخيال ، المغرم بأغاني الحب وألحان الصبابة . أنت أيضاً ، مثل الكاتب الذى عاش منذ أربعة آلاف سنة ، ومثل هذا الضعيف الذى يضع كتابه وديعة بين يديك : فى طبعك سوداوية وحزن كظيم ، تقول فى عز أفراحك « اللهم اجعله خير » . وكما أنك لا تنسى البأساء فى السراء ، فإنك لا تفقد الأمل مهما عز الأمل ، وتؤكد بأنها ، فى ليلة اليأس الليلاء : تفرج !

أصنع إلى ما يقوله جد من جدودك الأولين ، المدعو إيو - وير :
« اسمع يا قلبي ، واندب حظ البلاد التى فيها نشأت . . . فقد خربت ، ولا حياة لمن تنادى . ابك يا قلب وحدك ، فليس ثمة من يواسيك . انظر يا قلبي الشمس وقد غيبتها الغياهب ، فلا هى مشرقة ولا هى غاربة ، انظر إلى نيل مصر وقد غاض ماؤه ، تخوضه بأقدامك إن شئت ، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسفينتك ، فستجد مجراه شطئانا ، وضافه ماء جاريا .

« كل طيب ولى ، والبلاد حليفة الشقاء ، تن تحت أقدام الغرباء ، اقتحموا علينا ديارنا ، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان ، وقد وقع وقوع الفأس فى الرأس .
« فالابن عدو لأبيه ، والأخ يضرب أخاه ابن أمه ، ويدير له وجهه وهو يذبح . كل طيب ولى ، والبلاد تموت ، والأرض تنزع من يد صاحبها ، ويغتصبها الغرباء . تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل ، لأن أعداء البلاد أفقرُوا صناعتها ، والحاصد لا يملك ما حصده ، تأمل من لم يحرق الأرض ، ويملاً بالغلال أهراءه ، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجة ، والغريب يملأ كرشه .

« انظر الماشية السائمة ، لا راعى يرعاها ، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا ، وأصابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادى ، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولاب صانع الفخار . فاللصوص صعدوا الحدود واستطالوا ، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا . ومن لم يكن يملك زوج ثيران ، يحتكم اليوم على قطيع منها . لم يبق من العدالة غير اسمها ، وباسمها تقترف المظالم . سكن هرج الأفراح ، وعلا صوت العويل والنواح ، والصغير يقول قبل الكبير : ليتنى كنت تراباً ، ويكاد الطفل يندب مجيئه إلى هذا العالم .

« أليست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح ، من لا يعرف قلبه الموحدة ، الذى إذا قلت مواشيه ، قضى يومه يجمع شملها ، ويروى ظمأها ، ويداوى عللها . ألا متى يجيء فيجتث الشر من أصله ، ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت ؟ أين هو اليوم ، هل راح فى غيبوبة النوم ؟ »

وإذا بعم من أعمامك الأولين ، المدعو نقر - وهو ، يحجبه :

« كلا ، لم تأخذه سنة ولا نوم . سيأتى من الجنوب ، اسمه آمينى (أمينمحت) ؟ أبوه من الصعيد ، وأمه من النوبة . وسيضع على رأسه التاج الأبيض ، ثم يضع على رأسه التاج الأحمر ، ليوحد الإقليمين ، وينشر السلام فى ربوع الوجهين . سيفرح به أهل زمانه ، وسيخلد اسمه فى العالمين .

« أما الذين دبروا الشر ، ونشروا الفساد ، فسيفض فوهم من خشيته ، ويسقط الأسويون تحت ضربات حسامه ، ويكتوى الليبيون بنار انتقامه ، ويصيخ الثائرون لحكمته ، أو سطوته ، ويطأطئون رءوسهم لرأس الصل الذى يطل من جبهته .

« وعندما تطارد " معات " الظلم من سطح الأرض ، سيعود الحق إلى نصابه ، والعدالة سيرتها الأولى .

« فليفرح قلب كل من قدر له أن يشهد ذلك الزمان . »

مجممل تاريخ مصر

فلنرجع هنا أيضاً الفضل لدويه ، دون أن نحملهم تبعه ؛ اقتبست هذه الجلاصة عن نبذة للأستاذ جورج شتايندورف ، بتصرف شخصى ، وإجمال . وقد وردت هذه النبذة فى مقدمات دليل « كارل بديكر » ، النص الإنجليزى ، طبع لايبزج سنة ١٩٢٩ .

واتبعنا فيها التوقيت القصير : بدء تاريخ الأسرات فى آخر القرن الأربعين قبل الميلاد ، سنة ٣٢٠٠ . ولا يمكن الاعتماد على هذه التواريخ قبل حكم هساماتيك الأول ، أى فى مطالع الأسرة السادسة والعشرين . أما قبل ذلك ، فقد يخطئ المؤرخون التقدير ، وبخاصة فى الحقبات الأولى ، بضع عشرات ، أو مئات من السنين .

والتقسيم إلى أسرات من عمل الكاهن مانيتون السمنودى ، الذى عاش لثلاثمائة عام قبل الميلاد ، والغالب أن كان من كهنة هليوبوليس ، وألف تاريخه فى ثلاثة كتب ، أيام بطليموس الثانى [فيلادلفوس] ، ألفه باليونانية وسماه مذكرات مصرية « إچپسياكا أبومناتا » . ولم يكن المصريون يؤرخون إلا لحكم الملك الواحد ، حسب أعوام حكمه ، ولا يتابعون تاريخهم فى سلسلة متصلة . أما التقسيم إلى عهود ، أو دول ، أو إمبراطوريات فمن عمل المؤرخين المتأخرين ، لمجرد حسن العرض ، وسهولة المراجعة .

الدولة القديمة

[٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق . م .]

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٢٠٠ - ٢٧٨٠

الأسرة الأولى والأسرة الثانية تؤلفان العهد الطينى ، أو الطينيسى ، نسبة إلى العاصمة القديمة فى طينة أو طينيس ، التى يظن أن موقعها إلى الشمال

الغربي من جرجا ، مكان قرية البرباء ، شمالي بيت خلاف ، والمحاسنة .
أول الملوك منيس ، أو منا ، أو مينا ، منشئ « السور الأبيض » — حائط
العجوز ؟ — وهو حصن أنشئت في موضعه مدينة منف فيما بعد . وعثر الأثريون
على قبور لبعض ملوك الأسرتين في أبيدوس [العراة المدفونة] قرب البلينا .

الأسرة الثالثة ٢٧٨٠ — ٢٧٢٠

نقل زوسر عاصمته إلى منف ، وبني في موضع سقارة الهرم المدرج ليدفن
فيه . وفي عهده أنشئت أقدم المصاطب . سنفرزو [سوريد العرب ؟] باني
هرم ميدوم ، وهرم دهشور .

الأسرة الرابعة: ٢٧٢٠ — ٢٥٦٠

خوفو ، أو خيوبس ، صاحب الهرم الأكبر .
ددف — رع ، هرمه في أبي رواش
خضرع أو خفرن ، باني الهرم الثاني بالجيزة
منقرع ، أو منقـوـرع ، صاحب الهرم الثالث بالجيزة
شيسسكاف : مدفون بما يعرف بمصطبة فرعون ، إلى الجنوب من سقارة ،
في الطريق إلى دهشور .

الأسرة الخامسة: ٢٥٦٠ — ٢٤٢٠

أوسر كاف : هرمه في سقارة
سهورع

نيوسر رع

أوناس أو أونيس أو أونوس : آخر ملوك الأسرة ، هرمه في سقارة ،
واكتشف فيه ماسبرو أول متون الأهرام .

الأسرة السادسة: ٢٤٢٠ — ٢٢٧٠

تيتي ، أو أطويس

أهرامهم بسقارة

فيوبس الأول

مرنرع

نفر كارع

الفترة المتوسطة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة: ٢٢٧٠ - ٢١٠٠

مجهولة التاريخ ، ويظن أن الأسرة الثامنة حكمت في منف ، ولكن ملوكا آخرين ، من الأسرة التاسعة والعاشرة حكموا في هرقلوبوليس . ومكانها ، فيما يظن ، إهناسيا المدينة ، أو أم الكيمان . اسمها المصرى هات - نن - نسوت ، والقبطى إهنس ، وتبعد نحو ستة عشر كيلومتراً إلى الغرب من بنى سويف .

الدولة الوسطى

[٢١٠٠ - ١٧٠٠ ق . م .]

الأسرة الحادية عشرة: ٢١٠٠ - ٢٠٠٠

عصر أمراء طيبة ، امتدوا بسلطانهم إلى الكور المجاورة ، ثم إلى كل الكور شمالاً وجنوباً ، والاسم الغالب على ملوكها : منتوحوتب ، ملوكها تغلبوا على ملوك هرقلوبوليس .

الأسرة الثانية عشرة: ٢٠٠٠ - ١٧٩٠

عصر بناء ، وفنون وآداب ، أعظم العهود المصرية رخاء
 أمينمحت الأول : مدفون بهرم فى لشت
 سنوسرت الأول : أو سيزوستريس الأول ، دفن فى هرمه بلشت
 أمينمحت الثانى : دفن فى هرمه بدهشور
 سنوسرت الثانى : صاحب هرم اللاهون
 سنوسرت الثالث : هذا هو سيزوستريس العظيم فى تاريخ هيرودوتس ،
 وهرمه فى دهشور .

أمينمحت الثالث : صاحب هرم هواره ، وبانى المعبد الكبير بمدخل
 منخفض الفيوم ، وسمّاه الإغريق اللابيرانت .
 ومنظم خزن المياه بالفيوم .

أمينمحت الرابع
الملكة سبك - نفرو

الأسرة الثالثة عشرة ١٧٩٠ - ١٧٠٠
يحمل ملوكها اسم سبك - حوتب ؟

الفترة المتوسطة الثانية

الأسرات من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة: ١٧٠٠ - ١٥٥٥
مأساة التاريخ المصرى القديم . أسرات غير معروفة ، ربما كانت تحكم
فى وقت واحد فى أمكنة مختلفة . ويغلب أن يكون ملوك طيبة من الأسرة السابقة
استطاعوا أن يتابعوا حكمهم فى الجنوب ، بينما كان يحكم ملوك الأسرة الرابعة
عشرة فى خويس (سخا) .
وقضى غزو الهكسوس على الأسرتين . وحكم البرابرة الآسيون مصر بالحديد
والنار ، من عاصمتهم فى أواريس ، فى موضع صان ، إلى الشمال من فاقوس .
ويؤلف الهكسوس الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، ويبدو أن
أمراء من طيبة ظلوا يحكمون فى الجنوب كأتباع للهكسوس ، وقبورهم اكتشفت
فى دراع أبى النجا ، بوادى طيبة .
أما الأسرة السابعة عشرة فهى التى أنجبت محرر مصر من الهكسوس الملك
أحمس [أحموزى] ، فاتح أواريس . وأحمس هذا هو ابن أول ملوك هذه
الأسرة المسمى سكنن - رع ، وأخو ملكها الثانى كيماوزى .

الدولة الحديثة

[١٥٥٥ - ٧١٢ ق . م]

عهد الإمبراطورية العظمى ، والفتوحات الآسيوية ، والتوسع فى بلاد أعالى
النيل . تأثرت الحضارة فى حكم تحوتمس الثالث بمؤثرات أجنبية نتيجة اتصاها
بشعوب الشرق الأدنى . عصر سلطان طيبة وثرائها وبذخها .

الأسرة الثامنة عشرة: ١٥٥٥ - ١٣٥٠

أمينوفيس الأول ، أو أمينحوتب
تحوتمس الأول أو تحوتموزى ، قاهر أعلى النوبة . قبره فى بيان الملوك ،
وأول قبور ملوك الأسرة هناك .

تحوتمس الثانى

حتشبسوت ، سيدة الدير البحرى

تحوتمس الثالث ، قيصر الدولة القديمة ، أعظم ملوك مصر قاطبة

أمينوفيس الثانى ، أو أمينحوتب

تحوتمس الرابع ، أول من عني بتمثال أبى الهول بالحيزة ، وأزال عنه الرمال تحقيقاً
لما رآه فى حلمه ، وهو مضطجع بين ذراعى من كان يظنه إله الشمس هارما خيس .
أمينوفيس الثالث ، أو أمينحوتب : لهذا هو « ممنون » الإغريق ،
وزوجته « تى » أم أخناتون ، وصاحب الصلات الوثيقة مع أمة « الميتانى » ،
على ضفاف الفرات الأعلى . باني معابد الأقصر والكرنك والنوبة ومعبد
الخناترى كان بمدينة « هابو » ، لم يبق منه سوى « القولوسات » المعروفة باسم
صنى ممنون .

أمينوفيس الرابع وزوجته نفرتيتى : هذا هو الثائر الأول فى التاريخ ،
وصاحب ديانة الواحد آتون ، ومحطم أصنام طيبة . غير اسمه الآمونى إلى
آخن - آتون [عبد قرص الشمس] ، وبني عاصمته الجديدة فى موقع تل
العمارة حالياً أمام ملوى ، واسمها آخت - آتون [أفق قرص الشمس] .
توت عنخ - آمون : الملك الشاب المرتد إلى ديانة الأجداد ، العائد إلى
طيبة .

الأسرة التاسعة عشرة: ١٣٥٠ - ١٢٠٠

هورمحب قائد الجيوش ونائب الملك ، أعاد السلام إلى الربوع ، وأكمل
القضاء على آثار عبادة الشمس ، أخناتون .

رمسيس الأول

سيتى الأول : حارب الليبيين والحيثيين ، وثبت أقدام الإمبراطورية .

باني معبد أبيدوس ، ومعابد بالقرنة والكرنك .
 رمسيس الثاني : أشهر ملوك مصر القدماء . عاد إلى حرب الحيثيين ،
 وصالحهم على اقتسام سورية ، محتفظاً بفلسطين .
 يكاد نصف المعابد المصرية القائمة حالا ينسب إليه بناؤها ؛ وأعظمها معابد
 أبي سنبل والكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس . عاصمته
 في تانيس ، ولكن طيبة لم تتقهقر عن عظمتها .
 منفتح أو مرفتاح : حارب الليبيين وشعوب البحر والإثيوبيين ، وله معبد
 جنازى في طيبة .

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ - ١٠٩٠

ست - نخت : أعاد السلام إلى الربوع
 رمسيس الثالث : قاهر الليبيين ، والمدافع عن الحدود ضد البرابرة من
 آسيا ومن البحر . ثم قضى بقية حكمه ، نحو واحد وعشرين عاماً ، في سلام .
 باني معبد مدينة هابو وقصورها . بالغ في إغداق العطايا والخيرات على معبد
 آمون .

رمسيس الرابع - حتى رمسيس الثاني عشر : سلموا ذقونهم لكهنة آمون
 هريهور ، كاهن طيبة الأكبر : استولى على الملك بعد موت آخر الرعامسة .

الأسرة الأولى بعد العشرين : ١٠٩٠ - ٩٤٥

قاوم أمراء تانيس حكم هريهور المغتصب ، وأسسوا الأسرة الأولى بعد
 العشرين [أسرة بسونس وأمينمحبوت] . عهد مضطرب ، خرجت فيه
 النوبة وفلسطين على الحكم المصري . وفي أيام هذه الأسرة تمكن كاهن من
 أشباه هريهور من السيطرة على مصر كلها بعد زواجه بأميرة من الأسرة
 التانيسية .

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ - ٧٤٥

ملوك هذه الأسرة من أصل ليبي ، من أفخاذ المشاوشة ، وهي قبيلة ليبية
 من أهم القبائل التي كانت تؤلف فرقاً من الأجناد المرتزقة في الجيش المصري .
 وانزوت طيبة أمام العاصمة الجديدة في بوباسطيس .

شيشونق ، وهو شيشاك التوراة : قهر التانيين ، واستولى على اورشليم ،
وخرب معبد سليمان حوالى ٩٣٠ قبل الميلاد . ثم أسوركون ، وشيشونق الثانى إلخ .
الأسرة الثالثة والعشرون ٧٤٥ - ٧١٨ .

أسرة لا يعرف عنها إلا القليل : تف - نخت ، أمير صا ومنف ، حاول إقامة
حكمه فى الدلتا ، ولكنه غلب على أمره أمام بعانخى ملك إثيوبيا الذى
أغار على مصر ودخل منف .

الأسرة الرابعة والعشرون ٧١٨ - ٧١٢ .

حاول واحد من نسل ملوك تانيس ، هو بوكوريس بن تف - نخت ،
أن يستقل بالدلتا ، ولكن ملك كوش (إثيوبيا) قهره وأسره وأحرقه حيًّا ،
وبذلك تم للكوشيين الاستيلاء على مصر وتأسيس الأسرة الإثيوبية .

العصر المتأخر

[٧١٢ - ٣٣٢ ق . م]

الأسرة الخامسة والعشرون الإثيوبية : ٧١٢ - ٦٦٣

شباكو أو سباكون ، ثم شباتاكا
طهارة ، وهو ترهافة التوراة : ساعد أمراء سورية وفلسطين ضد الآشوريين ،
ولكن هؤلاء استداروا إليه وقهروه ، بقيادة ملكهم أسارهادون سنة ٦٧٠ ،
واستولوا على منف ، وخضع لهم أمراء الصعيد . بيد أن انشغال الآشوريين
بحرب بابل وإيلام ، كانت فرصة انتهزها بساماتييك أمير سايس [صالحجر] ،
بمساعدة المرتزقة الإغريق ، وطرد الآشوريين ، ووجد المملكة تحت حكمه .

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ - ٥٢٥

عود إلى الرخاء وبعض العز القديم ، بفضل الاتصالات التجارية بالإغريق
وعناية الملوك والشعب بالمثل العليا فى الفن والأدب ، كما تلقوها عن عصر
الدولة القديمة والدولة الوسطى .

بساماتييك الأول : أمير صا ، الذى قاد الثورة ضد الآشوريين وطردهم
نخاو : غزا سورية وهزم جيش يوشع ملك اليهودية فى موقعة مجدو ، ثم انهزم

المصريون في موقعة كركيمش على الفرات عندما استدار إليهم بختنصر ملك بابل فأجلاهم عن سورية وفلسطين . ونخاو صاحب البعثة البحرية التي قامت من البحر الأحمر وخرجت إلى بحر الهند ، ودارت حول الطرف الجنوبي من أفريقيا ، واتجهت شمالاً إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق [أعمدة هرقل عند اليونان] . ثم عادت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض . وقد جاءت أخبارها في كتاب هيرودوتس .

وبدأ نخاو حفر قناة تصل بين الفرع الشرقى للنيل وخليج السويس .

بساماتيك الثانى

أپريس أو وه - لب - رع ، أو « هو فرات » التوراة . حاول استرجاع سورية ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام بختنصر الذى فتح أورشليم سنة ٥٨٧ . أمازيس : قائد ليبي أقصى الملك أبريس عن العرش ، وتزوج ابنة لبساماتيك الثانى ، وكانت سبيله إلى الملك . وأسكن أمازيس الإغريق مدينة نوكراتيس التى نمت بسرعة حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية فى الشرق الأدنى بساماتيك الثالث : هزمه قمبيز ملك الفرس فى فيلوزيوم [الفرما] على الحدود المصرية ، سنة ٥٢٥ ق . م .

الأسرة السابعة والعشرون [فارسية] : ٥٢٥ - ٣٣٨

حكم الفرس : وجه قمبيز حملة فى الصحراء الليبية ، فابتلعها الصحراء ، وحملة أخرى ضد الإثيوبيين .

داريوس الأول : أتم قناة نخاو من النيل إلى البحر الأحمر . بنى فى عهده معبد لآمون بالواحات الخارجة .

ثار المصريون على الحكم الفارسى بعد أن وصلتهم أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق فى موقعة ماراثون ، ولكن أكسرسيس الأول أخذ الثورة ، وولى أخاه أميراً [شتربة] على مصر .

وفى حكم أرتاكسرسيس الأول نشبت ثورة مصرية جديدة لم تنجح ؛ واصلب إناروس زعيم الثورة ، وكان أمير منطقة مريوط .

زار هيرودوتس مصر بعد سنة ٤٤٩

داريوس الثانى : تدهور الحكم الفارسى ، وثار المصريون للمرة الثالثة ، واستقلوا من عام ٤٠٤ حتى ٣٤١ ، وحكمهم ملوك منهم ، أدرجهم مانيتون فى الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين .

الأسرتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون : ٤٠٤ - ٣٧٨

أمورطيوس حكم فى « صا » حكما قصيرا ، وكانت أسرات أخرى تتنازع الحكم فى البلاد ؛ ثم جاءت أسرة من منديس [منديد فى القرون الوسطى ، قرب تمى الإمديد ، بموضع يعرف بتل القصر] ، وتولت الحكم بمساعدة المرتزقة الإغريق . وملوكها نفيريتس وأخورييس وبسافوتيس إلخ .

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ - ٣٤١

نكتانيبوس الملك : عاصمته سبينيتوس [سمنود] ، وكان ملكاً قوياً ، بنى معابد فى فيلى ، ومدينة هابو ، وصرحا فى الكرنك .

نكتانيبوس الثانى : بنى معبداً كبيراً لإيزيس فى [بهيت الحجرية ، قرب ميت عساس] وهى « هيت » فى لغة القدماء ؛ وأقام صرحا فى الكرنك . عودة الفرس : ٣٤١ ق . م

وعاد الفرس إلى مصر ، فهرب آخر ملوكها ، نكتانيبوس الثانى إلى إثيوبيا وانهال الفرس فى هذه المرة على مصر تخريباً وسلباً ونهباً .

العصر الإغريقى

[٣٣٢ - ٣٠ ق . م]

عرف إدوارد ماير هذا العهد بقوله : « فى حكم البطالسة عاد وادى النيل الأدنى ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، مركزاً لمملكة من أغنى الممالك وأقواها وأكثرها رخاء ، يحكمها ملوك موهوبون ، فى أول الأمر . بيد أن خلفهم الطالح المنحل ، يحارب الأخ منهم أخاه ، نزلوا بها إلى الحضيض ، ولم يكن لمصر حياة إلا بفضل روما ، حتى وجدت نفسها وسط معترك العالم الرومانى ثم انتهت كدولة مستقلة » .

٣٣٢ - ٣٢٣

الإسكندر الأكبر : أبدى تسامحاً نحو الديانة المصرية ، وسافر إلى واحة سيوة ، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله .
 وأنشأ الإسكندرية إلى جانب قرية صيادين تحمل اسم « رقودة » [راكوتيس] ، فما عثمت حتى أصبحت - بفضل البطالسة الأوائل - مركزاً للثقافة الإغريقية وللتجارة العالمية . وبعد موت الإسكندر ، تفككت الإمبراطورية المقدونية ،

٣٢٣ - ٢٨٥

وتقاسمها قواده ، فكانت مصر من نصيب بطليموس الأول [سوتر] ، أبوه لاجوس ، وتعرف أسرته باسم الأسرة اللاجيدية . بدأ حكمها « شربة » ، أى نائباً للملك ، حتى موت الإسكندر الثاني سنة ٣١١ ، وارتقى عرش مصر سنة ٣٠٥ . منشئ الموزيون [مدرسة الأسكندرية] ، ومدينة بطوليمائس بالصعيد ، ومكانها الحالى قرية المنشا ، أو المنشية ، فيما بين سوهاج وجرجا .

٢٨٥ - ٢٤٦

بطليموس الثانى [فيلادلفوس] : بلغت مصر فى عهده ذروة توسعها الخارجى ، وسميت مديرية الفيوم باسم أخته - زوجته ، الملكة أرسينوى . استجلب الفيل من الصومال ، واستؤلف لأغراض عسكرية . ألف الكاهن المصرى مانيتون السمنودى تاريخ الأسرات الفرعونية ، باللغة اليونانية .

٢٤٦ - ٢٢٢

بطليموس الثالث [إورجيتس] : غزا مملكة السلوقيين فى آسيا الصغرى ، وتقدم لفتح بابل ، ولكنه قفل راجعاً إلى مصر ليعالج ثورة محلية ، فاسترد السلوقيون ما فقدوه . وفى عهده حاول الكهنة المصريون تصحيح التقويم بإضافة يوم كل أربع سنوات ، ولم يتم لهم ذلك ، كما ظهر فيما يعرف بمرسوم كانوب ، الذى عثر عليه سنة ١٨٨١ ، فى كوم الحصن [بين دمنهور وإيتاى البارود] وفى تانيس سنة ١٨٦٦ . وهو مكتوب باللغة المصرية فى صورتها الهيروغليفية والديموطيقية ، وباللغة اليونانية . أصدره مجمع الكهنة فى كانوب فى السابع

عشر من شهر طوبة سنة ٢٣٨ ق . م ، فى حكم إورجيتس هذا ، ليمجدوا اسم الملك الذى أعاد الأصنام المصرية من آسيا ، ونشر السلام فوق الربوع ؛ ويقترحون فى المرسوم تعديل التقويم حتى يقع عيد إورجيتس فى اليوم الأول من العام ، كما اتفق له سنة إصدار المرسوم .

٢٢٢ — ٢٠٣

بطليموس الرابع [فيلوپاتور] : بدأ انحلال الدولة فى عهده ، مع أنه هزم أنطيوخوس الأكبر فى موقعة رفح ، وكان هذا الملك يهدد الحدود المصرية .

وتزعم أمراء طيبة فى عهده ثورات جعلتهم فى حكم المستقلين فى الجنوب .

٢٠٣ — ١٨١

بطليموس الخامس [إبيفانس] : تولى العرش طفلاً ، تحت وصاية شرذمة من الأوغاد ، فانهزها فرصة ملكا سورية ومقدونية [أنطيوخوس وفيليب الخامس] ، واقتطعا من مصر أملاكها ، فلم يبق لها غير برقة وقبرص . ووضعت الأسرة بطليموسها الصغير تحت حماية مجلس شيوخ روما [السناتو] ، وعمت الثورات ، واضطربت شئون الحكم .

١٨١ — ١٤٦

بطليموس السادس [فيلوميتور] : تولى الملك تحت وصاية أمه كليوباترة ، وغزا أنطيوخوس مصر ، ودخل منف ، ولكن الرسول الرومانى اضطره إلى الجلاء . واستدعى الشعب بطليموس التاسع [أبا كرش] ليحكم إلى جانب فيلوميتور ، فدب الخلاف بينهما ، وهرب فيلوميتور إلى روما ، وأعاد مجلس الشيوخ الرومانى إلى العرش وحده ، وأعطيت لأبي كرش ولاية برقة .

١٤٦ — ١١٧

بطليموس السابع ، ابن السادس : حكم ثم ترك الحكم لخلفه . بطليموس التاسع (أبو كرش) : حكم وحده ، باسم إورجيتس الثانى ، ثم طارده ثورة ، فذهب إلى قبرص ، وحكمت زوجته كليوباترة ، ثم عاد إلى العرش ، وبعد وفاته سنة ١٢٧ ، حكمت أرملته وابنها .

بطليموس العاشر [سوتر الثانى] ، وهذا هو بطليموس لاتيروس [حمص] ،
وطورد فقام بدله :

١٠٦

بطليموس الحادى عشر (إسكندر الأول) .

٩٦

وقُدِّمت برقة هدية إلى روما ، فتحولت إلى إيالة رومانية .

٨٨

وعاد بطليموس حمص بعد أن طاردت الثورة إسكندر الأول . وفى عهده
ثار أمراء طيبة وفشلوا ، فدمرت طيبة .

٨٠

بطليموس الثانى عشر : كان يعيش فى روما ، فلما علم القائد سيلا بأن
كليوباترة — برنيقة تولت العرش ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، أوعز إلى
الأمير بالسفر إلى الأسكندرية ليتزوج الملكة ، فتزوجها وقتلها بعد أسبوعين
من الزواج ، وحكم وحده ، وثار الإسكندريون عليه فقتلوه فى الملعب الكبير .

٨٠ — ٥١

بطليموس الثالث عشر ، أو ديونسيوس الجديد ، المكى بعازف الناي
[أوليتس] ، أى الزمار . وهو أبو كليوباترة المشهورة . اقتطعت روما قبرص
من مصر ، فطارد الإسكندريون الملك الزمار ، وأعادته روما إلى العرش .
وفى عهده تم إنشاء معبد إدفو ، وبدئ فى إقامة معبد الإلهة هاتور فى دندرة .

٥١ — ٤٧

تولت كليوباترة الشهيرة ، وأخوها بطليموس الرابع عشر-العرش ، تحت
وصاية مجلس شيوخ روما . ولكن الغلام طرد أخته ، وحكم وحده بمعونة ثلاثة
من الأوغاد . والتجأ القائد بومبيوس الأكبر ، بعد هزيمته فى فارساليا ، إلى
مصر . فاستقبله أمام فيلوزيوم هذا الغلام وأوصياؤه الأشرار . وذبح بومبيوس فى
القارب الذى حملة من السفينة ، قبل أن يصل إلى الشاطئ ، وعلى مرأى من
زوجته ورجاله على السفينة ، ومن الغلام الغادر وأوصيائه فى البر .

نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية ، وناصر كليوباترة على أخيها ، الذى حاول العودة إلى عرشه ، فقهرته جنود قيصر وغرق في النيل . وعندما عين قيصر دكتاتوراً في روما ، عين أخاً ثانياً لها شريكاً في الحكم هو :

بطليموس الخامس عشر ، وهو حدث ابن أحد عشر عاماً ، وقتل هذا بتدبير أخته ، التى أقامت طفلها من قيصر (قيصار يون) شريكاً لها ، وهو :

بطليموس السادس عشر .

قتل الجمهوريون يوليوس قيصر في مجلس الشيوخ الرومانى .

استدعى مارك أنطونيوس كليوباترة إلى طرسوس بكليكييا ، بحجة تقديم حساب سياسى له ، ووقع أسير غرامها ، وعاشا حياة استهتار وتبذل أعواماً طويلة ، حتى انتهى الأمر بأن أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، وقرر مجلس الشيوخ أن أنطونيوس عدو الوطن . وقاد أكتافيانوس قيصر ، حفيد يوليوس ، جيش روما وأسطولها ، وهزم أسطول أنطونيوس في موقعة أكتيوم ، وبعد عام ، ابتولى على الاسكندرية ، وانتحر انطونيوس بالسيف ،

العهد الرومانى

[٣٠ ق . م - ٣٩٥ ميلادية]

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصاً للإمبراطور أغسطس قيصر [أكتافيانوس] يوفد إليها مندوباً من قبله . وتابع الإمبراطور سياسة البطالسة في ممالة الكهنة المصريين ، وما كان أسرع هؤلاء إلى اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة . وكان أول الولاة الرومانيين الشاعر كورنيليوس جالوس ، وبدأت ولايته بثورة مصرية في الصعيد . وفي عهد أغسطس قيصر بدأ

العمل بالتقويم المصرى المعدل [اليولياني] .

٢٤ - ٢٣ ق . م .

غزت كنداسة ملكة الإثيوبيين مصر سنة ٢٤ ق . م ، وطاردها الوالى

الرومانى بطرونيوس .

١٤ - ٣٧ ميلادية

الإمبراطور طباريوس : وفى عهده رفع المسيح إلى السماء (٣٠ م ؟)

٣٧ - ٤١

كاليجولا ، الإمبراطور المجنون .

٤١ - ٥٤

كلاوديوس [أقلاديوس] : بدئ فى عهده بناء معبد إسنا ومعبد فى فيلى

٥٤ - ٦٨

نيرون

٦٩ - ٨٠

فسباسيان : أعلن إمبراطورا فى الإسكندرية ، ومن هناك قام ابنه طيطس

بفتح فلسطين ، وهدم أورشليم ومعبدها الكبير .

٨١ - ٩٦

دومطيانوس قيصر : أقام عبادة إيزيس وسيرايس فى روما

٩٨ - ١١٧

ترايانوس : أعاد فتح قناة نخاو - داريوس ، بين النيل والبحر الأحمر ،

باسم « آميس ترايانوس » .

١١٧ - ١٣٨

أدريانوس : زار مصر عام ١٣٠ م ، واصطحب صفيه الأمرد أنطونوس ،

وغرق الشاب فى النيل ، فأنشأ الإمبراطور مدينة أنطنوبوليس أو أنطنوى

[فى موضع الشيخ عبادة حالا على الشاطئ الشرقى للنيل ، فى مواجهة الروضة ،

إلى الشمال من ملوى] . وزارها مرة أخرى بصحبة الإمبراطورة ، وكانت معهم

السيدة بلبله ، شاعرة البلاط ، فسجلت زيارة الأسرة الإمبراطورية لقولوسات

ممنون بقصيدة حفرت على ساق أحد التمثالين .

١٣٨ - ١٦١

أنطونينوس بيوس : في عهده كان بطليموس العالم الفلكي والجغرافي [صاحب المجسطى] يتابع دراساته بالإسكندرية (حوالى سنة ١٥٠ م) .

١٦١ - ١٨٠

ماركوس أوريليوس ، الإمبراطور الفيلسوف الرواقى : في عهده قامت ثورة « رعاة البقر » فى « بوقوليا » ، إلى الشرق من الإسكندرية . وزار أوريليوس الإسكندرية سنة ١٧٦ م .

١٨٠ - ١٩٢

قومودوس : أنشأ الأقباط فى عهده المدرسة الكاتشائية أو الديدسقيلية [سنة ١٩٠] وقد اشتهرت فى العالم المسيحى بفضل أساتذتها الأوائل بنطائينوس ، واكليمانضس ، وأورييجانوس .

١٩٣ - ٢١١

سبتيميوس ساويرس : انتشرت المسيحية فى الوجه البحرى ، وبدأت الاضطهادات

٢١١ - ٢١٧

كاراكلا : زار مصر ، ودارت المذابح فى الإسكندريين .

٢٤٩ - ٢٥١

دقيوس : اضطهاد المسيحيين مستمر .

٢٦٠ - ٢٦٨

جالينوس : خف الاضطهاد ، وأصبحت مصر بوباء . وفى عهده أعلن الجند الرومانى بالإسكندرية ماكرينوس إمبراطوراً ، ثم هزم وقتل ، وأعلن الجنود مرة ثانية بالإسكندرية إميليانوس إمبراطوراً ، فهزم وقتل .

٢٦٨

ووجدت الملكة زنوبيا ، أميرة تدمر ، فرصة مؤاتية لغزو مصر ، فدخلتها واحتلت الوجه البحرى .

كما احتل البليميون [أجداد البجاوين ومن إليهم] بعض الصعيد .

٢٧٠

ولكن القائد بروبوس أعاد مصر إلى الحضيرة الرومانية .

٢٧١

أنبا أنطونيوس ، منشئ الرهبنة القبطية .

٢٨٤ — ٣٠٥ .

دقلديانوس (ديوقليسيانوس) : ثار الصعيد في عهده ، وهاج شعب الإسكندرية ، فجاء الإمبراطور بنفسه ، وتولى أقصى اضطهاد روماني للمسيحيين المصريين . عصر الشهداء يؤرخ من وقته .

٣٢٠

أنبا باخوم ينشئ أول دير قبطي في طبانا .

٣٢٤ — ٣٣٧

قسطنطين الأكبر ، أول الإمبراطرة الحانين على المسيحية ، وقد اعتنقها .

٣٢٥

وفي عهده نشأت هرطقة آريوس ، وقضى عليها مجمع نيقيا .

٣٢٨

أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ، هازم الأريوسية .

٣٣٠

بيزنطة تصبح عاصمة الإمبراطورية ، باسم روما الجديدة ، أوقسطنطينية بدء استيطان رهبان القبط لوادي الإسقيط و برية شحات [بوادي النطرون] .

٣٥٠

تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية حوالى هذا التاريخ .

٣٦١ — ٣٦٣

الإمبراطور المارق يوليانوس : ارتد عن المسيحية ، والغالب أنه لم يعتنقها ، إذ ربي تربية هيلنستية ، فما إن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته .

تنيح البطريك العظيم أثناسيوس .

٣٧٩ — ٣٩٥

ثيودوسيوس الأكبر : أعلن المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، واضطهد الوثنيين ، والمسيحيين الأريوسيين . وبدأ هجوماً على المعابد المصرية القديمة بهدم الصنم الكبير بمعبده سيرايس بالإسكندرية .

٣٩٥

انقسام الإمبراطورية الرومانية : أركاديوس على الشرق ، وأونوريوس على الغرب .

العهد البيزنطى

[٣٩٥ — ٦٤٠ م .]

٤١٢

كيرلس الأول : يرقى كرسى الكرازة المرقسية . ويغلب أن يكون هو المحرض على قتل أجمل أستاذة للفلسفة فى التاريخ : هيباسيا بنت الرياضى ثيون . تربص بها الرهبان والصبوات وقتلوا رجماً ، وسحلوها حتى صحن الكنيسة ، حيث قطعوا جسمها إرباً إرباً ، انتقاماً من تعمقها الفلسفة الوثنية !

٤٣١

كما هزم أثناسيوس آريوس ، هزم كيرلس هرطقة نسطوريوس ، بطريك القسطنطينية فى مجمع إفسوس الأول [المجمع المسكونى الثالث] .

٤٤٩

مجمع إفسوس الثانى : يكرهه الكاثوليك ، ويطلقون عليه اسم « مجمع اللصوص » ، لأن البطريك المصرى ديوسقوروس انتصر على معارضيه بوسائل يعدونها غير كريمة . وبذلك فازت عقيدة الطبيعة الواحدة القبطية ، لوقت قصير ، فى العالم .

مجمع خلقدونيا [المجمع المسكوني الرابع] : هزيمة ديوسقوروس والكنيسة المصرية ، وفوز عقيدة الطبعيتين [وهى ركن إيمان الكنائس الشرقية والكاثوليكية البابوية] ، وشلح ديوسقوروس ، أو على الأقل إبعاده عن كرسى الإسكندرية . وجاء ذلك نتيجة لتكاتف جهود البابا ليون الأكبر صاحب « طومس لاون » ، والإمبراطور البيزنطى ماركيانوس . وبذلك انفصلت الكنيسة القبطية عن كنائس الشرق والغرب إلى اليوم .

٥٢٧ - ٥٦٥

يوستينيانوس المقتن : أجرى تقسيمات إدارية جديدة بمصر ، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال موحدة ، بل كان كل حاكم إقليم مستقلا بجيشه ، مما ساعد على انهيار الجحافل الرومانية المشتتة أمام فرسان العرب .

٦١٠ - ٦٤١

الإمبراطور هرقل : وفى حكمه تم للفرس ، أيام كسرى الثانى [سنة ٦١٩ م] فتح مصر ، واستطاع هرقل ، بعد موت كسرى ، التغلب عليهم وطردهم سنة ٦٢٦ .

٦٢٢

هجرة النبي العربى ، خاتم الأنبياء والرسل ، فى السنة الأولى للتقويم الإسلامى .

٦٣٢

انتقال سيد المرسلين إلى الرفيق الأعلى ، وخلافة أبى بكر الصديق .

٦٣٤

بدء الفتوحات الإسلامية : فتح سورية ، ووفاة أبى بكر ، وخلافة عمر ابن الخطاب .

٦٣٦

ظفر المسلمين بالروم فى يوم اليرموك . فتح دمشق .

٣٦٨

٦٣٧

انتصار المسلمين الساحق على الفرس في موقعة القادسية ، وسقوط المدائن
[اكتسيفون] ، ونهاية الأكاسرة الساسانيين .

٦٣٨

فتح بيت المقدس ، واستقبال منشيء قبة الصخرة ، ثاني الخلفاء الراشدين ،
عمر الفاروق .

مصر الإسلامية

[٦٤٠ م — إلى ما شاء الله]

٦٤٠

فتح مصر بسيف عمرو بن العاص وفرسان العرب .

٦٤١

تسليم المقوقس قوروش حصن بابلون [قصر الشمع] للقائد العربي المنتصر .
وإنشاء جامع عمرو .

٦٤٢

إنشاء القسطنطينية معسكراً للعرب ، وحاضرة للمحضر الإسلامي الجديد ، وسقوط
الإسكندرية في أيدي العرب بعد حصار طويل .

٦٤٥

عودة الإسكندرية إلى الروم .

٦٤٦

أعاد عمرو فتح الإسكندرية .

٦٥٦

مقتل ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان ، على إثر ثورة بدأت في
مصر .

٦٥٦ — ٦٦١

خلافة علي بن أبي طالب ، وقيام الحرب بينه وبين معاوية ، ودخول مصر

في حكم الأمويين سنة ٦٥٨ .

٧٥٠ - ٦٥٨

دولة بني أمية وعاصمتها دمشق ، وقد حرصوا على أن لا تخرج ولاية مصر من أعضاء الأسرة الأموية .

٧٤٤ - ٧٥٠

التجاء مروان الثاني ، آخر الأمويين ، إلى مصر ومقتله فيها ، ودفنه بأبي صير الملك ، إلى الشمال الغربي من أشمنت .

٧٥٠ - ٨٦٨

دولة بني العباس في بغداد . وهروب عبد الرحمن الأموي إلى الأندلس ، وخلافته بقرطبة [سنة ٧٥٦ م] . ثورات المصريين الأقباط .

٨١٣ - ٨٣٣

المأمون في مصر لإخماد ثورة المصريين الأقباط وعصيان البدو . بدء انتشار اللغة العربية بين المصريين جميعاً .
تغلب الأجناد الترك في بلاط العباسيين .

استقلال مصر الإسلامية

[٨٦٨ - ١٥١٧ م]

الدولة الطولونية

[٨٦٨ - ٩٠٥ م]

٨٨٣ - ٨٦٨

أحمد بن طولون يستقل بمصر وسوريا حتى حدود العراق . المسجد الجامع الذي بناه ابن طولون فريد في العمارة الإسلامية .

٨٨٣ - ٨٩٥

خمارويه بن أحمد بن طولون . لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلال مصر فعادت إلى حكم العباسيين [٩٠٥ - ٩٣٥]

٩٢٥

هجوم فاشل للفاطميين على مصر .

الدولة الإخشيدية

[٩٣٥ - ٩٦٩ م]

٩٣٥ - ٩٤٦

محمد بن طغج الإخشيد ، حاكم من أصل فرغانى : استقل بمصر .

٩٦٦ - ٩٦٨

كافور الحصى الحبشى يحكم مصر وصيًا على أولاد الإخشيد ، ثم يحكم باسمه تابعاً للعباسيين ، فى مصر وفلسطين وسوريا . وبعد موته يحكم أحمد الإخشيد ، حفيد مؤسس الأسرة ، ولم يبلغ سن الرشد ، وينتهبها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها .

الدولة الفاطمية

[٩٦٩ - ١١٧١ م]

٩٦٩

جوهـر الصقلى ، قائد المعز ، يفتح مصر وينشئ القاهرة عاصمة لمصر بعد الفسطاط والعسكر والقطايع .

٩٧٠

إنشاء الجامع الأزهر .

٩٧٣ - ٩٧٥

وصول المعز إلى القاهرة ومعه رفات أسرته ، ونقل خلافته إليها ، ووفاته بها .

٩٧٥ - ٩٩٦

العزیز بن المعز ، صديق العلم والعلماء . رخاء مصر فى عهده .

٩٩٦ - ١٠٢١

الحاكم بأمر الله ، ابن العزیز من أم نصرانية : ملك مجنون متعصب

سفاح . انتحل لنفسه نحلة درزية وتألّه ، وأسس داعيته ، درزى ، طائفة الدروز . مقتل الملك المشعوز ، وهو فى تجواله الليلى بجبل المقطم ، بتدبير أخته ست الملك ، وإخفاء رمتة . مما اتخذ الدروز ذريعة فى نشر خرافة ارتفاعه إلى السماء ، هروباً من شرور هذا العالم [والعالم هو الذى تخلص من شره وإجرامه !] وسيعود إلى الأرض يوماً ، قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

١٠٢١ - ١٠٣٦

الظاهر ابن الحاكم : تولى الخلافة الفاطمية وهو ابن ستة عشر عاماً ، تحت وصاية عمته ست الملك ، حتى عام ١٠٢٤ .

١٠٣٦ - ١٠٩٤

المستنصر : إمعة ، سيئ الطالع . غاب النيل عن مصر سبع سنوات ، فنزلت بمصر أشد المجاعات ، وتداولها القحط والطواعين ، وثار الجند من الترك والبربر ، وعاثوا فساداً ، ودمروا القصر ، ونهبوا تحفه ، وأفنوا مكتبته . واستطاع الأرمنى بدر الجمالى ، وزير الخليفة الإمعة ، إعادة الهدوء والنظام ، وبنى أسوار القاهرة وأبوابها ومسجد الجيوشى .

١٠٩٤ - ١١٠١

المستعلى ابن المستنصر : فتح بيت المقدس وبلاد الشاطئ السورى . ثم انتزعها منه جيش الصليبية الأول .

١٠٩٩

الملك بلدوين الصليبي ، صاحب مملكة أورشليم المسيحية : حاول غزو مصر وفشل ، ومات بالبوءاء على رمال شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالى سيناء . ويسميه مؤرخو العرب « بغدوين » و « بردويل » ، وهو أصل اسم بحيرة البردويل المشهورة إلى اليوم بمصايد سمك البورى ، وتحضير البطارخ من حيتانه .

١١٦٠ - ١١٧١

العاظم آخر الفاطميين : تنازع على الوزارة بين ضرغام وشاور . والتجأ

شاور إلى نور الدين صاحب دمشق ، فأعادته إلى مركز الوزارة ، بمعونة الأجناد الكرد ، تحت قيادة شيركوه وصلاح الدين يوسف آل أيوب . ولما اختلف شاور مع الأكراد ، استعدى عليهم أمالريق [أمورى] الأول ، الملك الصليبي فدخل هذا مصر ، وطارد الأكراد وحاول — كما هي عادة رجال العصابات — أن يستغل وساطته في الاستيلاء على مصر . فاستجار الأخرق الحائن شاور بنور الدين ، وأحرق القسطنطينية [نوفمبر ١١٦٨] حتى لا يستولى عليها أمالريق أو أمورى [وهو عمورى المؤرخين العرب] .

وجاء شيركوه وصلاح الدين فطاردا الصليبي إلى خارج البلاد ، وقضيا على شاور بالموت ، وتولى شيركوه الوزارة حتى وفاته (١١٦٩) . فتولاها بعده صلاح الدين يوسف ، وحكم باسم آخر خلفاء الشيعة حتى وفاة هذا الخليفة ، ثم ارتقى عرش مصر وأسس دولة جديدة ، أعادت إلى مصر حكم السنة .

الدولة الأيوبية

[١١٧١ — ١٢٥٠ م]

١١٧١ — ١٢٠٠

أعظم ما يلفت النظر في حياة صلاح الدين الأيوبي ، أنه وهو سلطان مصر ، باني قلعة الجبل ، وأسوار القاهرة ، والذي اجتث المذهب الشيعي من مصر وأقام علوم السنة ، لم يزد لبثه بقاعدة ملكه أكثر من ثمان سنوات . أما العشرون عاماً الباقية فما كاد يغمد فيها حسامه وينزل عن جواده ، مقاتلاً في سبيل عقيدته . يندفع كالشهب بين فلسطين وسورية وما بين النهرين ، يحرق المعتدين بناره ، ويضرب الصليبيين في بطولة وأريحية كانت مضرب المثل ، بين الأعداء قبل الأصدقاء ، في فروسية العصور الوسطى .

١٢٠٠ — ١٢٩٨

الملك العادل ، أخو صلاح الدين : استطاع المحافظة على تماسك الدولة

بعد ما حدث من تنازع ومشاحنات عقب موت البطل الأعظم . ويجب أن يذكر للسلطانة ، أم ابنه الملك الكامل ، ذلك الأثر الجميل من آثار القاهرة : مقام الإمام الشافعى .

١٢٩٨ - ١٢٣٨

الملك الكامل : صاحب المنصورة أنشأها سنة ١٢٢١ ، بعد أن دافع عن دمياط ضد الصليبيين الجرمان والنيرلنديين [الصليبية الخامسة] ، الذين استولوا على ذلك الثغر ، وكان يقع إلى الشمال من موقع دمياط الحالى ، وباعوا سكانها بيع الإماء ، ونهبوا متاجرها وآثارها ، وحولوا مساجدها إلى كنائس . ثم اضطروهم الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١ . فلما نزل لويس التاسع إلى البر ليحتلها سنة ١٢٤٩ [الصليبية السادسة] ، غادرها سكانها عن بكرة أبيهم ، ودخلها فرسان الصليب نحاوية على عروشها ، وكأنهم يدخلون جبانة لا مدينة أحياء . وقد دفعوا ثمن صليبيتهم غاليا فى المنصورة ، وكان إجلاؤهم عن دمياط ، أو إجلاء من بقى منهم حيا ، بعض الثمن الذى دفعوه فدية للقديس المحارب ، المحبوس فى بيت لقمان .

١٢٣٨ - ١٢٤٠

الملك العادل الثانى .

١٢٤٠ - ١٢٥٠

الصالح أيوب ، صاحب قلعة الروضة ، مهد المماليك البحرية : توفى عندما بدأ فرسان الصليبية السادسة [بقيادة لويس التاسع] يتحركون من دمياط متجهين إلى المنصورة . وأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته عن جيش المماليك الصالحية ، حتى لا يتفاشلوا ؛ وواصلوا المعركة بقيادة أبطاهم بيبرس وقطر وفارس الدين أقطاي . ثم وصل :

١٢٥٠

طورانشاه ، فسلمته شجرة الدر سلطنة أبيه ، وقاد المعركة إلى نهايتها الظافرة . ولكنه بعد الحرب لم يعرف الطريق إلى قلب ممالك أبيه ، فقتلوه .

دولة المماليك البحرية

[١٢٥٠ - ١٣٨٢ م]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والددة خليل » ابن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوما ، ثم تزوجت واحدا منهم هو :

١٢٥٧ - ١٢٥٠

عز الدين إيبك التركماني ، ثاني سلاطين المماليك البحرية . ولأق حثفه بتدبير أم خليل ، ولاحقته في العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ - ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقداري : قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صادات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريقة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « إعمل برقلك ، فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك » . وخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوما ، فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلا : عزلت نفسى ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه . . . كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبني الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه ، سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ - ١٢٩٠

المنصور قلاوون : حارب المغول وصدهم ، وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أراحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به ، وكانوا من أعظم البناة في تاريخ مصر منذ عهد الأسرات .

١٢٩٠ - ١٢٩٣

الأشرف خليل : قضى على آخر حصن صليبي في الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا ، سنة ١٢٩١ .

١٢٩٣ - ١٣٤٠

الناصر محمد بن قلاوون : أعظم سلاطين المماليك ؛ تولى الملك وهو ابن تسع سنين ، وطورد من الملك أكثر من مرة ، وعاد إليه أقوى سنداً ، وأكمل شخصية . وأشهر أمراء هذا السلطان هو الأمير عماد الدين أبو الفداء ، صاحب حماة ، العالم المؤرخ والجغرافي الأشهر في تاريخ العلوم العربية [توفي سنة ١٣٣١] . وكان الناصر بناء عظيماً . وجميع ما ترك من آثار تعد في مقدمة كنوز القاهرة . هذا والسور المائي الكبير ، فيما بين فم الخليج والقلعة ، المعروف بسور السبع سواقي ، من آثار الناصر محمد .

١٣٠٣

حدثت زلزلة مشهورة ، هدمت غير قليل من مباني القاهرة .

١٣٤٧ - ١٣٦١

السلطان حسن هو الابن السادس للناصر محمد . ربما نسي الناس الوباء الفظيع الذي نزل بمصر إبان حكمه ، فيما بين سنتي ١٣٤٨ و ١٣٤٩ ، ولكنهم يذكرون له أعظم أثر مصري في القرون الوسطى : وهو مسجده ، بأول سوق الخيل . وإذا سألتني عما أضع من الآثار المصرية في أول القائمة أجبتك : معبد سيتي الأول بأبيدوس [العرابة المدفونة] ، ومسجد السلطان حسن أمام قلعة صلاح الدين .

ومات صاحب المسجد قتيلاً شر قتلة . وستطالع كثيراً من مقتلات هؤلاء السلاطين ، وقلَّ من مات منهم على فراشه ، وبعضهم ألقيت جثته في ساقية ، أو فوق تل من القمامة !

دولة المماليك الجراكسة

[١٣٨٢ - ١٥١٧ م]

١٣٨٢ - ١٣٩٩

آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحرية كان الغلام حاجى ، وسنه ست سنوات . وكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسى برقوق ، فأزاح الغلام عن كرسى المملكة ، وغضب الأمراء وطرّدوا برقوق ، ولكنه عاد بعد سنة . وكانت السلطنة المصرية بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، لأن جنساً جديداً من برايرة أواسط آسيا ، من المغول بقيادة تيمور الأعرج (لك) بدأ يزحف على الشرق الأدنى . فدفع برقوق غائلته ، ثم أتبع ذلك بمحاربة الغازى بايزيد الأول ، خان العثمانيين . وكان برقوق بناء عظيم .

١٣٩٩ - ١٤١٢

السلطان فرج : حدث فى الثالثة عشرة من عمره ، ابن برقوق : تولى السلطنة ، والعمانيون يهددون ولايات مصر الشمالية ، وسافر فرج حتى بلغ دمشق ، وإذا بأمرائه الثائرين يضطرونه إلى العودة إلى القاهرة . وفى هذه الأثناء يكون تيمور لك قد هزم العثمانيين فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ . وتلجأ السلطنة المصرية إلى مفاوضته ومصانعته . ولكن أيام الفتى فرج أصبحت معدودة ، حتى قضى عليه الأمراء ، وعلى رأسهم الأمير شيخ الحمودى .

١٤١٢ - ١٤٢١

السلطان المؤيد شيخ ، صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة ، بداخل باب زويلة : وكان المؤيد من أشد الملوك اضطهاداً لغير المسلمين ، وقد حكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص ، وعمامات سود ، وبحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب تغل فى رقابهم . وكانت أكثر تجريداته ضد أمرائه فى سورية .

١٤٢٢ - ١٤٣٨

الأشرف برسباى : أزاح الطفل ابن المؤيد شيخ ، وسافر يحارب فى قبرص ، ويجاهد ضد المغول .

١٤٦٨ - ١٤٩٦

قايتباى : آخر السلاطين العظام سياسة وجهاداً ، قاوم قوى العثمانيين الصاعدة المنقضة - أيام سلاطينها الغزاة محمد الفاتح وبايزيد الثانى - بفضل قائد عسكره الأمير أذربك . وجامع أذربك كان يقوم على حافة منخفض الأذربكية ، وقد أنشئ فى ذكرى انتصاره على العثمانيين . هدم هذا المسجد سنة ١٨٦٩ ، فى حكم إسماعيل . وما أكثر ما هدم من مساجد أثرية فى عهد إسماعيل ! ونظم مسيو بارييه ، مدير حدائق باريس حديقة الأذربكية فى مساحة عشرين فداناً . وهى الحديقة التى عرفناها فى أواخر عزها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال ، فندور فى الحديقة نقضم أطرافها ، وننتف ريشها ، ونقتلع أشجارها ، حتى أمست أشلاء خضراء ، وسط خضم من السيارات والأتوبيسات ولقايتباى أكثر من مسجد ، ولكن مدفنه بالقرافة تحفة من أروع التحف ، حرصنا على أن تبقى تربة ضمن التراب !

١٥٠١ - ١٥١٦

ها نحن نقرب بقلوب واجفة من نهاية تاريخ مصر المستقلة : يعتلى العرش السلطان الشهيد قانصوه الغورى ، الوحيد من بين كل أولئك السلاطين يموت فى حومة الوغى ، مدافعاً عن سلطنته فى مروج الشام ، إلى الشمال من حلب . لقد صعد إلى الكرسي بعد أن أوفى على الستين ، وكان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الطويل إلى الهند ، حول جنوب أفريقيا ، فقصوا على المركز التجارى الممتاز الذى كان لمصر ، وأخذوا يهددون بلاد المحيط الهندى وجنوبى البحر الأحمر ، بيد أن السلطان الشيخ لم يقف مكتوف اليدين ، بل جهز أسطولاً يحارب البرتغاليين فى بحار الهند ، ويكسرهم فى موقعة « شول » إلى الجنوب من بومباى سنة ١٥٠٨ . وهذا الخطر الجنوبى لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لخطر الشمال : فسلم بن بايزيد زاحف على حدود الإمبراطورية المصرية فى شمال سورية . وقد خرج الغورى لمحاربتة . فاندحرت الجيوش المصرية فى « مرج دابق » ، وساعد على اندحارها خيانة بعض أمراء السلطان . وإبان المعركة ، مات السلطان وهو على جواده . وقبته ومسجده بالغورية يتيان من جثمانه ، إذ لم تعرف له جثة من بين الآلاف الذين قتلوا فى المعركة

ولم يبق لطومان باى ، آخر سلاطين المماليك ، إلا أن يقاتل حرب الساقة بأرباض القاهرة ، وأن يثيرها على سليم حرباً فى شوارع القاهرة ، وينتهى أمره بالأسر فالشنق على باب زويلة .

وتتحول مصر إلى إيالة عثمانية ، « عثمانلى باشاليك » ، يحكمها ، نائباً عن السلطان سليم ، الأمير خاير بيك أو خاين بيك فى لغة المصريين . وينقل الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى إسطنبول حيث يبقى حتى موت سليم سنة ١٥٢٠ ، ويعود « المسكين لله » إلى القاهرة ، وفيها يلاقى ربه ، بعد أن أقام العثمانيون فى إسطنبول خرافة تنازله عن الخلافة لآل عثمان وهى الخلافة التى محا كمال أتاتورك أثرها من فوق الأرض فى مارس سنة ١٩٢٤ .

مصر الحديثة

[١٥١٧ - ١٩٥٦ م]

لفهم الحكم العثمانى يجب إدراك حقيقة أساسية ، وهى أنه تدهور سريعاً جداً فى مصر ، بسبب نظام فى الإدارة هو الاختلال بعينه ، ولأن الباشوات الولاة كانوا فى غالبيتهم قليلى الخبرة ، طماعين ، ملوثين خلقياً ، حتى من كان منهم على شىء من الخلق اضطرت طريقتهم « تقديم الحساب » ، بعد نهاية ولايته القصيرة — من عام إلى عامين ، ولا حساب هناك يعتد به — عند ما تحمل ذمته بمبالغ ليست فى الحسبان ، ولم تدر فى خلد ، أن « يعمل حساب » المستقبل بما يقبضه شر النائبات .

ولأن أمراء المماليك استعادوا سلطانهم الفعلى على البلاد دون أن يخضعوا لمصلحة عليا .

لهذا استحال الباشوات وأمراء المماليك وجيش الاحتلال العثمانى [الوجاقات] إلى منسر من قطاع الطرق . وكان البيكوات المماليك هم كشف الأقاليم [أى مديريها] وجامعى ضرائبها ورؤساء الجند فيها . ويتولى زعامة المماليك كباران منهم :

شيخ البلد وأمير الحج . واختلطت الوجاقات العثمانية بأخلاط من أجناد المماليك وغيرهم من حثالات الشرق الأدنى ، بل كان الأغاوات ، أى قواد الفرق ، يدرجون فى قوائم وجاقاتهم أسماء لا وجود لها ، طمعاً فى زيادة العلوفة والجماكى .

والصورة التى بقيت لنا من تلك « العصور المظلمة » حقاً ، صورة مهزوزة سوداء فى احمرار داكن ، تبدو فيها من هنا وهناك أضواء جهنمية ، تؤكد حقيقة الحياة المصرية فى ذلك الزمان . كانت شيئاً أشبه بجحيم دانتي فى أقصى طوابقه .

١٧٦٨

على بيك الكبير ، البروفة الأولى لمحمد على باشا : مملوك استقل تماماً بحكم مصر عن السلطنة واستولى على سورية ،

١٧٧٣

حتى خانه مملوكه محمد بيك أبو الذهب ، ونجح فى القضاء عليه ، واستولى على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشاهانية .

وبعد موته ، تقاسم السلطة زعيان كبيران وشيخان من شيوخ المنصر المملوكى : مراد بيك المحمدى ، وإبراهيم بيك المحمدى ، نسبة إلى محمد بيك أبى الذهب .

١٧٩٨

وفى بين أول يولية والثانى منه ، سنة ١٧٩٨ ، اقتحم جيش « الجمهور الفرنساوى » بقيادة سارى عسكر بوناپارته ، أسوار الإسكندرية دون مقاومة تذكر ، وتقدم إلى شبريس وهزم مراد بيك ، وبلغ إنابة وكسر جموع المماليك فى موقعة إنابة المشهورة باسم موقعة الأهرام ، فى الواحد والعشرين من يولية ، ودخل القاهرة ، وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصى الصعيد ، حتى تم « للجمهور الفرنساوى » — أى الجمهورية الأولى للثورة الفرنسية — الاستيلاء على الإيالة المصرية فيما بين يناير ومايو ١٧٩٩ .

١٧٩٨

ثورة القاهرة الأولى ضد فرنساوية : نشبت وأخذت فيما بين ١٣ و ١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وجاء اندلاع لهيبها عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسي في جونة أبي قير في أول أغسطس ١٧٩٨ .

١٧٩٩

وبعد عام من معركة أبي قير البحرية ، عاد بونابرت سرّاً إلى فرنسا في ٢٤ أغسطس ١٧٩٩ .

١٨٠٠

وجاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين ، وهزمهم كليبر في العشرين من مارس سنة ١٨٠٠ ، بالمطرية . ثم قتل سليمان الحلبي الجنرال كليبر في حديقة بيته في ١٤ يونية ١٨٠٠ ، وتولى القيادة الجنرال عبد الله منو ، لينتهي بتسليم .

١٨٠١

القاهرة والإسكندرية في سبتمبر ١٨٠١ ، وبالجملاء هو وجنده نهائياً عن مصر . وقد عاد الفرنسيون إليها في نوفمبر ١٩٥٦ لبضعة أيام قضوها في بورسعيد ، ثم خرجوا منها على وجوههم عفرها الحزى والشار . وكان في ضباط الحملة العثمانية ضابط مقدوني من قولة ولد سنة ١٧٦٩ ، وكان يفخر بأنه من مواليد العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت بأجاكسيو من أعمال كورسيكا .

وعينه الوالى خسرو باشا كولونيل [سرشمة] ؟ للفرقة الألبانية حتى يعينه على أجناد المماليك . ولكن محمد على لم يجيء إلا لمعونة نفسه ، على حساب المماليك ، والباشوات العثمانيين ، والشعب المصرى نفسه فيما بعد . وانتهى به الحال إلى أن يلبسه الشيخة المصريون كرك الولاية ، وعلى رأسهم الرجل الطيب أكثر من اللازم ، نقيب الأشراف عمر مكرم .

١٨٠٥

وصعد محمد على إلى القلعة سنة ١٨٠٥ ، وبدأ حكمه بطرد السيد عمر

مكرم من القاهرة ، ثم بمصالحة المماليك حتى يتخلص من الاحتلال البريطاني للإسكندرية .

١٨٠٧

ولما حاول الإنجليز العودة إلى مصر ، عن طريق احتلال رشيد ، أجلاهم شعب هذه المدينة الباسلة في أبريل سنة ١٨٠٧ .

١٨١١

وقتل محمد علي ٤٨٠ أميراً مملوكياً في داخل القلعة ، وقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون إلى الحجاز لحرب الوهابيين . وإذا بأبواب القلعة تقفل ، وفرسان المماليك محصورون في المنحدرات الضيقة المتجهة إلى الباب . وطاح الألبانيون فيهم ضرباً بالرصاص فالسلاح الأبيض ، وذلك في أول مارس سنة ١٨١١ .

١٨١٩

وقضى محمد علي على سلطة الوهابيين سنة ١٨١٩ ، وقد تولى قيادة الحملة المصرية ابنه طوسون أولاً ، ثم ابنه ، وقيل ابن زوجته ، إبراهيم ، وحن الوقت ليتخلص محمد علي من عصاباته الألبانية ، فأرسلها للحرب في فيافي النوبة والسودان . وقد بدا له أن « النظام الجديد » في الجندية يسمح له بحشد أولاد الفلاحين تحت قيادة ضباط أجانب من كل ملة ولون وجنس . وأثبت هذا الجيش بقيادة إبراهيم — وبشهادته — قدرة فائقة على القتال . ولكن أول المواقع التي خاضها أول جيش مصري منذ عهد الأسرات

١٨٢٤ — ١٨٢٧

كانت لمساعدة العثمانيين على مقاومة الشعب اليوناني الباسل ، هب في وجه مستعمره البرابرة ، ينتزع منهم استقلاله . وانتهت تلك المواقع — ولا فخر — بإخماد ثورة التحرير اليونانية !

ودمر الأسطول المصري في موقعة نافارين ، وقد انحصر بين أساطيل روسيا وبريطانيا وفرنسا .

١٨٣٢ - ١٨٣٣

وانقلب الذى كان يساعد أسياده حتى سنة ١٨٢٧ ، إلى عدو لهم يضرب ظهورهم ، بعد هزيمتهم الكبرى أمام الروس فى حرب ١٨٢٨ - ١٨٢٩ .
فقد خرج الجيش المصرى يفتح سورية وآسيا الصغرى بقيادة إبراهيم باشا ،
وتألبت الدول العظمى على مصر ، وفرضت على محمد على معاهدة كوتاهية
سنة ١٨٣٣ .

١٨٣٩

ثم قام السلطان محمود - الذى أطلق محمد على اسمه على ترعة المحمودية -
لمحاربة محمد على ، عندما رآه يتوغل فى جنوبى الجزيرة العربية .
وإذا إبراهيم ينقض على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، ويهزمهم فى موقعة
« نزيب » إلى الغرب من نهر الفرات الأعلى .

١٨٤١

وتعود جيوش إنجلترا والنمسا لتملى إرادتها على محمد على . وقد خضع وسلم
للباب العالى سنة ١٨٤١ ، وذهب فى أحسن بزة إلى إسطنبول يركع ويسجد ،
ويقبل يد سيد المايين ، وخليفة رب العالمين ، ظل الله على الأرض !
ولا يبقى للألبانى المغامر سوى مصر ، شفاللك له ، ولأكبر أفراد أسرته من
بعده ، إلا بعض شروط تبعية ، منها جزية سنوية قدرها ثمانون ألف كيس
[أى ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ ألف جنيه] . ويصاب الجبار بالعتة فى
أخريات أيامه ،

١٨٤٨

فيتولى الحكم ابنه ، أو ابن زوجته ، إبراهيم لبضعة أشهر ، حتى وفاته
قبل أبيه سنة ١٨٤٨ .

١٨٤٩ - ١٨٥٤

يتولى عباس الأول باشوية مصر ، وهو ابن طوسون بن محمد على . ويموت
محمد على فى صيف ذلك العام ، ويكون حفيده قد شرع فى تبطيط ما حرثه

جده ، والقضاء على بواقي الخير من أعماله وإصلاحاته . وينتقل إلى السودان
باعث النهضة الفكرية في مصر رفاعة الطهطاوى ورفاقه ، ومنهم نابغة نوابغها ،
بيومى أفندى .

ويموت عباس الأول مقتولا بيد جماعة من أخصائه ، ورفقاء متعته ، فقد
كان مصابا بلوثة جنسية .

١٨٥٤ - ١٨٦٣

ويتولى سعيد ، الشاب السمين المترف ، هاوى المظاهرات العسكرية في البر
والبحر ، وقد تربى تربية بحرية . وكان شاباً عصرياً ، بدأ في زمانه زحف
المغامرين الأوربيين وغيرهم ، وعلى رأسهم فردينان دى لسبس الشاب الأنيق
الممشوق القوام ، الذى كان يجيد الرقص وركوب الخيل ، واستغلال صداقة
الباشا . وقد حصل من سعيد على امتياز الشركة العالمية لقناة السويس .
ويمتد خط القاهرة الإسكندرية الحديدى ، ويعود الجيش المصرى لمساعدة
الباب العالى في حرب القرم .

١٨٦٣ - ١٨٧٩

اسماعيل الأفخم ، الابن الثانى لإبراهيم ، وقد أوفد إلى فرنسا ليتعلم ، فكان
كأبناء الذوات الفاسدين ، بروقة أولى لحفيده الملك المعظم . لم يحصل في فرنسا
إلا على قشور الحضارة الغربية ، ولذلك اتسمت أعماله بالتظاهر والفخفة ،
وبذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد . وينجح في الاستيلاء على خمس
الأراضى المترعة لنفسه ، دون أسرته . ويشترى سنة ١٨٦٦ ، بفلوس المصريين ،
حق بقاء كرسى الولاية في أولاده . وفي السنة التالية يشتري ، من نفس المصدر ،
لقباً فارغاً أهم ما فيه لكنته التركية « خديو » . أما معناه فلا يتعدى قولك نائب
السلطنة في مصر !

وينثر الذهب كأنه « ملححة في عين اللى ما يصلى عالنبى » على حفلات
افتتاح قناة السويس ، بطريقة لم يعرف لها التاريخ شبيهاً في السفه . ثم يشتري
قسماً من استقلال مصر يسمح له بشيء هام جداً : وهو حق استدانة ما يشاء
ممن شاء . وترتفع الجزية المصرية إلى ٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، ويبلغ بجيشه ثلاثين

ألف رجل يرسلهم لفتح أعالي النيل حتى حدود الحبشة وحتى خط عرض ٢ درجة شمالى خط الاستواء . ويتضخم الدين أصلاً « وفوائظ » ، حتى يبلغ فى آخر حكمه مائة مليون جنيه ، فيحجز على أملاكه ، وتفرض عليه وزارة يتولاها أرمنى ، وزير ماليتها بريطانى ، ووزير الأشغال فيها فرنسى . ولكن الحديويلعب بذيله ، ويحاول أن يهرب من وفاء الدين ، فيعين وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ ، من وراء ظهر الدول المستعمرة التى لبست لبوس المرابين ، فتضيق صدورها به ، وتطالب الأستانة بعزل الحضرة الفخيمة الحديوية ، وتنزل ورقة الرفتيه على ولى النعم نزول الصاعقة . ويتولى الحكم بدله ابنه توفيق ، وهو كالحمل الوديع ، اشتراه الذئب الأوربيون ليأكلوه فى عيدهم الكبير .

١٨٨٢

وجاء هذا العيد صباح ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، احتفلت به بريطانيا بإطلاق مدافع أسطولها على طوابى الإسكندرية ، وغير طوابيها ، ونزلوا بالمدينة فى اليوم التالى بملابس العيد الحمراء والبيضاء ثم استدارت الجيوش البريطانية واعتدت على حياد القناة المزعوم ، وظفرت بجيش عرابى بالتل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ، وكان قد قضى ليلته ، قبل الموقعة ، هو وجنوده ، فى الأذكار ، بحسبان أن البريطانيين ما زالوا . . . على مدد الشوف . ودخل جيش الاحتلال لحماية الحمل الوديع محمد توفيق ، من الغول المصرى الذى قاده أحمد عرابى لتحرير مصر من ربة الجراكسة والأرنؤد . ونسى عرابى القائمة الطويلة من مصاصى دماء المصريين ، وأن الأمر خرج منذ زمن طويل من أيدي أسرة محمد على إلى الدائنين والمستعمرين والمستغلين . وحوكم زعيم الوطنية المصرية ، ونفى إلى سيلان ، وعاد منها شيخاً محطماً عام ١٩٠١ ، ومات بالقاهرة سنة ١٩١١ .

١٨٨٣

وفى عام ١٨٨٣ يتولى حكم مصر الفعلى ، تحت اسم قنصل بريطانيا الجنرال ، المدعو إيثلن بيرنج ، وهو الذى اشتهر فى تاريخ الاستعمار باسم

اللورد كرومر ، بطل دنشواى السفاح . وكان رجلاً مصلحاً من النوع الذى عرفته مصر منذ عهد محمد على ، أى عبقرياً ينظم شئون البلاد كأن أهلها قطعان من الماشية ، يعملون لحساب حضرة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا ، وإمبراطورة الهند ، وحساب الدائنين .

١٩٠٢

وكان كل هم كرومر أن يزيد من حصيلة البلاد ، باعتبارها شفا لك للمستعمرين . وكان أعظم عمل قام به ، بعد تنظيم المالية والإدارة هو بناء خزان أسوان ، الذى احتفل بافتتاحه فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ . ولم يبق علىّ فى استعراض هذه الصفحة السوداء من تاريخ مصر إلا أن أشير إلى جهاد بطلين من أبطال الوطنية المصرية ضد الاحتلال : مصطفى كامل ومحمد فريد . وقد مات الأول فى عنفوان رجولته ، وحمل محمد فريد راية الجهاد ، وذهب بها إلى أوروبا وقد أعلنت الحرب العظمى الأولى . وسقط بطل الوطنية الثانى بعيداً عن وطنه . وكانت الظواهر كلها تنبئ بأن الوطنية برد أوراها ، وقد تمت البلاد من أبطالها صرعى ومنفيين . وأعلنت بريطانيا زوال السيادة التركية عن مصر ، وأقامت بدلها الحماية البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وفى اليوم التالى ، قررت عزل الحديو عباس حلمى بن محمد توفيق ، وأعلنت عمه حسين كامل سلطاناً على مصر .

١٩١٧

وبعد وفاته تولى أخوه باسم حضرة صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد .

١٩٢٢

وفى ٢٨ فبراير أعلنت بريطانيا زوال الحماية ، واعترفت باستقلال مصر [كذا كذا كذا !] وعندما وافق البرلمان البريطانى على ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير ، وكان ذلك فى ١٥ مارس ، رقى فؤاد من سلطان إلى ملك ، باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول .

١٩٢٣

وفى أبريل سنة ١٩٢٣ ، منح جلالته « شعبه العزيز » دستوراً ، لم يتنبه (٢٥)

الناس حيثئذ إلى صدوره في شهر أبريل .

* * *

١٩١٨

لقد سئمت الخوض في تلك الأحداث ، وأن لي أن أختتم هذه العجالة متلمساً ضوء الأمل ، أشرفت به نفوس المصريين عندما تولى سعد زغلول ، ابن فلاح من مطوبس ، زعامة الوطنية المصرية ، وجاهد في سبيل استقلال مصر من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى وفاته في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وقد دفعته

١٩١٩

إلى الأمام ، ودفعها ، ثورة الشعب المصري عن بكرة أبيه ، في مارس سنة ١٩١٩ . والقليل الذي حصلت عليه مصر في الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة . أما الذي حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية ، هو جامعها المصرية ومصرفها الوطني أسسه محمد طلعت حرب ، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثالثون ، هم ذلك الجيل الصاعد الذي نشأ في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، ورأى بعينه ، وأحس بكل جوارحه ، كيف باءت تلك الثورة بالخيبة على أيدي الملك وأعوانه ، وأصحاب المصالح ، من كل لون وصنف ، يتواطئون مع المحتل ومع رأس المال الأجنبي ، ويسيطرون بتلك النهضة الحضارية الرائعة في الدرب الضيق الذي أقاموا له حدودا وسدودا باسم « التقاليد » ، حتى وقفوا في مدى ثلاثين عاما إلى أن يخضعوا أعظم حركة شعبية في تاريخ مصر الحديثة لأغراضهم ، ويسخروها لمنافعهم . فأنهت إلى مهزلة في شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع ، على أيدي آخر ملوك أسرة محمد علي .

١٩٥٢

ثم تطلع الشمس ، بعد ذلك الفجر البعيد في مارس سنة ١٩١٩ ، ذات صباح من يولية ١٩٥٢ ، فيعرف المصريون أن ثورة من الضباط الأحرار ضد الملك قامت بعد منتصف ليل ٢٣ يولية ، ويندفعون لموازرتها بقوة روحية عارمة ، تنتهي بطرد آخر أفراد أسرة الأرنؤدى ، وتولية طفل يحمله أبوه في قماطه ، موليا الأدبار إلى كعبة كاهرى ، ثم إلى روما .

١٩٥٣ وما يلبث زعماء « ثورة البعث الكبرى » أن يعلنوا نهاية الملكية الزائفة ،
وليدة الاحتلال البريطاني ، وقيام الجمهورية المصرية الأولى في التاريخ ،
وذلك في يونية سنة ١٩٥٣ .

١٩٥٦ ويخرج آخر جندي بريطاني من مصر في ١٣ يونية ١٩٥٦ ، وتعود قناة
السويس إلى أهلها في ٢٦ يولية ١٩٥٦ .

ثبت المراجع

- إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى .
القاهرة د . ت [= دون تاريخ] .
- إرمان (أدولف) ودانكة (هرمان) : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ؛
ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . القاهرة د . ت .
- ابن إياس (محمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٨٩٦ - ١٨٩٨ .
بدوى (أحمد) فى موكب الشمس ؛ جزءان . القاهرة ١٩٥٠ .
- بدوى (أحمد أحمد) : رفاة الطهطاوى بك . القاهرة د . ت .
- تباى (رفائيل) : قوى التفرنج فى الشرق الأوسط . « المجلة » ، عدد سبتمبر ،
القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء
التي صدرت .
- الترك (نقولا) : ذكر ملك فرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية . باريس
١٧٣٩ .
- الجبرتى (عبد الرحمن) : عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار . القاهرة ١٩٠٤
(طبعة أهلية) .
- ابن جبير (محمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ .
- حبشى (بانوب) : شنودة الأتريبى ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .
- حسن (سليم) : مصر القديمة . الأجزاء التي صدرت . القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٥٧ .
- حسن (على إبراهيم) : مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح
العثمانى . القاهرة ١٩٥٤ .
- حسن (على إبراهيم) : دراسات فى تاريخ الممالك البحرية . القاهرة ١٩٤٨ .
- حسين (محمد كامل) : منوعات . القاهرة ١٩٤٧ .
- حمزة (عبد القادر) : على هامش التاريخ المصرى القديم . مجلدان . القاهرة
١٩٤٠ - ١٩٤١ .
- الرافعى (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ؛
ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٩ .

- الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ؛ جزءان . القاهرة ١٩٣٢ .
- روفيلا (يعقوب نخلة) : تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٨٩٨ .
- ابن زنبيل الرمال : رسالة مشتملة على غزوة السلطان سليم خان مع السلطان أبي النصر قانصوه الغورى . القاهرة ١٨٦١ .
- سامى (أمين) : تقويم النيل ؛ ثلاثة أجزاء وملحق . القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٦ .
- سرور (محمد جمال الدين) : دولة بني قلاوون فى مصر . القاهرة ١٩٣٨ .
- » » : الظاهر بيبرس ، وحضارة مصر فى عصره . القاهرة ١٩٣٨ .
- السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٨٨١
- الشرقاوى (محمود) : مصر فى القرن الثامن عشر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .
- شكرى (منير) : أثناسيوس الرسولى ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- شكرى (منير) : المسيحية وما تدين به للقبط ؛ من رسالة مارميئا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٥١ .
- صالح (عبد العزيز) : التاريخ فى مصر القديمة ، مفهومه ، عناصره ، بواعث القومية فيه . القاهرة ١٩٥٧ .
- صالح (عبد العزيز) : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة . القاهرة د . ت .
- صالح (عبد العزيز) : قصة الدين فى مصر القديمة ؛ « المجلة » ، عدد نوفمبر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- صبرى (محمد) : كتاب القناة ، أسرار قضية التدويل ، واتفاقية ١٨٨٨ . القاهرة ١٩٥٧ .
- الطهطاوى (رفاعة رافع) : تخليص الإبريز ، فى تلخيص باريز . القاهرة ١٩٥٨ .
- طوسون (عمر) : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول

- وسعيد . الإسكندرية ١٩٣٤ .
- طوسون (عمر) : الجيش المصرى فى الحرب الروسية ١٨٥٣-١٨٥٥ . الإسكندرية ١٩٣٦ .
- طوسون (عمر) : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى . القاهرة ١٩٤٠ .
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن) : كتاب فتوح مصر والمغرب . نيوهيفن ١٩٢٢ .
- ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج) : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
- عبد المسيح (يسى) : اللهجات القبطية وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- عبد المسيح (يسى) : ساويرس بن المقفع ؛ وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- عبد النور (راغب) : أوريجانوس ؛ وآثارها الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
- عبد الوهاب (حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ؛ جزءان . القاهرة ١٩٤٦ .
- فخرى (أحمد) : مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٥٧ .
- فوزى (حسين) : سندباد عصرى . القاهرة ١٩٣٨ .
- » : حديث السندباد القديم . القاهرة ١٩٤٣ .
- » : سندباد إلى الغرب . القاهرة ١٩٥٠ .
- القمص (منسى) : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ .
- كامل (مراد) : القبط فى ركب الحضارة العالمية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
- كامل (مراد) : يوحنا النقيوسى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة الإسكندرية ١٩٥٠ .
- كمال (أحمد) : العقد الثمين ، فى محاسن أخبار ، وبدائع آثار ، الأقدمين المصريين . القاهرة ١٧٧٢ .
- لييب (باهور) : الآثار القبطية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤ .

مجدى (صالح) : حلية الزمن ، بمناقب خادِم الوطن . نشر جمال الدين الشيال .
القاهرة ١٩٥٨ .

المسعودى (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الفضة . القاهرة ١٩٣٨ (طبعة
أهلية) .

المقريزى (تقي الدين أحمد) : المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار .
القاهرة ١٨٥٣ .

المقريزى (تقي الدين أحمد) : كتاب السلوك ، لمعرفة الملوك ؛ نشر محمد مصطفى
زيادة ، جزءان . القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ .

ابن المقفع (ساويرس الأشمونين) : رسالة فى الرد على أفتخىوس بن بطريق .
مكرم (موريس) : ابن كبر ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية
١٩٥٠ .

الملاخ (فتحى يونان) : كيرلس الرابع ؛ رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .

ابن مماتى (شرف الدين أبو المكارم) : قوانين الدولة ؛ نشر عزيز سوريال عطية .
القاهرة ١٩٤٣ .

ميخائيل (فايق) : كيرلس الكبير ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة .
الإسكندرية ١٩٥٠ .

ميخائيل (ملاك) : باخوميوس ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية
١٩٥٠ .

النبلسى (فخر الدين عثمان) : تاريخ الفيوم . القاهرة ١٨٩٨ .
ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ،
الإسكندرية ١٩٥٤ .

ولسون (چون) : الحضارة المصرية ؛ ترجمة أحمد فخرى . القاهرة د . ت .

- Albright (W.F.) : From the Stone Age to Christianity; "Anchor"; New York, 1957.
- Amélineau (E.) : Contes et romans de l'Égypte chrétienne; 2 vol., Paris, 1888.
- Amélineau (E.) : Vie de Schnoudé [Moines égyptiens]; Paris 1889.
- Arberry (A.) : The Contribution to Islam; "The Legacy of Egypt"; Oxford 1942.
- Atiya (A.S.) : The Crusades in the Later Middle Ages; London 1938.
- Aveline (C.) et Al. : Egypt; "Hachette World Albums"; Paris 1955.
- Aymard (A.) : La civilisation égyptienne; "Hist. gén. des civilisations; dir. Crouzet"; T. I; Paris 1953.
- Baedeker : Egypt and the Sudan, Handbook for Travellers; Leipzig 1929.
- Bainville (J.) : l'Expédition française en Égypte; "Précis de l'hist. d'Égypte" T. III; le Caire 1933.
- Band (M.) : Égypte; "les guides bleus"; Paris 1950.
- Bell (H.I.) : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest; Oxford 1948.
- Bell (H.I.) : Egypt and the Byzantine Empire; "The Legacy of Egypt."
- Blackman (W.S.) : The Fellahin of Upper Egypt; London 1927.
- Blochet (R.) : Histoire d'Égypte de Makrizi; Paris 1908.
- Boreux (C.) : Département des antiquités égyptiennes; "Musée du Louvre"; 2 vol.; Paris 1932.
- Bouvier — Lapierre (P.) : L'Égypte préhistorique; "Préc. de l'hist. d'Égypte"; T. I; le Caire 1932.
- Breasted (J.H.) : A History of Egypt; New York 1905 et 1909.
- Breasted (J.H.) : The Dawn of Conscience, New York 1933.
- Breccia (E.) : Alexandria ad Ægyptum; Bergame 1922.
- Butcher (E.L.) : The Story of the Church of Egypt; 2 vols; London 1897.
- Butler (A.) : The Ancient Coptic Churches of Egypt; 2 vols; Oxford 1884.
- Butler (A.) : The Arab Conquest of Egypt; Oxford 1902.
- Capart (J.) : La Beauté égyptienne; Bruxelles 1943.
- Capart (J.) : Egyptian Art; "The Legacy of Egypt."
- Capart (J.) et Contenau (G.) : Histoire de l'Orient ancien; Paris 1936.
- Canivet (R.) et Fort (M.) : l'Égypte, pages littéraires et d'histoire, Paris 1923.
- Carré (J.-M.) : Voyageurs et écrivains français en Égypte; 2 vol.; le Caire 1933.
- Champdor (A.) : Saladin, le plus pur héros de l'Islam; Paris 1956.
- Charlesworth (M.P.) : The Roman Empire; "Home University Library"; Oxford 1951.

- Charles-Roux(F.) : L'Egypte de 1801 à 1882 et de l'occupation française à l'indépendance; "Hist. de la nat.ég." dir. Hanoteaux,T.Viet T.V et VII; Paris 1936 et 1940.
- Chauvin (V.) : La légende égyptienne de Bonaparte; Mém. Soc. Arts et lettres du Hainaut; T. IV; Mons 1902.
- Childe (G.) : What Happened in History; "Penguin"; London 1942.
- Childe (G.) : The Prehistory of European Society; "Penguin"; London 1958.
- Colvin (A.) : The Making of Modern Egypt; London 1911.
- Combe (E.) : L'Egypte ottomane; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
- Contenau (G.) et Chapot (V.) : L'Art antique; "Hist. universelle des arts", dir. L. Réau; Paris 1930.
- Cowell (F.R.) : Cicero and the Roman Republic; "Penguin"; London 1956.
- Creed (J.M.) : Egypt and the Christian Church; "The Legacy of Egypt".
- Creswell (K.A.C.) : A Short Account of Early Muslim Architecture; "Penguin"; London 1958.
- Creswell (K.A.C.) : Islamic Architecture in Egypt; "Baedeker's".
- Cromer (E.B.) : Modern Egypt; 2 vols; London 1908.
- Cromer (E.B.) : Abbas II; London 1915.
- Dawson (C.) : The Making of Europe; London 1932.
- Dawson (W.R.) : Medicine; "The Legacy of Egypt".
- De Burgh (W.G.) : The Legacy of the Ancient World; "Penguin"; 2 vols; London 1953.
- Dehéraïn (H.) : L'Egypte turque, du XVI^e. au XVIII^e. S. L'Exp. de Bonaparte; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. G. Hanoteaux; T. V.; Paris 1934.
- Desroches-Nodlecourt (C.) : Le style égyptien; Paris 1942.
- Devonshire (Mme.) : L'Egypte musulmane et les fondations de ses monuments; Paris 1926.
- Didier (C.) : Les nuits du Caire; Paris 1860.
- Diehl (C.) : L'Egypt chrétienne et byzantine; "Hist de la nat. ég.", dir. Hanoteaux; T. III; Paris 1933.
- Driault (E.) : Mohammed Ali et Ibrahim; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III; le Caire 1933.
- Drioton (E.) : Pages d'égyptologie; le Caire 1957.
- Drioton (E.) et Lauer (J.-P.) : Sakkara; le Caire 1939.
- Drioton (E.) et Vigneau (A.) : Le Musée du Caire; Paris 1949.
- Drioton (E.) et Vandier (J.) : L'Egypte; "Clio"; Paris 1952.
- Drower (M.S.) : The Political Approach to the Classical World; "The Legacy of Egypt".

- Ebers (G.) : *An Egyptian Princess*.
- Ebers (G.) : *Uarda*; Stuttgart u. Leipzig 1879.
- Egypte (L') : *Aperçu hist. et géogr. Gouvern. et instit. Vie écon. et sociale*; le Caire 1926.
- Engelbach (R.) : *Mechanical and Technical Processes. Materials*; "The Legacy of Egypt".
- Erman (A.) : *A Handbook of Egyptian Religion*; transl. from German; London 1907.
- Erman (A.) : *The Literature of the Ancient Egyptians*; transl. from German; London 1927.
- Flaubert (G.) : *Tentation de Saint Antoine*.
- France (A.) : *Thaïs*.
- Frankfort (H.) et Al. : *Before Philosophy*; "Penguin"; London 1954.
- Gardiner (A.H.) : *Writing and Literature*. "The Legacy of Egypt".
- Gauthier (H.) : *L'Egypte pharaonique*; "Préc. de l'hist. d'Eg.", T. I; le Caire 1932.
- Ghallab (M.) : *Les survivances de l'Egypte antique dans le folklore égyptien*; Paris 1929.
- Ghorbal (M.S.) : *The Beginning of the Egyptian Question & the Rise of Mehemed Ali*; London 1928.
- Ghorbal (M.S.) : *The Making of Egypt*; Cairo s.d. (1957 ?).
- Gibbon (E.) : *A History of the Decline & Fall of the Roman Empire*.
- Glanville (S.R.K.) éditeur : *The Legacy of Egypt*; Oxford 1942.
- Grousset (R.) : *L'Egypte des Croisades*; Paris 1939.
- Hammer-Purgstall (J. von) : *Geschichte des Osmanischen Reiches*; Neue Ausgabe; Pesth 1840.
- Hanoteaux (G.) : *Introduction générale*; "Hist. de la nation égyptienne". T. I; Paris 1931.
- Hénaut (de) : *Manuel d'histoire de l'Egypte, de Ménès à nos Jours*; le Caire 1927.
- Herbelin (A.) : *La fresque égyptienne aux tombeaux des nobles à Thèbes*; Rev. conf. fr. en Orient, le Caire 1949.
- Herodotus : *History*; Rawlinson's translation.
- Herriot (E.) : *Sanctuaires*.
- Herz (Max) : *Catalogue raisonné du Musée national de l'art arabe*; le Caire 1906.
- Heyd (W.) : *Histoire du commerce du Levant au Moyen-Age*; 2 vol.; Leipzig 1886.
- Hocart (A.M.) : *The Legacy of Modern Egypt*; "The Legacy of Egypt."
- Jéquier (G.) : *Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquête d'Alexandre*; Paris 1913.

- Joinville (J. Sire de) : Histoire de Saint Louis; transl. from old French by F.T. Margials; London 1908.
- Jones (A.H.M.) : Egypt and Rome; "The Legacy of Egypt".
- Jouguet (P.) : L'Egypte gréco-romaine; Préc. de l'hist. d'Egypte", T.I.; le Caire 1932.
- Jouguet (P.) : L'Egypte ptolémaïque; "Hist. de la nat. ég."; T. III. Paris 1933.
- Kayser (E.) et Roloff (E.M.) : Histoire d'Egypte; trad. de l'allemand; Paris s.d.
- Kingsley (C.) : Hypatia.
- Lambrino (M.) Encyclopédie par l'image : l'Egypte; Paris 1930.
- Lane (E.) : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians; London 1836.
- Lane-Poole (G.) : The Art of the Saracens in Egypt; London 1886.
- Lane-Poole (G.) : Cairo, sketches on it History, Monuments & Social Life; London 1898.
- Lane-Poole (G.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London 1898.
- Lane-Poole (G.) : A History of Egypt in the Middle Ages; London 1900.
- Lange (K.) & Hirmer (M.) : Egypt; "Phaidon" Press; London.
- Legrain (G.) : Louqsor sans les Pharaons; Paris 1914.
- Leibovitch (J.) : Ancient Egypt; transl. from French; Cairo 1938.
- Lot (F.) : La fin du monde antique et le début du Moyen-Age; Paris 1927.
- Loti (P.) : La mort de Philae.
- Lucan : Pharsalia; transl. from Latin; "Penguin"; London 1956.
- Lyons (H.) : Geographical & Ethnographical Notes; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Maillet (B. de) : Description de l'Egypte; Paris 1735.
- Marcel (J.) : L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française; Paris 1848.
- Mariette (A.) : Voyage en haute Egypte; Paris 1893.
- Martin (H.) sous la dir. de: L'Art égyptien, grammaire de style; Paris 1929.
- Maspero (G.) : Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique; 3 vol.; Paris 1895-1899.
- Maspero (G.) : L'Archéologie égyptienne; Paris 1907.
- Maspero (G.) : Les contes populaires de l'Egypte ancienne; Paris 1911.
- Maspero (G.) : L'Egypte; "Ars Una"; Paris 1911.
- Maspero (J.) : Histoire des patriarches d'Alexandrie; Paris 1923.
- Maspero (J.) : Horapollon et la fin du paganisme égyptien; le Caire 1914.
- Mekhiterian (A.) : La peinture égyptienne; éd. Skira; en Suisse 1954.
- Migeon (G.) : Manuel d'art musulman; Paris 1927.

- Milne (J.G.) : A History of Egypt under the Roman Rule; London 1924.
- Montet (P.) : La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès; Paris 1946.
- Moret (A.) : Mystères égyptiens; Paris 1922.
- Moret (A.) : L'Egypte pharaonique; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. Hanoteaux; T. II, Paris 1931.
- Moret (A.) : Le Nil et la civilisation égyptienne; Paris 1926.
- Moret (A.) et Davy (G.) : Des clans aux empires; Paris 1923.
- Munier (H.) : L'Egypte byzantine de Diocletien à la conquête arabe; "Préc. de l'hist. d'Eg."; T. II; le Caire 1932.
- Musée du Caire : Description sommaire des principaux monuments; le Caire 1932.
- Nasiri-i-Khusru : Sefer-Nameh; trad. du persan; Paris 1881.
- Nerval (G. de) : Voyage en Orient; 2 vol.
- Nikiou (Jean de) : Chronique; trad. Zotenberg; Notices et extr." des manusc. de la Biblioth. nat. et autres; T. XXIV, Paris 1883.
- Oesterley (W.) : Egypt & Israel; "The Legacy of Egypt".
- O'Leary (de Lacy) : The Coptic Church and Egyptian Monasticism; "The Legacy of Egypt".
- Paton (A.A.) : A History of the Egyptian Revolution from the Mamlukes to the Death of Mohamed Aly, 2 vol., London 1870.
- Perroy (E.) et Al. : Le Moyen-âge; "Hist. gén.d. civilis.", dir. Crouzet; T. III; Paris 1954.
- Petrie (F.) : Social Life in Ancient Egypt; London 1923.
- Petrie (F.) : Arts et métiers de l'ancienne Egypte; trad. de l'anglais; Paris 1925.
- Plutarque : Vies des hommes illustres; trad. D. Ricard, Paris 1837.
- Poliak (A.N.) : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine & the Lebanon; London 1939.
- Quatremère (E.) : Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines; 2 vol. Paris 1811.
- Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte; 2 vol., Paris 1837-1844.
- Rhoné (A.) : L'Egypte à petites journées; Paris 1910.
- Roberts (C.H.) : The Greek Papyri; "The Legacy of Egypt."
- Roncière (C. de la) : Géographie de l'Egypte à travers les âges; Hist. de la nat. ég. dir. Hanoteaux, T. I, Paris 1931.
- Runciman (C.) : History of the Crusades; 3 vols.
- Sabry (M.) : L'empire égyptien sous Ismail; Paris 1933.
- Sacy (S. de) : Relation de l'Egypte par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad; Paris 1810.

- Samivel : Trésor de l'Egypte; Paris 1954.
- Sammarco (A.) : Les régnes de 'Abbas, de Sa'id et d'Isma'il; Préc. de l'hist. d'Eg. T. IV, le Caire 1935.
- Savary (C.E.) : Lettres sur l'Egypte; 3 vol.; Paris 1785-1786.
- Seidl (E.) : Law; "The Legacy of Egypt".
- Sewell (J.W.S.) : The Calender & Chronology; "The Legacy of Egypt".
- Simaika (M.H.) : Guide sommaire du Musée copte; le Caire 1937.
- Sloley (R.W.) : Science; "The Legacy of Egypt".
- Smith (W.) : History of Rome.
- Smith (G. Elliot) : The Ancient Egyptians & the Origin of Civilization; London 1923.
- Sottas (H.) et Drioton : Introduction à l'étude des Hiéroglyphes; Paris 1922.
- Steindorff (G.) : Outline of the History of Egypt. Hieroglyphics. Religion. Art; "Baedeker's"; Lepzig 1929.
- Suetonius : The Twelve Caesars; "Penguin"; London 1957.
- Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation. London 1930.
- Thurman (Cap.) : Bonaparte en Egypte; Paris 1902.
- Vandier (J.) : Egypte; peintures des tombeaux et des temples; U.N.E.S.C.O., Paris 1954.
- Vattier : L'Egypte de Murtadi, fils de Gaphiphe trad. de l'arabe; Paris 1656.
- Vaux (Carra de) : L'Abregé des merveilles; trad. de l'arabe; Paris 1898.
- Villard (M. de) : Christian Art in Egypt; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
- Volney (C.F.) : Voyage en Syrie de en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785; 2 vol., Paris 1787.
- Weigall (A.) : The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt; London 1923.
- Weigall (A.) : Alexandre le grand; trad. de l'anglais; Paris 1934.
- Wertheim (O. von) : Cléopâtre; trad. de l'allemand; Paris.
- Wiet (G.) : L'Egypte arabe, 622-1517 A.D.; "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux; T. IV; Paris 1937.
- Wiet (G.) : L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ottomane; Préc. de l'hist. d'Eg, T. II; le Caire 1932.
- Wiet (G.) : Guide sommaire du musée national de l'art arabe; le Caire 1939.
- Wilson (J.A.) : The Culture of Ancient Egypt (orig. "The Burden of Egypt") Chicago 1958.
- Worrel (W.) : A Short Account of the Copts; Michigan 1945.

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١



Bibliotheca Alexandrina



0488367